شؤون فلسطينية

٩٤

ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩

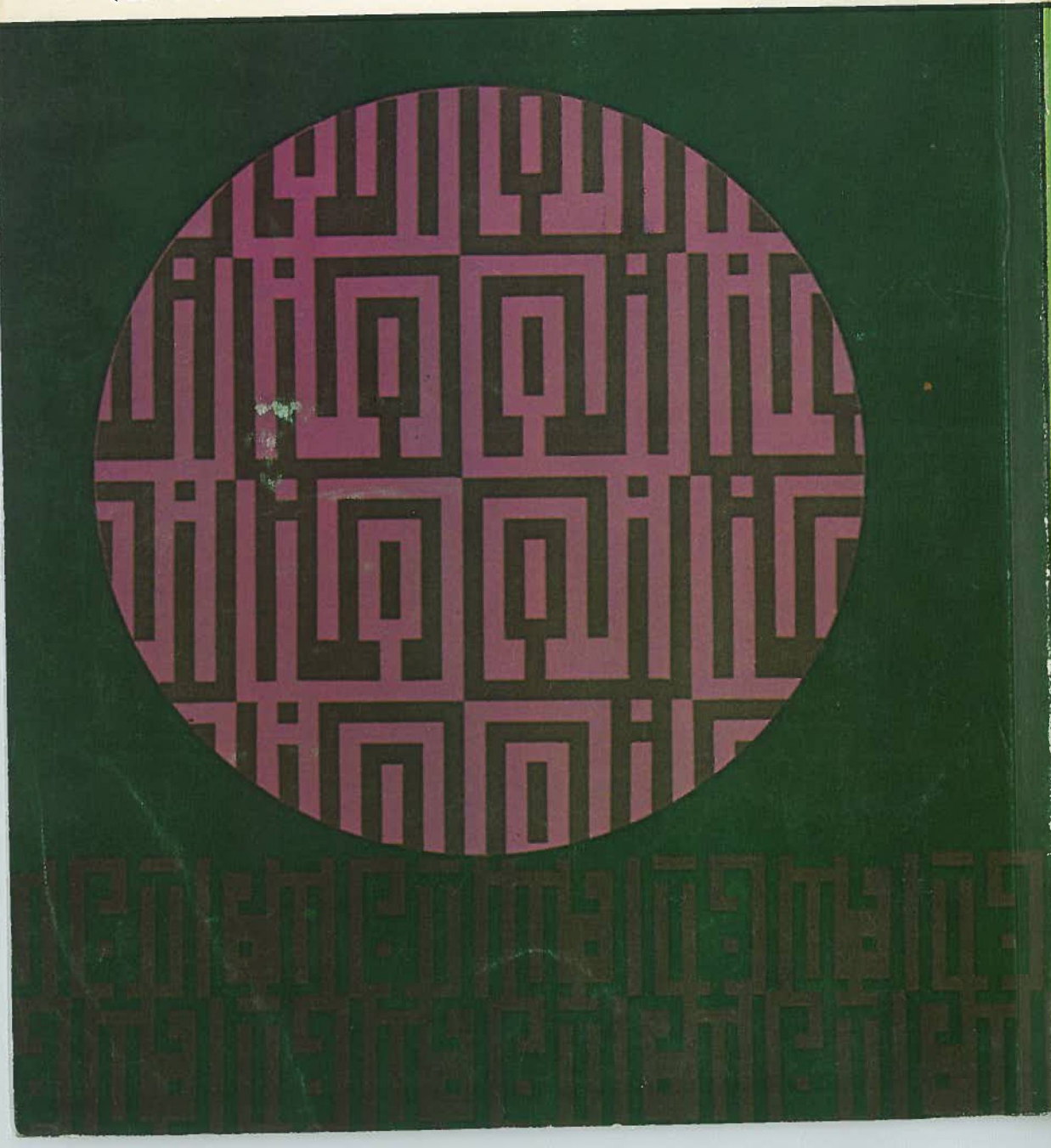

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٩٤ ايلول (سبتمبر) ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص . ب ١٦٩١

تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠

برقيا : مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للفنان
كمال بلاطه

المحتويات

الصفحة		
٤	ادوار سعيد	: قضية اندرو يونغ في إطارها الداخلي .
٨	سمير كرم	: «سالت» بين الوفاق والصراعات الدولية .
٢٧	فواز تركي	: نص الغربة .
٤٤	اديب ديمتري	: العرقية الصهيونية وتيار القومية الرجعية .
٥٩	خيرية قاسمية	: قراءة تاريخية لاتفاقية فيصل ـ وايزمان .
٩١	محمد عدنان البخيت	: من تاريخ حيفا العثمانية : دراسة في أحوال الساحل الشامي .
١٠٧	حسين أبو النمل	: ما قبل الحديث عن الصهيونية الاقتصادية .
١٢٢	محمود اللبدي	: جولة في العقل الاعلامي الصهيوني .

الصفحة		
١٣٤	عربي عواد	: **حول الوحدة الوطنية الفلسطينية.**
١٤٣	أميرة الزين	: **دم عربي في روايات غربية .**
١٥٥	**مراجعات**	: [سليمان البستاني] **عبرة وذكرى** ، أسعد رزوق . [هشام شرابي] **الجمر والرماد ـ ذكريات مثقف عربي** ، أ.ر.
١٦٨	**شهريات**	: **اسرائيليات** ، توفيق فياض . **قضايا دولية** ، س.ك. **قضايا عسكرية** ، محمود عزمي .

ادوار سَعيـــد

قضيـة انـدرويونغ في اطـارها الداخـلي

تحمل استقالة أندرويونغ دلالة مركبة على المدى الذي قطعته قضية فلسطين داخل المجتمع الأمريكي المعاصر . وانه لخطأ ، على أية حال ، تبسيط النظرة الى الاستقالة ، على أنها مجرد برهان جديد على التحكم الصهيوني بالمجتمع السياسي المعاصر في الغرب . على أن أندرو يونغ ، في تصريحاته التي أدلى بها في الخامس عشر من آب(اغسطس) الى مراسلي البيت الأبيض ، بدا وكأنه يقول إنه بسبب عدم اتفاقه مع سياسة الولايات المتحدة حيال منظمة التحرير الفلسطينية ، وإنه بسبب كون تلك السياسة محل اتفاق بين الولايات المتحدة وبين إسرائيل بشأن « المنظمة » ، فانه كان باستقالته يستسلم أمام الطرح الصهيوني أساسا لقضية فلسطين . أضف الى ذلك انه توفرت الى جانب هذا كله ، الناحية التقنية للمسألة برمتها ، اي لجهة ما هو في وسع سفير أن يفعل أو لا يفعل ، ليس في مضمار العموميات السياسية فحسب ، بل وخصوصا في تلك المجالات ذات الاصداء المحلية الواسعة . وفي هذا الاطار أيضا ، كان هناك إقرار من جانب يونغ ، بأنه حينما تمس السياسة الأمريكية باسرائيل ، فان شخصية أمريكية لامعة وراءها قطاع انتخابي عريض ، كيونغ نفسه ، كان ينبغي ان تكون جاهزة لتحمل مضاعفات خطيرة ، إذا ما بدا أن هناك مساسا ما ، بأية طريقة ، بالمصالح الصهيونية .

لكن الأهم بكثير هو ما قاله يونغ للمراسلين من أن التجربة التي مر بها لم تروعه ، وأضاف « لقد جئت اليكم لأنني لم اخضع » . يبدو أن القضية الصهيونية طالبت بضحية : ويبدو كذلك أن الرئيس الاميركي كشف مرة أخرى عن وهنه وعجزه بتضحيته بقيادي أمريكي أسود (وصديق شخصي مقرب من الرئيس نفسه) أمام الضغوط الوقحة التي تمارسها على الحياة السياسية الأمريكية ، فلسفة سياسية طائفية متعصبة ضيقة الأفق : وصحيح أيضا وأيضا ان اجتماع يونغ العادي بممثل منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة زهدي الطرزي قد نال القصاص باعتباره انتهاكا شديدا لسياسة الولايات المتحدة المعلنة ، وباعتباره كذلك خرقا لأحكام مرحلة ما بعد ووترغيت التي لا تقبل من الشخصيات الرسمية اذا كذبت ان تضبط متلبسة . لكن الحقيقة أن يونغ أضاف الى خصائصه ومآثره موقفا مبدئيا ذا طابع مستقبلي فيما يختص بحقيقة

وجود منظمة التحرير الفلسطينية . وفوق هذا وذاك ، رسم خطا داخل المجتمع الأمريكي ، لا يجوز أن يكون متاحا للسياسة الصهيونية والامبريالية الأمريكية أن تخاطر بتجاوزه بلا عقاب .

النقطة الرئيسية هي أن خطوطا كهذه موجودة ومرسومة فعلا ، حتى إذا لم تكن ظاهرة بجلاء كلي في الوقت الراهن ، فان هناك أناسا وتقاليد ومؤسسات داخل الولايات المتحدة ، مهيأة لرسمها (الخطوط) ، ولتحديد أبعادها ، وللكفاح في سبيل حمايتها . ولقد أطلق يونغ نفسه منذ استقالته ، كما قبلها ، تصريحات أكد فيها وجوب التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية بجدية . وهناك قياديون آخرون من السود ، بمن فيهم جيسي جاكسون رالف أبرناثي ، لم يجدوا حرجا في اعلان دعمهم للحقوق الفلسطينية . وهناك العديد من الشخصيات المستقلة في المجتمع الأمريكي (في أوساط الحركة المناوئة للحرب عادة) تجاهر الآن بالحقوق الفلسطينية . بل إن جيمي كارتر نفسه شبه الحركة الفلسطينية بحركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة ، وهو تشبيه كان ــ بصورة غير اعتيادية ــ أقوى في الواقع ، وبما لا يقارن ، من تعبير « الحقوق الوطنية » ، في داخل البيئة الأمريكية . وهذا كله استوجب الهجمة الصهيونية المتوقعة . ومع ذلك ينبغي لنا أن نلاحظ أن الطرح الصهيوني هو الذي يبدو الآن في الجانب الدفاعي ، ونو وضعية « أجنبية » متزايدة بل وغير مقبولة . وأكثر من ذلك ، فالقضية الفلسطينية أصبحت ولأول مرة على الاطلاق ، تعبيرا للتقدمية السياسية في المعادلات المطروحة راهنا في التشكيلات الأمريكية . فلم يحدث من قبل أبدا أن واجهت الصهيونية مثل هذه المقاومة ، ولم يحدث من قبل أبدا أن خرجت هذه المقاومة من قوة ــ أو تراث ــ يتمتع بهذه المصداقية الأدبية والايجابية البارزة التي يجسدها أندرو يونغ والمجتمع الأسود المنظم .

ومرة أخرى ينبغي هنا ألا نسمح لأنفسنا بالتورط في تحليل تبسيطي ، ولا بالوقوع في وهدة التفاؤل المفرط . فالحرب بين الأمريكيين السود وبين اليهود لم تعلن فجأة . وان منظمة التحرير الفلسطينية لم تزح القضية الصهيونية جانبا لتحل مكانها فورا في الولايات المتحدة . فالتغير يأخذ مجراه منذ ١٩٧٤ ، لكن الحلقة التي لعبها يونغ تمثل المرحلة الدراماتيكية الأولى للتغير الداخلي في التفكير الأمريكي حيال فلسطين .

التحالف بين السود واليهود في موضوع الشرق الأوسط ، لم ينفصم ولم ينفرط عقده طيلة هذه المدة ، لماذا ؟ إذا كان لنا أن نرد على السؤال بصراحة جارحة ، نقول انه كانت هناك مقايضة ، فمقابل الدعم اليهودي الاستثنائي (والنموذجي) لحقوق السود المدنية ، كان هناك استعداد لدى السود لمساندة السياسات الخارجية المؤيدة للصهيونية . إنه التساوق بين الكسب الداخلي وبين الكسب الخارجي لكلا الفريقين . ونضرب لذلك مثال مارتن لوثر كنغ الذي جاهر بمساندته المتحمسة للصهيونية ، والذي كان يتلقى في المقابل دعما إجماعيا من المجتمع اليهودي . وكانت النتيجة أن الصهيونية

ظلت على الدوام تتكيف مع ، وتجد تعبيراتها في قلب الاطار السياسي الاميركي . فالنجاح الصهيوني في الولايات المتحدة وفي سواها من اقطار الغرب ، ارتكز على قدرة الحركة الصهيونية ، على أن تكون جزءا عضويا من سياق متطور وملموس وأخلاقي في داخل المجتمع نفسه . واذا تابعنا الكلام عن المقاومة الفلسطينية مستخدمين التشبيه ذاته ، لقلنا إنها بدت على الدوام خارج ذلك السياق . وجاءت استقالة يونغ لتنهي تلك المقايضة (بين السود واليهود) ، ولتكشف كم كانت تلك الصفقة غير سوية وغير متكافئة وغير متوازية ، على امتداد اعوام واعوام .

من السذاجة القول إنه بسبب الاعتماد الأمريكي على النفط العربي ، نشأ نزاع بين مناصرة الصهيونية وبين التيقن من أنه لن يكون هناك أي استخدام جديد للنفط كسلاح . بعبارة أخرى ، فلو ان الصهيونية قصرت اعتمادها على مصالح الغرب المادية ، لجني المكاسب ، لكانت قد تلاشت منذ أمد بعيد . ذلك أن أناسا مثل ديفيد روكفلر ، وشركات مثل أرامكو ، يعلنون على الملأ منذ عقد من السنين على الأقل ، اهتمامهم بالقضية العربية ، دون أن يشكل ذلك أي تحد للصهيونية في الداخل الأمريكي . لا : فالصهيونية شيدت جانبا عظيما من دعائمها على مرتكزات الوعي الأمريكي ، حتى داخل القطاعات الاجتماعية المشهود لها بمعاداة « المؤسسة » . فبناء عليه ، إن حركتي الحقوق المدنية ، ومناوأة الحرب ، ساندتا الصهيونية حتى الآن ، **على الرغم من** ــ وليس بسبب ــ الدعم العسكري لاسرائيل كشريك استراتيجي للولايات المتحدة في آسيا .

حسنا . علام إذن كان كل هذا التغير ومن أجل ماذا ، إن لم يكن بدافع القلق على إمدادات الطاقة (وهو قلق يفسر المسألة جزئيا) ؟ لندع جانبا المسلمات والعوامل المتفق عليها تقليديا : أي ، فلنسلم بلا جدل بأن حرب أكتوبر ، والحظر النفطي ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ ، وعملية السلام الجديدة الاسرائيلية ــ المصرية ــ الأمريكية ، وسقوط الشاه ، كانت كافة ذات تأثير شديد على الرأسمالية الاحتكارية الامريكية ، وعلى الاستراتيجية الدفاعية الأمريكية ، وعلى التوجه اللاعقلاني المفرط المعادي للسوفيات لدى زبغنيو برجزنسكي وبول نتزي ورونالد ريغان والموزومولت . لكن أندرو يونغ لم يستقل بسبب النفط ، ولا هو طرح على كارتر وفانس سياسة بديلة للسلم في الشرق الأوسط . فما قالُه أندرو يونغ ، وما فعله ، في موضوع منظمة التحرير الفلسطينية ، قاله وفعله ــ في اعتقادي ــ في السياق الأمريكي الداخلي كلية . فاننا أمام أمريكي أسود قام بتشخيص ، أو على الأصح بترجمة المسألة الفلسطينية من إطارها الأجنبي الخارجي إلى سياق آخر ، حيث وجد أنه ــ وهو الأسود ذو الوعي الذاتي العنصري المرهف ــ يستشعر التعاطف معها . ولقد قاده هذا التعاطف بالضبط الى المكان الذي حرم الصهيونيون الأمريكيون الوصول اليه، أي ، الى الاقرار ببساطة بالوجود المدني والسياسي للفلسطينيين ، تماما مثلما كانت جماعة التمييز العنصري في الجنوب الأمريكي تنفي وجود الشعب الأسود ، وكان يونغ ، وكينغ وآخرون يقولون بوجود جانب سياسي لمشكلة السود .

من هذا المنظور ، فان ما فعله يونغ في منتصف آب ـ أغسطس هو أمر مثلث الجوانب : أولا أنه رد على ركام الانكار الصهيوني والقمع الصهيوني بالتأكيد ببساطة على الحقوق الفلسطينية ، وبلغة حركة الحقوق المدنية الأمريكية . ثانيا ، إنه لم يقل ما يتجاوز فحوى طروحات كمب ديفيد ، لكنه تصرف على أن منظمة التحرير الفلسطينية حقيقة لا يمكن إسقاطها : ان معظم الرسميين الأمريكيين يسلمون بأهمية منظمة التحرير الفلسطينية ، لكن أحدا منهم لا يجرؤ على الجهر بموقفه علنا . والجانب الثالث والأهم ، أنه جعل الصهيونيين يهاجمونه لأنه تكلم خارج الاطار ، واللغة ، بل وحتى التفكير المسموح به تقليديا حيال الشرق الأوسط . على أن يونغ مشهور كرجل يتكلم بحرية ، وعلى الأقل كرجل حطم قوالب الكلمات المنمقة والقيود المتكلفة المفروضة على السياسي الأمريكي . فما قاله عن وجود سجناء سياسيين في أمريكا لم يكن قابلا للنسيان بسهولة ، مثلما لن ينسى بسهولة أبدا أن يونغ (ابرز سياسي امريكي اسود) طرد فعليا من جانب رئيس جنوبي أبيض يعود في انتخابه في ١٩٧٦ الى يونغ وقطاعه الانتخابي الاسود ، لا إلى الصوت اليهودي . لكن الجانب الأهم في قضية يونغ أن الصهيونية ظهرت في العمل وكأنها قوة خارجية تتصدى لصوت أمريكي داخلي وأصيل . وكان هذا هو النصر الرمزي الرئيسي للكفاح الفلسطيني في الحلبة السياسية الأمريكية .

مما لا ريب فيه أن يونغ سوف يقول المزيد . وسوف تكون هناك مناظرات حامية في الولايات المتحدة بشأن السياسة الشرق أوسطية . أما الادارة الأمريكية فسوف تتابع ـ في المستقبل المنظور ـ عجزها عن اتخاذ القرار وعماها ، مثلما فعلت حتى الآن . وهناك شوط طويل جدا لا بد من قطعه قبل أن نصل الى مرحلة الاعتراف الأمريكي للفلسطينيين بحق تقرير المصير . كيف سيحدث ذلك ومتى ؟ هذا أمر يتوقف في معظمه على النضال الفلسطيني نفسه . فبما أنه في عالم السياسة لا شيء يعطى مجانا ولوجه الله ، فان كل ثورة ـ في التحليل الأخير ـ **تحصل** على أشياء ، وكل ثورة تقوم بتغيير إطار الظروف والأوضاع ، وكل ثورة تفرض إرادتها على **الواقع الراهن** . ومن المؤكد أن حادثة يونغ تمثل شهادة على إيجابية المنجزات التي حققها الكفاح الفلسطيني ، مثلما هي شهادة للرجل ووعيه السياسي . ويبقى الجدير بالذكر من جانبنا **نحن** ، هو أن يونغ لم يفعل في التحليل الأخير ، أكثر من أن عبر عن آراء قطاع آخر ومعارض داخل الحياة الأمريكية . فاذا كان يونغ ما زال غير قادر على أن يرى في هزيمة العدوانية الصهيونية الطريق الكفيل بفرض حق تقرير المصير للفلسطينيين ، فمرد ذلك أن أمر فرض الحقيقة وإلحاق الهزيمة بالصهيونيين ، يتوقفان على الثورة الفلسطينية . وساعتئذ سوف يظهر اندرو يونغ آخر ، ويكون له الموقف الصحيح .

سمير كرم

"سالت" بين الوفاق والصراعات الدولية

استغرقت المحادثات التي ادت الى توقيع اول معاهدة للحد من الاسلحة الاستراتيجية (سالت ــ ١) بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اقل من ثلاث سنوات . فقد بدأت (في هلسنكي) يوم ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ . ووقعت المعاهدة بين الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون وامين عام الحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف في موسكو يوم ٢٦ ايار (مايو) ١٩٧٢ .

اما المحادثات التي ادت الى توقيع المعاهدة الثانية للحد من الاسلحة الاستراتيجية (سالت ــ ٢) فقد استغرقت عمليا سبع سنوات ، من تاريخ توقيع المعاهدة الاولى حتى تاريخ توقيع المعاهدة الثانية (في فيينا) يوم ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٧٩ .

والواقع انه كان مقررا لمحادثات « سالت ــ ٢ » ان تستغرق ــ كالاولى ــ ثلاث سنوات ايضا بحيث توقع في غضون العام ١٩٧٥ ، اي في الوقت الذي ينتهي فيه اجل معاهدة سالت ــ ١

ومن المؤكد ان طول فترة المحادثات بالنسبة للمعاهدة الثانية له دلالة ، ليس فقط على صعوبة الموضوعات التي تتناولها هذه المحادثات ومدى تعقيد المسائل التكنولوجية والعسكرية والسياسية التي تنطوي عليها ، انما ايضا على مناخ العلاقات الثنائية بين « الدولتين العظميين » . الامر الذي يدل عليه اختلاف مناخ هذه العلاقات في الفترة من اواخر العام ١٩٦٩ الى منتصف العام ١٩٧٢ ، عنه في الفترة التالية حتى منتصف هذا العام . وهذا يدل بدوره على حقيقة ان محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية وان كانت تخص الدولتين وحدهما ، وان كانت تتعلق فقط بهذا الجانب الاستراتيجي ــ تربطها علاقة مباشرة بالتوازن النووي الاستراتيجي بين قوتيهما العسكريتين .

وعلى هذا الاساس يمكن ادراك التمييز الواضح بين اعتبار « سالت » رمزا ــ مجرد رمز ــ للانفراج او « الوفاق » بين الدولتين العظميين ، واعتبارها هي الانفراج او الوفاق بينهما [١] . ويمكن بالتالي ان ندرك تأثير « سالت » على الوفاق ، و على ما هو اوسع نطاقا بكثير من العلاقات بين الدولتين العظميين .

فقد اصبح من المسلم به ان « الوفاق » يكون بخير طالما سارت محادثات « سالت » سيرا حسنا ، وان الوفاق لا بد ان يتأثر سلبا ان تعثرت هذه المحادثات . فقد اثبتت السنوات العشر الماضية منذ بداية هذه المحادثات ، ان « سالت » هي ابرز رمز على قدرة الدولتين العظميين على الاتفاق فيما بينهما ، والتعاون على تحقيق اهداف مشتركة .

لهذا تبقى العلاقة بين « سالت » والوفاق الدولي هي محور الاهتمام الرئيسي بما استطاعت الدولتان العظميتان تحقيقه وما يمكن ان تحققاه في مرحلة ــ او مراحل ــ ما بعد « سالت ــ ٢ » .

ولقد كان اهتمام الباحثين ابان فترة محادثات « سالت ــ ١ » (٦٩ ــ ١٩٧٢) قد تركز على تحليل جوانب « التقارب » التي حدثت بين المفاهيم الاستراتيجية الاميركية والسوفياتية ــ تلك التي تشكل المذهبين العسكريين للدولتين ــ مما ادى الى تحقيق الحد من الاتفاق الذي خلق فكرة الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، ثم معالجتها والتوصل فيها الى معاهدة محورة المعالم والاهداف .

وفي الوقت الحاضر ، كان اهتمام الباحثين يتجه بالضرورة الى الاهتمام بتعميق فهم هذا الجانب النظري المجرد ، ولكنهم لا بد ان يولوا اهتماما ــ الى جانب هذا ــ بالتأثيرات السيا سية لهذا التقارب المفاهيمي الذي سمح بتطوير « سالت » واستمرار نهجها . ولا شك ان فترة السنوات العشر من بداية محادثات سالت ــ ١ الى توقيع سالت ــ ٢ تترك مجالا للدراسة التحليلية التي تستطيع على مدى هذه المساحة الامنية بما تخللها من احداث ، ان تستخلص النتائج منها حول الابعاد السياسية لهذه المحادثات والمعاهدات .. كأساس ضروري رسم صورة مستقبلية للتحولات التي تحدثها هذه المعاهدات على طبيعة الصراع بين الدولتين العظميين ، التي تتزعم احداهما (الولايات المتحدة) دول المعسكر الامبريالي الرأسمالي ، وتتزعم الاخرى (الاتحاد السوفياتي) دول المعسكر التحرري الاشتراكي .

وليس ادل على اهمية مثل هذه الدراسة التحليلية من المزاعم التي رافقت محادثات سالت في مرحلتيها ، وخاصة الاخيرة ، والتي تدور حول اعتبار هذه المحادثات اساسا لتقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين العظيمتين . وهي مزاعم قامت دائما على اساس دبلوماسية « الربط » بين مجالات الصراع المختلفة بين الدولتين المتعلق منها بالحد من الاسلحة او المتعلق منها بمصالح الدولتين ــ والمعسكرين ــ في القضايا الدولية المختلفة .

فقد بدأت محادثات « سالت » كعملية ثنائية مقصورة على الدولتين ، وتختص بجانب واحد من جوانب العلاقات بينهما ، هو جانب سباق التسلح ، بل انها تقتصر على زاوية واحدة من هذا الجانب هي زاوية الاسلحة الاستراتيجية . ولكن طبيعة دور الدولتين العظميين في السياسة الدولية ــ بحكم قوة ما تملكانه وما تستطيعان انتاجه الان ومستقبلا من اسلحة استراتيجية ــ ما كان يمكن ان تبقي ما بدا ثنائيا على حاله ، حتى وان اقتصرت المحادثات على الطرفين ذاتهما حتى الان ، وهو وضع قابل للتغيير مستقبلا ، بل يكاد يكون من المؤكد ان تتحول محاولات الحد من الاسلحة الاستراتيجية في مرحلة سالت ــ ٣ الى عملية متعددة

الاطراف ، على الاقل بحكم دور الدولتين العظميين على رأس حلفين دوليين (الاطلسي ووارسو) .

كذلك فان هذه المحادثات التي بدأت ذات طابع تقني خالص ، يتمثل في اعلى اشكال التقدم التكنولوجي في المجال العسكري ، وهي اشكال لا يرقى اليها غير الدولتين العظميين ، لم تحتفظ بهذا الطابع التقني الخالص ، واصبحت لها ابعاد سياسية تربط بين الجوانب السياسية للمسائل الاستراتيجية لعلاقات القوة بين الكتلتين والجوانب السياسية الاخرى الاوسع نطاقا .. اي الدولية .

ومن ناحية ثالثة فان محادثات سالت بدأت عسكرية خالصة . ومع نموها كعملية متطورة فانها تتحول الى عملية عسكرية ـ سياسية ـ اقتصادية . وحتى ايديولوجية في بعض الجوانب . فلكل من جانبي المحادثات فلسفته الخاصة الاقتصادية ـ الاجتماعية ، ومصالحه السياسية المرتبطة بنظامه الاقتصادي ـ الاجتماعي ، كما ان لكل طرف منهما ارتباطات ذات طبيعة ، خاصة تختلف عن طبيعة ارتباطات الطرف الاخر ، سواء بحلفائه المباشرين او بالقوى التي تتمتع بتأييد على الساحة الدولية . ويتبين من تطور عملية « سالت » انها ليست معزولة تماما عن هذه الامور كلها .

وهكذا يصدق التعبير القائل بان محادثات سالت هي « مناخ » وليست فقط « عقدا »[٢] .

وعلى الصعيد العملي فقد دلت الفترة التي تعثرت فيها محادثات « سالت ـ ٢ » (من الموعد الذي كان مقررا لابرامها ـ اي ١٩٧٥ ـ الى الموعد الذي ابرمت فيه فعلا ـ اي ١٩٧٩) على ان تعثرها لم يكن ناجما عن صعاب تقنية خاصة بالاسلحة الاستراتيجية واعدادها وانواعها ومستوياتها ، انما كان ايضا ناجما عن تطورات سياسية لا تتعلق بالاسلحة الاستراتيجية ذات القدرة التدميرية الشاملة لدى الطرفين ، انما تتعلق بصراعات اخرى ربما لا تتجاوز الاسلحة المستخدمة فيها حدود المدفع الرشاش ، او بصراعات ليس للسلاح الحربي دور مباشر فيها !

وهكذا يتضح ان عملية « سالت » هي عملية معقدة وتنطوي على تناقض موضوعي ، بين درجة استقلاليتها عن الصراعات الاخرى ، ودرجة ارتباطها بهذه الصراعات . وكنتيجة لهذا التناقض الموضوعي فان « سالت » سجلت تحولا هاما تمثل في ادراك الدولتين العظميين ـ تحت تأثير التطور التكنولوجي الهائل في مجال التسلح ـ ضرورة تجفيد هذا الشكل الاعلى من اشكال الصراع بينهما ، بحكم ان ممارسة هذا الشكل من الصراع لا تؤدي الى انتصار وهزيمة ، وانما تؤدي الى ابادة متبادلة لطرفيه ، وللاطراف الاخرى جمعاء ، اي للبشرية . ولكن « سالت » سجلت ـ في الوقت نفسه ـ استحالة الغاء اشكال الصراع الاخرى السائدة في العالم ، فقد استمرت اشكال الصراع العسكري المتمثلة في حروب محدودة في مناطق مختلفة من العالم ، واشكال الصراع الاقتصادي ، بما فيها الصراع بين الدولتين العظميين والنظامين اللذين يمثلان ، اشكال الصراع الايديولوجي .. الخ .

وبطبيعة الحال فانه ليس من قبيل الصدفة ان تكون الفترة الزمنية التي شهدت محادثات من اواخر الستينات الى اواخر السبعينات ـ وخاصة فترة « سالت ـ ٢ » ـ هي في الوقت نفسه فترة اشتداد حدة صراع البلدان النامية (بلدان العالم الثالث) من اجل تأكيد استقلالها الاقتصادي ، ومحاولة البلدان الرأسمالية حل أزماتها الاقتصادية الحادة على حساب بلدان العالم الثالث باستحداث طرق مختلفة للاستغلال تختلف عن الطرق القديمة . وهي الفترة ذاتها التي شهدت تعاظم دور وتأثير الشركات المتعددة الجنسية ، واستماتة الدول الرأسمالية في محاولات استعادة الفوائض المالية التي حققتها الدول المنتجة للنفط نتيجة لزيادة اسعاره ، وتوظيفها في الاقتصاد الغربي والتجارة الغربية . وبالمقابل فان الفترة نفسها تشهد تعاظم دور الدول الاشتراكية في تأييد نضال دول العالم الثالث من اجل التحرر السياسي والاقتصادي . وقد تعاظم هذا الدور الى درجة لم تألفها الدول الرأسمالية التي تتصدى لهذا التحرر بوجهيه ، ولهذا فانها تعتبر ان الاتحاد السوفياتي قد انتقل الى سياسة هجومية (او عدوانية) تعتمد اساليب الهيمنة وفرض النفوذ .

اشتداد هذه الصراعات

وينبغي في هذا الصدد تسجيل ملاحظتين اساسيتين ؟

□ ان اشتداد هذه الصراعات المحدودة لا بد ان يكون قد اضاف الى أسباب اقتناع الدولتين العظميين بضرورة الحد من اسلحتهما الاستراتيجية ، باعتبار ان زيادة مجالات الاحتكاك بينهما في مناطق العالم ترفع من خطر تحول اي صدام تقليدي محدود الى صدام نووي وشامل .

○ ان اشتداد هذه الصراعات قد فرض على الدولتين العظميين اعباء اقتصادية حادة ، وهي اكثر وطأة على العالم الاشتراكي منها على العالم الرأسمالي . فالعالم الاشتراكي ـ وخاصة الاتحاد السوفياتي ـ مضطر للحفاظ على درجة التعادل ـ على الاقل ـ في التسلح الاستراتيجي مع العالم الرأسمالي ، على الرغم من انه لم يصل الى درجة التعادل الاقتصادي معه . وفي الوقت نفسه كانت ازمة العالم الرأسمالي المتمثلة في تخبط نظامه النقدي ، وفي مشكلات التضخم والبطالة ، تجبره هو الاخر على التفكير في الاثار الاقتصادية الايجابية للحد من الاسلحة الاستراتيجية .

ونعود ـ بعد هاتين الملاحظتين ـ الى النقطة التي كنا بصددها قبلهما ، وهي ان الفترة الاخيرة هي في وقت واحد فترة اتفاق على ضرورة الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، واشتداد حدة الصراعات الدولية من حول الدولتين العظميين . وهذه المفارقة هي سبب ونتيجة ـ في وقت واحد للموقف الدولي الراهن . ولكي تتضح الصورة اكثر يستحسن ان نستعرض الاحداث التي سبقت توقيع المعاهدة الثانية (سالت ـ ٢) اخيرا ، والتي اعتبر انها كانت من العوامل التي اخرت توقيع المعاهدة عن موعدها نحو ثلاث سنوات . واهمية هذه الاحداث هي دلالتها بالنسبة لعلاقات التأثير والتأثر بين « الوفاق » الثنائي ، الامريكي ـ السوفياتي ، و« الوفاق » الدولي بمعناه الأوسع . ويلاحظ ان معظم الجولات الهامة من محادثات سالت ـ ٢ ـ خاصة منذ بداية فترة رئاسة جيمي كارتر ـ قد ارتبطت بخلافات حادة بين الدولتين ، حول

مشكلات سياسية حتى ان احد خبراء ــ الشؤون السوفياتية الاميركية قال ان السنة الاولى من حكم كارتر ازالت معظم التفاؤل الاميركي السابق دون ان تبدد الكثير من المخاوف الاميركية (٣) .

(١) صراعات القرن الافريقي : وما تردد عن دور سوفياتي غير مباشر ، ودور كوبي مباشر ، في احداث هذا الصراع . وكذلك احداث شابا (زائير) ، وما تعتقد الولايات المتحدة انه دور سوفياتي في تأجيج الصراع في روديسيا .

(٢) الشرق الاوسط : وخاصة التفرد الاميركي بما اسمته الولايات المتحدة « عملية السلام » التي اسفرت عن «مبادرة السادات»، ثم نتائج ذلك في « كامب ديفيد » و« معاهدة السلام » المصرية ــ الاسرائيلية ، مما ادانه الاتحاد السوفياتي كمؤامرة ضد الشعوب العربية وخاصة ضد الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، واعتبره بمثابة تدخل اميركي ضار بصالح الاطراف المختلفة ، بما فيها الاتحاد السوفياتي نفسه نظرا لقربه من المنطقة ولاهتمامه بالسلام والامن فيها .

(٣) حملة حقوق الانسان: التي استهل بها الرئيس كارتر فترة رئاسته،والتي اعتبرها الإتحاد السوفياتي من البداية بمثابة تدخل في الشؤون الداخلية للدول الاخرى . وقد زاد من حدة هذه المشكلة تركيز الاهتمام الاميركي في هذه الحملة على الدفاع عن « المنشقين السوفيات » ذوي الاتجاهات الصهيونية المكشوفة .

ولعل هذه الحملة ــ وهذا الجانب منها بالذات ــ قد اصاب محادثات « سالت ــ ٢ » باكبر ضرر ، حينما حمل سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي (الجديد) مقترحات الادارة الاميركية الجديدة الى موسكو في اذار (مارس) ١٩٧٧ . وهي مقترحات اعتبرتها موسكو الغاء من جانب واحد لما كان قد تم الاتفاق عليه ــ مبدئيا ــ بين الرئيس الاميركي السابق جيرالد فورد وبريجنيف في « فلاديفو ستوك » عام ١٩٧٤ . غير ان حملة الدفاع عن المنشقين اليهود السوفيات اضافت وقودا الى نار هذه الخلاف . الامر الذي انعكس في تصريح لوزير الخارجية السوفياتي اندريه غروميكو امام فانس في ذلك الوقت كان التصريح من شقين :

ــ « لا يستطيع المرء ان يتحدث عن استقرار حينما تأتي قيادة جديدة وتلغي كل ما تم انجازه من قبل » .

ــ وفي هذا الشق ذكر غروميكو بما سبق الاتفاق عليه في « فلاديفو ستوك ».

ــ « اننا لن نسمح للآخرين بأن يأخذوا منا موقف المحاضرين وان يعلمونا كيف ينبغي ان ندير شؤوننا الداخلية » .

وفي هذا الشق كان رد موسكو القاطع على اي تدخل من اجل « المنشقين » ، وفي الوقت نفسه رفض اي ربط بين « قضية حقوق الانسان » و« محادثات سالت » .

(٤) الازمة الكوبية الجديدة : التي كادت ان تنشأ نتيجة ما اثارته الولايات المتحدة حول ارسال الاتحاد السوفياتي سرب طائرات من طراز ميغ ــ ٢٣ السوفياتية الى كوبا ، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ ، وهي طائرات لفتت الولايات المتحدة النظر الى انها يمكن ان تحمل

قنابل ذرية ، « الامر الذي يعتبر انتهاكا للاتفاق الاميركي ــ السوفياتي الذي انهى ازمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢ ، والذي حظر وجود اسلحة نووية في كوبا . وقد سادت لفترة قصيرة اجواء ازمة كوبا السابقة ، الا انه امكن محاصرة الازمة الجديدة خلال وقت قصير ، اثناء المحادثات التي اجراها فانس وغروميكو في جنيف في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٨ .

(٥) الورقة الصينية : وهو تعبير يلخص الازمة الناجمة عن شكوك الاتحاد السوفياتي في اهداف التقارب الاميركي ــ الصيني الذي بدأ بزيارة زبغنيو برجنسكي مستشار الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي للصين في ايار (مايو) ١٩٧٨ ، حيث كانت الزيارة بالنسبة لبرجنسكي والزعماء الصينيين على السواء فرصة لاظهار مدى الاتفاق بينهما في العداء للاتحاد السوفياتي . وقد بلغ هذا التقارب ذروته في قرار الولايات المتحدة والصين تبادل العلاقات الكاملة بينهما (في بيان مشترك صدر في ١٩٧٨/١٢/١٥) ، واتخذ التقارب الاميركي ــ الصيني صورة احتفالية دعائية واسعة في الزيارة التي قام بها دونغ شياو ــ بنغ نائب رئيس الوزراء الصيني للولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) الماضي .

وقد اعلن الرئيس الاميركي بوضوح (في حديث تليفزيوني يوم ١٩/ ١) عن اعتقاده بان اعتراف الولايات المتحدة بالصين الشعبية هو الذي دفع بموسكو الى ارجاء التوصل الى معاهدة « سالت ــ ٢ » ومن ثم تأجيل عقد لقاء القمة بينه وبين بريجنيف [٤] .

اما الاتحاد السوفياتي فقد اعلن انه وان كان يرحب بقرار الولايات المتحدة باعتباره خطوة طبيعية ، بل وصفت « برافدا » هذه الخطوة بانها جاءت متأخرة من جانب الولايات المتحدة ، ولكنها اعربت ــ في الوقت نفسه ــ عن عدم ارتياح ازاء لهجة البيان الاميركي ــ الصيني التي تكشف عن اتفاق اساسه العداء للاتحاد السوفياتي .

وقبلها كان جورجي ارباتوف مدير المعهد السوفياتي للدراسات الاميركية قد صرح بانه « اذا تم بناء محور غربي ــ صيني على اساس العداء السوفياتي عندئذ لن يكون ثمة مكان للوفاق »[٥] .

كيسنجر بين سالت ــ ١ وسالت ــ ٢

وكان من الامور التي لها دلالتها ان هنري كيسنجر وزير الخارجية السابق ، الذي يعد واحدا من اهم « مهندسي » سياسة « الوفاق » وبالتحديد سياسة الحد من الاسلحة الاستراتيجية اتخذ موقفا مناهضا دالا على مدى تأثر محادثات « سالت ــ ٢ » بالتطورات التي وقعت خلال سنواتها .

فقد صرح بقوله : « انظروا لما حدث منذ العام ١٩٧٥ ، ففي غضون فترة تقل عن اربع سنوات رأينا القوات الكوبية في انغولا ، والقوات الكوبية في اثيوبيا ، وشهدنا غزوين لزائير ، وانقلابا شيوعيا في افغانستان ، وانقلابا شيوعيا في اليمن الجنوبي ، واحتلالا لكمبوديا بواسطة فيتنام . وقد تحققت هذه كلها باسلحة سوفياتية وتشجيع سوفياتي ــ وفي حالات كثيرة عن طريق الفيتو السوفياتي في الامم المتحدة » [٦] .

وعندما وقف هنري كيسنجر في اوائل آب (اغسطس) الماضي للادلاء برأيه في مناقشة لجان الكونغرس لمعاهدة « سالت ــ ٢ » (وقد استغرق ذلك سبع ساعات ونصف كاملة) قال ان على الولايات المتحدة ان تسعى الى السلام عن طريق اتباع دربين متوازيين : الاول محاولة ايجاد مجالات للتعاون مع الاتحاد السوفياتي ، والثاني تأمين ان تكون الترسانة العسكرية الاميركية من القوة بدرجة كافية للحفاظ على توازن القوى، واوضح ان احد الاهداف الاساسية من الجهود التي تبذل للحد من الاسلحة الاستراتيجية هو « ايجاد صيغة تحفظ لكلا الدولتين العظميين » قدرة الرد الانتقامي » ضد هجوم نووي ، وهذا يتطلب « خفض الحافز والقدرة مع شن هجوم مفاجيء ... ان القلق على الامن القومي يتطلب ترسانة ضخمة من الاسلحة في الوقت الذي تستمر فيه الجهود لبناء سلام دائم » .

وعندما وصل كيسنجر الى ضرورة تحديد موقف بنعم او لا لمعاهدة « سالت ــ ٢ » فانه اجاب قائلا « نعم . ولكن ... » واعترف بان المعاهدة تتضمن جوانب مفيدة كثيرة ولكنه يتعين على مجلس الشيوخ ان لا يصادق على المعاهدة الا بشروط معينة :

☐ ان يقوم تفاهم ملزم بين الكونغرس والرئيس على معالجة الخطر الجسيم الذي يفرضه الميزان العسكري الراهن . ودعا في هذا الصدد الى زيادة كبيرة في النفقات العسكرية الاميركية للسنة المالية الحالية ، ووضع « خطة خمس سنوات دفاعية » . فاذا لم تكن الادارة الاميركية قادرة على تحقيق هذا الشرط فانه يكون على مجلس الشيوخ ان يؤجل البت في المعاهدة .

☐ ان يصدر مجلس الشيوخ بيانا يلحقه بقرار الموافقة على معاهدة « سالت ــ ٢ » يعلن فيه ان بنود المعاهدة لا تشكل عائقا امام العلاقات التعاونية بين الولايات المتحدة وحلفائها . وذلك لكي تؤكد الولايات المتحدة حقها في اشراك حلفائها في تكنولوجيا الاسلحة ، والاصرار على ان ذلك لا يشكل انتهاكا للمعاهدة .

☐ ان يصدر اعلان واضح وقاطع بان بروتوكول المعاهدة ــ الذي يحظر نصب الصواريخ الطوافة « كروز » التي تطلق من قواعد برية او بحرية ذات آماد تتجاوز ٢٧٣ ميلا (٦٠٠ كيلومتر) ــ لن يمد اجله الى ما بعد العام ١٩٨١ . عندما يحين موعد انتهاء العمل به .

☐ ان تصدر مجموعة من التعليمات الى المفاوضين الاميركيين في محادثات « سالت ــ ٣ » بازالة جوانب عدم التكافؤ الناشئة عن معاهدة « سالت ــ ٢ » ، والتي منها السماح للسوفيات بنصب ٣٠٨ صواريخ عملاقة من طراز إس . إس . ــ ١٨ العابرة للقارات ، مع حرمان الولايات المتحدة من تطوير صواريخ قوية مماثلة .

☐ **ان يعبر مجلس الشيوخ بطريقة قوية عن وجود « رابطة » بين « سالت » ومسلك السوفيات الجيوبوليتيكي [الجغرافي ــ السياسي] ، بمعنى ان يصبح مفهوما انه ستكون هناك انعكاسات سلبية مع « سالت » اذا غذى السوفيات الصراعات الاقليمية واذا ايدوا جماعات ونشاطات ترمي الى تدمير حكومات صديقة للولايات المتحدة .**

وفي هذه النقطة بالذات طالب كيسنجر بان تقدم الادارة الاميركية الى مجلس الشيوخ تقريرا سنويا عن « السلوك الدولي للاتحاد السوفياتي » ، بحيث يصوت المجلس سنويا مع ما

اذا كان السلوك السوفياتي يستحق الاستمرار في اية محادثات تتعلق بالحد من الاسلحة ، تكون جارية اثناء ذلك التصويت .

وحذر كيسنجر من انه بحلول اوائل الثمانينات ستؤدي التحسينات في دقة الصواريخ وتكنولوجيا الرؤوس النووية ، الى جعل السوفيات في مركز يمكنهم من ان يبيدوا تقريبا ، كل ما تملكه الولايات المتحدة من الصواريخ الباليستيكية العابرة للقارات التي تطلق من قواعد ارضية .

بل ان وزير الخارجية الاميركي السابق ذهب الى حد القول : « نادرا ما حدث في التاريخ ان قبلت امة ، بهذا القدر من السلبية (كالولايات المتحدة) تغيرا جذريا كهذا في التوازن العسكري » .

غير ان كيسنجر حذر في الوقت نفسه من ان عدم الموافقة على «سالت ـ٢»سيكون له ثمن يدفع من هيبة الولايات المتحدة ، لان من شأن ذلك « ان يدمر الثقة الدولية في قدرتنا مع ادراك مصالحنا الخاصة او التنسيق بين فروع حكومتنا المختلفة » . كما يمكن ان تكون له اثار سلبية على العلاقات بين الشرق والغرب خالقا « جو ازمة » (٧) .

واذا كنا فصلنا بعض الشيء في رأي هنري كيسنجر في المعاهدة ، فذلك لأنه يعد في اميركا « المهندس المصمم لسياسة الحد من الاسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي » في اوائل السبعينات . وهو في الوقت نفسه صاحب نظرية « الربط » Linkage كما يسميها الاستراتيجيون الاميركيون ، او دبلوماسية « المساومة » كما يسميها المعلقون السوفيات ، والتي تلخص بانها « محاولة قبض الثمن عن اي اتفاق مع السوفيات بشأن الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، من حساب مشكلات اخرى لا علاقة لها مباشرة بمشكلة التوازن الاستراتيجي بين الدولتين » . وتعد هذه النظرية واحدة من اسس تفكير كيسنجر في الاستراتيجية والسياسة الخارجية (٧) .

وهكذا فان كيسنجر ــ والقوى التي يمثلها ، ويمثلها فكره السياسي والاستراتيجي في الولايات المتحدة ــ يقف وراء محاولة استخدام علاقة الوفاق ــ الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (في جانبيهما المتناقضين) لتحقيق مكاسب لمواقع الولايات المتحدة والمعسكر الرأسمالي في العالم ، في ضوء الظروف الموضوعية السائدة في العالم ، والتي ذكرناها في « ملاحظتين اساسيتين » و« خمس نقاط » سبقت الاشارة اليها في بحثنا هذا .

ويكاد يكون من المؤكد ان يلعب « التحليل » الذي قدمه كيسنجر امام لجان مجلس الشيوخ ، الدور الرئيسي في توجيه مناقشات تلك اللجان ، ثم في نتيجة التصويت التي سينتهي اليها المجلس ، خاصة ازاء وضعنا في الاعتبار مشكلة الضعف المزمن الذي انتهت اليه ادارة كارتر ، بعد توقيع معاهدة « سالت ــ ٢ » .. بسبب المعاهدة من ناحية ، وبسبب عدد من المشكلات التي اقتضت في الحد من تفاقمها ، مثل ازمة الطاقة والتضخم المالي وانهيار مركز الدولار الاميركي .

واذا كان لا بد من تسجيل رأي اخر بين اتجاهات الآراء الاخرى في الولايات المتحدة ازاء

« سالت ــ ٢ » كتطور يتعلق بالتوازن الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، فان بروز اسم الجنرال الكسندر هيغ في الاشهر التي تخللها توقيع المعاهدة ومناقشتها امام الكونغرس . يجعل اسم هذا العسكري يفرض نفسه بالحاح بين اتجاهات الرأي السائدة . والكسندر هيغ كان حتى اخر شهر حزيران (يونيو) الماضي قائدا عاما لقوات حلف الاطلسي ، وهو معروف منذ ان كان مساعدا لهنري كيسنجر ، عندما كان الاخير رئيسا لمجلس الامن القومي الاميركي . ولكنه بدوره ، وخاصة في الفترة الاخيرة من توليه منصب القائد العام لقوات الاطلسي ، اصبح ممن يدرجون بين « الصقور » في المؤسسة العسكرية الاميركية في شأن عدد من المسائل الدولية ، في مقدمتها التوازن الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وبين حلفي الاطلسي ووارسو ، بل وفي ما يتعلق بمسائل « المصالح الاميركية » في الشرق الاوسط والخليج العربي .

وقد شن الجنرال هيغ هجوما عنيفا على معاهدة « سالت ــ ٢ » من موقع جديد له كواحد من الشخصيات المطروحة لفرض معركة انتخابات الرئاسة الاميركية في العام ١٩٨٠ . وكان من اخطر التقديرات التي قدمها عن حالة الميزان الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قوله « نحن الاميركيين ظللنا في حالة تحذير منذ ازمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ نتيجة شعور زائف بالتفوق على الروس ، بينما كانوا هم يمضون السنوات الخمس عشرة الماضية يبنون الصواريخ . فليس الاتحاد السوفياتي اقوى من الولايات المتحدة استراتيجيا فحسب ، بل ان اي قيادة جديدة هناك معرضة لان تكون مصابة بجنون العظمة » .

ووجه الجنرال هيغ تحذيرا الى مجلس الشيوخ بضرورة تأخير التصديق على معاهدة « سالت ــ ٢ » الى ان يتم تعديلها او تزيد ادارة كارتر ميزانية الدفاع زيادة ضخمة . وقال انه لو كان عضوا في مجلس الشيوخ لما صوت مع المعاهدة (٨) .

واذا اخذنا بعين الاعتبار ــ بالاضافة الى ضعف ادارة كارتر ــ الازمة الحادة التي تمر بها الرأسمالية الاميركية ، والتي يمكن ان تدفعها باتجاه اختيار رئيس عسكري . فاننا نستطيع ان نتوقع تعمق التيار الذي يمثله الكسندر هيغ واشتداد نفوذه . وهو تيار يدفع باتجاه دعم سباق التسلح النووي . من خلال المطالبة بزيادة النفقات العسكرية ، وباتجاه انتهاج سياسة مواجهة مع الاتحاد السوفياتي وتصعيد للتوترات في مناطق العالم المختلفة .

ومن المناسب ان نذكر هنا ان « ادارة بحوث الكونغرس » التابعة لمكتبة الكونغرس العامة نشرت مؤخرا (١٩٧٩/١/٤) قائمة باسماء الاسلحة الاستراتيجية التي « يمكن صنعها بطريقة قانونية في ظل معاهدة سالت ــ ٢ » والتي ــ في ظل اجواء يخلقها التيار الذي يعبر عنه الجنرال هيغ ــ سيتم صنعها بالتأكيد . وتضم القائمة اعدادا من الصواريخ وانظمة الاسلحة الهجومية والدفاعية يقدر لها ان تكلف مئات المليارات من الدولارات خلال سنوات الثمانينات .

ويجدر بنا ان نشير هنا الى ان هيئة اركان الحرب المشتركة الاميركية ، قررت تأييد المعاهدة امام الكونغرس .

ولا يعني هذا اننا نتصور ــ بالضرورة ــ ان المعارضة الداخلية في الولايات المتحدة ستتمكن

من الصمود في وجه معاهدة « سالت ـ ٢ » وستحبط عملية تمريرها في مجلس الشيوخ . ذلك ان المسألة ليست مرهونة بارادة هذه القوى المعارضة او بمشاريعها السياسية والعسكرية . انما هي مرهونة اساسا بما تعترف به هذه القوى قبل غيرها من تقدم الاتحاد السوفياتي في مجال الاسلحة الاستراتيجية الى حد لا يمكن معه التعامل مع مسائل العلاقات الثنائية ولا العلاقات الدولية على الاسس نفسها التي كانت سائدة عندما كان للولايات المتحدة تفوق استراتيجي حاسم على الاتحاد السوفياتي . فضلا عن انه ليس من المسلم به لدى الجميع في الولايات المتحدة ان زيادة الانفاق العسكري (وخاصة على التسلح الاستراتيجي الباهظ) يمكن ان يخرج الولايات من ازمتها الاقتصادية الخطيرة ، خاصة اذا وضعنا في الحسبان اعتبارات المنافسة الاقتصادية ـ المتزايدة حدة بين الولايات المتحدة والدول الحليفة لها .

قد تجر معاهدة « سالت ـ ٢ » طريقها الى تصديق الكونغرس الاميركي . وعلى اثرها ستبدأ مباشرة المحادثات لتوقيع « سالت ـ ٣ » ـ وستكون هذه بمثابة نقلة نوعية في جهود الحد من الاسلحة الاستراتيجية على نطاق عالمي . ولكن القوى الداخلية في الولايات المتحدة التي تعارض هذا الاتجاه للتطورات الدولية ستجد دائما حججا امنية وايديولوجية واجتماعية تستند اليها في موقفها الرافض . وبمعنى اوضح فان ازدواج الرأي في الولايات المتحدة بازاء هذه المسألة قابل للاستمرار لامد طويل ، وبالتالي كان تعقيد عملية « سالت » قابل ايضا للاستمرار ، ليس فقط بسبب ازدواجية الرأي في الولايات المتحدة ازاء مسألة التوازن الاستراتيجي ، انما ايضا بسبب المؤثرات الخارجية على هذه المسألة : ابتداء من الثورة التكنولوجية ، الى حركة التحرر الوطني العالمية ، الى ازمة الرأسمالية العالمية .

توازن .. واختلال

مع ذلك فانه لا بد من التسليم بان لمفاوضات « سالت » درجة من الاستقلالية عن الاحداث والتطورات المحيطة بها ، على الاقل من زاوية كونها تدور في دائرة الدولتين العظميين وحدهما ، وحتى اذا توسعت مع بداية المحادثات حول « سالت ـ ٣ » لتشمل عددا من الدول الاوروبية (الغربية والشرقية) فانها ستبقى داخل اطار التفوق التكنولوجي لهذه الدول المعدودة وانعكاسات هذا التفوق على المشاكل الامنية للعلاقات بين « القوى الكبرى » . وبالتالي ـ وبقدر هذه الاستقلالية ـ تلعب مشكلة الثقة بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي دورا خطرا في تكوين تصورات كل منهما ومدى استعداده للالتزام بما يتم التوصل اليه من اتفاقات ، وايضا مدى استعداده لتصديق التزام الطرف الآخر بها . وهنا لا بد من الاشارة الى ان كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد اكتسبا معرفة اكبر بكل منهما الآخر خلال السنوات العشر التي مضت منذ بدء محادثات « سالت » عام ١٩٦٩ . وهي معرفة كان جانب كبير منها ضروريا لتوصلهما الى الحد من الاتفاق الذي توصلا اليه ، سواء في « سالت ـ ١ » او « سالت ـ ٢ » .

وهكذا نستطيع ان نلمح صعودا في درجة الثقة المتبادلة بين الطرفين نتيجة لهذا « الفهم »

(ولا نقول التفاهم) من مستوى بعيد بلغته في « سالت ــ ١ » الى مستوى اعلى بلغته في « سالت ــ ٢ » على الرغم من استمرار الصراع بين الدولتين في كافة ــ المجالات ، بما فيه مجال التسلح الاستراتيجي نفسه . ونشأ عن هذا الفهم ادراك بانه لم يعد ثمة مفر من المضي قدما في عملية الحد من الاسلحة الاستراتيجية ووقف سباق التسلح الاستراتيجي . اي انه نشأ ادراك متبادل لضرورة الاتفاق على تجميد هذا الشكل من اشكال الصراع في ابعادها التي تعني ــ اذا انطلق انصارها واذا لم يتم اتفاق على تجميدها ــ فناء طرفي الصراع . وقد كان تجميد هذا الشكل من الصراع محكوما بعامل « الرعب النووي » ــ رعب الدمار الشامل للخصمين بل للبشرية جمعاء ــ مع استمرار التناقض بين النظامين ومصالحهما واهدافهما .. غير انه من الواضح ان طاقة الصراع الناشئة عن هذا التناقض تتجه ، اكثر من قبل ، نحو اشكال الصراع التي لا تدخل دائرة الدمار الشامل ، اي الى اشكال مثل الحروب المحدودة والتنافس الاقتصادي والتكنولوجي .

وينبغي عن هذا الجانب من الموضوع ان نتنبه الى حقيقة ان وصول معرفة الدولتين الكبريين بامكانيات الدمار الشامل التي تملكها كل منهما الى حد التسليم بضرورة وضع حد لمزيد من التراكم لقدرات التدمير الاستراتيجية قد سبق حدوث توازن موازي في قدرات الدولتين بشكل عام. بمعنى ان الاتحاد السوفياتي الذي استطاع ان يحقق الكثير في تطوير قدراته العسكرية الاستراتيجية خلال السنوات العشرين الماضية ، وانجز فتوحات تكنولوجية ضخمة في مجالات التكنولوجيا الفضائية ذات العلاقة المباشرة او غير المباشرة بالقدرة العسكرية (مثل مجال الفضاء) ــ لا يزال دون مستوى الولايات المتحدة من حيث القوة الاجمالية الاقتصادية ــ ولا ينطبق هذا على مجموع دول المعسكرين ، حيث لا يزال المعسكر الرأسمالي متقدما اقتصاديا على المعسكر الاشتراكي بمقاييس اجمالي الانتاج القومي ، ودخل الفرد ، والكفاية الانتاجية للقوى العاملة ، وحتى في حجم التراكم الرأسمالي اللازم للاستثمارات ونسبته من الدخل القومي . وتنعكس هذه المفارقة في حقيقة لا بد من ان تتضح عند تقييم اهمية ما حققه الاتحاد السوفياتي من توازن استراتيجي مع قوة الولايات المتحدة العسكرية ، وهي ان ما يتحمله الدخل القومي السوفياتي ــ وبالتالي دخل الفرد السوفياتي ــ من نصيب لتحقيق هذا التقدم الاستراتيجي يقدر بضعف ــ واكثر من ضعف ــ ما يتحمله الدخل القومي الاميركي ــ ودخل الفرد الاميركي ــ في سبيل الحفاظ على هذا التوازن .

وهنا يبرز عامل « العقيدة » او التوجيه الايديولوجي الذي مكن النظام السوفياتي من جعل هذه التضحية ممكنة في المجتمع السوفياتي .. وهو عامل له اثاره ليس فقط على تحقيق هذا التوازن ، بل له اثاره بالنسبة لاي تصور بامكان حدوث الصدام العسكري الفعلي بين الدولتين او المعسكرين . وبمعنى اوضح فانه اذا كانت « الايديولوجيا » قد لعبت دورا في تمكين الدولة الاشتراكية من تحقيق هذا الانجاز في المجال العسكري الاستراتيجي (النووي والتقليدي في الواقع) فانه من المتوقع ان تلعب ايضا دورها المؤثر في حالة ما اذا وضع هذا الانجاز موضع الاختبار العملي في صدام عسكري على اي مسرح كان . وبالفعل فقد بدأ الكتاب الاستراتيجيون الغربيون انفسهم ــ في وقت متأخر ــ يتنبهون الى ما للبعد الايديولوجي ــ والاجتماعي ــ من اهمية في مشكلة التوازن الاستراتيجي ، وظهرت في السنوات الخمس الاخيرة بحوث ودراسات

(معظمها صدر عن مراكز للدراسات الاستراتيجية او من بعض الجامعات والمعاهد المعنية بالشؤون الاستراتيجية والتي تقوم بدور استشاري بالنسبة لحكومات غربية ، وخاصة في الولايات المتحدة) ، تدعو الى اللحاق بالدول الاشتراكية في الاهتمام بهذا الجانب . وتتوصل هذه الدراسات الى استنتاجات محددة في ما يتعلق بدور الايديولوجيا الاجتماعية في اي « سيناريو محتمل » لاستراتيجية يجري وضعها او لحرب يتصور وقوعها.

وعلى سبيل المثال نجد مفكرا استراتيجيا غربيا مثل مايكل هوارد (استاذ تاريخ الحرب في جامعة اكسفورد البريطانية) يكتب بحثا مستفيضا عن « الابعاد المنسية للاستراتيجية » يقول فيه : « اذا نشبت حرب نووية على الاطلاق فانها ستنشب هنا (يقصد في اوروبا) على الارجح ، وفي اوروبا من شأن مثل هذا الصراع ان ينطوي لا على مجرد تبادل اطلاق الصواريخ النووية العابرة للقارات ، انما سينطوي على صراع قوات مسلحة للسيطرة على الارض ، وبالاحرى على ارض ذات كثافة سكانية عالية . والاهتمام الذي يبديه الكتاب السوفيات في مسار مثل هذه الحرب ، والذي قد يجده بعض الكتاب في الغرب اهتماما شريرا للغاية ، يبدو لي من قبيل الحس السليم لا اكثر .. ان الاهتمام الذي يوليه الكتاب السوفيات لأهمية استقرار البنية الاجتماعية لأي دولة مشتركة في حرب نووية يبدو لي ايضا امرا له ما يبرره تماما .. ».

ويضيف هوارد الى ذلك قوله :

« لا يمكن ان يقوم شك ولو ضئيل في ان مجتمعات ، كمجتمعي الاتحاد السوفياتي وجمهورية الصين الشعبية ، قد طورت اليات (ميكانيزمات) قوية للسيطرة الاجتماعية ، وتتمتع بميزة اولية ظاهرة على مجتمعات الغرب التي تعمل وفق اتفاقات في الرأي يتم التوصل اليها من خلال خلافات وصراعات محتملة .. واذا اخذنا في الحسبان البعد الاجتماعي للاستراتيجية في العصر النووي فانه من المرجح ان نستنتج ان القادة الغربيين قد يجدون من الصعب للغاية عليهم ان يبدأوا حربا ذرية اكثر مما يصعب ذلك على اقرانهم السوفيات » (٨) .

ولنأخذ مثلا آخر للاهتمام بالبعد الاجتماعي في التفكير الاستراتيجي الغربي . ونجد هذا المثل فيما يقوله الاميركي ريتشارد بارنت « الزميل » بمعهد الدراسات السياسية :

« ان واحدا من التهديدات الرئيسية التي تتعرض لها قوة الولايات المتحدة واستقرارها الاقتصادي ومكانتها ، لا يمكن ازالته باستخدام القوة العسكرية . فتماما كما ان الصور المأساوية لأخر الطائرات الاميركية ــ وهي تغادر سايغون المحاصرة كانت ترمز الى عجز الولايات المتحدة عن استخدام قوتها العسكرية بنجاح في ثورة بعيدة ، كذلك فان مليارات الدولارات قيمة المعدات الحربية المعقدة التي ترقد مشلولة الى جانب حقول النفط المضربة والمباني المحترقة في ايران ترمز الى عدم مناسبة القوة السياسية المستوردة للحركات السياسية المحلية .. القوة العسكرية لن تمكننا من مساندة الدولار ــ او المحافظة على قدرة الوصول الى مصادر الثروة الحرجة ، او ممارسة نفوذ سياسي على نحو ما كنا نفعل » (٩) .

لكن ثمة بعدا آخر لأهتمام الغرب بالبعد الايديولوجي والاجتماعي لمشكلة التوازن

الاستراتيجي ، وتأثيراتها على مواقف الاتحاد السوفياتي بالنسبة لمحادثات « سالت ـ ٣ » . هذا البعد المهم هو محاولة فهم « العقيدة العسكرية السوفياتية » فهما نظريا من خلال العقيدة الفكرية للقادة السوفيات ، او بالاحرى العقيدة التي يقوم عليها النظام الاجتماعي السوفياتي ككل ، وهي الماركسية ـ اللينينية . ومـن هنا برز الاهتمام بالمضامين الاستراتيجية ـ العسكرية للماركسية ـ اللينينية ، وانعكاساتها وتفسيراتها في كتابات الاستراتجيـين السوفيات . وخاصة العسكريين منهم .

وفي هذا الصدد يلاحظ ان معظم الكتابات الغربية ـ وخاصة الاميركية ـ وقع تحت تأثير النظرية الغربية القائلة بتقارب الراسمالية والاشتراكية ، والتي تذهب الى ان الواقع المتطور يأخذ افضل ما في النظامين ، وانه بالتالي لن يكون مجتمع المستقبل لا راسماليا ولا اشتراكيا ، وانما مزيج منهما جديد في خصائصه . فاتجهت ابحاث الاستراتجيين الاميركيين خاصة في محاولتهم لفهم تطور الفكر الاستراتيجي والعسكري السوفياتي نحو رؤية جوانب الاتفاق والتماثل فيما توصل اليه الاستراتيجيون الغربيون والسوفيات من استنتاجات حول قضايا الحرب والاستراتيجية والقوة النووية ... الخ .

وثمة استنتاج اخر توصل اليه الكتاب الاستراتيجيون الغربيون يذهب الى ان العسكريين يلعبون الدور الأكبر في رسم الاستراتيجية العسكرية السوفياتية ، في حين ان الفكر العسكري الاستراتيجي في الولايات المتحدة هو شأن من شؤون مفكرين مدنيين بالدرجة الاولى . ورتبوا على هذا الاستنتاج عددا من الامور ، منها لدى اهتمام العسكريين السوفيات انفسهم بمحادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية وفي هذا الصدد يقول رايموند غارتهوف كبير مستشاري وزارة الخارجية الاميركية في وفد الولايات المتحدة الى محادثات « سالت ـ ١ » .

« خلال الجولات الثلاث الاولى من سالت ، من اواخر العام ١٩٦٩ « نهاية العام ١٩٧٠ ، كان العضو الثاني في الوفد السوفياتي هو الكولونيل جنرال(الجنرال في الجيش الآن) نيكولاي اونماركوف ـ وكان وقتها نائب رئيس اركان القوات المسلحة السوفياتية . وحينما يكرس رجل له هذا المركز الكبير والمسؤوليات الواسعة ثمانية اشهر من فترة ١٤ شهرا ليكون في وفد بالخارج ـ بالاضافة الى ما قضاه من وقت في موسكو للاعداد لكل جولة مفاوضات ـ فان هذا يبرهن على مدى الجدية التي تعزوها الحكومة السوفياتية والعسكريون السوفيات لمحادثات سالت[١] .

ويضيف غارتهوف « ان العسكريين السوفيات هم الذين توصلوا في العام ١٩٦٩ الى النتيجة القائلة بان التفوق الاستراتيجي ـ بمعنى قدرة توجيه الضربة الاولى مع السماح بالافلات من ضربة انتقامية ساحقة ـ لم تعد ممكنة لأي من الجانبين في الظروف المعاصرة .. وانه نتيجة لهذا دخل الى حيز الوجود نوع من التوازن النووي من حيث قدرات التدمير المتبادل . وفي الوقت نفسه فقد اقلقهم امكان تعرض هذا التوازن للتهديد اذا حقق احد الطرفين(الولايات المتحدة) دفاعا صاروخيا مضادا على درجة عالية من الكفاية بينما لم يحز الطرف الاخـر (الاتحاد السوفياتي) على مثل هذا الدفاع » [١٢] .

وتؤكد كتابات غربية عديدة ان الاستراتجيين الغربيين (الاميركيين بالتحديد) قد توصلوا الى النتيجة نفسها في حوالى هذا الوقت نفسه حينما خرجوا بـ « نظرية الجنون » (نظرية « التدمير المؤكد المتبادل » Mutual Assured Destruction – وتكتب اختصارا بحروفها الاولى MAD ومعناها « مجنون ») . كما تؤكد هذه الكتابات ان اهتمام الاتحاد السوفياتي والاميركيين المدنيين بالقضايا الاستراتيجية قد نما مع تفاصيل محادثات « سالت » في وقت واحد تقريبا .

مع ذلك فان هناك اختلافات عديدة بين التصورات والمفاهيم السوفياتية والاميركية التي تحكم مواقف الدولتين في محادثات « سالت » ، والتي ستظل تحكمها حتى في المرحلة التالية من هذه المحادثات التي ينتظر ان تتسع لأطراف دولية اخرى (اوروبا الشرقية والغربية) .

وتشمل هذه الاختلافات مفاهيم « الردع » و« التوازن » و« الخوف المتبادل » ، وبالتالي بانها تتناول اهداف كل من الطرفين من وراء التوصل الى معاهدات « سالت » .

وعلى سبيل المثال يعتبر روبرت لينغفولد (عضو مجلس العلاقات الخارجية الاميركي – نيويورك) ان مفهوم « الردع » لدى الولايات المتحدة هو « بناء عقلي من صنع مدنيين وتمتد جذوره في النظرية السيكولوجية او نظرية التنافس ، وليس في النظرية التنظيمية احدى نظريات العلم العسكري . اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي فانه مفهوم عرضي ، او هو اثر جانبي ينشأ عن انجاز مهام اخرى اولية ، منها سياسة خارجية قوية ودفاع منيع » بل يلاحظ لينغفولد انه لا يوجد مقابل في اللغة الروسية للكلمة الانكليزية Deterrence (الردع) ، وان هم القادة العسكريين السوفيات الاول هو الانتصار في الحرب (١٣) . (وكأنه يريد ان يقول ان الامر ليس كذلك بالنسبة للقادة العسكريين الاميركيين !).

ويولي مفكر استراتيجي اميركي اخر اهتماما لتطور مفهوم السوفيات عن « الهجوم المفاجيء » من الاعتقاد خلال الخمسينات بان الهجوم المفاجيء في العصر الذري ليس من مشكلة ان يكون حاسما في حرب بين الاتحاد السوفياتي والامبريالية الاميركية ، وان سيكون بامكان القوات المسلحة السوفياتية – حتى اذا تعرض الاتحاد السوفياتي لهجوم نووي مفاجيء – ان ترد الهجوم بنجاح وان توجه ضربات مضادة للعدو ، وان تضمن النصر ... الى مفهوم عكسي – في اواخر الستينات – يقول بان الهجوم المفاجيء في العصر النووي يمكن ان يكون حاسما ، وبالتالي فانه لا بد من توجيه العقيدة العسكرية وجهة ترتكز على جعل الهجوم المفاجيء امرا غير ممكن عمليا (١٤) .

ويستدل من هذا التطور على صحة الرأي القائل بان محادثات « سالت » هي في الحقيقة عملية ذات ثلاثة جوانب ، فهي ليست فقط محادثات ثنائية بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وانما هي ايضا نقاش دائر داخل الاتحاد السوفياتي ، ونقاش دائر داخل الولايات المتحدة . وهو نقاش دار في معظمه حول محدودية الفائدة السياسية التي يمكن ان تجنى من وراء سباق التسلح الاستراتيجي ، بل حتى من وجود الحد القائم من هذا التسلح ، خاصة اذا قورنت باضرار هذا السباق الاقتصادية .

مع ذلك فان التطور بالنسبة للحد من الاسلحة الاستراتيجية يتجه بها بعيدا عن الطابع الثنائي الذي بدأت به واحتفظت به حتى توقيع « سالت ـ ٢ » في حزيران (يونيو) الماضي . والواقع ان اوروبا الغربية هي الطرف الاكثر اهتماما بمحادثات « سالت » بين كل المناطق الجغرافية في العالم خارج اطار الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وذلك بسبب قرب اوروبا الغربية الشديد من الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية الى حد خطر . ويلاحظ ان الخطين المتعارضين في النظر الى محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية (وخاصة « سالت ـ ٢) اللذين لاحظنا وجودهما في الولايات المتحدة موجودان بالمثل في اوروبا الغربية .

فهناك من ينبه الى ان تركيز محادثات « سالت » على الاسلحة الاستراتيجية البعيدة المدى التي يستطيع بها الاتحاد السوفياتي ان يصيب اهدافا في الولايات المتحدة ، وتلك التي تستطيع بها الولايات المتحدة ان تصيب اهدافا في الاتحاد السوفياتي معناه حماية الولايات المتحدة من هجوم نووي سوفياتي ولكنه لا يعني حماية لأوروبا الغربية من هجوم كهذا، بل ان ما اتفق عليه في « سالت ـ ٢ » من تخفيض للاسلحة الاستراتيجية يحدد قدرة الولايات المتحدة على حماية اوروبا الغربية (١٥) .

وقد ذكر بيير ليلوش الخبير الاستراتيجي بمعهد العلاقات الدولية الفرنسي « ان « سالت ـ ٢ » ليست صفقة سيئة بالنسبة للولايات المتحدة ، ومن المحتمل انها تعكس بامانة التوازن الاستراتيجي القائم ، ولكني وانا اجلس في الوسط ـ في اوروبا ـ لا ارتاح اليها قدر انملة »(١٦) . وقالت مجلة « تايم » الاميركية قبل وقت قصير من توقيع « سالت ـ ٢ » ان كثيرا من زعماء اوروبا الغربية يشاركون ليلوش رأيه ، ويخشون ان تكون النتيجة الرئيسية للمعاهدة هي تحويل مركز سباق التسلح من الترسانات « الاستراتيجية » الى « الترسانات التكتيكية » ، اي الى المواجهة بين الشرق والغرب في اوروبا نفسها . ونقلت عن مسؤول بوزارة الدفاع في بون قوله « ان سالت ـ ٢ رائعة ولكنها لا يمكن ان تعتبر اكثر من بداية طيبة . ونحن ننتظر بشغف شديد سالت ـ ٣ لدى شيئا يمكن عمله في النهاية بشأن الصواريخ الباليستيكية المتوسطة المدى » .

ولكن هناك رأيا اخر يعلق اهمية كبيرة على محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية . ويعتبر ان امتناع الكونغرس الاميركي عن التصديق على « سالت ـ ٢ » ـ اذا حدث ـ سيكون بمثابة كارثة على عملية التقارب بين الشرق والغرب ، باعتبار ان هذه المفاوضات اصبحت « بارومتر » الوفاق والتجسيد الرئيسي له . ويرى اصحاب هذا الرأي ان اي انقلاب في تيار الوفاق الذي تعبر عنه « سالت » نحو علاقات اكثر عدائية هو امر غير مرغوب فيه اطلاقا ، وسيخلق مشكلات استقطاب سياسي داخلي في كل من فرنسا ، وايطاليا (حيث يوجد اكبر حزبين شيوعيين في العالم الغربي) والمانيا الغربية ، (التي تعلق اهمية كبيرة على تحسين علاقاتها مع جاراتها الشرقية) .

مع ذلك فان اصحاب هذا الرأي وذاك متفقون على ان توقيع « سالت ـ ٢ » يطرح بالحاح مشكلة « التوازن الاوروبي » وهي مشكلة تتجاوز حدود الاسلحة الاستراتيجية الى القوات التقليدية (غير النووية) بين قوات حلفي الاطلسي ووارسو .

وهكذا فقد بدأت ـ خارج الاطار الرسمي ـ مناقشة الاستراتيجيين الغربيين لما يسمى لمشكلة « المنطقة الرمادية » ، وهو تعبير يقصد به المجال الواقع بين الاسلحة الاستراتيجية والاسلحة التكتيكية فيما ينطبق جغرافيا على اوروبا الغربية . وبلغ حجم الاهتمام بهذه المنطقة حد القول بانها « ستأتي من حيث الترتيب بعد مشكلة الدولار على جدول اعمال العلاقات بين الولايات المتحدة واوروبا في السنوات العديدة المقبلة » (١٨) .

واصبح في حكم المؤكد ان تدخل مشكلة الصواريخ المتوسطة المدى في محادثات « سالت ـ ٣ » ، وان تصبح خلال الاشهر او السنوات القادمة واحدة من المسائل الرئيسية بين الدول الغربية والاتحاد السوفياتي من ناحية وداخل حلف الاطلسي من ناحية اخرى ، كما ستكون مشكلة من مشكلات السياسة الداخلية لعدد كبير من الدول الاوروبية (١٩) . (صاحب هذا الرأي ـ فرانسوا دي بوز ـ كان سفيرا لفرنسا لدى حلف الاطلسي طوال الفترة من ١٩٧٠ الى ١٩٧٥ . وتربطه علاقة وثيقة لعدة سنوات بالبرامج النووية الفرنسية العسكرية والمدنية) . بل ان ابيل وزير الدفاع في المانيا الغربية حذر الولايات المتحدة في العام الماضي من ان « سالت ـ ٢ » ستؤدي الى ترك الولايات المتحدة في مواجهة قوة ساحقة من الاسلحة السوفياتية في المنطقة الرمادية ، وان حل مشكلة المنطقة الرمادية هو واحد من اكثر المهام الامنية اهمية ، التي تواجه حلف الاطلسي اليوم (٢٠) . وبدأ الحديث عن تعمق شكوك الدول الاوروبية الحليفة للولايات المتحدة في قدرة الاخيرة على حماية المصالح الامنية الاوروبية ، او في اهتمامها بذلك . ولهذا فانه من المؤكد ان مفاوضات مضنية بين الولايات المتحدة وحلفائها في اوروبا الغربية حول هذه المسألة الامنية الرئيسية ستسبق اية مفاوضات في اطار « سالت ـ ٣ » بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وذلك فيما يوصف « بمرحلة تخطيط ضرورية يتم فيها تحديد وتحليل الخيارات ، وتسبق مرحلة اتخاذ القرار باختيار واحد او اكثر من هذه الخيارات لوضعه موضع التنفيذ . اي انه لا بد من التوصل داخل الغرب الى اتفاق في الرأي حول هدف واتجاه وحدود الاستراتيجية الغربية للحد من التسلح . ولما كان التوصل الى مثل هذا الاتفاق في الرأي قد امنت انه امر صعب في داخل الولايات المتحدة نفسها خلال السنوات العشر الماضية ، فانه من المؤكد ان يكون اشد صعوبة حينما يدخل فيه حلفاء اوروبيون او غيرهم (كاليابان مثلا) . بل ان التوصل الى اتفاق في الرأي داخل اوروبا الغربية نفسها سيكون امرا صعبا للغاية بسبب الاختلافات الكامنة في وجهات النظر والتقديرات للمخاطر والمواقف من الاسلحة الذرية بين دولها. فـ«حلف الاطلسي» ـ على الرغم من تاريخ امتد ٣٠ عاما ـ يفتقر الى الخبرة بخلق اتفاق في الرأي السياسي وفي اتخاذ قرارات جماعية للتحالف خاصة في مجال المفاوضات بين الشرق والغرب في ما يتعلق بالامور المتصلة بالاسلحة النووية ، وهي امور تنطوي على مسائل خطيرة بالنسبة للامن القومي والبقاء (٢١) .

وبطبيعة الحال ، عندما تثار الامور المتعلقة بامن اوروبا الغربية ، تثار في الوقت نفسه الامور المتعلقة بامن اوروبا الشرقية . وهنا تلعب عوامل عديدة دورها في تحديد الصعوبات امام « سالت ـ ٣ » . هناك عامل الجغرافيا حيث الحليف الرئيسي لأوروبا الشرقية ، (اي الاتحاد السوفياتي) قريب منها لا يحتاج الى عبور قارات لمساندتها ، بل ان بينه وبين دول اوروبا

الشرقية حدودا مشتركة . في حين ان الحليف الرئيسي لأوروبا الغربية (الولايات المتحدة) تفصله عنها مياه المحيط الاطلسي بما يعنيه ذلك من اعتبارات عسكرية وعملياتية . وهناك عامل الايديولوجيا ، حيث العلاقة بين الاتحاد السوفياتي وحلفائه في اوروبا الشرقية (وان كنا نستبعد تصورها علاقة تطابق كامل في وجهات النظر والاهداف والتقديرات والمصالح) تستند الى توجه ايديولوجي ، بما لذلك من انعكاسات تفصيلية على الميادين العسكرية والسياسية حتى ابسط اشكالها ، كوحدة التدريب وتكامل برامج التسليح والتوجيه المعنوي .. الخ . وهناك عامل السياسة حيث لوجود الاحزاب الشيوعية ــ مثلا ــ داخل اوروبا الغربية تأثيره الاكيد على تكوين مواقف دولها سواء تجاه الولايات المتحدة او تجاه الاتحاد السوفياتي ، في حين لا يوجد وجود موازن لهذه الاحزاب وتأثيرها على الجانب الشرقي من اوروبا .

وهكذا نجد ان الاتحاد السوفياتي يستفيد من دخول اوروبا الشرقية طرفا في محادثات « سالت ــ ٣ » ، حتى في حالة اصرار اوروبا الغربية على طرح مشكلة « المنطقة الرمادية » . في حين ان اشتراك اوروبا الغربية الى جانب الولايات المتحدة في هذه المحادثات سيكون من شأنه تعقيد الامور عليها . خاصة وان لفرنسا ــ مثلا ــ سياسة نووية مستقلة ترفض في اطارها الى الان توقيع معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية وحظر اجراء التجارب الذرية في الجو ، فضلا عن موقفها الخاص من حلف الاطلسي الذي انسحبت من هيئته العسكرية منذ ١٠ سنوات . وحتى اذا فكرنا في اطراف اوروبية شرقية لا تشارك الاتحاد السوفياتي في وجهات نظره بالكامل ــ مثل يوغوسلافيا ورومانيا ــ لا بد ان تضع في الاعتبار ان قربها من الاتحاد السوفياتي ، بقدر بعد اوروبا الغربية عن الولايات المتحدة يجعلها تتردد كثيرا قبل تبني اي سياسة استراتيجية تعتمد على التقارب مع الولايات المتحدة البعيدة اكثر مما تعتمد على الاقتراب من الاتحاد السوفياتي القريب . والعكس بالعكس بالنسبة لدول اوروبا الغربية التي تجد نفسها في موقع القريب من « الخطر » .. البعيد عن « الحليف » .

الواقع ان الاتحاد السوفياتي قد جنى ثمار انجازه المتعادل الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، والذي لولاه لما كانت تحققت كل خطوات الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، لان هذه المحادثات مبنية على اساس اعتراف متبادل بهذا التعادل وبضرورة الحفاظ عليه . ومع تحييد القوة الاستراتيجية للدولتين العظميين ــ بحكم هذا، التعادل نفسه . تعود التناقضات الاخرى لتلعب الدور الرئيسي في الصراع بين النظامين الاشتراكي و الامبريالي . ولكن هذا لا يعني اغفال حقيقة ان الاتحاد السوفياتي بحكم تحقيق هذا التوازن نفسه قد وضع الأساس الضروري لحرية حركة النظام الاشتراكي وحركة التحرر الوطني العالمية في مواجهة الامبريالية دون خوف من جبروتها العسكري . ومن شأن التطورات المستقبلية ان تقيم تقييما موضوعيا وسليما قيمة هذه الخطوة التاريخية بالنسبة لمصير الانسانية ، ككل ، على الاقل في المسائل الدولية ، وفي مصائر اقطار العالم وشعوبه .

(1) Christoph Bertram (ed.), The Future of Arms Control: Part I, Beyond Salt II, (Adelphi Papers No. 141) *The International Institute for Strategic Studies*, London, 1978, *p.* 2.

(٢) محمد سيد احمد ، الانعكاسات الدولية لتوقيع اتفاقية « سولت ـ ٢ » ، السياسة الدولية ، القاهرة ، العدد ٥٦ ، ابريل ١٩٧٩ ، ص ٢١١ .

(3) Adam Ulam, U.S.-Soviet Relations: Unhappy Coexistence, *Foreign Affairs*, America and the World, 1978, *p.* 556.

(4) *International Herald Tribune*, 20 January 1979., *p.* 1.

(5) *International Herald Tribune*, November 11-12, 1978, *p.* 5.

(6) Kissinger's Critique, *The Economist*, Feb. 3, 1979.

(7) *Time*, August 13, 1979.

(٨) لمزيد من التفاصيل عن نظرية « الربط » انظر :

سمير كرم : « معادلة التوازن الاستراتيجي ، بين سحر التكنولوجيا والعقيدة العسكرية » ، شؤون فلسطينية ، العدد ٨٠ ، تموز (يوليو) ١٩٧٨ .

(9) *International Herald Tribune*, August 8, 1979.

(10) Howard, Michael, «The Forgotten Dimensions of Strategy», *Foreign Affairs*, Summer 1979, *pp.* 982-86.

(11) Barnet, J. Richard, «U.S.-Soviet Relations: The Need for a Comprehensive Approach», *Foreign Affairs*, Spring 1979, *pp.* 791-92.

(١٢) انظر على سبيل المثال :

Sienkiewicz, Stanley: «Salt and Soviet Nuclear Doctrine», *International Security*, Spring 1978, pp. 84-100.

- Legvold, Robert, «Strategic Doctrine and Salt: Soviet and American Views», *Survival*, January-February 1979. *pp.* 8-13.

(13) Garthoff, Raymond L., «Salt and the Soviet Military», *Problems of Communism*, January - February 1975.

(14) *Ibid.*

(15) Legvold, *Op. Cit.*

(16) Sienkiewicz, *Op. Cit.*

(17) Williams, Phil, Salt, Strategy and Atlantic Relations, RUSI, *Journal of the Royal United Services Institute for Defence Studies*, London, March 1979.

(18) *Time*, May 21, 1979.

(19) Williams, *Op. Cit.*

(20) Treverton, Gregory, «Nuclear Weapons and the Grey Area», *Foreign Affairs*, Summer 1979, *p.* 1975.

(21) Rose, Franscois de, The Future of Salt and Western Security in Europe, *Foreign Affairs*, Summer 1979, *p.* 1065.

Paul, Arms Control Enters the Grey Area, *International Security*, Winter 1978-79

(22) *International Herald Tribune*, September 18, 1975.

(23) Metzger, Robert and Doty,

« رصد إذاعة إسرائيل »

نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية باللغة العبرية .

عادت نشرة « رصد اذاعة إسرائيل » الى الصدور ، مجدداً ، عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية . وقد أضيف الى موادها ما تبثه إذاعة الجيش والتلفزيون الاسرائيلي أيضاً .

ترسل النشرة الى المشتركين فقط

الاشتراك السنوي
٥٠٠ ل.ل. ، عدا أجور البريد .

ترسل الاشتراكات الى :

قسم التوزيع ، مركز الابحاث ، م . ت . ف . ، ص.ب. ١٦٩١ ، بيروت ـ لبنان .

فـواز تـركي

نص الغربـــة

في تلك الايام كانت بيروت لا تـزال اثرا لظل مـــن ماضينا الاستعماري . وداخل بطنها كان يعيش عدد لا يحصى من النفوس المحرومة من حقوقها الطبيعية والانسانية وهي من عالم الفقراء والعاجزين وعديمي الجنسية . وكانوا يتدفقون الى الشوارع طوال النهار وطوال الليل ، كل يوم وكل ليلة من ايام السنة ولياليها ، في نوع من المشاركة المعقدة مع مدينة طال جنونها من اختبارها الاستعماري وحدة اله . وكان بائعو بطاقات اليانصيب يطوفون في شوارعها ويصرخون بالامهم الى السماء ، تماما كما يفعل بائعو العلكة وماسحو الاحذية وتجار السوق السوداء والقوادون والمتسولون والاحداث الذين لم يتجاوزوا الثانية عشرة بعد ، وجميعهم يمتصون شقاءهم كأنه القلب النابض لاحد الأكوان . وكان الفقراء يضربون الفقراء ، والعاجزون يدفعون العاجزين، وعديمو الجنسية ينخسون عديمي الجنسية . وكأبناء اية مدينة اخرى من مدن العالم الثالث ، كانوا يخدشون باصابع عتيقة وينفسون عن عدوانهم ضد بعضهم البعض ويتنافسون على ملكية الشوارع وعلى عالم لا وجودهم المشوه . وفي لحظة بشعة من الوقت المتزامن ، تعايش مع هذا العالم ، وعلى مسافة صرخة ألم مهموسة منه ، العالم الآخر للاثرياء والاقوياء والدولة . ومدفوعا بالعواطف المستوردة والاحتياجات الغربيـة المتنافرة ، قام هذا العالم بعيدا عن الحياة ، بعيدا عن لبنان . ولم يكن لواقعه واقع ، فيما عدا واقع تغذية الغيظ الذي صار فيما بعد اكثر عنفا من ان تحتويه حدود البلد الصغير .

وربما لم يعرف الأسياد والحكام المطلقون ، المحليون والاستعماريون ، الذين كانوا قد اعادوا تجميع الواقع السياسي والاقتصادي للبنان استجابة لمصالحهم ، ان بيروت ، والبلد الذي هي عاصمته ، لا يمكن ان تبقى الى اجل غير محدود موطنا لقوتين تتعارض احداهما ديالكتيكيا الى هذا الحد مع الاخرى . او ربما كانوا يعرفون لا يستطيع احد التأكد من ذلك .

اطوف في شوارع المدينة اليوم ، في شتاء ١٩٧٩ ، باحثا عن بقايا ضئيلة لكسرة او كسرتين قد اكون تركتها ورائي لعشرين سنة خلت . وتحت الاطلال لا ارى الا الوهم الساذج لماضي المدينة .

ومع هذا فههنا نشأت ، في الشوارع ، مع جيل من الفلسطينيين الذين كانوا مجرد اطفال

عندما غادروا فلسطين . وكان في بيروت ، في العالم المدمر لمخيمات اللاجئين ، ان قمت بقفزتي الاصلية الى وعي ناضج وان كونت نظرتي الى العالم . وكان هنا ان اعيد جمع امتنا في المنفى ، جمعا اقوى منه في اي جزء آخر من اجزاء غربتنا . وكان هنا ان خلقت صيغ الوعي الباطني لجيلي الوطن الوجودي الاصيل الوحيد في العالم ، وهو وطن كانت علته وتوتراته الجماعية ، طيلة هذه السنين ، جزءا لا يتجزأ من جغرافية روحي .

اليوم في بيروت ابحث عن الصلة التي تربط جيلي من الفلسطينيين بجيلين آخرين ــ جيل والدي وذلك الجيل الذي ولد ونشأ كليا في المنفى . ولعلي بفعل ذلك سأتعلم شيئا عن المشاغل الداخلية للنفس الوطنية للفلسطينيين،وعما يؤلف أبعاد وطن وجودي.وقد اتعلم لماذا لايوجد اي انقطاع في الصلة التي تربط وعيي بوعي الفلسطينيين الآخرين الذين « بقوا » في لبنان واماكن اخرى . وقد اكتسب فكرة متماسكة عن كيف ان روح كل جيل كان قد نشأ عن نفس الباعث ، عن الرغبة في العودة الى فلسطين ، على الرغم من كون كل جيل قد جلب معه على نحو محتوم شيئا مختلفا ـ ظلا من الفارق يضاف الى هويتنا،توترا خاصا يتميزبه.وكيف ان رؤيا العودة، الكثيرة الشيوع في ادابنا وفولكلورنا وعادات تبادلنا الاحتفالي ، قد غدت اختبارا متقاسما ، كالدين والاسطورة ، وثبت الفلسطيني الفرد من خلالها مجموعة معانيه .

جئت الى هنا،الى بيروت لاجد اجوبة عن نفسي كما عن شعبي . واظل اسأل لماذا . لماذا تبقى الميثولوجيا الناشطة لجيل والدي ، عند المستويات المنوية للارتباط بها ، مطابقة لميثولوجيتي ؟ وما هي الطاقة المعقدة واء كون لغة واستعارة الفلسطينيين في كل مكان تتميزان بشبه داخلي لهم ، استقلال مغلف خاص بهم . ولماذا لم نختف كليا في انفساح غربتنا ؟ ولماذا في مواضعنا المجزأة المتباينة ، في الضفة الغربية وغزة و« داخل اسرائيل » ، وفي الكويت والعربية السعودية وسورية واجزاء اخرى من العالم العربي ، وفي استراليا والولايات المتحدة واوروبا ، لم نفقد قبضتنا على فلسطيني بوصفها المرجع الوحيد في حياتنا اليومية ، حتى بعدما فقدت فلسطين مسوغاتها الجغرافية بوقت طويل ؟ ولماذا في كل مرة عاد بها فلسطيني الى لا وعيه ، لينشد تحديداته الذاتية ، وليضم جراح حاسة آخريته ، كان على اتصال بلا وعي جماعي متجذر في فلسطين ؟ ولماذا تحولت فلسطين الى فكرة بقدر ما هي ارض ودخلت ، بمثل هذا اليأس ، نفس الفلسطينيين واضطرم فيها اللهب ، فغدت المصدر البنيوي الوحيد لتوتراتهم ، ولوضعهم الوجودي والاختباري ؟

البعض بحث عن اجوبة اكاديمية لكل هذه الاسئلة وعثر عليها في سوسيولوجية الملعونين ، سوسيولوجية شعب اختبر خسارة تتخطى كل فهم عقلاني . حينما حاولت ان اعين سبب هواجسي ، معتمدا على موارد داخلية لايسعني ادراكهاولا تفسيرها ، وجدت جوابا واحدا . فانا اعتقد حقا اننا في الواقع لم نغادر فلسطين ابدا . اخذناها فحسب معنا ، سنة ١٩٤٨ ، ونقلناها ، سليمة ، الى الاماكن المختلفة في الغربة التي سكناها منذ ذلك الحين . واعلم انني لم اعش قط خارج فلسطين منذ ذلك الوقت ، لثلاثين سنة خلت ، عندما كنت طفلا في الثامنة ورحلنا انا وعائلتي على طول الطريق الساحلية من حيفا الى بيروت بحثا عن ملجأ . لقد حملت كسرة من فلسطين معي ، طيلة هذه الاعوام ، في اوروبا ، في الهند ، في استراليا ، في الولايات المتحدة ، وهي احتوتني في داخلها . وكل مرة حاولت ان اتركها ، مخبولا بحاسة آخريتي وتباعدي ،

برغبتي في الخلاص من الم كوني مختلفا ، ادركت انني كنت اخرج من صيغة المضارع في قواعد روحي .

لدى عودتي الى بيروت في شتاء ١٩٧٩ ، كنت آنذاك ازور من جديد قطعة من فلسطين في لبنان ، واحيا من جديد اختبارا كانت له قيمة مركزية مهمة في حياتي . واردت ايضا ان ارى اين ينطبق مكاني ، عند هذه المرحلة الحاسمة من تحولي الذاتي ، في امة فصلت عنها جغرافيا هذه السنين العشرين الماضية ، ولماذا بقيت هذه الامة ، على نحو لا يصدق بما لها من موارد قليلة ظاهريا ورغم تكرار الانقضاضات على حياتها واوصالها . واردت ان ارى أيا من اقربائي واصدقائي بقي على قيد الحياة . واردت ان اطالب باسترداد ملكية جزء من ماضي في بيروت ، وهو ماض ادرك ان سكونه المتجهم قد مهد الطريق للحماسة التي تميز هوية تلك الجيل من الفلسطينيين الذي جاء بعد جيلي.واخيرااردت ان ارى متى،في اي يوم قد يأتي وقد لايأتي، سوف ننبش جميع الالعاب،جميع الممتلكات غير الملموسة،التي تركناها في عليات وطننا. وجادلت رومنطيقيا باننني ربما اذ ادخل نفسي في محيط فليسطيني صرف حيث يعقد الناس صفقات يومية مع التاريخ،فان نار فلسطين الخلاقة ستغمرني،وفكرت انني ربما استطعت ، والصورة تمارس سحرا غريبا على ذهني ، ان ألمس فحسب طفلا من تل الزعتر ، نجا من الاعمال الوحشية البربرية التي انزلت في مخيم اللاجئين ذاك في ١٩٧٦ ـ المسه باصابعي الهشة التي لا تفعل اكثر من ان تضرب المفاتيح الخرساء لالة كاتبة كل يوم ، وسأستمد من اللمسة سحرا من النوع الذي سيضيف معنى الى توافه عملي في الولايات المتحدة . وفي وقت ما سأعرف لماذا ، من بين جميع الأشياء التي تقوم في علاقة حيوية متبادلة مع ثقافتنا ، قد اقحم شيء كرشيش الكلاشينكوف ، المستورد من روسيا ، نفسه في ميثولوجية حياتنا اليومية وشعرنا وفولكلورنا ورقصنا .

بيد انه كان ثمة شيء اكثر من النار الخلاقة والسحر في اللمسة المستمدة من بقاء طفل من تل الزعتر في زيارتي الى امتنا في المنفى ، بعد عشرين سنة من الغياب عنها .

اصل الى بيروت في يوم بارد من ايام شتاء ١٩٧٩ ، وجراح المدينة من الحرب الاهلية واشتباكاتها الطبقية لا تزال دامية وغير مندملة . ويلتقيني عند الطائرة فلسطيني متوسط العمر من « الحركة » يعتمر قبعة صوفية روسية . ويقول : « انا ابو كريم » .

لحظتي الاولى هنا واختبار هبوب نفحة من فلسطين « التي بقيت في لبنان » هما عميقا العاطفة . هذا فلسطيني حقيقي ، باسم مثل ابو كريم ، يتكلم بلهجة فلسطينية حقيقية ، واقفا هناك على الطريق المسفلتة ، مبتسما ومادا يده لاصافحها . وحبست ما انا متأكد انه دفق من الدموع . واقول ، علي ان اضبط نفسي ، فكيف سيكون رد فعلي للقاءات تنطوي على شحنات عاطفية اكبر ، ولزيارة مخيم لاجئي برج البراجنة من جديد حيث ترعرعت ، وجميع المخيمات الاخرى في لبنان ، التي هي مصدر لقدر كبير من الطاقة المعقدة في فلسطينيتنا وتاريخنا ؟

ونتعانق انا وابو كريم ويقبل واحدنا الاخر على الوجنتين كما هي العادة في ثقافتنا . انه يبتسم لي بكثير من الدفء ويتمتم مكررا « اهلا ، اهلا ، اهلا بك يا اخ » .

داخل المطار ، وراء حواجز الجمرك والهجرة ، هناك مئات من اللبنانيين العرب ينتظرون

وصول الركاب . ولهم جميعا وجوه عربية جميلة ، وجوه سامية عتيقة ببشرة سمراء وعيون سوداء . واحدق بهم ، ويختلف هذا بالنسبة لي عن رؤية عرب في حالة اجتماعية او قاعة محاضرات في الولايات المتحدة . هؤلاء هم عرب في العالم العربي ، خاضوا حروبا مختلفة في لبنان ، ومزقت حياتهم الام لا حصر لها . واذ انظر الى وجوههم متسائلا كيف حولتها التوترات المستمرة طيلة العقدين الماضيين ، ادركانني انظر الى الوجوه ايضا بنوع من الوجل والقلق ، وكأن وترا حساسا اصيب في ، مطلقا مخاوف قديمة . ربما كان الخوف الذي خامرني دائما في العالم العربي حيث ان اكون فلسطينيا في تلك الايام كان يعني ان اكون الآخر والأقل في نظام الاشياء ، للصيد للسباب من قبل هؤلاء الذين ارادوك دوما قريبا من الباب من اجل الطرد او الابعاد او السجن السهل .

استدير ويطلب مني ابو كريم ان اعطيه جواز سفري ورقم امتعتي . فافعل ذلك ونعبر الجمرك دون ان يفتشوا حقائبي ، ونمر عبر دائرة الهجرة ويختم جواز سفري في غيابي . واتساءل : كيف يستطيع ان يفعل ذلك ونحن **فلسطينيون** ؟

ومع انني اعي ، فكريا على الأقل ، التغييرات التي حصلت هنا ، فما زالت توجعني صور الفلسطينيين الموحشة في العالم العربي التي اخذتها معي عندما تركت هذا المكان لعشرين سنة خلت . وظللت افكر ان شرطيا ما سيعتقلني في اية لحظة الآن بوصفي فلسطينيا « شيوعيا ملحدا » ويورطني في مؤامرة ما لاحداث تغيير تحويلي في المجتمع . انا مثل رجل اصيب بالعمى ويستمر في ادراك واقعه في سياق صور يتذكرها .

خارج المطار اقع اسير مشهد يحبس الانفاس ، مشهد حميم ومتمم لطفولتي في بيروت حتى ان جميع حواسي تجفل .انه مشهد شارع،وسائقو سيارات الاجرة يحومون حول مركباتهم والبائعون واولاد العلكة والحمالون والصيارفة وكثيرون غيرهم ممن اختاروا منطقة المطار ليقوموا فيها باعمالهم ، جميعهم يصرخون في بعضهم البعض ، وفي العالم حولهم ، او يمتدحون صفات ما هم يبيعون . واصاب بالدوار من حدة المشهد والألم . اذ ها هنا ترعرعت ، وهكذا ترعرعت كطفل ، لعدد من السنين بعد ١٩٤٨ ، في شوارع بيروت ، بائعا ، سارقا ، جائعا ، متشاجرا ، وشاقا طريقي في الحياة . ها هنا اكتسبت تربيتي الاصلية قبل ان ابدأ في اكتساب مظهر تربية اكاديمية . في هذه الشوارع عينها . ويمد طفل لا يكاد يبلغ العاشرة ، مرتديا سترة رجل اكبر حجما منه ، صندوقا من العلكة في اتجاهي : « علكة ، ارجوك ! » .

هذا ليس صحيحا . هذا ليس واقعيا . الم يتغير شيء في لبنان ؟ حرب اهلية ازهقت ارواح الالوف ، من المقاتلين والمدنيين ، ولم يتغير شيء . كيف يمكن ان يقال ان شيئا قد تغير في لبنان اذا كان ما يزال هناك اطفال في الشوارع يبيعون العلكة ؟

« انا عربي » اقول لهم ، لجميع الاطفال المتجمهرين حولي ومعهم علب علكة التشكلس الممدودة نحوي وكأنها نياشين الشقاء والهزيمة . « لست اجنبيا . انا فلسطيني » اقول لهم وهم يكلمونني بنوع من الانكليزية .

واظل اقول : « انا عربي . انا فلسطيني » . وكأنني اريد فجأة ان اخلع كل السخام الفكري عن جسدي وروحي الذي اكتسبته في غربتي الغربية ، واحس بدافع قوي لمجرد الوقوف

في وسطهم . اريد ان اصرخ : « انا فلسطيني . انا عربي مثلكم». منذ وقت ليس ببعيد كان ألمكم ألمي ايضا . لا اشعر به اليوم ، ولكنه لا يزال المي . لا يزال جزءا من تقليد تصريحي وكفاف رؤياي . كل ما تعلمته في الغرب ، كل فكرة اعتنقتها ، هو مجرد مستحضر تجميل اضيف الى تلك القفزة الأولى لنضوجي التي قمت بها هنا، معكم،وافهم كل شيء ، ولا استعمل غير حاسة فلسطينيتي الاصلية . افهم . افهم لماذا كان يقف الرجال والنساء والاولاد بذل في الصف خارج مستودع اغذية تابع للاونروا كل شهر ، ليتسلموا حصتهم من الغذاء ، في مخيم لاجئي برج البراجنة ، ولماذا القوا نظرات مختلسة الى بعضهم البعض ، واصواتهم ، كوجوههم ، مليئة باليأس الهادىء . وافهم لماذا ذهب الرجال بعشرات الألوف الى شبه الجزيرة العربية ليعملوا في حقول النفط مقابل اجور زهيدة ، والنوم في صناديق من الصفيح هي بيوت مصنوعة مقدما ، كل عشرة في صندوق ، فيما تركوا وراءهم اطفالا وزوجات ووالدين . وافهم لماذا الاطفال في غرف الصف في المدارس التي كنت اذهب اليها في بيروت ارتجفوا تحت ثيابهم في وسط الشتاء . وافهم لماذا كان الفلسطينيون ينقلون من مكان لآخر ، مدة اشهر ، في دائرة الاجانب في وزارة الداخلية لمجرد الحصول على تصريح للسفر خارج البلاد (واحيانا داخل البلاد) لزيارة قريب او السعي وراء وظيفة . وافهم لماذا نحن ، كفلسطينيين ، اختبرنا درجة لا يمكن تصورها من الارهاب خلال اسفارنا في الخارج كاشخاص عديمي الجنسية ، اذ نعبر الحدود بقطعة من الورق صورتنا ملصقة عليها ، تشهد على اننا لا ننتمي الى جنسية معترف بها ، ولا نتمتع بحمايات وقوانين اية حكومة او مؤسسات او دولة معترف بها . وافهم الوحشية المرضية لرجال الشرطة والمسؤولين والبيروقراطيين وعملاء المخابرات والعرب المتغربين المتعجرفين عندما يتفاعلون معنا ، نحن بائسي عالمهم . وافهم كم يصير صعبا ، عندما اكشف عن جنسيتي لشخص ما في الولايات المتحدة ، حيث اعيش ، ان اتقاسم انسانيتي مع الناس ، وان اثبت انني لست ، اننا لسنا جميعا ، قتلة سفاحين ارهابيين مكرسين لممارسة العنف في حياتنا اليومية . وافهم ان مصدر حاسة آخريتي في الولايات المتحدة لا تنبع مني بل من الآخرين الذين يفرضونها علي ، وان ليس ثمة شيء استطيع فعله لاتسلق الجدران العنصرية التي يشيدونها بيننا . وافهم الافكار عن اللاشيء في نفوس النساء في مدننا في العالم العربي اللواتي يغطين وجوههن بالشالات ويجررن الاولاد وراءهن . وافهم ايضا افكار الرجال العاطلين عن العمل الجالسين في المقاهي في الغيتوات ومخيمات اللاجئين في بيروت ، يحركون ببطء كؤوس الشاي ويمصون النرجيلات . وافهم ما يعنيه ان تكون شعبا محتلا او منفيا او مساء فهمه ولماذا لا اقول شيئا الى اميركي يعلو انفه الكلف ويسأل لماذا نقتل دائما النساء والاطفال . وافهم لماذا جلست الكثيرات من الامهات الفلسطينيات بجانب جثث ابنائهن او بناتهن الذين سقطوا في المعركة وضربن صدورهن ووجوههن بيأس وحزن . وافهم التشوشات التي تمتم بها والدي ، عن العودة ، فيما اضطجع يحتضر في غيتونا في بيروت . وافهم لماذا نفكر افكارنا . افهم كل هذا واكثر بكثير . والفرق الوحيد بيني وبينك هو ان ثمة عنصرا فكريا اساسيا لفهمي ، مما يجعل معرفتي اقل تماسكا من معرفتك . ولكني اعرف ان الصفحات في يوم من الايام ستنقلب ، وان الاوراق في يوم من الايام ستتساقط ، وان الخريف سيفسح الطريق للثلج النظيف .

□

تحملني سيارة يقودها احد رجال ابو كريم نحو المدينة . والسائق فتى مراهق يدعى محمود . وعلمت فيما بعد انه ينتمي الى وحدة احتياط في فتح وقد خاض الحرب الاهلية في لبنان ، كما خاض ما يسميه الفلسطينيون حرب الايام الثمانية ، اي الغزو الاسرائيلي لجنوب لبنان في آذار(مارس) ١٩٧٨ .

يحدثني محمود بطريقة متوترة ومثيرة ، اشتبه بانها تنتمي الى هؤلاء الذين يخوضون صراعا من اجل البقاء كل يوم . ان اشخاصا مثله يعرفون كم هم عرضة للخطر في الحياة ، ويحيون ايامهم عند درجة وعي اعلى باستمرار من درجة وعي الآخرين ، لا بد ان يجمعوا احتياطات عظيمة من القوة والدقائق العاطفية .

يريد ان يعرف ماذا « فعلوا » بي في الولايات المتحدة . ويقول بكثير من الايماءات الفكهة : « يا اخ ، تشبه واحدا منهم ، بلحيتك وشعرك » .

في الطريق الى البلدة نعبر عدة نقاط تفتيش ولكنهم يلوحون لنا بالمرور . ويكتفي محمود بالاعراب عن ازدرائه ويكمل سيره . قبل ان نصل الى الغيتو الفلسطيني ، حيث امضي ليلة مع عائلتي ، يوقفوننا عند نقطة تفتيش اخرى . ويدخل جندي مكسو ببطانية رأسه عبر النافذة .

ويطلب منا بفظاظه : « بطاقات الهوية » .

ويعود الخوف . الخوف من الرسميين العرب ، من رجال الشرطة والجنود والممثلين الآخرين للسلطة الحكومية، الذي كان جزءا من الرعب في حياتي كفلسطيني في العالم العربي في الخمسينات . لدي جواز سفر ساري المفعول ، وتأشيرة الى لبنان ويرافقني شخص من « الحركة » ومع هذا فان اللقاء يطلق في بواعث لا عقلانية لا يسعني السيطرة عليها ، ووخزات خوف لم اختبرها منذ عشرين سنة . وينكرني ذلك بالعبد الهارب في اميركا الذي يعود الى الجنوب ، بعد الغاء الاستعباد بوقت طويل ، ويسمع على حين غرة لهجة جنوبية ، وتتصاعد من لا وعيه مخاوف اعتقد انها اختفت الى الابد .

يتفحص الجندي بطاقة هوية محمود الصادرة عن فتح ويعيدها على الفور . واسلمه انا جواز سفري الاسترالي ، وهو جواز سفر كان معي منذ ان صرت مواطنا استراليا متجنسا في ١٩٦٤ . ويحيره جواز السفر ويريد ان يعرف ما اذا كان لدي بطاقة هوية لبنانية . وعندما اقول لا ، يصر على انه لا بد ان يكون لدي بطاقة هوية عربية وعندما اقول انني لا املك تلك ايضا ، يأخذ في الصراخ بنوع من الالحاح اليائس في صوته انه لا بد ان يكون لدي على الاقل وثيقة « عربية » من نوع ما .

ويأخذ محمود في الصراخ فعلا الآن في الرجل قائلا له الا يزعج « احد ضيوف الثورة » . ويلين الجندي ويدعنا نذهب .

المزاج السياسي لبيروت ، مغزى حياتها الايديولوجية ، هو ها هنا يحدق بي في وجهي — على الجدران . فكل جدار لكل منطقة نمر بها مغطاة بالشعارات السياسية وبالصور الكبيرة التي بحجم الملصقات لرجال ونساء قتلوا في المعركة . والشعارات على الجدران تعلن عن التضامن والصراع والتحرير والتحالفات والاعياد السنوية .

غدا هو اليوم الاول من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩ . انها ذكرى السنة الرابعة عشرة لبروز الثورة الفلسطينية . وهناك اعلام ، في منطقة البسطة ، حيث تعيش عائلتي وحيث تسيطر عناصر من قيادة الكفاح المسلح الفلسطيني والحركة الوطنية اللبنانية ، وجميعها تحتفل بالحدث . وغدا سيقوم ١٠ الاف فدائي بمسيرة في استاد الرياضة ، ومن المتوقع ان يحضر مئة الف مشاهد . والليلة سأرى عما قريب عائلتي ، على الاقل تلك الاجزاء منها التي لم تطرد من البلاد او تقتل .

لا بد ان تكون امي سيدة عجوزا متغضنة. شقيقي مع الثورة . ولن اعرف اعمامي وعماتي واخوالي وخالاتي . وابناء العمومة وبنات العمومة وازواجهم وزوجاتهم لم ارهم ابدا . والليلة اتأمل في ذكرى موت والدي ، والسخرية الملازمة له . ففي مثل يوم غد لاربع عشرة سنة خلت مات والدي ، في اليوم نفسه الذي ولدت فيه الثورة .

اعرف كيف احتفل بذكرى ولادة الثورة . ولكن كيف اندب موت ابي ؟ كنت اعرف كيف اندب ابي لو انه مات باسباب طبيعية ، بمرض معين معترف به ، او من الشيخوخة ، او حتى لو مات موتا عنيفا . الا ان ابي مات من شيء آخر . فقد مات من عدم قدرته على الاجابة عن السؤال ، الذي لا بد وان يكون طرحه تكرارا طوال تلك السنين منذ عام ١٩٤٨ ، وله علاقة بلماذا حدث كل هذا لنا .

في ١٩٤٨ كان ابي يعيش في حيفا . كان فقيرا ، كمعظم الفلسطينيين . وكمعظم الفلسطينيين كان ابيا كذلك ، لأنه يعيش في مدينته ، ولديه عمله الصغير ، ويلعب النرد مع اصدقائه في مقاهي الشوارع الجانبية من المدينة ، ويعيل عائلته . وبعد ١٩٤٨ ، نقل الى عالم اعتبر فيه غير موجود في مخيم للاجئين حيث تحولت انسانيته وهويته الى مجرد كسرة . كان الانتقال مفاجئا ، لا يمكن تفسيرة الى حد انه كان يخنقه . وكلما فكر في الامر ، كلما مزقت الفكرة روحه الى نتف من الجراح النازفة ، من اللافهم المشدوه . وفي بداية كل شهر ، كان يصطف عند مخزن الأغذية ليتلقى حصته من الأغذية ، التي تكفينا اسبوعا على وجه التقريب . وبعد ذلك كنا نجوع ، ونبرد ونشعر بالوحدة .

لم يعرف لماذا انهار كل شيء حوله . ولم يستطع التعامل مع تحوله المفاجيء من فلسطيني عربي ابي مكتف بذاته ، الى شيء غير موجود ينتمي الى شعب يصار الى دفعة دفعا خارج صفحات كتب التاريخ . ولما كان مجهزا فقط بصوره التقليدية ، التي افادته في تحديد مجتمع الفلاحين الذين كان هو نتاجا له ، فقد عجز عن تفسير لماذا سلب حقه في الحياة في بلاده .

كان شعر والدي اسود فاحما في ١٩٤٨ ولكنه في اوائل الخمسينات كان يتحول الى لون الثلج . كان يتغضن،واماله ، كصوته ، كان يفقد حدته . لم تكن لديه اجوبة واراد ان يموت فحسب .

□

ومع هذا اعلم انني لا يجب ان اهتم . لقد حشد ابي ماضيه واستجاب له ، على افضل طريقة يعرفها ، في الحياة وفي الموت . وانا حشدت ماضي . وعندما افكر فيه ، اجد انني نموت

مع العنف تماما كما نموت مع جلدي . لقد ازدهر العنف والموت في تقارب وثيق لكل لحظة ، لكل لقاء ، في حياتي . وحتى وانا طفل كنت اتعلم ، عن العنف الذي يستطيع التاريخ ان ينزله في الروح ، في الايمان في عقلانية الآن او الحياة الاخروية .

كان العنف في شكليه النفسي والمادي دائما يسيطر على حياتي . ومع هذا ففي تلك الفترات الهادئة التي اختبرتها احيانا ، وجد داخلي ، على طول ذكرى الألم والدمار ، شعور محبة قويا الى الحد ذاته ، تأكيد على امكانية العدالة والحرية الانسانية،حارما العنف من احتكار النفس . وحتى كفتى في الثامنة من عمري ، يوجد لدي ذكريات تركتها **ورائي** . ذكريات على السير والراحة والسير على طول طريق الساحل الى الحدود اللبنانية سعيا وراء ملجأ . وامرأة فلاحة تضع مولودا على قارعة الطريق . والام مخاضها تجعلها تطلق اصواتا طيفية . وامي بسبحة صلاتها تتوسل الالهة ان تسهل الطريق . وعلى الطريق ينضم الينا مشردون وتائهون من حيفا او عكا او مدن ساحلية اخرى ، وجميعهم يسيرون في نفس الاتجاه .شقيقتي لا تتجاوز الثانية من عمرها ، فتأخذ امي شالها وتربطه في عقد حول ظهرها وكتفيها وتضع اختي الطفلة هناك . وعندما نمر بالمستوطنات الصهيونية ، يسير الجميع باتجاه مستقيم ، ناظرين امامهم ، وكأننا بفعلنا ذلك لن يرانا ولن يطلق الرصاص علينا احد .**ماهي هذه المستوطنات ؟ من هم الناس الذين يعيشون فيها ؟ لماذا اختاروا بلادنا ليأتوا اليها ؟ من هم هؤلاء الناس ... ؟ من هم ؟**

قبل ذلك بسنة ، في القرية التي كنا نعيش فيها ، اظل انكر ... كيف نسف البيت وفرت منه العائلة . جسد المرأة يحترق وكانت تتمسك بوسادة وهي تركض . اسمع صرخة . في الغرفة تلك الليلة الجميع ينهضون . وشقيقي البكر يحمل بندقية ويغادر بسرعة . وصوت نيران الأسلحة يرتفع ... يقترب ... والحيوانات في القرية تركض فالتة ، في الدروب الوسخة ، وراء المنازل . و« اللجنة من اجل الدفاع عن بلد الشيخ » تصدر التعليمات فيما السماء تمطر النيران على قريتنا . ربما الله في سمائه قد جن . **انهم هنا من جديد** . ما يزال الوقت ليلا في الغرفة وامي تتلو ايات من القرآن . **ان عصابة شتيرن هنا من جديد** . وثمة نوع من الجنون في الكلمات القرآنية فيما تتلوها امي . ويطمسها صوت اطلاق الرصاص ثم اسمعهم من جديد ، عاليا ، بشكل محموم ، عندما تكون هناك فجوة ، صمت قصير ، فيما يتوقف اطلاق النار . **انهم هنا ... من هم هؤلاء الناس ... انهم يأخذون وطننا .**

تركنا القرية ونزلنا لنقيم في المدينة مع جدي وعمي . كان جدي يعمل في مرفأ حيفا مع « هيئة المرفأ البريطانية » ... ومع المقاومة السرية . وكان كل ليلة يعود الى البيت ببنادق يهربها من بوابات المرفأ ويأتي بها الى البيت الى عمي . بنادق كان يسرقها من المكاتب التي يعمل فيها . بنادق يشتريها من جنود بريطانيين سكارى . بنادق تشترى من على سفن صديقه قادمة من بيروت واللاذقية او الاسكندرية .

وكان عمي وشقيقي يغيبان عن البيت اياما عدة . كانوا يسمونهم مجاهدين في تلك الايام . وجيلي ، بعد ذلك بعقدين ، صار يعرف بالفدائيين . لكن كل شيء كان يحتضر . كانوا البقية ... غير المنظمة والوحيدة ... لثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ .

خارج منزل جدي ، على الطريق الدولية ، كانت جماعة من المجاهدين تقف بجانب قوالب من الاسمنت . انهم مجهزون برشاشات وقنابل يدوية . ويتخذون مراكزهم بضع دقائق فقط قبل ان يبدأ المكمن . ويجري عمي جيئة وذهابا وهو يصدر التعليمات . وتصل قافلة الشاحنات . ست سيارات شحن مغطاة بالكانفاس والحبال السميكة . متجهة على الطريق الى جبل الكرمل . سائق واحد وراكب واحد في كل شاحنة . وانا اربض قرب النافذة ونراع ابي تحيط بخاصرتي . الجميع في الغرفة يراقبون . وعلى حين غرة توجه نيران المدافع الرشاشة نحو الشاحنات . وتنفجر القنابل اليدوية . ويطلق الرصاص بلا انقطاع لاكثر من دقيقة . وتشتعل النار بسيارتي شحن . ولا اعرف اين انظر . ثمة شيء يحدث في جميع الاتجاهات ، ولجميع الرجال ، ولجميع الشاحنات . واظل اراقب الشاحنة الاقرب الى قوالب الاسمنت ، واري السائق واحدى يديه على مقود القيادة ، واليد الاخرى تمسك بمسدس يضعه في الخارج ، بلصق الحاجب الزجاجي . معاونه في القيادة ، بجواره ، ميت ، وجسده متدل نصفه من الباب المفتوح . ويقفز الرجل الآن من الشاحنة ويحتمي وراء بعض قوالب الاسمنت . ويربض هناك وهو ما يزال يمسك مسدسه بيده .

عندما يصل الجنود البريطانيون في دباباتهم وشاحناتهم العسكرية ، يعود عمي ورجاله بسرعة الى بيوتهم ومعهم اسلحتهم . ثمة جثة في الشارع . والشاحنات تحترق . وتملأ رائحة دخان البنادق الهواء . والرجل الواقف وراء قوالب الاسمنت يلوح للجنود . واراه وهو يسير مبتعدا معهم والوح له ، بتردد وبراءة . وابدأ في ان اهبه تاريخا خاصا اخلقه له . حياة خاصة تتزخرف مع مرور الوقت . وقد عاشت ذكراه معي منذ ان تركت فلسطين في العام ١٩٤٨ ، منذ ان سطحت القنابل بلادي ، وعرت المراسيم الغابات ، وتاريخنا ، من استعارات الأمل الى ان لم تعد اية حشرة ، اية كلمة ، تستطيع ان تجد مكانا لتختبىء .

بعد ان انقذ الجنود الرجل ، مكث الجنود والدبابات في الجوار . وبعد فترة وجيزة يصل المزيد من الجنود . المئات منهم ، بشعرهم الاشقر وانوفهم المنمشة والوشوم .

ونسمعهم يتسلقون درجات السلم . ان جزء جدي من المنزل هو على الطبقة الثانية من مبنى مؤلف من طبقتين . ونسمع اصواتا اجنبية . انها دائما اصوات اجنبية . اجانب يقولون لنا ماذا نفعل . يأمروننا بفتح الباب . ويصرخون شيئا حول السلطة الممنوحة لهم من ملك انكلترا . هكذا كانت الحال في تلك الايام ... ملك انكلترا يمنح شعبه سلطة لاصدار الاوامر في فلسطين . وفي الهند . وافريقيا . وكينيا . وهونغ كونغ . وبالطبع ما كان اي انكليزي ليسمح لنا بان نرسل اشخاصا الى انكلترا ونمنحهم سلطة دفع الرجال والنساء والاطفال الانكليز يمينا وشمالا .

يندفع الجنود داخل بيتنا . ستة او سبعة منهم . ونساق الى احدى الغرف . ويسألون والدي اذا كان لديهما اسلحة حول المنزل . ونحن نقف ، جميعنا ، وانرعنا مرفوعة . الا ان امي تبدو مضحكة ، بسبحة صلاتها فوق رأسها ،تتمتم تعاويذ لتطرد الارواح الشريرة . ويفتح الجنود خزائن الثياب ، ويحطمون المنضدة المزينة ، ويقذفون بماكينة خياطة جدتي عرض الحائط . ويخربون المكان . والجنديان اللذان يقومان بمعظم التفتيش والنهب ، يصرخان

الشتائم باعلى صوتهما . ويكررون : « عرب قذرون . عرب قذرون » . وطوال هذا الوقت اشعر باللامبالاة . اذ انني رأيت هذا ، واكثر منه بكثير ، يفتعل في القرية . كانوا يمسكون الناس من شعورهم ويجرونهم الى وسط الساحة ويركلونهم الى ان يغيبوا عن الوعي . وكثيرا ما كانوا يأخذون معهم اشخاصا يشتبهون فيهم ولا يعودون ابدا . في ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، قبل ان اولد ، شنق البريطانيون ثلاثة رجال من قريتنا ، ثلاثة مجاهدين .

مع ان ابي لم يكن مجاهدا قط ، فقد نقل الي نفسيتهم . ان ميثولوجيا المجاهدين هي جزء لا يتجزأ من تاريخنا الشفهي . فكل طفل فلسطيني يجلس على ركبتي والديه يصغي ، مذهولا ، الى حكايات الرجال الذين تحدوا البريطانيين الممقوتين وفيما بعد الصهاينة . كيف ان جماعات من المجاهدين كانت تأتي الى القرية خلال الثورة ، ببنادقها وكوفياتها المرقطة فتخرج النسوة الى الساحة ويقدمن لها الازهار واكياس الأغذية ويشير الاولاد اليها . وفجأة تقف امرأة على مسافة قريبة ، وتضع يدها فوق فمها ، ممسكة شفتيها بأصبعيها وتبدأ بالزغردة . وتنضم اليها النساء الاخريات وتتصادى الساحة ، والقرية كلها ، بالاصوات الصداحة . ويصير الرجال في القرية توقيريين ، ويخفتون اصواتهم ، فيما يحيون المجاهدين . « اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا بالابطال » . وقبل ان يغادروا ، ينضم الى المقاتلين بعض الشبان من القرية الذين يتركون الحقول ليعيشوا في الجبال مع المجاهدين .

لم يذهب ابي ابدا . كان صاحب حانوت صغير . وذات يوم يترجل ثلاثة جنود بريطانيين من سيارتهم الجيب خارج حانوته ويتحدثون اليه . انهم سكارى . ويروح احدهم ويشتم ابي لأن هناك ذبابا على السلع المعروضة بصورة مكشوفة . واراد ان يعرف كيف تتوقع من اي شخص ان يأكل هذا البراز والذباب عليه . ويأخذ الجندي الآخر بندقيته ويطيح بأكياس الزيتون والجبنة والبرتقال ، واي شيء قريب منه ، على الارض،ويقفز عليها ، ويضج بالضحك . ويمسك الجندي الثالث ابي من عنقه ، ويرمي بحطته من على رأسه ويضربه على صدره . وصار اخي مجاهدا في سن السابعة عشرة .

عندما غادرنا فلسطين ، في النهاية ، كان الفجر ينفخ حولنا مثل غضب الله . كانت مدينتنا قد سقطت واحترقت على جثث رقدت مستلقية على ظهرها . وصفق العالم استحسانا . ولكنني لا اكره . لم استطع ان اكره في سن الثامنة . كان نيسان (ابريل) دائمًا وقتا طيبا من السنة حيث ولدت . فالشمس تشرق ورائحة الزيتون والبرتقال تعبق في الهواء . وهذا النيسان ، في ١٩٤٨ ، كان آخر نيسان لوالدي في فلسطين .

اليوم السابق لمغادرتنا المدينة ، نجلس في المنزل قرب الطريق الدولية ونسمع اصواتا اجنبية تصرخ في مكبرات الصوت . **اخرجوا نساءكم واطفالكم** . وكرهت تلك الاصوات الاجنبية . **اخرجوا الجميع . اخرجوا كل شيء** . ستكون هذه بلاد قوم آخرين الآن . **اخرجوهم** . وحول الشوارع ، في البعد ، ثمة اصوات نيران اسلحة متقطعة . **اخرجوا نساءكم واطفالكم** . وهناك شعل ودخان والعاب نارية تنفجر في السماء ، فوق المنازل ، وراء المرفأ ، قرب جبل الكرمل ، وقرب وسط البلدة . كان شيء ما يحتضر . كان شيء ما ينتهي بالنسبة لهذا الجيل من الفلسطينيين . **اخرجوا** . كانت نقطة التحول .

الرجال والنساء الذين كانوا يدافعون عن حيفا لم يعودوا هناك . كانوا وحدهم . كانوا امواتا . كانوا يحتضرون . كانوا جرحى . ثم يذهب الناس . والراديو مات . وقبل ان يموت يصدر احدهم البيان رقم ١٥ على الهواء . وماذا كان البيان رقم ١٤ ؟ و٨ ؟ واللانهاية ؟ ولكن لم يكن هناك بيان رقم ١٦ . فالأثير كان مختنقا بالنار . واليأس . والموت . ومنذ ذلك الحين ، يتساءل الناس لماذا انا أستعمل النفي المزدوج حول منزلي ، غير عابئين بجدراني المكسوة بالكتب . ولماذا استُعمل عبارات مثل الامة والوطن والحقوق غير القابلة للتحويل . منذ ذلك الحين ، سافرت عبر امم كثيرة ، طاويا امتي في نكريات فتية عاجزة وقد كنت أخشى ان احدا ما سيراها ويضحك علي . ولكن في جميع تلك المدن الاجنبية كنت متدثرا بمعاطف مطر سميكة من الآخرية قبل ان تمطر بوقت طويل . وطوال ذلك الوقت بقيت مخلصا لمواقفي في منتصف الليل .

واليوم في بيروت ، بعد ثلاثة عقود ، انا هنا لأبحث عن البيان الرقم ١٦ . واتساءل اذا كان سيكون لنا ابدا مناطق محررة استطيع الذهاب اليها ، وان اكون واشعر فيها بالحرية .

كيف افسر ، اليوم ، موت ابي ؟ كيف افسر تقليد اللاجئية الذي نقله الي في الخمسينات عندما اصغيت الى تمتماته حول كم اننا سنعود جميعا سريعا ــ وبيقين سريعا . وستنتهي جميع الآمنا . انتظر حتى نعود ، ولن نعاد نحن والكون الى سبيلنا الذي حتمه القضاء والقدر الا عندما نعود . هو يذهب الى الاونروا ليتسلم الحصص ويعتمر حطته ويرتدي شرواله فيما ينتظر في الصف . نحن لاجئون ، يقول ، انتظروا حتى نعود . وتبدأ كلماته في اكتساب احرف كبيرة في وعيي . واسأل والدي اي نوع من الحقيقة سنبني عندما نعود ، واي نوع من العالم سنعود اليه . فيقول لي ان هذا لا يوجد الا في قلب الشاعر . مثل هذه المجازات الرائعة اتعلمها منه . وهو يمضي بقية ايامه معتنيا برماد نظام منطقه المدمر المحترق ، آملا في ان تقفز منه ومضة . عالم والدي ، في السنة الثالثة في الغربة ، قد اخذ يسوء ، وصوره الشرسة تظل تضغط بصورة لا تطاق على روحي .

في مخيم اللاجئين الذي اقمنا فيه ، في الاعوام الثلاثة الاولى من غربتنا ، تحكم حياتنا حاسة مريعة من لاجئية ابي ممزوجة مع دفق قوي لا يمكن تفسيرة من الطاقة . وفي الصيف ، الحر شديد الشراسة ويطن في الهواء ذباب كبير . وكل شيء بطيء الحركة ، هادىء ، ونائم . والكلاب ، كالاطفال ، تظهر العظام تحت جلدها وترقد في ظل الخيام . وفي الساعات بعد الظهر ، لا يمكن رؤية الناس في اي مكان ، في ما عدا امرأة تشاهد احيانا تسير على الدرب الترابية الى مضخة الماء مع مقلاتها . لا احد يعرف اننا هناك . ولا احد يستطيع ان يعرف ما اذا كنا مهملين او منسيين . وبعد فترة من الوقت لا يعود الامر يهم .

في المساء يجلس الشيوخ في مقهى الشارع الجانبي للمخيم المضاء بقناديل الكاز . ويتحدثون باختلاس الى بعضهم البعض . والكلمات احيانا مشبوبة العاطفة ، غضبى . يتكلمون عن فلسطين . عن العودة . يتكلمون بثقة ، بأمل ، عن مناقشات الامم المتحدة . ولا احد يشك ان بقاءهم هنا هو مؤقت ، وبدل ذلك يتكلمون عن الصعوبات التي يلاقيها الفلسطينيون ، عن كسب الرزق ، والحصول على تصريح عمل ، وتصريح اقامة ، وتصريح لعبور الحدود ، وعن اي زعيم عربي طعننا اكثر في الظهر من الزعماء الآخرين ، وعن اية دولة

عربية هي مخلصة للفلسطينيين واية واحدة رديئة معهم . ستكون فلسطين دوما هناك كما تركوها . وهي ايضا ههنا الليلة ، حول قناديل الكاز ، يجري تحويلها الينا في صورهم وذكرياتهم ولغتهم العاطفية ، في العالم المغلف لمخيم اللاجئين الذي كان بيتا لي طيلة اعوام ثلاثة .

اجلس في المقهى بجوار ابي واراقبه هو واصدقاءه وهم يشربون شايهم ويمصون نراجيلهم . وانا في العاشرة من عمري .

ابي يتحدث الى ابو سليم ، وهو رجل جاء وعائلته حديثا الى المخيم . ابي يسأله من اين هو في فلسطين .

ويجيب ابو سليم : « انا من حواسا » .

ويعرف ابي ان القرية قرب حيفا . « حواسا ، ها ؟ » يسأل بهدوء ، مطولا الاسم ومشددا عليه ، كأن له تأثيرا روحيا شافيا . « حواسا هي قرية جميلة » .

لقد استعمل ابي لتوه فعلا رائعا ، يعج بالاشياء التي تجعل الناس يتحدون التاريخ والسماوات والدول . صيغة جديدة سأضيفها الى قواعد كياني . فبالنسبة الى كل من والدي وابو سليم كانت حواسا ، هي وجميع الحقائق غير الملموسة للقرية ، شيئا سيبقى ابديا وحقيقيا في الخزانة الجوهرية لوعيهما . بالنسبة اليهما حواسا هي **الآن** ولم **تكن** مكانا جميلا . وفلسطين هي **الآن** ولم **تكن** بلادهم ، وهكذا سأراها انا فيما ادمج في نفسي ذاتيا ذلك الزاد من الطاقة حولي .

بالنسبة الى جيل والدي كان الحاضر جنونا . ولم يكن سلسلة متصلة طبيعية لما كان . كانت الطريقة الوحيدة التي يستطيعون الارتباط به هو تحويله الى ماض مكبوح ، تحكمه صور وطقوس واحلام فلسطينية . كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن بها فرض الوئام على حياتهم اليومية ، التي ارعبتهم . كانوا ينظرون الى انفسهم في مرآة ماضيهم ، اذ انهم لو نظروا الى الحاضر لتشققت المرآة . كانت صورة واقعهم ضبابية .

ان فسيفساء كاملة من الفولكلور ابتدأت تبرز فاقتنصت ، وجمدت في العقل ، صورة فلسطين كما تركها جيل والدي . واللغة العامية اعطت انفجارا آنيا للعواطف الجماعية لهؤلاء الذين جاءوا من حيفا ومن يافا ومن عكا ومن المدن الاخرى او القرى المعزولة في فلسطين . **حيفا ، ايتها المدينة الحبيبة ، تركناك مع السمك الذي اصطاده صيادونا وهو لا يزال ينتفض على الرمل .**

وكان يرد ابناء يافا : **هربنا منك يا يافا ، يا مدينة الشمال الحزينة ، ولما تكتمل اغنية دبكتنا .** والذين جاءوا من عكا كانوا يقولون : **يا عكا ، بنيناك غير خائفين من هدير البحر .**

كانت هذه اساطير ثرية ومسيطرة ملخصة من الماضي ، الذي امتحن هوية الفلسطيني وحدد توتراتها المكانية والزمنية في الغربة .

ونصغي لهذا . نحن الذين ولدوا في المخيم . نحن الذين كنا اصغر من ان نتذكر فلسطين . نحن الذين كانت ذكرياتهم ، كذكرياتي ، عن اطلاق نار يطقطق في الليل واسلاك شائكة حول النفس .

انا في العاشرة من عمري ونسير انا وابي على الدروب الترابية لعالمنا المرتجل في مخيم اللاجئين . الجدران مغطاة بالشعارات السياسية . ويقول احدها : « لتحل مليون نكبة على البريطانيين ، اعداء الشعب الفلسطيني » . واقرأ ذلك الشعار بصوت عال لوالدي ، متمعنا بالكلمات .

ويقول جادا : « ليسمع الله صلاتك .. » .

« والصهاينة ايضا اعداء الشعب الفلسطيني » .

« انهم لكذلك ! لتحل عليهم مليون نكبة ايضا . »

بمثل هذا العنف كنت اكتسب ماضيا ووعيا .

ابي وانا في الاعوام الثلاثة الاولى من غربتنا . هو في شرواله التقليدي وحطته ، ممسكا بثلاث ليرات ، وبعض القطع النقدية الصغيرة لاجرة الترامواي ، متجها الى السوق ليشتري الاغذية . والمال ، على قلته ، ثمين . لقد عمل شقيقي طوال اليوم ، في اليوم السابق ، في موقع بناء ليكسبه . وربما استطعنا اليوم ان نأكل شيئا مختلفا عن حليب البودرة والخبز والتمر الذي خصصته لنا الاونروا .

احمل سلة فارغة في احدى يدي . كم ارغب في معرفة ما سوف نشتري . واسأل ابي اذا كنا سنشتري كعكا اليوم .

« لماذا الكعك ؟ من تظننا ؟ تعلم اننا لسنا من ملاكي الاراضي » لسنا من **الملاكين** . ولكننا لا نزال فلسطينيين ، همنا ان نثبت لا معنى الاراضي .

« عندما نعود الى وطننا ، ستحصل على جميع الكعك الذي تريد . صدقني ، لن يطول ذلك الآن . كن صبورا فقط » .

لم ينتظر ليعرف مني لماذا اريت الكعك بالتحديد اليوم .

في السوق نختلط مع المتسوقين . واليوم حار ورطب . ويساوم والدي على الاسعار ، ويمضي الصباح كله في ذلك ، ليجعل الليرات الثلاث تدوم . ويطن الذباب في الهواء وثمة زعيق من البائعين وتوسلات من الحمالين الذين يدورون وهم يحملون سلالا ضخمة على ظهورهم ويستجدون العمل بصورة محمومة . وعلينا ان نعود مشيا على الاقدام طوال الطريق الى مخيم اللاجئين لأنه لم يبق ما يكفي من النقود لاجرة الترامواي . انها رحلة طويلة بالنسبة لابي في الحر . واتبادل واياه حمل السلة ، المليئة الآن بالخضار . وكل خمس دقائق او نحو ذلك ، يجلس والدي في مكان ما وهو يلهث . وانا اجلس معه على طريق البسطا . لا يزال الطريق بعيدا الى المخيم . واسأل ابي من جديد لماذا لم نضع بعض المال جانبا لنشتري كعكا . وهو يريد ان يعرف لماذا انا مهتم بالكعك الى هذا الحد اليوم .

الطعام في تلك الايام كان بالغ الاهمية في حياتي . لم اكن افكر في اي شيء آخر . كان كأن الطعام هو انشغالي الكامل الوحيد . قد لا اكون قلقت كثيرا حول عدم الذهاب الى المدرسة ، وحول حلق رأسي مرة كل شهرين لاوفر فواتير الحلاقين ، وحول المشيء حافي القدمين ، وحول عدم اكل المغربية ، وارتداء ملابس جديدة او تلقي علاوة خاصة خلال العيد ، لكن الطعام شغل علي حياتي . ومنذ البارحة ــ الكعك ، واقول ذلك لأبي .

كنت قد صعدت التلة لاشاهد مباراة محلية في كرة القدم مع فتى لبناني من الجوار . كان يحمل معه كيسا بنيا من الورق ، وفيما جلسنا لنراقب المباراة ، فتح الكيس واخرج منه قطعة من الكعك . ونظرت اليها واليه . لم ار ابدا شيئا مثلها منذ زمن طويل . ولم اشعر قبل ذلك ابدا ، او منذ ذلك الحين ، بأي شيء في حياتي كما شعرت بمثل تلك الرغبة الشديدة اليائسة التي رغبت بها في قطعة من تلك الكعكة . فقد بدت لي لذيذة ، طيبة ، غنية . واردتها باتقاد كاد يكون شهوانيا في قوته .

وفعلت كل شيء ليعطيني ذلك الفتى قطعة منها ، سوى ان اطلب منه ذلك . **هل خبزت امك هذه الكعكة ؟** نعم . **تبدو حقا طيبة ، اليس كذلك ؟** نعم . ويأكل ويتجاهلني . **تبدو طيبة ولا بد ان يكون طعمها طيبا .** نعم . وطوال الوقت اقاوم دافعا لأن امسك بالفتى من عنقه وانتزع منه ما اريده . ولكني كنت في العاشرة من عمري فقط ولم يمض على وجودي في الغربة سوى ثلاثة اعوام . لم اكن قد امضيت بعد قدرا كبيرا من الوقت في الشوارع . ولم اكن عنيفا كما تعلمت ان اصير فيما بعد في ثقافتي الشارعية . لذا اكتفيت بالجلوس هناك وبمراقبة المباراة بهدوء .

واذ اروي القصة لابي ، يصغي الي وعلى وجهه نظرة لا تعبير فيها ، وكأنه يحاول ان يقرر ما اذا كان يجب ان يكون غاضبا او حزينا . او ربما كان يتساءل فحسب لماذا يجب ان نكون القوم الوحيدين الذين لا يستطيعون الوصول ، حتى بطريقة صغيرة ، الى قطعة من الكعك هناك . ولماذا لم يكن لدينا شيء . ولم يدرك ، كما لم يدرك جميع الآخرين في تلك الايام ، ان اللاشيء في حياتنا هو الذي وضع الأساس لتأملاتنا التخريبية حول الكينونة والصيرورة .

ويقول ابي بغموض ، وبصوت مستو : « اننا فلسطينيون ، يا ابني ! » ولم اعرف ابدا ماذا عنى . احب ان اعتقد انه اراد ان يقول اننا كنا شعبا أبيا ، بمجموعة ابية من التقاليد . وقد يكون عنى اننا كفلسطينيين كنا فقراء وعاجزين وغير مرغوب فينا وبالتالي لا يجب ان نتوقع غير قرابة من النوع الثقيل الوطأة مع هؤلاء الذين يحيطون بنا . ومهما كان الامر ، وسواء كان انانية مثالية او بتر النفس ، فقد كان زادا من الطاقة كنت قد ابتدأت التقطه ، من حولي ، من حقيقتي الفلسطينية ، وافسره ليعني شيئا واحدا : كنا الآخر .

بالطبع كانت آخريتنا مصدرا لعلتنا بقدر ما كانت مصدرا لقوتنا . ولاجئية ابي . فتلك ايضا كانت جزءا من ميثولوجيا جيلي ، جزءا من عمليتي الخاصة للتحويل الذاتي . اذ انها خلقت اوضاعا لنقيضها في جيلي .

بعد ذلك بسنة او سنتين اكون في الشوارع . فأي مكان آخر كان هناك لأذهب اليه ؟ لم يكن

هناك اي وقت ، اي مكان ، لتكون لي طفولة . في البيت ابي يعلق صورة لعبد الناصر على الحائط ، مستعملا مسمارا محنيا ومنفضة رماد السجائر ليدقه . اي شيء آخر كان له ان يفعل ؟ وعلى مائدة العشاء يراقب الجميع فيما تمديدك لتتناول السكر او الخبز او الفاصوليا ، مستعدين ليصرخوا : « هاي ، اترك شيئا للآخرين » . الجميع يقولون ذلك لأختي الصغرى . فهناك النذر القليل من كل شيء . تأخذ اكثر من ملعقة سكر فيتصدى لك الجميع . يصرخون : « هاي ، اترك شيئا للآخرين . لسنا من الملاكين » .

انمو بكثير من السخرية في سنوات مراهقتي الباكرة . فأشتم العالم وملائكته وتمتمات ابي المشوشة . والعالم كله خارج المخيم الذي يفس عن عداءاته علينا او يقف مديرا ظهره الينا .

في شوارع مدن العالم الثالث لا تتعلم ان تكون عنيفا فحسب ، بل تتعلم ان تكون سياسيا . اضحك ضحكة نصف مكبوتة من صورة عبد الناصر على الحائط . فالرئيس المصري يبتسم بعذوبة على شقائنا في بيوتنا الطينية لمخيمات اللاجئين . صورة ممزقة موحشة على الحائط ، لرئيس جمهورية عربي يعد ابي بالخلاص ، وقد وثق به ابي لانه لم يكن له مكان آخر يتحول اليه . واحاول ان افهم ثقة ابي بعبد الناصر فاجد في ذلك صعوبة . ففي سن الثالثة عشرة ثمة حقد ساخر عميق في قلبي للزعماء العرب وللنظام الاجتماعي في عالمنا . واذا كنت ساصير فيما بعد ماركسيا ، فان ذلك ببساطة لأن اللغة الماركسية ، والحقائق التي تحدث عنها ماركس ، ثارت حولي في الشوارع كأنها جزء من العناصر . كنت اعرف كل شيء عن ماركس قبل ان اقرأ اي شيء له بزمن طويل . **الصراع الطبقي** ؟ كان هذا حقيقة يومية ملموسة في حياتي ما كان علي الا ان انظر الى جميع الشيوخ والسلاطين والامراء (او مهما كانت الالقاب الجديرة بالازدراء التي يحملونها) الذين يقودون سياراتهم الكاديلاك في بيروت ، ويشربون ويقامرون حتى البله في اندية بيروت الليلية فيما اكثرية الاولاد والبالغين في المدينة يجوعون . **البورجوازية** ؟ هذه لم تكن شيئا تجريديا في كتاب مدرسي ، أو شعارا كنت اصرخ به وانا العب لعبة السياسة اليسارية الجامعية . فحيث ترعرعت كان هذا شيئا اصطدمت به ولمسته ورأيته . ما كان علي الا ان اذهب الى شارع الحمراء ، وهو ما فعلته في سنتي الاولى من بيع العلكة ، وكنت اراهم يجلسون في الانكل سام والكوينز والهورس شو ، يتكلمون الفرنسية او الانكليزية مع بعضهم البعض . بالنسبة اليهم كنا « TRES SAUVAGE , COMPLETEMENT SAUVAGES! » وفيما يتعلق بالزعماء العرب ، في الخمسينات ، بادعاءاتهم الزائفة حول فلسطين ، لم استطع ان اوفق ما كنت اسمعه منهم مع ما كنا جميعا نتحمله كفلسطينيين في دولنا المضيفة . لم استطع ان اوفقه جميعا مع السؤال : لماذا قبل ان ابلغ سنا اكتسب فيه تاريخا سياسيا ممكنا ادراكه ، او ماضيا معقولا ما ، كنت قد جمعت كاتالوغا كاملا من المخاوف والرعب حول فلسطينيتي فيما اخذت احددها استجابة لتفاعلي مع العالم العربي .

وسألت ابي بوقاحة : « اية حاجة بنا الى صورة لعبد الناصر هنا ؟ »

وتقول والدتي : « انتبه لما تقول » .

« لماذا ، اسألكم ، نحتاج الى صورة لعبد الناصر هنا ؟ هل ما يزال بامكاننا ان نثق بالزعماء العرب ؟ »

ويسأل شخص ما في الغرفة غير مصدق : « ليس **عبد الناصر** ؟ عبد الناصر ؟ »

« لا اثق بأحد . لو كان الله زعيما عربيا ، لما وثقت به . »

فقالت امي : « ملحد . شيوعي »

ابدأ اشتم بعنف وتبدأ امي بتعاويذها القرآنية : « اطلب الغفران لك ، من الله العلي العظيم . لا قوة ولا حول الا به هو العلي القدير » .

ويقف ابي ، وكأنه كان ينتظر اشارة ، ويأمرني بمغادرة الغرفة . وفيما انا اغادر الغرفة اسمع اختي تتناول الحديث حيث تركته انا .

تقول : « انه على حق ، الا ترى يا ابي ؟ هل نستطيع ان نثق بأحد ، الا بانفسنا ، لنحرر بلادنا ؟ » .

ياسمين . اختي الصغيرة ، بنظارتيهاوببثرتها المراهقة ، وشعرها الاسود الفاحم . ومع كل كراريسها وكتيباتها حول « تضامن الطبقات العاملة » المخبأة في حقيبتها المدرسية لكي لا يراها والداي . اختي الصغيرة وخوفي من الظلام . ياسمين التي ككل طفل فلسطيني آخر لم تكن لها طفولة ابدا . اختي التي كانت نتاج العنف في تاريخنا بقدر ما كنت انا نتاج العنف . تعمل كخادمة في جبال عجلون ، في الاردن ، في سن الثانية عشرة .

في ذلك الوقت اتصلت بامي امرأة في المخيم كانت تعرف شخصا ما ، وكان هو يعرف شخصا آخر ، وكان هذا الشخص الآخر يعرف عائلة اردنية .

وقالت المرأة لامي بصورة تآمرية : « قريبة من العائلة المالكة . حقا . تصل الى اعلى . قريبة من الملك . انهم يبحثون عن خادمة . خادمة صغيرة مثل ياسمين . لا تتجاوز الثانية عشرة او الثالثة عشرة ، لتساعد في المنزل ، انها عائلة طيبة . وغنية . تقيم في جبل حسين في عمان وتذهب الى جرش في الصيف » .

كانت جرش في ذلك الوقت منتجعا صيفيا للعائلات الاردنية الثرية ، كان لديهم جميعا دارات هناك وملاعبُ لكرة المضرب . وكانت للنساء تسريحات شعر فرنسية . وكانت ملابسهم مستوردة من انكلترا وفرنسا او الولايات المتحدة . وكان الرجال يسيرون بسراويل قصيرة ويراهم الناس وهم يلعبون الكريكيت. هكذا ظنوا ان الناس يفعلون في بريطانيا . وكان الجميع يتكلمون الانكليزية ، واحيانا الفرنسية . الانكليزية والفرنسية كما كان يتكلمها الناس في الثلاثينات . عامية حديثة تستعمل خارج سياقها. عادات وطرق مميزة في السلوك التقطوها من الافلام الغربية . وفيما يرشفون الكونياك ويصرخون « GOOD SHOW , OLD MAN » لأحد ما يلعب كرة المضرب ، كانوا ينظفون حلوقهم ويبصقون على الارض . وكان لهم نظراء في بيروت والقاهرة ودلهي الجديدة واماكن اخرى في العالم الثالث .

راحت اختي تعمل لهذه العائلة . لاننا كنا فقراء ويائسين . وسافرت مع العائلة الى بيتها في جرش في الصيف . وغسلت اطباقهم . والتقطت اشياء . وقامت باعمال . وتبعت سيدة المنزل فيما راحت تزور اصدقاءها في ليالي استقبالهم . تماما كجميع الفتيات الاخريات من مخيمات اللاجئين في عمان واماكن اخرى اللواتي خدمن هذه العائلات . ومثلهن ، جرى حلق رأس ياسمين ، كما جرت العادة ، لكي لا تبدو جذابة للرجال .

وذات ليلة هربت ياسمين لانها كانت خائفة من الظلام وكان صبيان معلمها الثلاثة قد حبسوها في غرفة واطفأوا النور فيما وقفوا في الخارج يضربون ركبهم وهم يضحكون . وضلت طريقها واستغرقت عودتها الى بيروت اسبوعين . ولم تعرف العائلة النابلسية التي التقطتها على الطريق ماذا تفعل بها . وظلت اختي تقول انها من حيفا . وانها تريد العودة الى بيتها . وتريد العودة .

ويظل الناس اليوم يتساءلون لماذا نحن نتصرف دوما كمقداح للحروب الاهلية في جميع الاماكن . وانا اظل اتساءل عن ام رزق ، المرأة في قريتنا في فلسطين ، التي ركضت خارجة من منزلها المحترق ، والنار مشتعلة في جسمها ، وهي تمسك بوسادة ، واعرف ماذا حدث لها فيما بعد عندما اكتشفت ان الذي كانت تحمله بين ذراعيها لم يكن طفلها .

ترجمه عن الانجليزية :
رجا جورج

يصدر قريبا
عن مركز الأبحاث

التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني

الجزء الثاني
١٩٤٨ ــ ١٩٦٧

تأليف : نبيل أيوب بدران

أديب ديمتري

العرقية الصهيونية وتيار القومية الرجعية

٩ ـ العرقية الصهيونية

لم يكن من قبيل الصدفة أن يكون الممثل الأول والبارز للصهيونية السياسية المانيا ، وأن يبدأ حياته ثوريا رائدا بل واشتراكيا اسهم بنصيب هام في دفع الفكر الاشتراكي في المانيا واوروبا ، ثم ينقلب ويتحول الى الرومانسية الرجعية والعرقية والصهيونية : ونعني به موسى هس Hess, Moses وأن ينشر كتابه الذي عبر فيه عن ارتداده وصهيونيته وعرقيته « روما والقدس » سنة ١٨٦٢ .

لم يكن ذلك من قبيل الصدفة ابدا ، فقد جسد هذا الرائد والداعية الأول لهذا الشكل الجديد من العرقية اليهودية ، بشخصه وشخصيته وتطور فكره ، حركة الردة العامة ، والتراجع الشامل في حركة الثورة في اوروبا . كان تطور حياته وفكره يعكس الحركة العامة في اوروبا ، وليس بين اليهود وحدهم ، من حيث استيلاء الرجعية السوداء والطبقات البورجوازية الكبيرة على زمام السلطة وعلى العقول ، ايضا بين اقسام واسعة من جماهير البورجوازية الصغيرة والشعب ، وارتدادها بحركة القومية الأوروبية من طور الى طور آخر : فقد تحولت القومية الديمقراطية البناءة والصاعدة على يد البورجوازية الثورية خلال الفترتين الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر الى قومية رجعية شوفية وعنصرية منتكسة ومنهارة بزعامة هذه الطبقات الرجعية الجديدة والقديمة في النصف الآخر من القرن . كانت الأولى حركة بناء الامم ، وحركة وحدة وعقلانية ، بينما كانت الثانية حركة تراجع وهدم وانحلال حيث تتمزق الامة وتنحل الى اعراق واديان متصارعة متقاتلة . وقد تحالفت البورجوازية الكبيرة الرجعية مع النبالة القديمة وبقايا الاقطاع لصد موجة الثورة الاشتراكية والراديكالية العارمة في اوروبا ، وكان لا بد أن تخفى اسباب الصراع الحقيقية عن أعين الشعوب في لجة من الهمجية والعرقية ، فاصبحت : الأرض والدم والحديد شعاراتها . على انقاض العقل والتقدم ، وأصبح هدم الامم لابنائها ، والقهر لا التحرير هو رسالتها « الالهية » .

رائد الصهيونية العنصرية الالماني .. موسى هس (١٨١١ ـ١٨٧٥)

يصفه هرتزبرج (١) بأنه كان رجلا من رجال القرن التاسع عشر بالكامل ، ولعله يعني ذلك النوع من الرجال الذين انغمسوا في ثورة العصر ، وبعد أن هزمت ، هزموا معها ، بعد أن استغلقت امام اعينهم طرق الثورة .

أراد هس أن يضع حدا لهذا التوتر الرومانسي بين القلب والعقل ، وأن يقدم حلا يوفق بين اسطورة « الشعب المختار » وروح ثورة العصر ، ودورا « حديثا » و « تقدميا » تضطلع به اليهودية في صياغة مستقبل العالم ، فلم يجد ، نتيجة الردة التي انغمس فيها ، سوى صياغات الرومانسيين الرجعيين والكولونياليين : فهو يحدثنا بلغة صوفية غامضة عن القيم المتعالية التي ستنبع من صهيون المستعادة (الفكرة الدينية التراثية والعرقية) والامة اليهودية الجديدة التي ستقوم وتعمل كحارس على ملتقى القارات ومعلما للشعوب الشرقية المتخلفة (الفكرة والدعوة الاستعمارية الكولونيالية في ذلك العصر) فهو يتخيل دورا مميزا لليهودية ، ورسالة للدولة اليهودية داخل اطار رسالة التمدن والتحضر التي تضطلع بها دول الغرب التي تسعى الى التوسع والغزو والفتح في تلك المرحلة التاريخية ، وفكرة هس غير بعيدة عن فكرة هرتزل الاستعمارية الصريحة ، والتي كانت تشكل جزءا من عقيدته السياسية ، عن « سويسرا يهودية » تقوم كنموذج ومثال لليبرالية الاستقراطية بين أمم الشرق المتخلفة ، وهو نفس المذهب الذي كرس له بن يهودا(٢) دعوته لتحويل اللغة المقدسة ، الى لغة حديثة ذات رسالة روحية اخلاقية ، وكذلك بوروشوف (٣) الذي كان يرى في الدولة الصهيونية المبتغاة نموذجا لبناء دولة تعد المقدمة الضرورية للرسالة الملقاة على عاتق القطاع اليوهودي ، والدور المنوط به في الصراع العالمي الطبقي من اجل الاشتراكية(٤) .

ولا يصعب بالطبع أن تقرأ في هذه التطلعات الى دور المعلم والمدن لشعوب الشرق والرسالة الروحية الاخلاقية والدينية نفس اللغة التي كانت تتحدث بها الدوائر البورجوازية الرجعية الامبريالية والكولونيالية، في مرحلة التوسع والاستيطان هذه عن دور « الشعب المختار » والرسالة التحضيرية للامم الغربية سكسونية كانت أم المانية أو فرنسية الخ ودور الرجل الابيض .. أو اليهودي !! لا فرق وحسب الحاجة .

ويتساءل هرتزبرج بحق : لماذا كتب هس كتابه هذا « روما والقدس » سنة ١٨٦٢ بعد أن كان أحد مؤسسي الاشتراكية ؟ ! وكان في شبابه يدافع عن الاندماجية باعتبارها طريق تحرر اليهود(٥) .

يعترف هرتزبرج بأن العداء للسامية لم يكن في ذاته الشرط المسبق لظهور الصهيونية الحديثة . وقد تكون بعض الأحداث الفردية في مجال العداء للسامية مثل حادث دمشق الدموي المشهور سنة ١٨٤٠ قد أثر في هس ، ولكن تأثيره في الحقيقة كان تأثيرا سطحيا ، كما يذكر هو نفسه ، ولعل هرتزبرج يريد أن يجد بعدا أعمق لظهور الصهيونية في تلك الفترة ، أبعد من مجرد التأثر بحادث فردي ، أو مجرد رد فعل للعداء للسامية ، وهو يريد أن يعزوها الى ظروف العصر ، وانها جاءت كثمرة طبيعية لمجمل التاريخ الاوروبي حينذاك ولعله يريد أن يقول انها حركة قومية ، جاءت كثمرة طبيعية لعصر القومية الأولى في مجمله ، وهو الادعاء الصهيوني

التقليدي.. ولكن لنا أن نتساءل ونسأل الكاتب الصهيوني الذي يريد أن يؤصل ويضيف للصهيونية هذا البعد الاكبر في أي ظرف نشأت ، ؟ ومن أي مرحلة من مراحل عصر القومية الاوروبي وعن اي قوى عبرت في تلك المرحلة ؟ ومن أي فكر اوروبي رضعت واستقت ؟ ! فلا يمكن أن نأخذ التاريخ الاوروبي وعصر القومية بالذات في مجمله وعلى علاته دون أن نتساءل عن حقيقة القوى والاتجاهات والبيئات الاجتماعية التي نشأت فيها وتأثرت بها الصهيونية ؟ ! ذلك ما يمنحنا وضوحا اكبر وعندما يؤكد هرتزبرج ان الصهيونية ابنة عصرها ، فهو على حق ، ولكن لنا أن نتساءل ابنة من على وجه التحديد في ذلك العصر؟ ! ووريثة من ؟ فقد كان العصر عامرا بالصراع بين قوى الثورة وقوى الرجعية السوداء بين الراديكاليين والامبرياليين الكولونياليين !

لقد كان العصر الذي ينتمي اليه هس اكثر تعقيدا بكثير من العالم العقلي البسيط للاندماجيين والمصلحين الدينيين اليهود والمسيحيين . فقد ثبت بعد الهزائم التي لحقت بالثورات ، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تلت ، ان الكوسموبوليتية والتقدم والفردية ليست هي اطفال الثورة الفرنسية الوحيدين ، بل ان هناك ايضا القهر القومي والعدوان والحرب . ثم دخلت الرومانسية الرجعية الحلبة ومعها القومية الشوفينية والعرقية بعد منتصف القرن ، واشتدت الاصوات التي تتحدث عن السمات العضوية للروح القومية ، كما تنمو من خلال العملية البطيئة لتاريخ الشعوب (فولك) وكان ظهورها المبرز كما رأينا في المانيا . كانت هذه النزعة القومية الرومانسية في جانبها المحافظ والغالب ثورة مضادة واعية ضد التنوير ، تقدم قيما جديدة وشعارات جديدة محورها الدم والارض ، وقد عممها هيجل بفلسفته الغامضة ، واصبحت الاصول العرقية والشعبية (فولك) لها تاريخ ومصائر ورسالات .

وفي سنة ١٨٥٢ نشرت العنصرية الحديثة عمدة كتبها الكلاسية وهو كتاب جوبينو « مقال في عدم المساواة بين الاجناس البشرية » وتبعها في العقدين التاليين من القرن موجة العنصرية والعداء للسامية ، عبر عنها فاجنر وجورج فون شونرر George Von Shoenerer مؤسس الجامعة الجرمانية في السياسة . وكان هس أول من أخذ هذا المذهب الجديد مأخذ الجد[٦] . لقد كانت النزعة القومية المحافظة في مظاهرها العرقية والعنصرية سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ هي الرد في نظر هس على الاندماجية ، وقد اخذ هس عن هيردر نزعة التوفيق بين الدين والقومية ، بمعنى أن الدين لا يقوم على اساس عام بل قومي ، مثله مثل اللغة والشعر والعادات والتقاليد .

كذلك تأثرت آراء هس ودعوته الى عودة اليهود الى أرض اجدادهم بكتيب ظهر سنة ١٨٦٠ في هذا المناخ الامبريالي الكولونيالي كتبه السكرتير الخاص لنابليون الثالث ارنست لاهاران Ernest Laharanne . وقد عاصر هذا الكتيب الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا وهو يقدم برنامجا يتلخص في « المسألة الشرقية الجديدة ــ الامبراطورية المصرية العربية واعادة القومية اليهودية » انطلاقا من تفكك الامبراطورية العثمانية . وقد اغرت الدعوة هيس واندفع وراء أمل التحالف بين اليهود والامبريالية الفرنسية في الشرق الادنى لتحقيق حلم العودة .

ويبدو سحر الملحمة الكولونيالية ونفاذها الى اعماقه من خلال كتابه « روما والقدس » وكذلك في مشروع عرضه سنة ١٨٦٧ « لاستعمار الارض المقدسة » وتكوين مستعمرات

عسكرية يهودية ، حتى تتمكن من صد غارات العدو[٧].والغريب في الامر ان هذا المفكر الاشتراكي السابق لا يستنكف يعبر عن آرائه الاستعمارية ودعواته الكولونيالية بصراحة وفجاجة ، ولا يخفي انتماء فكره ودعوته الصهيونية الى حركة الاستعمار الكولونيالي الشاملة في تلك الفترة ، فهو في خطاب مؤرخ أول ديسمبر ١٨٦٥ موجه الى دنير Dunner الحاخام الاكبر لامستردام يسرد تصريحات كبار الشخصيات الاستعمارية والمالية التي ترتبط بالاستعمار الفرنسي للجزائر ، والتي تبدي فهمها واستعدادها « للنظر بعطف » على حد تعبيره — وهي تقريبا عبارة تصريح بلفور سنة ١٩١٧ — في انشاء مستعمرات يهودية في فلسطين ، وفي المنطقة المحيطة وخاصة بالقرب من قناة السويس . ولا شك أن في هذه الافكار ارهاص بمشروع تشمبرلن الخاص بالاستعمار اليهودي للعريش سنة ١٩٠٢ ، حيث حصل ديلسبس على اراض واسعة من الخديوي[٨] .

وهس عندما ينادي بهذا الحل ، يتوجه به اساسا الى « اليهودية الشرقية » حيث ان اليهود الغربيين يندمجون « ويحسون احساسا طيبا في البلدان التي يعيشون فيها منذ مئات السنين » وكذلك فهم يرفضون الهجرة الى فلسطين . اما جوهر مشروعه لتحقيق الاشتراكية !! وانقاذ اليهودية الشرقية كما جاء في « روما والقدس » فهو « الاستحواذ على ارض قومية مشتركة هو الامل الذي ينطوي على الشروط الضرورية للعمل على تأسيس مجتمعات يهودية للزراعة والصناعة والتجارة وفقا لمبادىء اليهودية أي مبادىء الاشتراكية . تلك الاسس التي تستطيع بفضلها اليهودية الشرقية أن تخرج من صناديق القمامة . وتقود شعلة الوطنية اليهودية ، وتنقذ اليهودية باجمعها »[٩] .

مرة اخرى بغرض السؤال نفسه : ما هو السبب الحقيقي لهذا التحول العميق الذي طرأ على هس وامثاله من صفوف القوى الثورية الراديكالية الى صفوف العنصرية الكولونيالية ؟ ! هذا الانقلاب بلا جدال هو ثمرة الظروف الاوروبية ، ولكن ليس بالمعنى الذي يريده المفكر الصهيوني هرتزبرج ، بانها ثمرة طبيعية ، وانها ابنة ظروفها ليعطيها شرعية ودعما وعمقا ، بل هي الابنة غير الشرعية لحضارة العصر الاوروبية ، هي الوليد غير الشرعي ولقيط الطبقات الرجعية العرقية الاوربية في ذلك العصر ، بمولدها وتبنيها ، وهي تتأثر بالفعل وبالفكر القومي في ذلك الزمان ، ولكن بالقومية الرجعية الشوفينية والعرقية ، وهي تيار من تيارات هذه القومية الرجعية ، وفرقة من فرقها ذات التطلعات الكولونيالية ، وكل ما هنالك انها وجدت في التراث اليهودي التلمودي والعرقي جذورا وارضا تقف عليها ، وفي مناخ العصر الكولونيالي الامبريالي ، هواء تتنفس وتتغذى به وتنمو[١٠] .

هس الاشتراكي

تاريخ هس كرائد من رواد الاشتراكية الاوروبية يستحق وقفة تأمل ، فعلى الرغم من أن ماركس وانجلز يعترفان ان له الفضل والزيادة في هذا الميدان ، الا انهما في الحقيقة وضعا ايديهما منذ البداية على جذر الانحراف الفكري البوتوبية الرومانسية التي ستؤدي به في نهاية الأمر الى الردة والضياع . لقد بدأ اشتراكيا ، ولكنه لم يكن ماركسيا قط ، وانتهى عرقيا . وسنرى في مجرى تفكيره كيف يتوه الشراع ويتقلب تحت وطأة أنواء العصر .

كان من شباب اليسار الهجلي ، ولكن مذهبه كان في جوهره اخلاقيا صوفيا ، فقد تأثر بسبينوزا وهيجل وكذلك فيورباخ[١١] . وكون اشتراكيته في البداية والتي سميت بالاشتراكية الحقيقية ، على اساس فلسفي ميتافيزيقي بحت ، بعيدا عن النضال العملي ، ودون ادراك لدور العوامل الاقتصادية في حركة التاريخ والواقع ، ولا معرفة بالطبقات العاملة أو اتصالاتها ، وعندما اضطر الى ترك بلاده المانيا في خضم النضالات الديموقراطية والثورية لذلك الحين ، لجأ الى فرنسا واتصل بالاشتراكيين الفرنسيين ــ واصبح عضوا في العصبة الشيوعية ، (التي اسسها في الاصل الديموقراطيون الالمان المثقفون الراديكاليون والعمال في باريس سنة ١٨١٦) [١٢] وهي التي كلفت ماركس وانجلز بكتابة البيان الشيوعي ، وظهر قبيل ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ في باريس .

وقد استعار هس مفهوم اغتراب الانسان من فيورباخ ، ولكنه نقله الى الميدان الاجتماعي .. فاغتراب الانسان عن جوهره يميز نمط الانتاج الرأسمالي الذي يغرس الانانية ويولدها نتيجة المنافسة ، ولاجل القضاء على الاغتراب وعبودية الانسان للمال ومن أجل أن يتخلص الانسان من الانانية ، ويحيا حياة جماعية مشتركة واخلاقية ، لا بد من القضاء على النظام الرأسمالي ، حتى يتمشى الانسان مع طبيعته الحقة ، ويجعل من حب الانسانية قانون حياته[١٣] .

ولكن اشتراكيته كما بين ماركس ، مثل اشتراكية جميع الاشتراكيين الاصلاحيين البورجوازيين الصغار ، لا تعبر عن البروليتاريا الثورية ولا آمالها ، بل عن الطبقات المتوسطة الصغيرة ، لذلك ظلت تستند الى مفهوم من التضامن البشري ، تفتقد تماما مفاهيم التمايز والصراع الطبقي . وتقوم مشاريع الاصلاح التي يقدمها هؤلاء الاشتراكيين ومن بينهم هس على معاني التضامن البشري العام ، بوصفها قوة طبيعية كبرى ، عاقتها الأنظمة الاجتماعية السيئة عن الافصاح عن نفسها في بناء سليم للعلاقات الاجتماعية . ومن هنا فقد انتهى الى اشتراكية عاطفية[١٤] .

ويشدد ماركس وانجلز في « الايديولوجية الالمانية » على هذا الصنف من الاشتراكيين الذي تغيب عنه الرؤية الطبقية ، ويدعونا بدلا من ذلك الى أن نرتفع فوق الاشتراكية والشيوعية ، لنصل الى الوحدة الاسمى التي تجمع بينهما ، والتي تتمثل في النزعة الانسانية ، فنحن جميعا على حد تعبير هس الذي ينقله ماركس، كائنات بشرية ... نحن جميعا اخوة .. نحن جميعا احبة[١٥] ثم يمضي ليقول أنه سواء كنا كائنات بشرية أو وحوش أو نباتات أو حجارة ، فنحن جميعا أجسام ، وعندما يتحرر الانسان من آخر القوى الخارجة عليه ، يصبح صالحا وقادرا على النشاط الاخلاقي ، متجردا من الانانية ويعلق ماركس وانجلز على ذلك بأن كل هذه العبارات الطنانة عن التحرير الخ . وعن الانسان الذي تحرر ، تبدو فيها المشكلة وكأنما قد حلت من الاساس ، وأن الثورة والمال وغيرها قد كفا عن الوجود ، ويصبح الوصول الى الاشتراكية أو الشيوعية على هذا الوجه طريقة الميتافزيقا .

اما ماركس فعلى خلاف هس تماما ، يرفض هذا المنهج والمفهوم الذي يقوم على الانسانية العامة ، التي لا تمايز فيها ولا صراع ، والتي تتيح للبورجوازية الصغيرة الفرصة لممارسة

أعمالها الخيرة ورغباتها النقية ، وهو ضرب من الاغراق في الاحلام ،يختلط في رأي ماركس مع اعتداد الالمان بأنفسهم واعتقادهم بأنهم اسمى قومية وأن الآخرين غرقى في المصالح المادية الضيقة ، بينما يحلقون هم فوق كل الامم وهم اسماها .

يطرح ماركس جانبا هذه المفاهيم الطوباوية العاطفية جانبا ، والتي تعطي لمعاني الانسانية والحب قوة سحرية ــ ليقيم علم الثورة ــ على مفهوم الصراع الطبقي والمادية الجدلية والمادية التاريخية . لقد استطاع ماركس وانجلز أن يضعا ايديهما على جذر الانحراف في غيمة الرؤية الطبقية ومعالم الصراع الطبقي في المجتمع ، واستبدالها بمفاهيم الحب والنزعة الانسانية الحالمة . وليس من الغريب أذا افتقد هذا الحب طويلا واختفت الانسانية وفي لحظة الهزيمة واليأس ، أن يسقط صاحبها بعد ان غابت عن أعينه معالم الصراع الطبقي في حمأة العرقية والصراع العرقي .

صراع الاعراق

وهس الذي يحلق في سماوات الحب والاخوة والانسانية التي تعلو على الطبقات والصراعات الطبقية ، يسقط في التفسيرات العرقية الساذجة ، عندما يصطدم بحقائق الواقع وبهزيمة الثورة . وهو في كتابه ــ روما والقدس ــ يردد من العبارات اكثرها سذاجة في تفسير قصة معاداة اليهود يقول :

« طبيعة الالماني الانسانية البحتة » هي في الحقيقة طبيعة العرق الالماني الصرف التي قد تصل الى مفهوم الانسانية نظريا ، اما عمليا فهي لم تتخط بعد الاحاسيس والتنافرات التي تنطوي عليها فطرتها العريقة .

هناك سببان لاصل العداوة الالمانية الموجهة ضد طموحنا اليهودي يعكسان طبيعة الانسان المزدوجة ، ناحيته الروحية والطبيعية ، وناحيته النظرية والعلمية ، المتميزتان والمتناقضتان عند الالمانيين أكثر من أي شعب آخر .

تتناقض فكرة الطموح القومي ككل مع نظرية الالمان الدولية ، وعلاوة على هذا فأن الالمان يعارضون الطموح القومي اليهودي بسبب نفورهم العرقي الذي لم تستطع حتى أنبل المشاعر عندهم التغلب عليه .

وهو يردد في مواضع كثيرة من « روما والقدس » عبارات القوميين الالمان الشوفينيين وينقلها الى اليهود والقومية اليهودية فيتحدث عن « المقدرة والعبقرية الخلاقة لدى الامة اليهودية » ، و « على شعبنا أن يعيد نفسه الى مجرى تاريخه الذي أهمله العقلانيون اليهود كثيرا ، وأن يضيء في قلوب شبابه تلك الروح التي كانت منبع الحكمة والوحي لانبيائنا وحاخاماتنا »(١٦) .

رسالة اسرائيل

وهو يتحدث بلغة العرقيين الشوفينيين من « التبوتون » و « السكسون » و « اللاتين » عن رسالة الامة اليهودية وهي رسالة اخلاقية في الاساس : هي تحقيق الوحدة بين الاخلاق

والحياة . وهذه لا يمكن تحقيقها على طريقة الاندماجيين بمحو اليهودية بل من خلال أمة منظمة تنظيما سياسيا حيث تستطيع هذه الامة تجسيدها في مؤسساتها الاجتماعية(١٧) .

وتشيع النظرية الحيوية التطورية والتي تتأثر بمفاهيم الداروينية الاجتماعية عند العرقيين الاوروبيين في كل صفحات كتابه « روما والقدس » ويردد نفس عبارات الصراع والبقاء للاقوى والاصلح يقول :

« اصبح تاريخ الانسان مقدسا من خلال اليهودية ، واعني هذا ان التاريخ اصبح تطورا عضويا وموحدا يعود في اصله الى حد الاسرة . وسوف لا يتم هذا التطور الا اذا اصبحت الانسانية كلها اسرة واحدة ، يتحد اعضاؤها بالروح القدس وبابداع التاريخ العبقري بقوة ، كاتحاد اعضاء الجسم بقوة ابداع الطبيعة المقدسة . وبما أنه ليس هناك اي شعب غير اليهود له (دين يربط العناصر القومية والعالمية والتاريخية معا فاليهود اذن هم وحدهم شعب الله ، ومنذ الثورة الفرنسيةاصبح الشعب الفرنسي والشعوب التي سارت على خطاه منافسينا الاشراف وحلفاءنا المخلصين) .

ويتوجه الى اخوته المخلصين ويقول : « وحافظ يا شعبي على مستواك عاليا فان النواة الحية موجودة فيك مثلما توجد الحياة في حبة القمح التي كانت مخزونة داخل قبور المومياء المصرية التي تحافظ على قوة تأثيرها بعد أن انقطعت عن الحياة لمدة آلاف السنين وستعمل هذه الحبات جذورا وتعود الى الحياة في حالة زرعها وفي حالة اعطائها الهواء والنور والمطر الكافي وذلك لأن « القوة الخلاقة في التاريخ » تنتج « شعوبنا » كما تنتج الطبيعة ازهارا وثمارا ونباتات وحيوانات .. وتبدأ حياة الانسان في المجتمع بتميز رئيسي بين أقوام من الناس ، والتي هي في البدء كالنبات توجد جنبا الى جنب ومن ثم تحارب بعضها بعضا كالحيوانات وتحطم بعضها بعضا أو تمتص الواحدة الأخرى لكن سيعيش الناس في النهاية معا وذلك كي يحصلوا على الحرية المطلقة ويعيشوا بصداقة حتى يكون الانسان مقيدا لغيره . هذا دون أن يفقد الفرد هويته المميزة »(١٨) .

أما ميول الصناعة والحضارة المتزايدة « فهي تهدد » كل اصل عضوي للقوة الحياتية بالموت ، وذلك بجعل الحياة ميكانيكيةوسيتطور المجتمع الانساني في التاريخ كالطبيعة تماما « وسيحقق التاريخ كالطبيعة حقيقته المنسجمة الكمال » .

ولا شك أن ماركس وانجلز على حق عندما يسخران من هس فكأنما به يتصور ان قوة المال والثروة قد توقفت في العالم ، وأن تطور البشرية سيأتي بفعل قوى ميتافزيقية خارجة وهو هنا يتصورها القوة الحياتية والتطور الطبيعي للكائنات الذي سيصل بالانسان آخر الأمر وعبر الصراع والقتل الى الاخاء والحب !!

أمة الروح وشعب الاخلاق

هذه الدعاوى التي شاعت عند المفكرين الالمان التقدميين ، عن الامة الالمانية أمة الثقافة والروح ، تحولت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتصبح محور الفكر الرجعي عند دعاة الجامعة الجرمانية ثم السلافية فقد أصبحت عصب الدعوة العنصرية والعرقية عند العديد

من المفكرين الصهيونيين الاول المتأثرين بتفكير الجامعة الجرمانية والسلافية .

دعى اليها هس ، فاليهود عنده سواء هاجروا الى فلسطين وكونوا دولتهم أو ظل البعض منهم في اوروبا ، فهم حيثما كانوا مركزا روحيا للشرق والغرب[١٩] .

وقال بها منسكو (١٨٢١ ــ ١٨٩١) بعد تحوله وانقلابه أثر مذابح ١٨٨١ في روسيا ففي كراسة « التحرر الذاتي » سنة ١٨٨٢ يقول « ان اليهود رغم استسلامهم كدولة وكوحدة سياسية ، أثر سحق الرومان لدولتهم ، الا انهم « لم يستسلموا الى دمار كلي ــ لم ينقطع هذا الشعب عن كونه أمة روحية[٢٠] .

وفي سنة ١٨٦٠ اقترح سمولنسكين (١٨٤٢ ــ ١٨٨٥) من اليهودية الروسية تحديد تعريف اليهود والشعب اليهودي بأنه شعب الروح حتى يمكن للشباب المثقف بالثقافة الجديدة والذي لا يؤمن بالدين من أن يرتبط بشعبه . ومع ذلك فقد كان التيار الغالب بين هؤلاء الشباب هو الاندماج ، ولم تصادف دعاواه أي قبول أو انتشار وتطلب الامر صدمتين كبيرتين ، هما المجازر الروسية ١٨٨١ وقضية ديغوس لتخرج الصهيونية من قوقعتها وتتغلب على عزلتها ، ولتصبح مقبولة لدى اعداد متزايدة من جماهير الطبقة الوسطى الصغيرة .

أما احدها عام (١٨٥٦ ــ ١٩٢٧) فقد اصبحت اسرائيل كمركز روحي محور دعاواه ودعوته ، وعبرت عنده عن تيار له قوته ولا يزال بين الصهاينة . فقد عارض صهيونية هرتزل السياسية التي تركن الى الاساليب والوسائل السياسية والدبلوماسية بينما كان هو يرى أسبقية الصهيونية الثقافية ، وهو في هذا يستمد الكثير من آراء هيردر حول الثقافة الشعبية والأدب الشعبي « وقد ساعد وايزمان في اصدار وعد بلفور » .

يقول « اذا كان هناك دولة يهودية ثالثة ، كما نأمل فيجب أن تقوم على الصعيدين القومي والفردي ، على مبدأ ان لا يتحكم الجسد بالروح ولا أن يقهر الجسد من أجل الروح ، انما على رفع الجسد بواسطة الروح »[٢١] « هذا الموطن لليهود الذي ينمو تدريجيا سيصبح مع مرور الزمن مركزا للامة تستطيع منه روحها أن تظهر وتتطور الى اعلى درجات الكمال ومن هذا المركز ستشع روح اليهودية الى انحاء العالم وفي مجتمعات الشباب باعثة فيهم حياة جديدة وعاملة على جمع شمل شعبنا » .

« ان سر بقاء شعبنا ــ هو في ما علمه الانبياء من اقدم العصور : أن يحترم قوة الروح فقط وأن لا يعبد قوة المادة » .

والواقع ان كل هذه الادعاءات الروحية والتطلعات لدور المعلم ، وصاحب الرسالة الروحية والثقافية العالمية ، والتي تعطي لعودة صهيون دورا اكبر مما تعنيه دولة صغيرة ، دورا انسانيا عالميا ، لم تخرج عن كونها تنويعات وتعبيرات مستحدثة وعلمانية عن المفهوم اليهودي التراثي ، مفهوم « الغيرية » و« التمايز » (اليهودي) ، وهي الترجمة العصرية للمفهوم التاريخي الميتافزيقي عن « الشعب المختار » وكل ما هنالك أنه يحاول أن يؤقلم هذا المفهوم الفج وغير المعقول للدعوات الشائعة والسائرة في ذلك الزمان عن « الامة الروحية » الالمانية أو السلافية والرسالات العرقية .

لقد كانت السيادة في النصف الاخير من القرن الماضي لتيار الاندماج القوي بلا جدال ، وقد أسقط الاصلاحيون الاندماجيون الامل السيائي اليهودي في العودة الى صهيون ، وجاءت الصهيونية في هذه المرحلة كحركة انشقاق وردة وخروج على التيار الاندماجي الكاسح ، وكان لا بد لها أن تزاوج بين الرؤية الدينية السلفية والتراثية وبين العصرية العلمانية حتى تجد لها مكانا تحت الشمس ، وهي تدعى وراثة عصر التحرر والقومية ، ويتعلق باهداب هذا العصر ، بينما هي في الحقيقة حركة ردة ــ وخيانة للتحررية والقومية معا ، لأنها تنتمي منذ البداية للقومية الرجعيةالشوفينيةولأنها عندها تبحث عن التمايز ، وتعطي لنفسها رسالة خاصة قومية وعالمية تدفع باليهود خارج قومياتهم ومجتمعاتهم ، وهي اذ تحاول الاندماج في روح العصر ، ترتد بهذه الروح الى عصور سحيقة .

والواقع ان النصف الاخير من القرن يشهد تحول الجامعة السلافية الى عقيدة غالية بين المثقفين الروس ، وهو مذهب مثله مثل الاصل « الجامعة الجرمانية » ينزع الى العصور الوسطى والقومية الرجعية التي صنعت مذابح ١٨٨١ ــ وكانت الجامعة السلافية ترى أن القبيلة هي بطبيعتها « شعب مختار » وأن جميع اعضائها مهما كانوا هم بحكم المولد السلالة الحقيقية للسوبرمان فوق الجموع المنحطة . وكانت معاداة السامية جزءا لا يتجزأ عن هذه الايديولوجية القبلية . فقد كان العداء لليهودي ليس لمجرد أنه غريب ، بل لأن دينه يمثل الصيحة المقابلة : أنه شعب مختار ، وهو مصدر كل اخلاق الهية، يتعين على البشر طاعتها ، ومن هنا كان اليهودي يبدو في صورة العدو بالدرجة الأولى في حرب دينية .

والطريف ان احدها عام يغترف من هذا المنهل القبلي والعرقي ويتأثر به كل التأثر ، يرد على نيتشه الذي ينكر الاخلاق ويعتبرها من صنع الضعفاء ويدعو الاقوياء الى الخروج على هذه القيود المفروضة . باسم الاخلاق . وهو في رده ورفضه لهذه المقولة التي تبدو همجية يعود ليقف على نفس الارض التي يقف عليها نيتشه ولكن من طريق مقابل ، فاحدها عام يرى في مقولة نيتشه قلبا للقيم اليهودية ، ذلك لأن معناها ان القوة متفوقة على الروح ، لذلك فهو يقدم في مقابل سوبرمان نيتشه القوي سوبرمان آخر يهودي هو « الصديق » وهو البطل الاخلاقي .. واذا كان السوبرمان ضرورة للحياة الانسانية فلا بد أن توجد بيئة ملائمة له . وهناك هذا الشعب الذي تجعل منه ميزاته وسماته الموروثة اكثر صلاحية من غيره للنمو والتقدم الاخلاقي وهو الشعب اليهودي فالاخلاق تسيطر على حياته ، وهي اخلاق تسمو على غيرها ، وعلى النمط التقليدي للاخلاق .

والحقيقة أن احدها عام يستعير مفاهيم نيتشة بالضبط عن السوبرمان ويضيف اليها مفاهيم سبنسر البيولوجية فقومية غير اليهود تبنى على القوة ، وفي مقابلها قومية اليهود التي تبنى على الروح تعتد بقوة المادة . والقومية عنده تشتمل على امرين : القومية بشكل عام وهذه القومية بلغة المنطق الصوري الارسطي جنس Genus تندرج تحته انواع وافراد ، أي جميع امم العالم ، وهناك في المقابل قومية الروح وهو ، جنس فريد Unique Genus لا يوجد منها الا نوع واحد ، هو النوع اليهودي . ان احدها عام يلتقي تماما بفكر نيتشة والجامعة السلافية القبلي والعرقي ولكن من الطريق الآخر « ومن هنا يمثل مفهوم الثورة المضادة بوضوح(٢٢) .

الاشتراكية ـ الصهيونية

إن تراث الاشتراكيين اليهود الذين كانوا يناضلون في الاحزاب العمالية الاشتراكية غير اليهودية،جنبا الى جنب مع اخوانهم من الثوار الاشتراكيين عموما دون تمييز بين يهود وغير يهود ، هو تراث لا ينكر : وعلى عكس هذا التراث الثوري الباهر للثوريين اليهود الحقيقيين فان الصهيونيين اليساريين يقدمون نموذجا مختلفا تماما ، فقد كانوا يتشكلون من فئات اصابها اليأس من التضامن العمالي وهجروا ميدان الكفاح والمعركة في حقيقة الامر . وهنا تحس بثقل آثار التركيب الخاص للمجتمع اليهودي في بلدان شرق اوروبا بوجه خاص ، فقد كان يغلب عليه صفة البورجوازية الصغيرة[٢٣] يضاف اليه ان الغالبية من العمال اليهود كانت تعمل في مؤسسات يهودية ، بحيث نجحت البورجوازية في سلب وعيها الطبقي وحرفه عن مساره الطبيعي . ومن هنا هجر الكثير من العمال اليهود المعركة القائمة في اوطانهم من اجل الاشتراكية ، في سبيل معركة متوهمة في فلسطين اليهودية .

لقد كانت الصهيونية منذ البداية حركة تحريف ، تبنتها البورجوازية اليهودية والاوروبية الرجعية لمواجهة ازماتها ومشاكلها وتحقيق اهدافها الكولونيالية والامبريالية ، الامر الذي دعى فون بلهف Von Plehive الى القول بأن « ما كان يطارد في اليهودي هو الثوري »[٢٤] .

لقد تبلور لمواجهة الموقف جناح اشتراكي داخل الحركة الصهيونية ، حاول أن يحقق التكامل بين اليوتوبيا القومية الصهيونية الرجعية والاهداف البروليتارية الاشتراكية ، وقد اصبح لهذا التيار في اطار الظروف العالمية والتاريخية تأثير حاسم على مجرى الاستعمار الكولونيالي لفلسطين وكان هذا الجناح العمالي للصهيونية يمثله حزب عمال صهيون ، واصبح بيربوروشوف Ber Boroshoo (١٨٨١ ـ ١٩١٧) منظره الأول .

القضية ليست في اخلاص هذا التيار أو بعض افراده للاشتراكية أو عدم اخلاصهم ، بل ماذا كان يعنيه هذا التيار في واقع الصراع العالمي والمحلي في البلدان الاوروبية ، وما انتهى اليه في الواقع سواء في اوطانه أو في فلسطين . ذلك ما يكشف حقيقة هذا التيار ومضمونه ومحتواه الحقيقي والتاريخي .

ينطلق بوروشوف من القول بان اليهود من الناحية الاقتصادية لا يعيشون في مجتمع طبيعي أو ظروف طبيعية . فالطبقة العاملة اليهودية يثقل خطاها ويعوقها تركيبها الاجتماعي الذاتي وغير الطبيعي . فهي اذ تتركز في المستويات الدنيا من الانتاج ، لذلك يسود بينها الحرفيون الذين اصابهم الخراب ، والاجراء في الصناعات الصغيرة المانيفاكتورية ، ومن هنا كان تعرضهم أكثر للهزات ولاثار الازمات والركود الاقتصادي . هذا فضلا عن ان تطور الرأسمالية يتجه الى القضاء على المؤسسات الصغيرة الاستهلاكية وعندئذ يجد العمال اليهود انفسهم عرضة للمزاحمات القومية التي لا ترحم .

في مثل هذه الظروف ، ولغياب « القاعدة الاستراتيجية » المناسبة ـ على حد تعبيره ـ بمعنى القاعدة البرولتيارة المعدمة والحقيقية ، لذلك فان البروليتاريا اليهودية في نظره يصعب عليها أن تستمر في النضال ، وفضلا عن أن جماهير البورجوازية الصغيرة لا تتحول الى

بوليتاريا. ومن هنا فلا بد من خلق البيئة الاجتماعية اليهودية الطبيعية ومن هذه الزاوية تبدو الصهيونيةضرورةتاريخة!!(٢٥) ذلك أن تشكيل بروليتاريا يهودية طبيعية في الزراعةوالصناعة الاساسية لن يتيسر الا عن طريق « الحكم الذاتي على ارضه وحدوده السياسية » في بلد متخلف وهي ارض لا بد ان تكون شبه زراعية لان هذه الارض وحدها هي التي يستطيع رأس المال المهاجر ، المتوسط والصغير وقوة العمل اليهودية ، أن تنفذ اليها وتتسلل ، وفي مثل هذه البلاد التي لم يصبها التقدم ولا زالت قاصرة عن النمو يمكن « أن يتحول الى كائن اقتصادي مغلق» لا خوف عليه من أي مناقشة ، ومن هذه اللحظة يمكن للبروليتاريا اليهودية أن تتشكل وتكتسب تركيبا طبيعيا وتخوض صراعها الطبيعي ايضا .. ويتبدى الاختلاف والصراع الطبيعي في رأي بوروشوف بين الحزب العمالي الصهيوني والبورجوازية اليهودية في اختلاف الاهداف ، فالحزب العمالي الصهيوني يصر على الكفاح السياسي باعتباره الطريق الذي يعود الى الاستقلال والحكم الذاتي السياسي ، بينما تأمل الصهيونية البورجوازية في تنفيذ مشاريعها عن طريق سياسات القمة ومشروعات الاستعمار الكولونيالي !!

ولكن لماذا فلسطين بالذات ؟ ! هذا السؤال يطرح نفسه بالضرورة ولكن بوروشوف يتهرب عن الاجابة على هذه المسألة بالذات بصراحة ووضوح . والسبب بسيط فمشاريعه وخططه العملية لا تخرج عن كونها تبريرا ذهنيا لدفعات ودوافع لا عقلانية(٢٦) فليس بمقدور منظري الصهيونية العالمية أن يصلوا الى استخلاص واستنتاج العودة الى صهيون انطلاقا من مقدماتهم التي يتحدثون فيها عن « الضرورة التاريخية » لخلق المجتمع اليهودي .

والحقيقة ان تأكيد بوروشوف على ان الطبقة العاملة اليهودية لا يمكن أن تخوض صراعا ناجحا وطبيعيا ، وهي تفتقد القاعدة الاستراتيجية ، يكذبه كل تاريخ الثورات البورجوازية والاشتراكية والدور البارز الثوري الذي لعبه اليهود كجماهير ، أو كقادة في هذه الثورات التي لم تكن لتفرق من اليهودي وغير اليهودي (روزا لوكسمبرج ومارنوف مارتوف وكامنيف وتروتسكي الخ) .

لقد عزل بوروشوف قضية اليهود عن اطارها الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي ، بحثا عن مخرج خارج هذه الأطر . ولم يكن من قبيل الصدفة أن يعجز بوروشوف عن تقديم أي تحليل تاريخي مادي يفسر به استمرار الشعب اليهودي في نظره ، لان مثل هذه الدراسة كفيلة بكشف الاسس الصوفية السلفية التي تقوم عليها معتقداته الصهيونية . والواقع ان تلاميذه قدموا التفسير انطلاقا من المقولات الحيوية العنصرية الشائعة في تراث القومية الرجعية في عصرهم . فقد فسروا استمرار الشعب « بالقوة الحيوية » التي وصفوها بانها « لغز التاريخ » مطبقين هذا التفسير على العديد من الاقليات في العالم .

هذا بوروشوف يذكر في بعض كتاباته فلاحي فلسطين من العرب مثله في ذلك مثل احد هآم الذي رأى الحل ، عندما ادرك استحالة استيعاب فلسطين لكل اليهود ، في انشاء مركز روحي بها ، اما بوروشوف فيدعوا الى التضامن مع هؤلاء الفلاحين !! هكذا !! في نفس الوقت الذي يركز فيه على المهام العملية للاستعمار الكولونيالي ، والتي لا يمكن ان تنجز الا على حسابهم : وهو لا يجد غرابة ــ وهو العدو العنيد للاندماج ــ في أن يتصور ان العرب الفلسطينيين

سيندمجون من جانبهم وطواعية في المجتمع الصهيوني . فاستيعاب العرب في الحياة الاقتصادية والسياسية في رأيه سيفتح الباب للكفاح المشترك ضد الترك !! وقد كتب هذا سنة ١٩٠٦ . فاذا حاصرته الحجة القائلة بأن الصهيونية تعني قهر العرب الفلسطينيين اكتفي بالقول انه يفضل الاساليب الجديدة في العمل سيكون هناك محل للجميع ، وأن العلاقة بين اليهود والعرب ستكون « طبيعية » !!

وقد اثرت آروه تأثيرا عميقا في اتباعه . وحاول حزبه « عمال صهيون » الانضمام الى الاممية الشيوعية فرفض طلبه . ولا شك ان تاريخ هذا الحزب وتطور اليسار الصهيوني عموما يكشف عن المآل الحتمي لمثل هذا اليسار الكاذب الشوفيني، الى التسليم والارتماء في احضان القومية الرجعية الشوفينية والعرقية ، أداة الامبريالية .

الحقيقة الاساسية التي لا بد أن تبرز وتتأكد من وراء هذه الرحلة الطويلة في الفكر الاوروبي الحديث والصهيوني ، ان الصهيونية لم تنشأ في اوروبا في اواخر القرن الماضي مجرد رد فعل دفاعي ضد الاضطهادات العنصرية ومعاداة السامية سواء في المانيا والغرب او في شرق اوروبا ، كما لم تقو وتشتد حركتها في الفترة النازية وحكم هتلر والحرب الثانية لمجرد عمليات الابادة والتصفية الجسدية في اوروبا النازية . فهذه الاضطهادات وأن كان لها نصيب في دفع الحركة الى الامام وتهيئة الظروف لدعاواها وادعاءاتها ، ولكنها لم تكن السبب الجوهري والاساسي في نشأة وتطور ظاهرة الصهيونية وتيارها ، ولا يقصد بهذه الدعاوى والتبريرات في الحقيقة سوى استجلاب العطف عليها والتبرير لجرائمها .

اما الحقيقة فهي أن الصهيونية نشأت منذ البداية ، وكما اثبتنا بالدليل التاريخي والتحليل الطبقي الاجتماعي للحركة اليهودية ، كجزء لا يتجزأ عن حركة الرجعية الأوروبية العرقية والعنصرية ، وتيار من تياراتها ، المتعددة والمنتشرة على الساحة الاوروبية في اخريات القرن الماضي . وقد تبدو مناقضة لغلبة تيار معاداة السامية العرقي في هذه المرحلة ، الا انها في الحقيقة رد فعل وجزء لا يتجزأ من هذا التيار وامتداد له في نفس الوقت ، نشأت في نفس التربة ، وغذت من نفس الافكار ، وارتوت من نفس المنابع العامة للفكر الاوروبي في هذه المرحلة الى جانب التراث اليهودي السلفي والتلمودي وقد كانت تلك البداية تيارا معزول ومحصورا في خضم الحركة الاندماجية اليهودية الكاسحة ، ولكنها استطاعت في نهاية الأمر أن تخرج عن عزلتها وتركب الموجة وتستقطب اعدادا اكبر من اليهود في ظروف الازمة وتصاعد تيار الاستيطان العنصري في اسيا وافريقيا والتوسع الامبريالي عموما .

وهذا ما يقودنا الى الحقيقة الثانية والاساسية التي ينبغي ايضا أن تتأكد ، فالصهيونية حرضت منذ البداية على ربط حركتها بعجلة القومية والحركات القومية الاوروبية في القرن التاسع عشر ، والصهيونيون الاول والأخر ايضا لا يكفون في كتاباتهم عن عقد المقارنات والمشابهات بين الحركة القومية اليهودية في زعمهم والحركة الالمانية والايطالية والسلافية الخ واذا كانت الحقيقة المؤكدة أن القرن التاسع عشر كان هو عصر القوميات بلا منازع ، فليس يعني نشأتها في هذا القرن انها كانت نشأة طبيعية وكجزء من هذه الحركات القومية الاوروبية كما يدعي هرتزبرج مثلا وغيره من الكتاب الصهيونيين . ووجه المغالطة الكبيرة في هذا الشأن

ان الحركة القومية الاوروبية في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر لم تكن شيئا واحدا ، وإن حمل نفس الاسم وانما تتحدد الحركة القومية بمضمونها ومحتواها في الاساس ، وباتجاه حركتها وتياراتها واهدافها ، لا باسمها وشكلها الخارجي ، تتحدد بالمرحلة التاريخية التي تمر بها وتعبر عنها ، وطبيعة القوى والطبقات الاجتماعية التي تحركها أو تتصدرها وحتى تركبها . وقد عرضنا بتفصيل للمرحلتين المتميزتين اللتين مرت بهما هذه الحركة والتيارين الاساسيين فيها منذ نشأتها على يد البورجوازية الثورية الصاعدة في القرنين الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، وكانت قومية ديموقراطية ليبرالية وعقلانية ، ثم كيف انتكست في مرحلتها الثانية ، وتحولت الى قومية معادية للديمقراطية ، شوفينية عرقية على يد الطبقات البورجوازية الكبيرة والقبالة القديمة بعد فشل ثورات سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ الديموقراطية وبعد كومونة باريس سنة ١٨٧١ بوجه الخصوص ، ثم دخلت مرحلة الامبريالية الكولونيالية وبرزت سماتها العدوانية والتوسعية .. وقد اصبحتا بازاء قوميتين متميزتين وتيارين متناقضين تماما .. امتان على حد تعبير دزرائيلي .. قومية وتيار الشعب العامل والطبقات الثورية والتقدم ، وتيار آخر ينتمي للطبقات الرجعية الامبريالية . فلم يكن من قبيل الصدفة أن تنشأ الصهيونية في المرحلة التي نشأت فيها ، وقد حملت منذ البداية كل سمات تيار القومية الرجعية الشوفينية والعرقية ، كما ارتبطت باهدافها الكولونيالية الاستعمارية فأصبحت من أهم تياراتها في غزو الشرق بحكم ظروفها الخاصة وطبيعة تراثها السلفي وافكارها المتوارثة ومن هنا فاذا ادعت الصهيونية بانها ابنة عصرها في اوروبا ، عصر القوميات فهي صادقة ولكن علينا أن نكمل السؤال : أبنة من على وجه التحديد ؟وربيبة اي طبقات؟ حتى لا تطمس ملامح الوليد ويضيع انتماؤه وهويته الحقيقية خلف اردية القومية الوطنية الكاذبة والمعماة .

العنصرية والتلفيقية

ولكن العصر لم يكن عصر القومية فحسب بل عصر الاشتراكية ايضا ، عصر البيان الشيوعي وكومونة باريس والحركات الاشتراكية الديموقراطية القوية في غرب وشرق أوروبا . ومن طبيعة المذاهب والتيارات العرقية اللاعقلانية انها تنشأ منعزلة متقوقعة لمجافاتها لروح العصر ، لذلك تلجأ لاكتساب الشعبية والجماهيرية التي تفتقدها ، وللخروج من عزلتها ، الى التلفيق وركوب الشعارات الرائجة وسرقة الدعوات والشعارات الجماهيرية بعد تزييفها وحرفها عن اتجاهها الصحيح ، فهذا ما فعله فاشية موسوليني عندما ركبت تيار الوطنية والسندكالية العمالية ، وكذلك نازية هتلر باشتراكيتها الوطنية الكاذبة ، ومن هنا ايضا لم يكن بالصدفة أن تحاول الصهيونية ركوب موجات القومية والاشتراكية معا . خاصة وأن جماهير اليهود كانت تشكل عادة وتلعب دورا بارزا في الحركة الثورية في بلادها سواء في الحركات القومية الاندماجية والديموقراطية أو الاشتراكية الراديكالية حتى اصبح اليهودي العالمي رمزا لمعاداة النظام في كل مكان ، وكان من اهداف البورجوازية اليهودية الكبيرة والمندمجة في بلادها وفي البورجوازيات الاوروبية حرف اتجاه الثوريين وتضليلهم بالشعارات العرقية السامية والمعادية للسامية ، وكان من اهداف البورجوازية اليهودية بالذات ومن مصلحتها ابعاد شبح يهود شرق اوروبا وتحويلهم عن الغرب كما هو معروف حتى لا تضار مصالحهم ولا تسقط في الحرج ، ومن هنا

كانت المصلحة واحدة في دفع الحركة اليهودية كلها نحو فلسطين وضرب اكثر من عصفور بحجر واحد : اجهاض الحركة الثورية واستبدالها بالحركة الاستيطانية وفي نفس الوقت تحقيق الاهداف الاستعمارية والكولونيالية تحت شعارات قومية واشتراكية زائفة .

العـرق أم الطبقـة ؟ !

وقد رأينا عند هس وعند بوروشوف كيف يكون الانتكاس ، عندما ينقلب الصراع الطبقي ليتحول الى صراع عرقي ، تأخذ معاداة السامية التي تختفي وراءها الطبقات الالمانية والروسية الرجعية شكل الصراع بين الاعراق والدماء النقية الجرمانية أو السلافية أو السامية ، بذلك تختفي جذور المشكلات الاجتماعية الحقيقية التي تنشأ عنها هذه الصراعات كما تختفي الاهداف والمصالح الحقيقية للطبقات . ولا يخرج المفهوم الحيوي التطوري والذي ارتبط بالداروينية الاجتماعية والذي تراه شائعا بين جميع مفكري الصهيونية ، وممثلي العرقية الاوروبية خاصة نيتشة وشيلنجر وغيرهما ، هذا الاطار يرى في نشأة الشعوب ونموها وتطورها شيئا لا يختلف عن نمو وتطور الكائنات الطبيعي من المولد ثم اليفاعة حتى الشيخوخة والموت فهذه النظرية والتي تتخفى وراء واجهة علمانية علمية كاذبة تحقق نفس أهداف التعمية ، فهي محاولة لطمس معالم الصراع داخل المجتمعات ومحتواه الحقيقي ومراحل الحركة الاجتماعية ما بين الصعود والهبوط ، النصر أو الهزيمة والتراجع ، فهي تستبدل الرؤية الطبقية الواعية ، والفهم العلمي للعلل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية المحركة والكامنة وراء الحركة الاجتماعية ، وفي جذر قضايا التقدم والتخلف ــ انتصار الثورة او انتكاسها .. لتحل محلها مفاهيم حيوية مبهمة مثل النمو والشباب والشيخوخة لخفي الجذور الحقيقية للمشاكل .. ومن هنا كان الرواج والترويج ، لهذه المفاهيم بين العرقيين لقد كان في جذور الزيف الصهيوني ولا يزال محاولات سلب الوعي وحجب الصراعات الاجتماعية والامبريالية وراء رواجها الصراع بين الاعراق ــ يهودا أو اعقار ، من كل صنف عربا كانوا أو أوروبيين أو افارقة ..

بقي أن تناقش طبيعة الصراعات التي تنشأ بالضرورة عندما توضع الصهيونية أو بتعبير آخر تيار القومية الرجعية العرقية في التطبيق وتثبت له ايدي واقدام تتشبث بالارض ؟ ماذا يحدث عندما يتحول هذا الفعل الرجعي الذي تخلق هذا التيار الرجعي الذي يخلق في الرحم الأوروبي الامبريالي الى واقع على الأرض العربية ؟ أي صراعات محتومة تنهشها من الداخل ، واي صراعات مع الخارج ، حتى يستطيع ان يتبين مستقبل هذا الصراع في اوطاننا على اسس اكثر وضوحا وتحديدا .

الحواشي

(1) Arthur Hertzberg, *The Zionist Idea,* A temple Book, New York *P.* 19. 1971.

(٢) اليعازر بن يهودا (١٨٥٨ ـ ١٩٢٢) وسنعود اليه بعد قليل .

(٣) روف بير بوروشوف (١٨٨١ ـ ١٩١٧) وسنعود اليه .

(4) Hertzberg *op, cit. P. 19*

(5) Nathan Weinstock, Le Sionisme contre Israel. Francois Maspero - Paris P. 47.

(6) Hertzberg, *op. cit, P.* 38.

(7) Weinstock n, *op. cit, P.* 48.

(8) *Ibid,* P. 79.

(9) *Ibid.*

(١٠) راجع كتابنا « **الماركسية والدولة الصهيونية** » ، بيروت ، دار الطليعة جذور العرقية في التاريخ اليهودي القديم .

(١١) ج . هـ . كول **تاريخ الفكر الاشتراكي ـ الرواد الاول** ١٧٨٠ ـ ١٨٥٠ . القاهرة ، ترجمة عبد الكريم احمد ، ص ٣٠٦ .

(12) George Lichtheim, *A Shart History Of Socialisme,* Weindenfield London 1970 *P.* 53 - 54.

(13) Auguste cornu, *Essai de critique Marxiste.* Ed. Sociale *P.* 47.

(14) *Ibid, P.* 48.

(15) Marx and Engels, *German Ideogogy,* Mascow, P. 526

(١٦) **الفكرة الصهيونية ، النصوص الاساسية** ، ترجمة لطيف العابد ، بيروت ـ منظمة التحرير ص ٢٢ ، ٢٣ .

(١٧) روما والقدس ـ **المصدر نفسه** ، ص ٣٠

(١٨) **المصدر نفسه** ، ص ٣٢ .

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ٤١ .

(٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ٨٢ .

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ١٥٢

(22) Hertzberg, *op. cit, p.* 21.

(23) Weinstock, *op. cit, p.* 57

(24) *Ibid.*

(25) *Ibid,* 59

(26) *Ibid*

يصدر قريباً

عن مركز الابحاث

منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي ـ الاوروبي

تأليف : أحمد صدقي الدجاني

خيريـة قاسميـة

قراءة تاريخية لاتفاقية فيصل - وايزمان

مقدمة : نحو تصريح بلفور

كان للمشروع الصهيوني منذ بداية توجهه نحو فلسطين ، سياستان : سياسة سرية توجه دعوتها لليهود لانشاء دولة يهودية على حساب سكانها العرب ، وسياسة ظاهرية توجه دعوتها الى التعاون مع العرب تخديراً لاعصابهم حتى تتمكن من السيطرة عليهم في النهاية . وانطلاقا من هذه السياسة كانت المحاولات الدبلوماسية التي سعت فيها الصهيونية ، قبل الحرب العالمية الاولى ، للتقرب الى اوساط بعض الزعامات العربية خارج فلسطين بحجة المنفعة المتبادلة وتقارب الشعبين والعمل معا لاحياء الشرق وما يمكن ان تقدمه الصهيونية من منافع مادية للبلادالعربية كلها. وقد كانت دوافع قادة الرأي العربي خارج فلسطين لمناقشة مسألة التفاهم العربي الصهيوني هو اختلافهم حول مدى تقدير الخطر الصهيوني وقصره على الخط المادي الذي يهدد معيشة السكان ، وانه يمكن مواجهة هذا الخطر بالتوصل الى اتفاق مرحلي مع الصهيونيين ثم العمل على نهضة اهل البلاد لمجاراة اليهود ، وربما احتجب الخطر الصهيوني في اذهان القادة وراء الصراع لنيل الحقوق العربية داخل اطار الدولة العثمانية . وقد تعثرت جميع محاولات التقارب قبل نشوب الحرب العالمية الاولى نتيجة لقوة المعارضة في فلسطين وتخوف الجميع من القوة الصهيونية التي تساندها قوى عالمية وتحقق الزعماء من انه لا بد لمواجهة الخطر من استخدام كافة الوسائل التي تبدأ بتأليف الجمعيات وتنتهي بالكفاح المسلح .

وبعد نشوب الحرب دخلت المسألة الصهيونية مرحلة جديدة مع توقع انهيار الامبراطورية العثمانية ، واستخدمت بريطانيا تعزيز الحركة الصهيونية وسيلة لخلق دولة صديقة شرقي القناة تضمن مصالحها في الشرق وبتعاون وثيق مع الحكومة البريطانية اتخذت خطوات متتالية بلغت اوجها بتصريح بلفور .

وحين قدم الصهيونيون حججهم للمطالبة بالوطن القومي في فلسطين سعوا الى اهمال شأن

الوجود العربي ، ، او على الاقل ، الاستخفاف باهميته واستبعاد خطره ، ويفترض الادعاء الصهيوني ان فلسطين لا تزال ادنى من المستوى الطبيعي في الكثافة ، وتكمن فيها امكانيات خصب هـائلة ولا تحتاج الا الى الماء والحراثة لتزدهر من جديد ، وتعود الى سابق عهدها تفيض باللبن والعسل[١] ، وان على السكان ، نظراً لتخلفهم وقلة اعدادهم ، ان يرحبوا بتدفق اليهود النشط لكونهم ساميين من جهة ولأن مصالح السكان لن يصيبها اذى من جهة اخرى بل ستتطور بشكل ايجابي ،

وابدى زعماء الحركة الصهيونية عدم ثقتهم بالثورة العربية ، والتقليل من شأن الحركة القومية العربية كعامل حاسم له اهميته في مجرى الحرب خشية ان يثير ذلك في نفوس الفلسطينيين املا بان يصبحوا جزءاً من الدولة العربية المستقلة[٢] . واستخف احد زعمائهم [٣] بالفكرة الداعية للوحدة العربية . « لان الشعور بالوحدة القومية لا يزال مختفياً وراء حجب المستقبل البعيد ، وقبل ان ينكشف فان الامة العربية المقترحة لا تزال بحاجة الى اساتذة اوروبيين مزودين بالمؤهلات اللازمة لتتعلم اشياء كثيرة تكون الخط الفاصل بين الهمجية وبداية الحضارة » .

وبالنسبة للموقف العربي خلال الحرب فقد توقفت حركة المعارضة للصهيونية ، بسبب الظروف التي رافقت الحرب . وكانت الزعامة السياسية العربية التي يهمها مصير فلسطين قد تجمعت في القاهرة (ومعظمها من المهاجرين السوريين الذين مارسوا نشاطهم قبل الحرب بعيدا عن السلطة العثمانية) او التفت حول الشريف حسين في مكة بعد نشوب الثورة . ومع ان العهود البريطانية التي طلبها الحسين ، وفقا لشروط القيادة العربية في دمشق لم تكن محددة ، فقد دخل بنتيجتها عرب المشرق بقيادة الحسين في حلف مع بريطانيا ضد الدولة العثمانية ! و بمساعدات مالية بريطانية حقق جيش الثورة بقيادة فيصل الخطة المرسومة له باحتلال سوريا الداخلية . وهكذا فانه بوصول الصهيونية غاية مساعيها بتصريح بلفور مستغلة الظروف السياسية والعسكرية اجبرت الظروف العرب على عقد تحالف مع نفس الدولة صاحبة التصريح .

وتمهيداً لاصدار التصريح بدأت دوائر « المكتب العربي » في القاهرة (وكان يتألف من عصبة من المستشرقين والضباط السياسيين ورجال المخابرات البريطانية ، ويمارس تأثيراً قاطعاً على سياسة بريطانيا في الشرق الادنى) بالتعرف على حجم المعارضة العربية للصهيونية حتى تكون الصورة واضحة امام المفاوضين في لنـدن[٤] . ولم يكن ذلك للتخوف من صدام مع القومية العربية المنتصرة بل تخوفا على اليهود في علاقتهم مع العرب المحليين الذين يتفوقون عليهم عدديا[٥] . ولذلك كانت ملاحظة عابرة وردت في جريدة القبلة (التي تصدر في مكـة باسم الحسين) في عددها الثاني(١٨ شوال ١٣٣٤ ، ١٨ اغسطس/آب ١٩١٦) باعثا على قلق الحكومـة البريطانيـة ، فقـد اشـار الكـاتب وهـو يهاجـم الاتحـاديين الى التهـديد الصهيوني بتملك اراضي فلسطين . وتوقع مارك سايكس (وكان خبير الحكومة في شؤون الشرق الادنى) احتمال حدوث مصاعب في المستقبل . وابرق الى كلايتون (مدير المخابرات العسكرية في القيادة العامة في القاهرة) في ١٩١٦/١١/٢١ ان يوعز الى بعض الزعماء العرب

بصورة تحذير ، عدم الخوض بهذا الموضوع الخطر اذا كانوا يأملون بنجاح القضية العربية[٦] .

سايكس وسياسته التوفيقية

وكان مارك سايكس هو القوة الموجهة في لندن وراء سياسة بريطانيا في الشرق الادنى خلال الحرب فكان يناصر الصهيونية في مفاوضاتها مع الحكومة البريطانية ويدعم بنشاط القضية العربية[٧] .وهو الذي اوعز بنشر تصريح باسم مجلس الوزراء البريطاني بعد سقوط بغداد بيد البريطانيين يؤكد فيه هدف بريطانيا بتوحيد العرب ومساعدتهم للنهوض ثانية واحياء القومية العربية والحضارة العربية والوحدة العربية[٨] . وجاء سايكس الى الشرق في بعثة انكليزية ــ فرنسية كي يضمن قبولا من الزعامة العربية لكل الخطط البريطانية في الشرق ، ومقابل ذلك اوضح سايكس ان العنصر العربي الذي تجمعه رابطة دم ولغة سيتحقق مصيره كقوة لهاوزنها في العالم[٩] .وسعى سايكس اثناء زيارته لتهيئة الجو لعلاقات عربية ــ صهيونية تمهيدا لما تعتزم الحكومة البريطانية اصداره ، ويبدو انه افهم لجنة سورية في مصر ان فلسطين تكتنفها مشاكل دولية لا يمكن للدولة العربية الجديدة ان تتولى مسؤوليتها . وان كل ما يطلبه الصهيونيون ان يقام في فلسطين ما يشبه نظام الملة العثماني . وان يعطى اليهود حكما ذاتيا كسائر الملل[١٠] ، ولم تكن فلسطين ضمن موضوع مفاوضات سايكس مع الحسين .

ومع ان المسألة العربية لم تثر في كل اجتماعات مجلس الوزراء البريطاني التي سبقت اصدار التصريح : الا ان المعارضة العربية للصهيونية لم تكن مجهولة ، ومن اجل ذلك حرصت بريطانيا بعد صدور التصريح مباشرة على عدم اثارة المشاعر العربية[١١] . ولم يكن هذا الحرص من اجل السياسة الصهيونية فقط ، بل كان هناك قلق عربي عام يسود المنطقة بعد ان عرفت الاسس العامة للاتفاق الفرنسي البريطاني (سايكس ــ بيكو) ولم تخفف تفسيرات الخارجية من هذا الشعور ، وشعرت بالقلق ، الاوساط البريطانية في مصر التي يهمها ان لا يتأثر التحالف العربي ــ البريطاني . وارجع كلايتون بعض بواعث الشك وعدم الثقة التي تراود الزعماء السوريين وشريف مكة والتي لم تستطع الانتصارات في فلسطين والعراق ان تخفف ما احدثه تصريح بلفور من انطباع عميق على المسلمين والمسيحيين الذين يتخوفون ان تصبح فلسطين ، وسوريا في النهاية ، بيد اليهود الذين يخشى الجميع امكانياتهم العسكرية والتجارية . واقترح كلايتون لتهدئة الشكوك بالاكتفاء بتصريح بلفور في الوقت الحالي وان لا تحدث اية امتيازات اخرى الا بمنتهى الحذر[١٢] .

وعلى ضوء المعلومات التي جاءت من الشرق بدأ سايكس بوضع الخطوط العامة للسياسة التي يراها مناسبة لانقاذ الموقف ، والتي كان قد بدأ بالتمهيد لها قبل صدور التصريح وهي ان هناك مكانا في المنطقة للقوميتين العربية واليهودية كي تعملا معا لاحياء الشرق ، وقدم وعودا لما يمكن ان تحققه الصهيونية لو تم التحالف معها ، وتحذيرا لما يمكن ان تحدثه لو وقف منها العرب موقف العداء . ولا بأس من ان يجد للقومية الارمنية مكانا في التحالف العربي ــ اليهودي ليعطيه صفة اشمل .

وبدأت الخطوة الاولى بالتأثير على الزعامة السورية في القاهرة لانها بنظره المجموعة العربية الواضحة في الشرق التي يهمها امر مستقبل فلسطين كجزء من سوريا فاقترح على لجنة الاتحاد

السورية في القاهرة ، توحيد الجهود بين العرب والصهيونيين بهدف تحرير بقية الولايات العربية . كما شكل لجنة مشتركة في في انكلترا من عرب وارمن وصهيونيين برئاسته للعمل على تحقيق الهدف ، ودبر اجتماعا جماهيريا صهيونيا وضع له صيغة قراره بنفسه على النحو التالي(١٣) : « خلال الاربعمائة سنة الماضية كانت العلاقات بين اليهود والعرب قليلة ومتباعدة . فالمآسي المشتركة والاضطهاد وتآمر الطغاة الاجانب قد ابقت الامتين القديمتين متباعدتين . ولكنا نعتقد ان الحوادث الحاضرة تفتح الباب امام تطورات كبيرة صادقة لعصر جديد مرتقب ، وتقدم فرصة رائعة لانشاء علاقات دائمة بين الشعبين اللذين يدفعهما تصميم مشترك لتحقيق التحرر والتقدم . نأمل ونصلي من اجل تحالف حقيقي بين اليهود والعرب يعملان بالاتفاق مع مجموعة الدول التي تحارب لتحرير الشعوب المضطهدة ضد قوى البربرية والطغيان . نحن الذين نعمل لاعادة انشاء وطننا القومي على تربة آبائنا في فلسطين ، نتطلع بتلهف لانشاء دولة عربية تعيد خلق الحضارة العربية التقدمية . و مرة اخرى على مسرح امجادها القديمة ... ونحن نأمل بشوق ان تزدهر قريبا ، بدلا من الدماء وفساد البيروقراطية الطاغية ، العدالة القومية والحضارة والحرية ، وستتعاون الامم الثلاث اليهودية والعربية والارمنية في قضية مشتركة لاحياء الشرق » . وبعث سايكس الى كلايتون نص القرار مسبقا وطلب منه تمهيد الجو بالتأثير على العرب وخاصة الزعماء السوريين ، بدعوى ان « الحلف الصهيوني الارمني يعرض التعاون مع العرب والسوريين ويعطي املا حقيقيا للمستقبل العربي ... وان على العرب ان يلاحظوا ان الصهيونية هي عامل حتمي فهي كحليف تعني ضمانا للاستقلال العربي النهائي ، وكعدو تعني الركود السوري والعربي والاختيار الصحيح واضح » .

وشرح سايكس خطته باسهاب ، كي تصل اصداؤها الى الشرق ، خلال اجتماع جرى في الاوبرا في لندن في كانون الاول (ديسمبر) ، وحضرته شخصيات صهيونية وحكومية وبعض الشخصيات العربية (غير المرموقة) والارمنية(١٤) . فقال مخاطبا الصهيونيين : « ... ربما يكون قدركم ان تكونوا جسرا بين آسيا واوروبا فتنقلوا روحانية آسيا الى اوروبا وحيوية اوروبا الى آسيا » . ويرى سايكس ان العرب رغم بقائهم مدة ثماني قرون تحت الحكم التركي لا تزال لديهم حيوية وقدرة عرب بني امية الذين حملوا الحضارة الى قرطبة ، ومجاهل آسيا الوسطى ، ويتوفر في بلادهم الرجال والتربة الخصبة والبترول والحقول . « ولا احد يتكهن بما سينجم عن هذه القوى عام ١٩٥٠ مثلا » . وكان لليهود ، كما يضيف سايكس ، صلة وثيقة بنهضة العرب . ولا بد من التعاون وحسن النوايا بين الفريقين منذ البداية والا نكبا معا . وينبه اليهود الى ان اسباب تخوف العرب هو ان تنشأ في فلسطين شركات مالية يمتد مجال عملها الى سوريا والعراق وان تمتلك هذه الشركات اراضي شعب فلسطين وتخرجه من ارضه فيصبح فيها عاملا غريبا بعد ان كان مالكا ، ويطلب من الصهيونيين ان يؤكدوا للعرب « ان اليهود لا يطمعون بحيازة ارض لا ينوي اصحابها بيعها وان اصلاح الاراضي سيتم بعمال يهود وانه ليس في نيتهم وضع اليد على فلسطين بالمناورات المالية بل بعرق الجبين»، وبذلك تصبح الصهيونية كما يراها سايكس « عاملا عظيما من عوامل الاخاء بين الاديان الثلاثة التي انبعثت من اصل واحد ، ولو اساءوا التصرف لكان ذلك فاتحة نزاع شديد لم ير العالم نظيرا له » . الا ان امله بمستقبل

الصهيونيين ظل كبيراً « ان لي في تحقيق امانيكم ضمانا لسلم العالم ... واني اراكم الان بعين الخيال تساعدون البلدان الصغيرة معنويا وتحمونها... وتسعون لازالة الخلافات الدينية التي فرقت بين الناس في جميع القرون و سيكون في القدس قلب كبير ممتلىء حياة وعافية يبرىء جروح اوروبا ويبث الحياة في آسيا » .

وتحدث زعيما الصهيونية سوكولون ووايزمان باسلوب مماثل : امكانية قيام تحالف بين العرب واليهود بعد ان كانت العلاقات بينهما قليلة ومنقطعة بسبب الجهل واللامبالاة ، وسوء الفهم الذي خلفه الاتراك ، التحالف الودي سيكون بداية للتعاون الثقافي والاجتماعي والاقتصادي في المستقبل ، الصهيونيون يتطلعون الى خلق مملكة عربية واحياء القومية السامية ، اليهود لن يقوموا بتجريد اي شخص من ملكيته او التعدي على حقوق احد لأن في فلسطين ما يكفي من الارض والماء والهواء ، فلسطين المستقبل ستكون نموذجا جديدا في العالم ينبع من التجربة اليهودية ومن الروح اليهودية ومن العبقرية اليهودية وسيختفي النزاع الديني حيث يلتقي الجميع كأخوة ينتمون الى العنصر السامي ويتطلعون الى حقهم في الحصول على مكانة في الحضارة العالمية !

وبدأ كلايتون الدعاية في اوساط السوريين ذوي النفوذ في مصر وتدريجيا في مكة (الشريف حسين) الا انه لم يكن متفائلا مثل سايكس وكانت نصيحته[١٥] ان يكون التقدم بحذرشديد، لأن الدعاية العنيفة تثير المشاعر . ووجد بيكو (الممثل الفرنسي في حملة اللنبي) ان تصريح بلفور قد ترك أثرا سيئا في الاوساط العربية السورية ، لأن العرب يشعرون بأن عليهم التنازل عن اراضيهم مقابل ثمن بخس . واوصى[١٦] بالتوقف عن مساندة حملة الدعاية التي قد تؤدي الى خسارة العرب وتهدد مستقبل العلاقات معهم . وتنبأ وليام بيل[١٧] ان العرب سيقاومون بكل وسيلة التملك اليهودي وسيدخل العنصران في صراع عنيف ونهائي اقتصادي وثقافي وسياسي . الا ان معظم الذين خططوا للتصريح قد استبعدوا في سورة حماسهم خطر المشكلة العربية بفرضية بسيطة انها ستحل نفسها بطريقة ما ، وكان سايكس مقتنعا ، رغم تقديره صعوبة الموقف ، بامكانية التغلب على الصعوبات[١٨] لأن الفقرة الثانية من التصريح البريطاني (بلفور) تكفل مصالح العرب المحليين كما ان اليهود قد اكدوا حرصهم على حقوق مصالح العرب في مسألة الاراضي .

وحاولت السلطات البريطانية في مصر تهدئة مخاوف العناصر السورية ، وفي رسالة خاصة بعثها سايكس الى لجنة الاعانة السورية عبر عن آماله المتعددة حول المنطقة والتسوية المقبلة مبينا لهم قوة اليهودية العالمية المتطلعة الى مركز روحي وامل قومي .... التي هي قوةبناءة وفعالة تتحول بخيبة الامل الى قوة هدامة لو عورضت الصهيونية او فشلت ، وان المصلحة المشتركة بين العالم الخارجي (والشعوب الناطقة بالعربية)ستعزز باليهودية العالمية التي توجد في كل البلاد ، ويعد سايكس ان اي نظام ستقرره الامم بعد الحرب يجب ان يحقق ثلاثة اهداف : ضمان حرمة الاماكن المقدسة، اعطاء فرصة صحيحة للاستيطان الصهيوني ، منح السكان الحاليين ضمانات ضد نزع الملكية والاستغلال والاخضاع .

وكان ضمان قبول الشريف حسين اكثر صعوبة ، بنظر كلايتون ، من الزعماء في

القاهرة ،الذين هم « اكثر صقلا وثقافة »[٢٠].وقد استقر الرأي على ارسال هوغارت (احد رجال المكتب العربي . ومن علماء الآثار المستشرقين) كمبعوث شخصي للتأثير عليه . وبتوجيه من سايكس ، قدمت وزارة الخارجية صيغة للمباحثات تضمن موافقة الحسين : « ان دول الحلفاء مصممة على ان تتاح للشعب العربي فرصة كاملة لاستعادة كيانه كأمة في العالم وهذا لا يتيسر تحقيقه الا بواسطة العرب انفسهم باتحادهم وستتبع بريطانيا العظمى ، وحلفاؤها سياسة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة » . اماعن فلسطين فقد اقترح سايكس الصيغة التالية : « نحن مصممون على ان لا يخضع شعب لآخر ، ونظراً لوجود الاماكن المقدسة في فلسطين لاتباع الديانات الثلاث وهي ذات اهمية لكثيرين من الناس خارج فلسطين وبلاد العرب ، فلا بد ان يكون هنك نظام خاص يوافق عليه العالم لادارة هذه الاماكن . واما فيما يتعلق بمسجد عمر فانه سيعد امراً يعني المسلمين وحدهم ولن يكون خاضعاً لا مباشرة ولا بطريق غير مباشر لأية سلطة غير اسلامية . وينكر سايكس بان الرأي العام اليهودي في العالم يعطف على عودة اليهود الى فلسطين ، ولا بد ان يظل هذا الرأي العام عاملا دائماً.، وفضلا عن ذلك فان حكومة جلالته مصممة على ان لا توضع عقبة في سبيل تحقيق هذا الامل ، « بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الاهالي الموجودين ، من الوجهتين الاقتصادية والسياسية » . ويشير سايكس الى الادعاء التقليدي بان « صداقة اليهودية العالمية لقضية العرب ، مرادفة لتأييد كل الدول التي لليهود فيها نفوذ سياسي وزعماء الحركة اليهودية مصممون على انجاح الصهيونية بالصداقة والتعاون مع العرب ، ومثل هذا العرض لا يمكن تجاهله » .

هذه هي خلفية رسالة هوغارت للحسين (يناير/كانونالثاني١٩١٨) التي ابلغت شفويا الى الحسين ، ولكن الاخير قام بتدوينها[٢٢].وفي المذكرات التي دونهاهوغارت حول الحديث مع الحسين يشير الى ان الملك حسين يعتبر الأشراف الدولي على الاماكن المقدسة مسألة يعاد النظر فيها بعد عقد الصلح ويعلق هوغارت « ولكني لا اشك في انه فيما بينه وبين نفسه لا يتنازل عن شيء من مطالبه الاصلية للعرب او لنفسه مع الزمن » . اما فيما يتعلق باقامة اليهود في فلسطين فيذكر هوغارت ان الملك رحب بقدوم اليهود او كان يبدو عليه الاستعداد لقبول الصيغة التي قدمها هوغارت حول صيانة مصالح الاهالي .

ويعلق هوغارت « اظن ان الحالة فيما يتعلق بهذه الشؤون مثلها فيما يتعلق بما سبق فالملك لا يقبل قيام دولة مستقلة يهودية في فلسطين ، ولم تصدر لي تعليمات بان انكر له ان هذا ما تفكر فيه وتنويه بريطانيا العظمى ولعله لا يعرف الا القليل عن الحالة الاقتصادية الواقعية او الممكنة في فلسطين ، واما مواقفه السابقة السريعة على اقامة اليهود في فلسطين فلا تعني شيئاً ، ولا قيمة لها ، ولكني اظنه يقدر قيمة التعاون العربي مع اليهود » .

وعن طريق لجنة الاعانة السورية في منشستر سعى سايكس الى اقناع الحسين بقبول الامر الواقع . وفي ١٥شباط(فبراير)١٩١٨ بعثت اللجنة برسالة شخصية الى الحسين (باللغة العربية) عن طريق كلايتون ، واطلق الموقعون على الرسالة على انفسهم اسم« الحزب العربي المدافع عن النهضة العربية والراية الهاشمية ومن اصدقاء الدولة البريطانية » . وشرحوا للحسين الظروف التي حكمت على عدم امكان مقاومة استعمار الاسرائيليين لفلسطين لانهم

يبذلون كل شيء اشتياقا لارض يعتقدون بقدسيتها ولهم المقدرة المالية والسياسية في اوروبا ما يكفل لهم النجاح رغما عنا وعن الحلفاء لان الاتراك والالمان على استعداد ان يعدوهم بما سمحت به الحلفاء ، ولكن الانجليز قد قيدوا وعدهم بشروط عدم مس مصالح الاهالي .... وليس بوسع البلاد العربية مقاومة المشروع وتعكير خواطر الامة الاسرائيلية على العرب في حالة احتياجنا لاصدقاء ومؤازرين الأن ، وعد المخابرات بالصلح العام ، واليهود هم الان اعظم سند لنا وهم باستعداد تام بالاموال لاجل العمران وترقي البلاد باسباب المعيشة والثروة ، ومن جملة الصوالح التي لهم معنا هي انهم يرجحون تفضيل جوارنا على غيره لما بيننا وبينهم من التشابه باعتبار الاصل واللغة ، الا ان موقف الحسين ظل غير مشجع . ورغم حرص كلايتون بضرورة ابقاء الحسين على المسرح ، وصفه« بانه طيف عنيد يسعى لتحويل كل شيء غير محدد او واضح لمصلحته[٢٤] » .

البعثة الصهيونية الى الشرق ودعوى التفاهم

وكان على البعثة الصهيونية التي جاءت في آذار(مارس) ١٩١٨ الى الشرق برئاسة وايزمان لتشرف عمليا على وضع التصريح موضع التنفيذ ، ان تقوم بجهد كبير وبرعاية السلطات البريطانية لتترك انطباعا عاما حول توثيق عرى المودة بين اليهود والعرب . وكان اسلوب الاقناع الذي اتبعه وايزمان لدى الزعامات السورية في مصر (وسيكرره في فلسطين) ، لشرح اهداف الصهيونية هو ان ما يطلبه ليس اقامة حكومة يهودية بل اقامة وطن لليهود في الاراضي المقدسة يتيح لهم ممارسة حياتهم القومية ، ومشاركة سائر السكان بالحقوق المتساوية ، وهو لا يهدف الى الاستفادة من الظروف الحالية بشراء الارض بل التجهيز لاستقبال المهاجرين في اراضي الدولة والاراضي المهملة ، وانشاء مدارس فنية للجميع . واكد حرصه على الاماكن المقدسة واملاك الوقف ، وتحدث بعطف عن الثورة العربية واقترح انشاء لجنة مختلطة لتقوية الشعور المتبادل وازالة الشقاق . وقد علق كوردنواليس (مدير المكتب العربي) على الانطباع العام الاولي لقدوم البعثة في اذهان السوريين[٢٥] « ان الصهيونية جاءت لتقول انها اكثر اعتدالا في اهدافها مما توقعوه ، وانهم لو قابلوها بروح استرضائية قد يجنون فوائد في المستقبل » ولاحظ ان موقف الزعماء قد تحول من معارضة متصلبة الى تعرف تدريجي للقوى وراء الصهيونية وقبول كاره بان اغراضها ليست سوداء كما صورت ، وانه في ظروف معينة قد يستفيد السكان حتى من الغزو اليهودي .

وقد تقدم الزعماء السوريون بمذكرة الى ممثل الحكومة البريطانية في البعثة الصهيونية[٢٦] تتضمن الشروط الرئيسية التي يجب ان تقوم عليها السياسة المرغوبة ، لتفاهم متبادل وتحالف بين عرب فلسطين وان يكون نظام الحكومة في المستقبل مبنيا على العدالة والمساواة في الحقوق بين العناصر المختلفة ، وان يخضع المستوطنون الجدد لقوانين البلد . ورأت تشكيل لجنة مشتركة لدراسة ورسم كل السبل التي تكفل تقوية الروابط الاقتصادية بين العناصر المختلفة وتنمية شعور بالحوار . واشترطت اللغة العربية لغة رسمية والتعليم بها اجباريا ، ولم تمانع بتسهيل شراء اراضي الدولة للاستيطان الصهيوني . عند تدفق الهجرة مع ترك حصة معقولة من هذه الاراضي للعناصر الاخرى . وطلبت اخذ ضمانات لحماية السكان خوفا من استغلال ظروف الفقر الناجم عن الحرب .

وفي فلسطين واجهت البعثة الصهيونية عند قدومها في مطلع نيسان (ابريل) حالة من القلق لم تكن مشجعة ولم تجد المحاولات التي سبقت قدوم البعثة من اجل التقارب بين العرب واليهود وازالة مخاوف الفلسطينيين على مستقبلهم[٢٧] . وبذل ستورز حاكم القدس العسكري جهده في حشد مجموعة من وجهاء القدس من مسلمين ومسيحيين للاستماع الى وايزمان وهو يشرح لهم انه لا يهدف الى انشاء دولة او حكومة وان ما تسعى له المنظمة الصهيونية هو ادارة بريطانية تمكن العربي واليهودي من العمل بانسجام في ظلها من اجل تطوير البلد على اساس المساواة والعدالة . ونفى نية التدخل بقضية الاماكن المقدسة التي تثير المخاوف ، وان آخر ما يرغب فيه هو تجريد الفلاحين العرب من الملكية او طردهم ، ولكنه يعتقد ان هناك متسعا في فلسطين لليهودي كما للعربي ، وان الاراضي المهملة بحاجة لمن يزرعها وان المستوطنات تعمل ايضا لرفاهية العرب .

وقابل زعماء القدس ، كما تقول « النشرة العربية التي يصدرها المكتب العربي »[٢٨] العبارات بارتياح وطمأنينة رغم التحفظ ، وابدوا رغبتهم بالعيش بسلام مع جيرانهم اليهود لو صح ما جاء في هذه الكلمات . ولكن رأي رجل الشارع كان اكثر تشاؤما ، فهو لا يطمئن على المستقبل لانه يخشى التعدي على حقوقه لو تحققت اماني الصهيونية . وتضيف النشرة العربية : « ان السوريين في فلسطين هم اصعب استرضاء من اقربائهم في مصر » . وتخوف وايزمان من ان الجو السياسي ليس ملائما كما كان يرغب ، او كما توقع ، من اجل التطور الذي رسمه للتصريح . وان محاولة ازالة الاعتقاد الخاطىء باهداف الصهيونية الحقيقية ومحاولة الوصول الى تفاهم ودي مع « غير اليهود » اوضحت انه من المستحيل اجراء مفاوضات في الوقت الراهن[٢٩] . وقد اثار دهشة وايزمان ما جرى في حفلة مدرسية في القدس ، حضرها ستورز ، اذ ناشد الخطباء فيها الامة العربية للاستيقاظ والنهوض للدفاع عن ارضها وحريتها واماكنها المقدسة ، والحوا على عروبة ارض فلسطين ومقاومة اية محاولة لاستعباد عرب فلسطين . ولاحظ وايزمان ان هناك عداء محدداً لأي نوع من الربط بين فلسطين والاماني اليهودية وليس مجرد اعتقاد خاطيء بالاهداف الصهيونية يمكن ازالته بالشرح والتوضيح . وطلب من السلطات البريطانية تعريف عرب فلسطين بنوايا الحكومة وضرورة العمل وفقا لها ، مستخدماً تحذيره التقليدي بقوة اليهود العالمية المساندة ليهود فلسطين الذين يشكلون « الحارس المتقدم للشعب اليهودي » .

وحاول ستورز ان يدفع عن السلطات العسكرية في فلسطين تهمة التقصير وعدم التعاطف وشرح لوزارة الخارجية[٣٠] انه قد بذل جهده لتبدأ البعثة عملها في ظل رعاية ودية ، واتهم البعثة الصهيونية بعدم الواقعية ولم يكن ذلك بدافع حرصه على المصلحة العربية ، فهو « يهودي مقتنع » وانما حرصه على المصلحة الصهيونية تلزمه بان لا يكشف تفاصيل سياسة حكومة جلالته الصهيونية التي لم تنشر بعد على الرأي العام . وكل ما يمكن ان يقدمه هو تهيئة لقاء ثان بين اعضاء البعثة وزعماء القدس ليتيح لوايزمان فرصة ازالة سوء الفهم الحاضر حول اهداف الصهيونية .

وفي الكلمة التي القاها وايزمان في حفل العشاء ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩١٨[٣١] لم يأت بجديد . سلام وانسجام وتعاون بين كل الفئات ، عرض لنظرية « العودة الى الارض » حيث قام

اجداده منذ عشرين قرنا بنشر رسالتهم . المراد بالوطن القومي هو العودة لاحياء تقاليدهم المجيدة الماضية وربطها بالمستقبل لخلق نظام اخلاقي فكري ينشأ من عالم جديد بدلا من العالم الرازح الان تحت ثقل المصاعب . الصهيونية تهدف الى خلق الظروف المناسبة لليهود الراغبين بالنزوح الى فلسطين دون الحاق الاذى بأي طائفة ، النعم التي ستحل على البلد بتحقيق اهداف الصهيونية ، في فلسطين مجال واسع ومن الممكن تحويل افقر الصحارى الى قرى مزدهرة ، ستتحول فلسطين الى ارض تفيض باللبن والعسل لو عمل اليهودي في ظل المدنية وتحت اشراف حكومة قوية عادلة ، لن يستأثر اليهود بالسلطة السياسية،ما يطلبونه هو وضع السلطة العليا بيد احدى الدول الديمقراطية التي تختارها عصبة الامم ، اعجاب وعطف على نضال العرب من اجل الحرية والاستقلال حيث يرقب اليهود نهضة دولة العرب وتجدد سلطتها السياسية ، النهضة العربية هي في هذا المثلث التاريخي بين مكة وبغداد ودمشق حيث سيقوم نظام عربي سياسي قوي متحد يعيد تراث العرب العظيم في الادب والعلوم القريبة من علوم اليهود وآدابهم ، فلسطين ستعود ثانية حلقة اتصال بين الشرق والغرب تترجم الاول الى الثاني ، والشعب اليهودي خير من يوكل اليه القيام بهذه المهمة لتصبح فلسطين ينبوع العلوم والمعارف عن طريق جامعة يهودية في القدس تكون نبراسا للعلوم جميعا ، المطالبة بان يعطى الصهيونيون فرصة للنمو القومي الحر واستثمار الارض التي اهملت منذ القديم واتباع الطرق الجدية في ظل نظام اقتصادي عادل ، اليهود في جميع اعمالهم الزراعية والفكرية ، لن يتعرضوا بالاذى لجيرانهم بل يصلون بهم نحو حياة اغنى واكمل وعلى هؤلاء ان لا يبخسوا قيمة هذه المساعدة ، عيون الشعب اليهودي المشتتة في اركان الارض تتركز على الاقلية اليهودية في فلسطين ، الطوائف اليهودية في العالم لها نفوذها في مجالس الامم ، البرنامج الصهيوني لن ينجح الا اذا انطلقت في القدس رسالة تعبر عن حسن النوايا وتعمل على تهدئة المخاوف والشكوك وتعطي الجماهير اليهودية المتعبة الامل بعالم جديد افضل .

وقد رد المفتي بكياسة وبراعة ، كما ذكر ستورز ، واعلن رضاه عن الكلمة التي ازالت كثيرا من الاعتقادات الخاطئة وتطلع نحو تعاون مخلص في تطوير فلسطين في المستقبل. وردد القول الشائع « لهم مالنا وعليهم ما علينا». وفي لقاء آخر دبر في يافا بين البعثة الصهيونية ووجهاء المدينة كرر وايزمان نفس الحجج الى حد بلغ حد الملل والخمول ، كما اقر وايزمان نفسه دون ان تحدث التأثير المطلوب .

وسمحت السلطات البريطانية للجنة سورية بالقدوم الى فلسطين في ١٩ ايار لمتابعة العمل على تبديد التخوف الطبيعي لدى الفلسطينيين وكررت اللجنة تصريحات بريطانية بالعطف على العرب وخاصة المسلمين ، والاهتمام بحفظ حقوقهم الوطنية وان زيادة اعداد اليهود لن تؤثر على مصير فلسطين السياسي ، وانه لا داعي للتخوف طالما ان الدولة البريطانية صديقة العالم الاسلامي والعنصر العربي ، اساس حكمها العدل والابتعاد عن المحاباة[٣٢] . مع ذلك لم يتميز الجهد الذي بذل لتذليل المصاعب التي واجهتها البعثة ونصح كلايتون بضرورة تأجيل اي تغيير لصالح المطالب الصهيونية لأن ذلك يقتضي توسيع مقياس المعاملة التمييزية لليهود وسيؤدي ذلك الى مزيد من الدعاية العدائية بين العرب ، وشكا وايزمان في رسالته الى بلفور[٣٣] ، من المصاعب التي يواجهها وعرض وجهة نظره الحقيقية بالنسبة للعرب ومدى تقبلهم للبرنامج

الصهيوني متهما اياهم بسطحية الذكاء والفطنة وعبادة القوة والظفر وان السلطات البريطانية تتجنب الاساءة الى العرب خوفا من طبيعة العربي الغدارة ، وانهم ـ اي العرب ـ قد استغلوا هذا الموقف . والصقوا بتصريح بلفور شتى التفسيرات الخاطئة . ويستطرد وايزمان ان مؤازرة السلطات البريطانية قد مكنته من مواجهة الوضع الصعب والمعقد بشجاعة وثقة وسيحمل التاريخ اعمالها كواحدة من افضل منجزات السياسة البريطانية ونجحت بذلك في التأثير على الاذكياء ذوي الافكار المعتدلة ، ولكن كان مقدرا لجهودها ان تفشل لأن اكثرية الناس لا تريد ان تقتنع . وانتقد وايزمان الادارة البريطانية التي لا تتلاءم مع الخطط الصهيونية المقبلة ، فالمناصب يشغلها موظفون عرب « لم يغيروا عقليتهم بتغير السيد ، فاسدون غير اكفاء ، يتحسرون على العهد الماضي حين كانوايعملون تحت وقع السياط وكان (البقشيش) السبيل الوحيد لتسوية الامور الادارية ... وكلما كان النظام الانكليزي اكثر عدلا كلما اصبح العربي اكثر غطرسة ... والموظف الانكليزي العادل لا يعرف حيل العقلية الشرقية ... مما جعل الادارة معادية لليهود » . وينكر وايزمان على الادارة البريطانية تمسكها بالمبدأ الديمقراطي في تنظيم العلاقات بين الفئتين الذي يأخذ بعين الاعتبار القوة العددية النسبية وحجته في ذلك « ان هناك فرقا نوعيا بين الفئتين . وان اليهودي قد احتل في العهد التركي مكانا في البلاد لا يتناسب مع قدرته العددية لاعتراف التركي بتفوق اليهودي على العربي » ... ويتهم وايزمان الادارة العسكرية كذلك بانها لا تزال تعطي بعض الاهمية لقدرة العربي القتالية ، مذكرا بلفور « اننا نحن نمثل قوة ، رغم انها لا تقدر بالبنادق ، ومع ذلك لها قيمة حربية كبرى وقيمة اكبر في السلم » ، مؤكداً له « ان عواطف العرب المتشككة والمخادعة على المدى الطويل ادنى بكثير من السياسة الواعية المدروسة للشعب اليهودي التي ترى في فلسطين اليهودية تحقيقاً لآمالها وامانيها . ورأت في تصريحك (اي بلفور) بداية لهذا التحقيق » ويستبعد بلفور امكانية خلق فلسطين العربية « لأن الفلاح العربي متخلف عن عصره باربعة قرون . والافندي (المستفيد من النظام الحالي) ليس امينا ولا متعلما وهو طماع تنقصه الكفاءة والوطنية». وعاد وايزمان للتأكيد بانه ليس لدى اليهود رغبة او حاجة لاستغلال العرب او ان يحلوا بدلا منهم « لأنه توجد مساحات من الارض تكفينا كي نطورها دون التعدي على حقوق السكان فمشكلة العلاقات مع العرب هي مشكلة اقتصادية وليست سياسية » . ويوجه وايزمان النظر الى ان « مركز الثقل العربي من الوجهة السياسية ليس فلسطين بل المثلث بين مكة ودمشق وبغداد » ، ويشير بذلك الى زيارته المرتقبة لفيصل حيث يأمل ان يقيم حلفا سياسياً حقيقياً ، اما مع « عرب فلسطين فالضروري هو اقامة علاقات اقتصادية صحيحة بالنسبة لمصالحنا ومصالح الفلسطينيين»، وارفق وايزمان رسالته بعدد من المطالب التي تحتاج الى توجيهات سياسية : انشاء الجامعة العبرية ، وتسليم حائط المبكى لليهود ، مشروع الاراضي والتخلي عن نظام الملكية الحالي .

الحركة الصهيونية في مواجهة قادة الثورة العربية

لم تؤد تجربة البعثة الصهيونية في فلسطين النتائج المرجوة التي رسمت لها بل عمقت شعور الاستياء الذي سبقها ، وما كانت تخشاه السلطات البريطانية بوجه خاص وتعتبره خطرا على الوضع العسكري[٣٤] ان ينتقل شعور الاستياء عن طريق البدو في المناطق الجنوبية الشرقية « الذين يقاتلون مع فيصل ، الى العرب الذين يدعمون بفعالية العمليات العسكرية ويهم الترك

كثيرا ان يكسبوهم الى جانبهم . وكان لا بد من توجيه الانظار الى منطقة ابعد الى الشرق ورسم خطة جديدة بوضع الحركة الصهيونية بمواجهة القائمين على قيادة الثورة العربية التي تشكل الجناح الايمن للقوات البريطانية في الشرق » . ويهم بريطانيا ان يظل هذا الجناح مصدر قوة[٣٥] . لذلك وخوفا من حدوث صدام متوقع يؤثر على المصالح البريطانية فان الموقف المتعاطف لملك الحجاز وفيصل سوف ينجح كثيرا في تنسيق السياستين الصهيونية والعربية ، هذا ما قاله كلايتون في برقيته الخارجية ٢٦ ايار (مايو) ، وانطلقت هذه السياسة من عدة فرضيات خاطئة : الفرضية الاولى ان مركز الثقل في الحركة العربية هو المثلث القائم بين دمشق ومكة وبغداد ، وحين ركزت الاضواء على فيصل وجد ان هذا المركز يجب ان يتحرك شمالا الى سوريا الشرقية التي مركزها دمشق ، لانه في هذه المنطقة . كما يقول كلايتون[٣٦] : « يمكن ان توجد امة حقيقية وشعب حقيقي » . ووجد وايزمان ان المسألة الفلسطينية يمكن عزلها في حال انشاء حلف سياسي مع قادة الحركة العربية في الشرق[٣٧] .

الفرضية الثانية : ان هناك عنصرين متميزين في المنطقة العربية بينهما فجوة عميقة . الاول يمثله السوريون الغربيون الذين اصبحوا مشرقيين (ليفانت) وهو بنظر اورمسبي غور (الممثل البريطاني في البعثة الصهيونية) « عنصر فوضوي تنقصه الامكانيات البناءة (وهو ما لاحظته البعثة في فلسطين) ليس له حضارة اصيلة بل عاش على حضارات غربية متعاقبة تنقصه المثالية السياسية والعسكرية والروح القومية التي يعبر عنها العنصر الآخر الذي يمثله فيصل ورجاله (ورغم انه يحوي مجموعة من العنصر الاول)» ويضيف اورمسبي غور ان « اليهود بتعزيزهم ومساعدتهم الحركة العربية التي يمثلها فيصل سيربحون كل شيء ، ولن يربحوا شيئا بمساعدة حركة السوريين (الغربيين) » .

الفرضية الثالثة : ان مسألة العلاقة مع الشعب الفلسطيني هي اقتصادية فقط ويمكن التوصل الى حل لها مع تحسن الاوضاع الاقتصادية ، اما الفرضية الاخيرة فهي كما شرحها اورمسبي غور « ان شرفاء مكة لا يهمهم امر عرب فلسطين كثيرا » .

ولم يكن موقف الحسين تجاه البرنامج الصهيوني واضحا من وجهة النظر البريطانية رغم الجهود التي بذلت وكل ما عبر عنه حتى الان ، كما شرح كلايتون[٣٨] . « انه مستعد للاعتراف بحقوق اليهود كمواطنين لأي دولةعربية يمكن ان تقام بعد ذلك » . اما عن رأي الحسين بوجود اليهود الحاليين في فلسطين فقد ورد في مقال في جريدة القبلة تحت عنوان « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها »[٣٩] ، والمقال كتب تعليقا على مقال آخر ظهر في المقطم (٣ مايو/ أيار) حول المستعمرات الاسرائيلية وضرورة ان ينسج ابناء البلاد على منوال الاجانب في استثمار الارض وترى (القبلة) « ان في وجود الاسرائيليين في فلسطين دافعا لتوليد مادة الاقتباس ... وازاء فكرة المجاراة والتحدي بين ساكنيها والمهاجرين اليها . ولكن الجريدة تعجب من هجرة ابناء فلسطين عن بلادهم ، في وقت يتسلل اليها الاسرائيليون الاجانب . وترى ان سبب هجرة ابناء فلسطين هو نقص الوسائل الكافية في وقت يتوفر للمهاجرين الاسرائيليين قوى مادية ومعنوية . لذا تدعو الجريدة الجالية الى وطنها (اي المهاجرين من ابناء فلسطين) حيث ستكون هذه الجالية « بالمادة والمعنى مدرسة نظرية لاخوانهم المقيمين في مزارعهم ومتاجرهم ومصانعهم » ... والطور الجديد الذي بدأ الناس

يدخلون فيه يدعو الى النهوض ... وانه بهذا الطور يمكن الاستفادة من وجود الاسرائيليين وسواهم من الجاليات الذين قد استفادوا من النظم والمناهج التي اقامتها لهم جمعياتهم الاوروبية والاميركية...وسيتبين كل فرد حينئذ ان في كل شبر من اراضيهم مستقبلا باهرا يستحق ان يعضوا عليه بالنواجز ... فما دامت امامنا نماذج مفيدة نتعلم منها طرقا مثمرة من طرق المعاش والعمران فذلك ضرب من ضروب الحكمة التي نحن مأمورون باقتباسها والعمل بها » .

وقد رأت الجهات البريطانية المسؤولة ان من الافضل توجيه النظر الى فيصل لضمان موافقته والتأثير على والده . وكان التركيز قد بدأ يسلط على فيصل ، اثر انتصاراته العسكرية كي يحقق ما فشل الحسين في تحقيقه . ومنذ شباط (فبراير) ١٩١٨ اسر كلايتون الى سايكس[٤٠] « حثثت لورنس ان يقوم بالتأثير على فيصل حول ضرورة الوفاق مع اليهود ، وهو يميل الى الجانب الآخر .. لقد بينت انها فرصته الوحيدة لعمل اشياء عظيمة حقا واعطاء الحركة العربية ثمارها » .

وجاءت اول اشارة عن لقاء سيتم بين فيصل ووايزمان في برقية كلايتون الى الخارجية في ٢٦ أيار [٤١] بأن وايزمان يرافقه اورمسبي غور سيغادران السويس في ٢٨ منه متجهين نحو العقبة لزيارة فيصل في مقر قيادته (وكان من المتوقع ان يلتقي لورنس بوايزمان في العقبة ليقدمه للامير) . وبرأي كلايتون ان المباحثات يمكن ان تعطي نتائج مثمرة خاصة وان الوقت الراهن موات لأن فيصل سيتوجه بعد فترة الى جدة للاجتماع بوالده . وفي رسالة التقديم التي بعث بها كلايتون الى فيصل[٤٢] ، عرف « وايزمان بانه احد زعماء الحركة الصهيونية البارزين ، وانه جاء من انكلترا لدراسة الوضع في المنطقة وبصورة خاصة تنمية التعاون الكامل بين العرب واليهود الذين يناضلون معا للتحرر من الاضطهاد التركي وتتفق مصالحهم تماما في الوقت الحاضر والمستقبل ، بحيث انه بالتعاون الوثيق والعطف المتبادل يمكن التوصل الى النجاح الدائم »

وقد اوضح وايزمان في رسالة الى بلفور في ٣٠ أيار[٤٣] الخطوط العريضة لمباحثاته المقبلة والعروض والحجج التي سيستخدمها لكسب فيصل « سأقترح على ابن ملك الحجاز انه اذا كان يود بناء مملكة عربية مزدهرة قوية فنحن فقط نستطيع ان نعطيه المساعدة المالية الضرورية والقوة المنظمة ، سنكون جيرانه ولن نشكل اي خطر عليه ، نظرا لأننا لسنا قوة كبرى ولن نكون،فنحن الوسطاء الطبيعون بين بريطانيا والحجاز ، وان مثل هذه العلاقات ستحمي الحجاز الشمالي من ان يصبح منطقة نفوذ فرنسي. وهو الامر الوحيد الذي يبدو ان شعب الحجاز يتخوف منه. آمل ان استطيع تكوين حلف سياسي حقيقي معه » .

وفي معسكر فيصل قرب العقبة جرى اللقاء في مطلع حزيران (يونيو) ١٩١٨ وحضره الليفتنانت جويس كمترجم ، ولم يحضر اللقاء لورنس ولا اورمسبي غور (وكان فيصل يتحدث بالعربية اما وايزمان فتحدث بالانكليزية وقام جويس بمهمة الترجمة بلغة عربية ركيكة) .

وقع وضع جويس تقريراً من ثماني نقاط[٤٤] : ذكر وايزمان انه ارسل من قبل بريطانيا- للتحقق من تطور المصالح اليهودية في فلسطين وان اكثر مهامه اهمية الاتصال بالزعماء العرب

ومحاولة التعاون معهم ـ بعد الاشارة الى التراث التاريخي للعرقين عبر عن رأيه بضرورة التعاون المباشر في الوقت الحاضر ـ واشار فيصل الى عدم استطاعته التعبير عن آراء محددة حول المسائل السياسية لانه مجرد نائب عن والده ولكنه اعتبر ان مصالح اليهود والعرب يجب ان تحدد بشكل دقيق ـ اشار وايزمان ان فلسطين ستساعد على تطور المملكة العربية التي ستتلقى دعما يهوديا ـ شرح وايزمان ان الصهيونيين لا يهدفون اقامة حكومة يهودية بل يرغبون في العمل تحت اشراف بريطاني من اجل استيطان وتطوير البلد بدون تعد على مصالح الغير الشرعية ـ اشار فيصل انه غير قادر على بحث مستقبل فلسطين سواء كدولة يهودية او بلد تحت اشراف بريطانيا نظرا لأن هذه المسائل كانت موضع دعاية المانية تركية وسيساء تأويلها لو بحثت علنا ـ عندما تصبح القضايا العربية اكثر تماسكا يمكن اجراء مباحثات اكثر جدوى، وتقبل الشريف شخصيا امكانية تحقيق المطالب اليهودية في المستقبل في منطقة محددة من فلسطين ، الا انه لا يمكن بحث ذلك علنا نظرا لانه لا يمثل حكومة عربية وهو يخشى دعاية العدو الى حد كبير ، واكد ثانية ضرورة تعاون وثيق بين العرب واليهود لمنفعة الطرفين المتبادلة ـ شرح وايزمان انه سيتوجه قريبا الى اميركا ويمكن استخدام نفوذ الصهيونية في ذلك البلد وفي مكان آخر لصالح الحركة العربية ، وقد ارضت هذه العبارة فيصل كثيرا ـ انتهت المقابلة بتعبير ودي عن العطف المتبادل ودعوة فيصل لتكرار اللقاء بعد عودة وايزمان من اميركا .

وفي تعليقه على نتائج المقابلة يرى جويس ان المقابلة لا قيمة لها رسميا لانه لا يمكن التوقع من فيصل ان يصدر اي تصريح علني لأن هذا خاص « بملك مكة » فقط ولكنه ـ اي جويس ـ يعتقد ان فيصل قد رحب حقيقة بالتعاون اليهودي واعتبره عاملا مدعما للتطلعات العربية في المستقبل ، ويجزم ان فيصل يعرف ان فلسطين اليهودية هي احتمال ممكن في المستقبل وقد يقبلها ضمن حدود اذا كان عن طريقها يمكن الوصول الى توسع عربي ابعد الى الشمال. وبنظر جويس ان القضية التي اتفق الطرفان عليها هي استبعاد اي ادعاءات اقليمية في سوريا لغير العرب واليهود ، وقد آمل جويس ان يتوصل الطرفان الى تحالف في المستقبل . وتفاءل كلايتون بنتائج لقاء فيصل ـ وايزمان[٤٥] ورأى ان هذا اللقاء قد عمل على تعزيز العطف والتفاهم المتبادلين والاقلال من قيمة الدعاية التي تثير الشكوك بالنوايا الصهيونية في صفوف المحيطين بفيصل . وفي تحليل كلايتون لدوافع الطرفين يرى ان طموحات فيصل هو ان يصبح الامير الحاكم في سوريا المستقلة ، ومن اجل ذلك لا بد من ان يتلقى دعما عسكريا يمكنه من هزيمة الاتراك ، وهذا يحققه بالاعتماد على بريطانيا . اما من اجل الحصول على دعم اقتصادي وسياسي لاقامة الدولة المستقلة والحفاظ عليها فان فيصل حريص على عدم الاعتماد على دولة واحدة ، حتى لو كانت بريطانيا ، لان هذا يعني وضع الدولة الجديدة تحت الاشراف والقضاء على المظهر الخارجي للاستقلال الذي يوليه العرب اهمية فائقة . ولذا فان الشريف فيصل ، برأي كلايتون ، يرى في الصهيونية ، قوة لو جندت بجانبه ، تكون قادرة على مده بالدعم الاقتصادي والضروري ، ومقاومة اصحاب الامتيازات في العالم وكل القوى التي تميل نحو الاستغلال الاجنبي ، اما من حيث الدعم السياسي فان فيصل يعرف جيدا ان الصهيونية ذات تأثير عالمي ومن خلالها يعتمد على بريطانيا التي يضع ثقته الكبرى بها .

اما دوافع وايزمان ، من وجهة نظر كلايتون ، وتوقعاته من اللقاء فهو ان تحقيق هدفه

بجعل فلسطين مركزا لثقافة يهودية يتطلع لها يهود العالم وتصبح جسرا بين الشرق والغرب ، مرتبط بعطف الدول المحيطة بها وهو شرط اساسي لوجودها وتطورها ، ولا بد لتحقيق الاماني الصهيونية من العمل مع الحركة العربية المجاورة ، وقد وجد كلايتون في لقاء الحركتين واعتمادهما المتبادل حلا للمشكلة التي تجابه الحكومة البريطانية في تنفيذ وعودها للطرفين .

واقترح كلايتون تدبير لقاء مشابه في المستقبل القريب مع « ملك الحجاز » ليضمن تنسيقا للاهداف العربية والصهيونية واقامة تعاطف كامل بين الحركتين . ويقر كلايتون ان الحسين قد يظهر للوهلة الاولى كرها للبرنامج الصهيوني الكامل ، ولكن يمكن اقناعه باسلوب مناسب حول مدى تأثير هذا البرنامج على الآمال العربية في سوريا . وعندها قد يتخذ موقفا حياديا على الاقل ان لم يكون مواليا . وجهة نظر كلايتون ان الحسين كان قد صرح مرارا ان المبرر الوحيد لاعلانه الثورة العربية هو قيام الدولة العربية ، وان ذلك غير ممكن عمليا ، ولكن لو نجح فيصل في تحرير سوريا ليصبح اميرا حاكما عليها فان الحسين سيثق على الاقل بوجود مظهر خارجي للسيادة على اهم المناطق العربية وقد يرحب بأي سياسة تساعد فيصل على تحقيق هذا الهدف .

وسعى وايزمان بعد عودته من العقبة الى التقدم باقتراح عرضه على وينجيت[٤٦] (المندوب السامي في مصر) من اجل التأثير على الحسين خلاصته : لو اعترف بالحسين زعيما للحركة العربية فان الصهيونيين كمنظمة خاصة سيتعاملون معه مباشرة ليعرضوا عليه مساعدة مادية ومساعدات اخرى لو طلبها من اجل اقامة مملكة الحجاز وكذلك دعم الاماني والعواطف السياسية السورية في اوروبا واميركا ، مقابل اعتراف العرب بالاماني الصهيونية في فلسطين .

وقد نقل وينجيت الى بلفور خلاصة برنامجين آخرين حول مستقبل المنطقة. الاول برنامج تقدم به الحسين لاقامة كتلة عربية تشتمل الجزيرة وسوريا والعراق تحت سيادته التي قد تكون اسمية في بعض الاجزاء المتمتعة بالحكم الذاتي المحلي ومطمحه وضع اساس لاتحاد دول عربية وضمان حق العرب التقليدي بالخلافة . اما البرنامج الثاني فهو الذي وضعه سوريون مثقفون في مصر ، هم رغم انقسامهم ، يتفقون في معارضة السيادة الشريفية ومعارضة فصل فلسطين عن سوريا ، ووضعها تحت الاشراف الصهيوني . فهم يطالبون بسوريا الكاملة تحت حماية بريطانية مقنعة لمرحلة مؤقتة على ان لا يكون ذلك خطوة لفلسطين اليهودية ويرون ان بامكان بريطانيا وحدها دون اليهود ان تفعل كل ما تطلبه سوريا ويشككون بحجة الصهيونية حول نفوذها في الولايات المتحدة . ويرى وينجيت ان البرامج الثلاثة (بما فيها البرنامج الصهيوني) تتضارب ولو لم يوجد بينها اتفاق مشترك سيؤدي ذلك الى تضرر المصلحة البريطانية في مؤتمر السلم المقبل .

ولكن وينجيت في تحليله النهائي يرى ان البرنامج الصهيوني في الوقت الراهن هو اكثرها حظا في النجاح بسبب موارد الصهيونيين المالية ونفوذهم السياسي، ولكنه يرى ان البرنامج الصهيوني يصطدم مع البرنامج السوري بشأن فصل فلسطين عن سائر سوريا كما يصطدم مع البرنامج ، «الشريفي» حول معاملة الفلسطينيين لما يلحقه منح الحقوق المتساوية لليهود وللعرب من ضرر للاخيرين ان عاجلا او آجلا . ويستنتج وينجيت من برنامج وايزمان ان

الصهيونيين على استعداد لتقديم تعويض نقدي للشريف ، ودعم سياسي للسوريين في اوروبا واميركا . ويفترض وينجيت ان الطرفين سيرحبان بالدعم الصهيوني لمواجهة الادعاءات الفرنسية في سوريا . وان المساعدة الصهيونية لدولة الحجاز الجديدة تجنبها ضرورة الاعتماد المادي على دولة مسيحية وبالتالي اثارة حساسية المشاعر العربية ، وكذلك تحميها من كل اسباب التنافس الدولي.وقد يكون الملك حسين قادرا،بدعم من المنظمة الصهيونية،على توطيد مركزه بين الزعماء العرب في شبه الجزيرة ويمنحه ذلك سندا اقوى لادعاءاته للخلافة . ويطلب وينجيت من الحكومة ان تأخذ ملاحظاته بعين الاعتبار وهذا لا يتم الا لو تحقق شرطان اولهما ان لا تعتبر الحكومة البريطانية اتفاقها الرسمي مع فرنسا اي سايكس ـ بيكو حول سوريا ملزما . والثاني ان تتخلى عن فكرة الحفاظ على امتيازات العرب في فلسطين لأن هذه قد ضمنها تصريح حكومة جلالته الاصلي .

وقد وجد سايكس ان اهداف الصهيونية ، كما عرضها وينجيت قد تجاوزت الحد المرسوم لها بحيث يمكن ان تؤثر على المصلحة البريطانية في الشرق بشأن علاقاتها مع فرنسا[٤٧] ، في حين كان يرى ان من الاوفق ان تعمل بريطانيا على دعم الصهيونية من جهة ، والتحكم بشؤون مكة ودمشق وبغداد من جهة اخرى وهذا سيتيح للعنصر اليهودي نفوذا سائدا في جميع البلاد التي تحيط بفلسطين . ان هدف السياسة البريطانية ، كما يراها سايكس ، بالنسبة للصهيونية ، والتي ساهم برسمها الى حد كبير ، هو تمكين الصهيونيين من حرية العمل في فلسطين نفسها وليس لمطامع ابعد لسبب واحد هو ان المصالح الفرنسية في سوريا امر واقع ولا بد من اخذها بعين الاعتبار . ولم يدخل سايكس في حسابه المسألة العربية اذ ان ما يهمه من سوريا هو فلسطين فقط التي سعى لابقائها مفتوحة في الاتفاقية التي تحمل اسمه . وكان عليه قبل التوصل الى تسوية بشأنها مع فرنسا ان يزيل من اذهان العرب فكرة ضم فلسطين الى سوريا بحجة ظل يرددها مرارا في احاديثه مع ملك الحجاز وفيصل والمثقفين السوريين : « ان فلسطين هي مركز الاهتمام الرئيسي لاتباع الديانات العالمية الثلاثة ، ولا يمكن لدولة سوريا الناشئة التغلب على المشاكل الفلسطينية ، لانه لو اصبحت فلسطين جزءا من سوريا المحررة فان جميع الفئات ذات العلاقة بفلسطين سوف تتدخل في شؤونكم في كل ازمة تثار حول شراء اراضي للاستيطان اليهودي او نزاع حول الاماكن المقدسة المسيحية ، او الاشراف على مسجد عمر ، وستجدون انفسكم وقد تورطتم بقضايا عشرات الملايين من البشر الذين لا مصلحة لهم في سوريا على الاطلاق » .

وكي يزيل وايزمان تلك الافكار التي بدأت تراود بعض الاوساط الحكومية البريطانية بانه يضع المصلحة الصهيونية اولا ، بعث برسالة الى بلفور[٤٨] يبرهن فيها ان كل ما يفعله في لقائه مع الحركة العربية انما هو للمصلحة البريطانية « انا مقتنع تماما انه كلما تطورت الحركة التي يمثلها فيصل ، وكلما نجحت في ميدان الحرب كلما قل النزاع بين تلك الحركة وبين الصهيونية . انا اتوقع ـ ويوافقني على ذلك فيصل ومستشاروه ـ امكانية قيام تعاون مخلص بين الامتين سيؤدي الى منفعة متبادلة ، ويدعم بريطانيا في الشرق الادنى ... لو نجح فيصل في دخول دمشق ، وهذا ممكن عسكريا ـ فان ذلك سيدعم الموقف العربي ولكنه يحتاج الى مساعدة . ويمكن للحركة الصهيونية ان تعطيه العناصر التي هو بحاجة اليها ، نحن سنأتي

لمساعدته ليس كمستغلين او اصحاب امتيازات ، بل برغبة مخلصة للتعاون مع عرق من المقدر له ان يحتل مركزاً هاماً في الشرق ويستخدم كجسر بينكم وبينه . وقد علمت من مستشاري فيصل المقربين انه يرغب بذلك وستأخذ رغبته شكلا ماديا حين تسنح الظروف العسكرية » .

وكان هدف وايزمان التقليل من مسألة قيام مشكلة عربية خطرة في المستقبل في فلسطين لو دعمت الحركة العربية في مكة ودمشق ، وبرأيه ان ما يسمى مسألة عربية في فلسطين سوف تتخذ بذلك طبيعة محلية صرفة وهي لا تعتبر عاملا هاما من جميع المطلعين على الوضع المحلي . ولكن وايزمان يشير هنا الى العقبة التي تحول دون تحقيق الاماني العربية والصهيونية والتي تتمثل في اتفاقية سايكس ـ بيكو . وهي نتاج دبلوماسي لسنوات الحرب الاولى فقدت معناها الواقعي في الوقت الحاضر ، بل وتقف ضد مبدأ تقرير المصير الحقيقي الذي عبرت عنه الحركتان العربية والصهيونية : واستمرار الاتفاقية وكل ما تمثله هو مصدر القلق الوحيد والدائم في المنطقة .

موقف عربي رافض من دعوى التفاهم على ابواب مؤتمر السلم

لم تكن محاولة فرض البرنامج الصهيوني في فلسطين بهذه السهولة ، وقد شرح احد خبراء المكتب العربي[٤٩] ، ما تضيفه هذه السياسة من التعقيدات الشائكة للوضع في الشرق . ولم تكن له ثقة بجميع المقابلات التي قام بها وايزمان مع الزعماء العرب . وقدر هوغارت المصاعب التي تحيط بالقضية العربية[٥٠] مؤكدا انه « لا يمكن ان نتوقع من الغالبية (غير اليهودية) قبول التغلغل الصهيوني او قبول المعاملة المتميزة للصهيونيين لأن معارضة الاغلبية تزداد كل يوم » ويجد هوغارت لضمان قبول هذا التغلغل ان يسود العنصر (الشريفي) او من يسميهم (البدو) بين العرب ، حيث يمكن اجراء صفقة مالية والا يجب فرض تعهدات بريطانية للصهيونيين بالقوة .

وقد اقر رئيس تحرير جريدة الكوكب التي عملت على بث الدعاية في الاوساط الفلسطينية[٥١] ، انه رغم جهوده في النصح والارشاد لم ينجح في ازالة سوء الفهم بين الشعب والحكومة بسبب المسألة اليهودية ...وحملت الصحف السورية خارج فلسطين (في الولايات المتحدة[٥٢] ، وباريس) على سياسة بريطانيا بجعل فلسطين دولة يهودية وفند بعضها دعوى الاتفاق والوئام التي حملها وايزمان ، ودعت الى تنظيم مقاومة سلبية للرد على محاولات التقارب التي يدعيها الصهيونيون وتوجيه نداء لمد يد العون والمساعدة لعرب فلسطين[٥٣] .

وتعقدت الامور بعد اعلان الهدنة في ٣٠ تشرين الاول ، واقتراب مؤتمر السلم ، اذ زاد تطرف المطالب الصهيونية وتصاعدت حدة المعارضة العربية ورافق ذلك قلق بريطاني ، كان على الاغلب ، على مصير البرنامج الصهيوني.وفي زيارة سايكس لمنطقة الشرق العربي بعد الهدنة في محاولة لتهدئة الاحتجاجات ضد السياسة الصهيونية ازداد قلقه وهو يرى خلافا كبيرا ينمو بين العناصر اليهودية (وغير اليهودية) في فلسطين ربما يتطور الى شكل اسوأ[٥٤] وقد شاهد عن قرب فشل سياسته (التوفيقية) والتباعد السحيق بين وجهتي النظر اليهودية وغير «اليهودية » . وتحليل ذلك بنظره « انه بتأثير الهدنة يشعر الطرفان ان الوقت موات للدعاوى المتنافسة ، وما نتخوف منه ان يفكر (غير اليهود) بان احسن برهان (لمطالبهم) هو

الانفجار العنيف » . ويحدد سايكس وجود مشكلتين تحتاجان الى قرار سريع ، فاليهود يهمهم معرفة حدود فلسطين،و « غيراليهود » يهمهم معرفة فيما اذا كان الهدف الصهيوني هو اقامة دولة يهودية مستقلة عندما تستطيع تلك الاغلبية اليهودية او هل ان الوصاية ستستمر الى حين تطالب العناصر اليهودية (وغير اليهودية) معا بالاستقلال . وبدون ايجاد حل للمشكلتين لن يكون هناك مجال للدبلوماسية او التوفيق . ولا يقترح سايكس ان « يطلب من الصهيونيين اقل مما هو ضروري لتمكينهم من انجاز اهدافهم». وظل سايكس ــ حتى وفاته مع افتتاح مؤتمر السلم ــ يصر على رأيه بان الوضع الحالي ينبع من سوء الفهم اكثر من تضارب الاراء . وقد نصح كلايتون الصهيونيين(٥٥) بتجنب المزيد من المطالب التي قد « تؤثر على نجاهم باثارة عداء دائم بحجة انهم يريدون تحقيق اهدافهم بالقوة » وكان دافع كلايتون لهذا التحذير اعتبار هام « هو ان غير اليهود في فلسطين هم ٥٧٣,٠٠٠ مقابل ٦٦,٠٠٠ يهودي لذا فان اماني الصهيونيين الحقيقية يمكن ان تحقق بشرط ان ينفذوا برنامجهم بصبر وان يظهروا تعاطفا لمن هم (اليوم) غالبية كبرى » .

وقد كانت اغلبية الصهيونيين تقدر صعوبة (فلسطين المستقبل) التي يحكمها (اقلية) وتحيطها اراض يسكنها شعب تربطه باغلبية سكان فلسطين صلات لغوية ودينية .ولذا كانت استعدادت الصهيونيين على اشدها قبل عقد مؤتمر السلم . وبتوجيه من وزارة الخارجية البريطانية بدأت الاوساط الصهيونية تبحث الخطوط العريضة لوضع تصريح بلفور موضع التنفيذ ورسم حدود فلسطين الجديدة في المستقبل تحت الحماية البريطانية (المؤقتة) . وكان هم الصهيونيين في مؤتمر السلم ان لا يطبق مبدأ الديمقراطية المستند على الارقام المجردة « حتى يحين الوقت الذي تتحول فيه فلسطين الى بلد يهودي بهجرة كثيفة واستيطان منظم في ظل حماية بريطانية »(٥٦) .

وكان العرب من جملة من عانى ، او اسوأ من عانى ، من السياسة الدولية بعد الحرب . ولم يسمح لأي وفد عربي بالمثول امام المؤتمر سوى وفد يرأسه الامير فيصل ، نيابة عن الحسين ولم يكن يتكلم باسم الحجاز بل باسم عرب آسيا . وكانت المطالب العربية التي حملها فيصل لعرضها على مؤتمر السلم تتنازعها عدة عوامل متناقضة : امل العرب بالوحدة والاستقلال ، المطامع الفرنسية ومعاداة العرب لها . تصريح بلفور وكراهية العرب للمشاريع الصهيونية . واخيرا تعهدات بريطانيا المتناقضة . وقد تصور العرب ان الهدف الذي ثاروا من اجله ضد الدولة العثمانية قد تحقق ولكن تبين على ابواب المؤتمر البون الشاسع بين ما يطالب به العرب وبين ما ترضى الحكومة البريطانية ان تعترف به ، والتي اعتبرت مؤتمر السلم تبريراً للتأخير والتنصل من المسؤولية .

ووقفت الحركة الصهيونية كاتجاه آخر يعارض تحقيق المطالب العربية في المؤتمر ومثلها وفد منظم ، في وقت لم يتجاز عدد السكان اليهــود في فلسطين ١٠٪ ورفض طلب رسمي من عرب فلسطين الى مؤتمر السلم يطلبون فيه تمثيلهم للظهور امام الهيئة الدولية . ولم يكن لمقررات المؤتمر القومي الذي عقد في فلسطين ٢٧ يناير ــ ١٠ فبراير ١٩١٩ برفض كامل التعهدات التي ابرمت بشأن فلسطين ولا للاحتجاجات التي رفعت الى المؤتمر من فلسطين وخارجها اي تأثير .

فيصل يوقع اتفاقاً مع وايزمان

وقبل افتتاح مؤتمر السلم رسمياً اجرى فيصل محادثات مع بلفور بدأت في ١١ كانون اول ١٩١٨ . وكانت مشكلة فيصل الرئيسية في هذه المحادثات هي ادعاءات فرنسا في سوريا والبحث عن دعم بريطاني لمقاومتها . اما حول السياسة البريطانية في فلسطين والعراق فقد كان واثقاً كوالده ان العرب سوف يتوصلون الى تسوية ودية حول هذه الامور . مع ان فيصل لم يطلع على تفاصيل الخطط السياسية التي جرت بين الحكومتين الفرنسية والانكليزية بشأن تعديل توزيع مناطق النفوذ طبقاً لاتفاقية سايكس بيكو مقابل دعم بريطانيا للمطالب الفرنسية امام مؤتمر السلم، الا انه شعر من مجرى مباحثاته ان بريطانيا ليست مستعدة للنزاع مع فرنسا حول سوريا مهما بلغت درجة تعاطفها مع الاماني العربية . واصبح موقف فيصل والوفد المرافق له حرجاً فهو اما ان يغادر اوروبا « او يقوم بمحاولة اخيرة لتأمين الدعم البريطاني للقضية العربية ، وهو الدعم الوحيد الى الان نظرا لأن بقية الدولة كانت مشغولة بشؤونها الخاصة وليس لها مصالح مباشرة في سوريا ضد الادعاءات الفرنسية ، وهي الخطر المباشر للدولة العربية في سوريا[٥٧] . وكان لا يمكن تأمين هذا الدعم الا بالتنازل عن بعض المصالح العربيةالتينصت عليها تعليمات والده مع انه قد تلقى برقية من الحسين يهدد بحدوث ثورة اذا لم تلب مطالبه، وطويت البرقية حتى لا تثير ازمة[٥٨] .

ولا يعرف بالضبط ما الذي تم بين الامير ووزارة الخارجية والضغوط التي تعرض لها في لندن لكي تتجدد لقاءاته مع زعماء الصهيونية (وكانت المنظمة الصهيونية قد بعثت الى فيصل بعد دخوله الى دمشق رسالة تهنئة رد عليها بلطف ولباقة)[٥٩] . وتمكنت الحكومة البريطانية بشخص لورنس (الذي كان يرافقه كظله منذ وصوله الى اوروبا) من اقناعه بان فرص كسب مساعدة وزارة الخارجية سوف تكون اعظم اذا توصل الى تفاهم مع الصهيونية . ويبدو ان وزارة الخارجية كانت تحتاج الى اعتراف من فيصل بسياستها تجاه الصهيونية دون الرجوع الى عرب فلسطين قبل عرض القضية رسميا على المؤتمر ، كما ان فيصل ، الذي لم يتمرس بعد بأساليب السياسة الاوروبية كان يرى في الحكومة البريطانية صديقته الوحيدة التي يتلقى منها النصح والمشورة . ولا توجد الا رواية وايزمان عن المباحثات[٦٠] ، ولو غضضنا النظر عن طبيعتها المتحيزة لبرزت حقيقة واحدة ،وهو ان كلاً من فيصل ووايزمان كانا ضد سايكس ـ بيكو ، ويظهر انه بايعاز من وايزمان او لورنس رأى فيصل انه اذا توصل الى تفاهم مع الصهيونيين فسيوحدون جهودهم للحد من اطماع فرنسا في سوريا[٦١] . وفي تبريره لهذا الاتفاق ادلى فيصل بحديث في آذار الى الصحفي البريطاني جفريز Jeffries (نشرت المقابلة في ديلي ميل) قال فيه» ان العرب قد حرموا من الوصول الى المتوسط وانه كان يطالب بالوفاء بالوعود التي اعطيت لوالده ولكن ايد حكومية رسمية كانت تقبض عليه وتدفعه نحو صداقة جديدة للدكتور وايزمان «[٦٢] .

واصل الاتفاق هو مشروع (بالانكليزية) قدمه وايزمان الى فيصل عن طريق لورنس (وبخط يده) وقام لورنس بترجمة محتوياته الى العربية شفهيا (ولم يكن فيصل يعرف الانكليزية) ويشمل الاتفاق تسع مواد وديباجة والتأريخ المدرج على الاتفاق هو ٣ كانون الثاني١٩١٩، اما نص الاتفاق فكان على النحو التالي[٦٣] :

« ان صاحب السمو الملكي الامير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها ، والدكتور حاييم وليزمان ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنها ، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ، ويتحققان ان اضمن الوسائل لبلوغ غاية اهدافهما الوطنية هو في اتخاذ اقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين ، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

(١) يجب ان يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين اقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص ، وللوصول الى هذه الغاية تؤسس ويحتفظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الاصول في بلد كل منهما .

(٢) تحدد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدول العربية وفلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين .

(٣) عند انشاء دستور ادارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها تقديم اوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ يوم ٢ نوفمبر ١٩١٧ .

(٤) يجب ان تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وباقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الارض عن طريق الاسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الاجراءات يجب ان تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب ان يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي .

(٥) يجب ان لا يسن نظام او قانون يمنع او يتدخل بأي طريقة ما في ممارسة الحرية الدينية ويجب ان يسمح على الدوام ايضا بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز او تفضيل ، ويجب ان لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية او السياسية

(٦) ان الاماكن الاسلامية المقدسة يجب ان توضع تحت رقابة المسلمين .

(٧) تقترح المنظمة الصهيونية ان ترسل الى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الامكانيات الاقتصادية في البلاد وان تقدم تقريرا عن احسن الوسائل للنهوض بها ، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الامكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وان تقدم تقريرا عن احسن الوسائل للنهوض بها ، وستستخدم المنظمة الصهيونية اقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والامكانيات الاقتصادية في البلاد .

(٨) يوافق الفريقان المتعاقدان ان يعملا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الامور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .

(٩) كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب ان يحال الى الحكومة البريطانية للتحكيم .

وقد سطر فيصل على الاتفاق تحفظا ادرجة بالعربية في الفراغ الذي يلي المادة الاخيرة مباشرة وكان كالآتي [٦٤] : « يجب ان اوافق على المواد المذكورة اعلاه بشرط ان يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في ٤ كانون الثاني ١٩١٩ المرسلة الى وزارة الخارجية البريطانية ، ولكن اذا وقع اقل تعديل او تحويل (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة) فيجب الا اكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة ، لا شأن ولا قيمة قانونية لها ويجب ان لا اكون مسؤولا بأية طريقة مهما كانت » .

وهذا التحفظ اورده جورج انطونيوس في كتابه The Arab Awakening بالانكليزية ويقول انه ترجمة عن صورة فوتوغرافية عن الاصل (اي الاصل العربي ولم يذكر اين وجد الاصل) . ويستنتج انطونيوس من الشواهد التي تضمنها تحفظ فيصل الى ان الاتفاقية قد وقعت في تاريخ لاحق . ويذكر الصحفي جفريز[٦٥] انه قد حصل على ترجمة موثوقة من تحفظ فيصل بين اوراق فيصل الشخصية . ويذكر سليمان موسى الباحث في وثائق الحركة العربية انه قد حصل عن طريق جريدة الصنداي تايمز على النسخة الاصلية لتحفظ فيصل (وبخط يده) من نسخة وايزمان الاصلية وكان كالآتي : « اذا نالت العرب استقلالها ، كما طلبناه بتقريرها المؤرخ في كانون الثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية (حكومة) بريطانيا العظمى فانني موافق على ما ذكر بباطن هذا من المواد وان حصل (ادنى) تغيير او تبديل فلا أكون ملزوما ومربوطا بأي (كلمة) كانت بل تعد هذه المقاولة (كلا) شيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا اطالب بأي صوت كانت » .

وقد قدم لورنس ترجمة غير محكمة للتحفظ اوردها وايزمان في كتابه [٦٦] ، بانه « اذا سويت قضية العرب كما طلبت في مذكرتي المقدمة الى وزارة الخارجية فانا سأنفذ ما هو مكتوب في هذه الاتفاقية وانه اذا حدث تغيير فانا لن اكون مسؤولا عن الفشل في تنفيذ هذه الاتفاقية » . وقد الحق توقيع وايزمان وفيصل الى التحفظ كما الى الاتفاقية الاصلية . ولم يوضح في التحفظ ما هو منشور في مذكرة ٤ كانون الثاني مع ان الاتفاقية مبنية على هذا الاساس وربما تكون المذكرة هي مطالب فيصل التي قدمت الى مؤتمر السلم وليس مباشرة الى الحكومة البريطانية، لان وزارة الخارجية البريطانية تتلقى عادة نسخة عن الوثيقة التي تقدم الى المؤتمر ، ولم يوضح تحفظ فيصل هذا الفرق الدبلوماسي .

ويبدو من مواد الاتفاقية ان فيصل قد قبل بتفاهم متبادل بين اهداف العرب والصهيونية وتساهلا مع البرنامج الصهيوني في فلسطين او على ما قيل القبول بمضمون تصريح بلفور ولكن يبدو انه لم تكن لدى فيصل افكار واضحة عما تعنيه المقترحات او عن المشاريع الجديدة للصهيونية (وهذا ما اسر به للصحفي البريطاني جفريز في آذار ١٩٢٠[٦٧]) ولا شك ان ثقة فيصل الزائدة بلورنس جعلته يعتمد على تأكيداته[٦٨] بان الاتفاقية لا تبغي الا ايجاد وطن روحي لليهود،وخطة لايجاد مستعمرات يهودية لها حكم ذاتي وبشروط ستسوى فيما بعد والسماح لليهود بالعيش بسلام في فلسطين وانه ليس لديهم مطامع سياسية بل هدفهم المساعدة على انعاش فلسطين دون ان يؤثر ذلك على مصالح العرب المشروعة ، وكان باعتقاده ان اماني الصهيونية وسياسة بريطانيا لاتتعارضان مع حرية العرب السياسية والاقتصادية ... ولم يكن فيصل يعني مطلقا موافقته على فصل فلسطين عن سوريا او اتخاذها وطنا قوميا لليهود .

ولكن كل هذه التبريرات لا تعفي فيصل من المسؤولية حين انفرد وحده بوايزمان ولورنس ليوقع اتفاقية كتبت بلغةانكليزية مهما كانت ثقته بلورنس واقناعه اياه انه هو كل شيء في بريطانيا . فهو الذي قدم الاقتراحات الصهيونية وشرحها له مدعيا ان حكومته جاهلة بها ، وعلاقة لورنس بالاتفاقية حجة كبيرة ضد فيصل وخاصة انه كان وثيق الصلة بالسياسيين البريطانيين المنحازين للصهيونية[٦٩]، وبعض تقارير المحادثات والرسائل والتلغرافات التي تعزى الى فيصل تحمل من الادلة ما يثبت انها كتبت مباشرة بالانكليزية ولم تترجم من الاصول العربية في لهجتها وفحواها[٧٠] .

الا انه لو دققنا النظر في الاتفاقية لوجدنا ان كل ما ادعاه الصهيونيون قد وافق عليه فيصل بشكل شخصي وانها كانت مجرد اقتراح لم تصل على الاطلاق الى مرحلة المعاهدة ، ونظرا لانها لم تعرض على الحسين او على الحكومة العربية فليس لها ادنى قيمة في التعبير النهائي عن السياسة العربية . رغم كل الاهمية الكبرى التي يعزوها وايزمان الى الاتفاقية والى انها كانت سببا للموقف الايجابي الذي اتخذه الاربعة الكبار في مؤتمر السلم[٧١] . والملاحظ ان نصوص الاتفاقية لم يستخدمها زعماء الصهيونية خلال جلسات المؤتمر ، وحتى فيما بعد لم يشر لها احد امام لجنة شو للتحقيق ١٩٢٩ . ولم ينشرها وايزمان الا في ١٠ حزيران ١٩٣٦ (وكان فيصل ولورنس قد توفيا) في جريدة التايمز و ببالستين بوست مع ترجمة لورنس لتحفظ فيصل ،كما وردت في تقرير اللجنة الملكية ١٩٣٧ . وان مجرد انتظار وايزمان سبعة عشر عاما لنشر الاتفاقية كانت فيها فلسطين تعاني القلق والدماء دليل كاف على ان لا قيمة لها . وقد ذكر مساعد ضابط الارتباط البريطاني في القدس في رسالة في ٢ آب (اغسطس) ١٩١٩ بان الاتفاقية لا تستحق الورقة التي كتبت عليها او الجهد الذي بذل من اجلها في المحادثات، وحذر قائلا « ان بامكان فيصل ان يعقد اتفاقيات متناقضة مع الفرنسيين والصهيونيين ومعنا ويتلقى الاموال من الجهات الثلاث ثم يتنصل منها » وهذا سبب اضافي لجعل الاتفاقية لا قيمة لها[٧٢] .

القضية العربية ومؤتمر السلم

وفي باريس ، وخلال عرض القضية العربية في جو تسيطر عليه الدول الكبرى باطماعها دون اعتبار لرأي الامم الصغيرة ، كانت فرص فيصل في النجاح ضئيلة . فقد وجد نفسه وسط عالم غريب وبجانبه لورنس الذي رشحه بلفور مستشارا في الوفد البريطاني فربط نفسه بالوفد العربي دون صفة رسمية ، رغم ان اعضاء الوفد كانوا يشكون بخططه . واعتبر فيصل في جلسات المؤتمر ممثلا لملكة الحجاز فقط وليس للبلاد العربية في آسيا كما تطلع الحسين .

ونظرت القضية العربية رسميا في ٦ شباط (فبراير) ١٩١٩ في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية امام (مجلس العشرة) وقام لورنس بترجمة خطاب فيصل دون ان يعرف احد من الوفد العربي ما يقوله لجهلهم بالانكليزية ، ولم يكن يعرف العربية احد في المؤتمر غير لورنس[٧٣] وليس من الواضح اذا كان لورنس قد قدم ترجمة رسمية كاملة للخطاب ، ولكن من المحتمل انه لم يفعل ، لان التايمز لم تعمل على نشر الخطاب كما فعلت ببقية الخطب ولكن جريدة الطان نشرت بعض سطور منه . وقد سبق خطاب فيصل تقديم مذكرتين رسميتين رفعهما

الوفد العربي الى مؤتمر السلم الاولى في ١٩١٩/١/١[٧٤] والثانية في ١٩١٩/١/٢٩ .

وفي المذكرة الاولى « اكد فيصل ما للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من حقوق في الاستقلال والوحدة ملمحا بوجه خاص على العوامل الحضارية والجغرافية والاقتصادية التي حققت التلاحم فيما بينها . ولكنه يقترح نظرا لوجود بعض التباين الاجتماعي والاقتصادي بين هذه الاجزاء ، تعيين مصير كل جزء منها. ولكنه اوضح ان هذه الفروق الاجتماعية والاقتصادية ، لا تشكل عقبة امام الوحدة التي هي هدف الحركات القومية وهو ينتظر من الدول « ان تحسبنا شعبا واحدا (على اهبة التكون) متهيأ للنهوض يغار على لغته وحريته ويطلب منها ان لا تقف حاجزا دون انضمام هذه البلدان تحت حكومة مستقلة » وينهي المذكرة بقوله « نسألكم ان لا تكرهونا على اخذ كل تمدنكم بل تساعدونا على ان نختار من اختباراتكم ما يفيدنا » وحول مستقبل فلسطين تقول المذكرة[٧٥] : « في فلسطين العرب هم الاكثرية الغامرة واليهود قريبو النسب جداً من العرب ، وليس بين الشعبين تناقض في الاخلاق . نحن في المبادىء متفقون . غير اني افكر ان العرب لا يستطيعون اتخاذ المسؤولية على عاتقهم في حفظ التوازن بين الشعوب والاديان المتصادمة ، في هذه الولاية التي كثيرا ما جرت الصعوبات على العالم . وهم يريدون هناك وصيا عظيما ذا مركز نافذ على شرط ان يكون هناك ادارة محلية نيابية تثابر على تنشيط اسباب النجاح في البلاد » .

اما المذكرة الثانية ١٩١٩/١/٢٩ (والتي يعتبرها البعض انها هي التي تمثل حقيقة مطالب العرب التي تقدم بها فيصل واعضاء وفده)[٧٦] فقد اكدت من جديد على طلب الاستقلال والوحدة للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا . وارفق بها النقطة الثانية من خطاب ويلسون في مونت فرنون ٤ تموز ١٩١٨ والتي تنص على ان تسوية اي مسألة ستبنى على اساس القبول الحر لهذه التسوية من قبل الشعوب المعنية مباشرة .

وقد اشار فيصل في خطابه امام مجلس العشرة في ٦ شباط الى هذه المذكرة[٧٧] مشيرا الى « اننا نقدر الحاجة الماسة الى انهاض بلادنا التي نريد ان تكون واسطة لنقل ونشر التمدن الغربي ولا يخطر على بال احد منا اننا نريد ان نقفل ابوابنا في وجه الامم المتمدنة ، بل سنستعين بمن نرى فيه الخير لبلادنا لأننا اصبحنا اسيادها ونغار على نجاحها . واننا لا نريد ان نضحي بذرة من استقلالنا الذي حاربنا من اجله وهو قاعدة رقينا واساس نهوضنا في المستقبل»، وعن فلسطين يقول فيصل في خطابه : « ان فلسطين بالنظر الى اهميتها العالمية ، اترك امرها لتقدير ذوي العلاقات بها . وفي ما سوى هذا ، اطلب استقلال البلاد العربية التي فصلتها في مذكرتي » .

وقد سعى الصهيونيون في مؤتمر السلم للحصول على تأكيد دولي لتصريح بلفور وتأمين ضمه الى نص معاهدة السلم وميثاق العصبة ورفعت المنظمة الصهيونية مذكرتها الى مؤتمر السلم في ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩ وضعت في مقدمتها الفقرات الخاصة المتعلقة بفلسطين في مذكرة فيصل ١٩١٩/١/١[٧٨] . وطالبت بحق الشعب اليهودي التاريخي باقامة وطن قومي في فلسطين على ان يعهد الى بريطانيا بالانتداب من قبل العصبة لوضع فلسطين في ظروف سياسية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي ، وتعمل على تشجيع الهجرة والاستيطان وتوسيع

الحكم الذاتي ، والحق بالمذكرة الحدود المقترحة لفلسطين ورفض اعضاء الوفد الصهيوني امام المؤتمر ضم فلسطين الى دولة عربية او تدويلها كما عارضوا مبدأ تقرير المصير ، لأنه اذا طبق على فلسطين سيحول دون تأسيس دولة يهودية ورحبوا بادارة بريطانية للمنطقة فاتفقت مصالحهم بذ لك مع مصلحة بريطانيا .

رسالة فرنكفورتر وملابساتها

وقبل عودة فيصل الى دمشق واثناء محاولاته اليائسة لكسب المؤيدين للقضية العربية من خلال الدعوة للجنة تحقيق دولية ، نسب اليه انه وجه رسالة الى فليكس فرنكفورتر Frankfurter (وهو عضو الوفد الصهيوني الاميركي الى مؤتمر السلم وقاضي في المحكمة العليا واستاذ في جامعة هارفارد) بعد احتجاج الزعماء الصهيونيين على تصريح ادلى به فيصل الى صحيفة الماتان في آذار (مارس) ١٩١٩ بمعارضة تأسيس وطن قومي لليهود بانه « اذا رأى الصهيونيون انشاء دولة في الوقت الحاضر فسوف يلاقون المصاعب من السكان المحليين » . لذا طلب الصهيونيون في اجتماع اجراه فيصل مع الزعماء الصهيونيين في باريس بحضور لورنس توضيحا خطيا يعبر عن موقف فيصل تجاه الصهيونية .

وجاء التوضيح على شكل رسالة في ٣آذار (مارس)[٧٩] تؤكد على التفاهم المتبادل بين اهداف العرب واليهود« الذين هم اولاد عمومة في العرق يعانون مظالم متشابهة على يد دول اقوى منهم ، ولكن باتفاق ودي يمكنهم ان يتخذوا الخطوة الاولى نحو تحقيق آمالهم القومية حقا » . كما يعبر عن عطف العرب وخاصة المثقفين منهم على الحركة الصهيونية وموافقة الوفد العربي في باريس على مقترحات المنظمة الصهيونية الى مؤتمر السلم « ونعتبرها معتدلة وصحيحة وسنبذل جهودنا ــ الى الحد الذي يعنينا ــ في المساعدة على تحقيقها . ونتمنى لليهود من كل قلبنا وطنا على الرحب والسعة » وتضيف الرسالة « وقد كان لنا ولا يزال ــ مع زعماء حركتكم وخاصة دكتور وايزمان ــ اوثق الصلات وكان اكبر عون لقضيتنا واتمنى ان يصبح العرب في موقف يمكنهم من رد بعض الجميل لليهود ولعطفهم . نحن نعمل معا من اجل اصلاح واحياء الشرق الادنى وحركتانا تكمل احداهما الاخرى . الحركة اليهودية قومية وليست امبريالية وكذلك حركتنا قومية وليست امبريالية . وهناك مكان في سوريا لكلينا ، وانا اعتقد انه لا يمكن تحقيق النجاح لأي حركة دون الاخرى ولكن البعض الذين دون زعمائنا وعيا ومسؤولية ، والذين يتجاهلون حاجة العرب والصهاينة الى التعاون كانوا يحاولون استغلال الفروق المحلية التي كان لا بد من وجودها في فلسطين في المراحل الاول لحركتينا . وبعضهم ــ كما اخشى ــ قد اساء تمثيل اهدافكم الى الفلاحين العرب ، واهدافنا الى الفلاحين اليهود ، وكانت النتيجة ان هذه الفئات ذات المصالح تمكنت من ان تجني فائدة مما اسمته الفروق بيننا . وارغب ان اعطي رأيي الجازم وهو ان هذه الفروق ليست مسائل مبدأ ولكنها امور تفصيلية . كالتي تحصل دوما لدى الاحتكاك بين الشعوب المتجاورة ، والتي يمكن ازالتها بالارادة المشتركة وهي في الحقيقة ستزول تماما بالمعرفة وانا اتطلع وشعبي نحو مستقبل نتمكن فيه ان نساعدكم وتساعدونا حتى تتمكن البلاد التي تهمنا مصلحتها من ان تحتل مكانها اللائق بين بقية الشعوب المتحضرة في العالم » .

وقد اذاع الصهيونيون نص الرسالة بعد يومين من كتابتها ، دون ان يبرزوا اصل الرسالة ، وامام لجنة شو ١٩٢٩ ابرزوا نسخة عن الرسالة (وبتوقيع فيصل عليها بالانكليزية) وقد طلب عوني عبد الهادي (بصفته عضو الوفد العربي امام لجنة شو) من الملك فيصل في بغداد توضيحا لهذه الرسالة فرد عليه رئيس ديوان الملك (رستم حيدر) وكان عضو الوفد العربي ١٩١٩ بقوله « ان جلالته لا ينكر انه قد كتب اي شيء من هذا النوع » . ولم يجد الصحفي البريطاني جفريز بين اوراق فيصل اي اصل عربي للرسالة (ان كان لها اصل)[٨٠] . وهذا ما يدفع الى اتهام لورنس بوضع هذه الرسالة دون علم فيصل .

والحقيقة ان رسالة فرنكفورتر هي كالاتفاية السابقة خطة ستراتيجية لجأ اليها الصهيونيون للحصول على وثيقة عربية بالموافقة على الخطط الصهيونية . وكان فيصل الذي يقع تحت تأثير وضغط الحكومة البريطانية ــ كما يبدو ــ هو الوسيلة الوحيدة لاستمالة العرب مع انه بالفعل كان عاملا ثانويا ، لان الحلفاء كان بيدهم كل شيء[٨١] .

المعارضة تشتد

وبعد عودة فيصل الى سوريا تحقق للصهيونيين ان محاولة حصولهم على موافقة شرعية لادعائهم قبل ان يتاح للعرب فرصة تنظيم انفسهم هي محاولة فاشلة .. وتأكد لفيصل صعوبة ايقاف مقاومة السياسة الصهيونية في فلسطين بعد توضح اهدافها وبعد خيبة الامل بتسوية القضية العربية في مؤتمر السلم . وهذا ما اكدته تقارير ضابط الارتباط البريطاني في دمشق في أيار(مايو)١٩١٩ ، وكان فيصل قد استشاره عن موقف الموظفين البريطانيين في حال قيام ثورة فلسطينية[٨٢] .

وقد اثبتت تحقيقات اللجنة الاميركية (كنغ كرين) ان مطالب الفلسطينيين هي وحدة واستقلال سوريا بما فيها سوريا الجنوبية (فلسطين) . ورفض الهجرة اليهودية والاحتجاج على الصهيونية وعلى الوطن القومي اليهودي على ان يظل اليهود الاصليون الموجودون قديما مواطنين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، وكل من استشارته لجنة التحقيق كان يؤمن بان البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه الا بالقوة . وعبرت قرارات المؤتمر السوري حزيران (يونيو) ١٩١٩) التي قدمت الى اللجنة التأكيد على استقلال سوريا التام ضمن وحدة عربية مع الحرية في اختيار الدولة المنتدبة للاستعانة بخبرتها دون ان يعني ذلك حماية ولا وصاية ، والاحتجاج على كل معاهدة سرية بتجزئة سوريا او كل وعد عربي يرمي الى تمكين الصهيونية في فلسطين مع ضمان لليهود بالتمتع بحقوقهم العامة .

وقد واجهت هذه الحقائق الصريحة لجنة التحقيق ، التي بدأت عملها وذهنها مهيأ مسبقاً في صالح الصهيونية مما دفعها الى التوصية بتعديل كبير للبرنامج الصهيوني المتطرف[٨٢] .

وبعث القائم باعمال الضابط السياسي الرئيسي في مقر قيادة الحملة المصرية ٢٠ آب (اغسطس)١٩١٩[٨٣] تقريراً صور فيه ازدياد المعارضة النابعة من المشاعر القومية ضد البرنامج الصهيوني والمصاعب التي تحول دون انشاء الوطن القومي . وينصح الزعماء الصهيونيين في اوروبا بضرورة اتباع الحذر والاعتدال قولا وعملا في وجه الكراهية المترسخة والحقيقية للسكان (غير اليهود) في فلسطين . وبلغ القلق في سوريا بوجه عام حداً فائقاً بعد

رحيل اللجنة الاميركية وخيبة الامل بتحقيق توصياتها وازدياد الادعاءات الفرنسية والصهيونية وشرح فيصل في رسالة بعث بها من دمشق الى لويد جورج في ٣٠آب (اغسطس)١٩١٩ موقفه من الاحزاب المتطرفة التي تطلب مزيداً من الحزم . ويبين رغبته بالسفر الى اوروبا ليحمل الى شعبه تأكيدات جديدة تضمن وحدتهم واستقلالهم والا فانه سيغسل يديه من المهمة ويترك البلاد في فوضى ويطالب باسم « الشرف البريطاني والعدالة الانسانية » ان لا يكون جزاء العرب على اخلاصهم وتضحياتهم هو تجزئة بلادهم ، لأن هذا يؤثر على سمعته وسمعة عائلته وعلى امن شعبه الذي يفضل الموت في سبيل وحدته[٨٤] .

عودة للتقارب

واثناء وجود فيصل في لندن للمرة الثانية ايلول (سبتمبر)١٩١٩ وازدياد حراجة موقفه بعد اتفاقية لويد جورج ــ كلمنصو التي تترك لفرنسا حرية العمل في سوريا ، تقرب وايزمان منه ثانية ليعرض اموالا وخبراء للحكومة العربية ، ووعداً باقناع الحكومة الفرنسية للتخلي عن ادعائها بالمنطقة الداخلية مقابل مساعدة الامير في تحقيق البرامج الصهيونية في فلسطين . ويبدو ان الامور قد توقفت عند هذا الحد بين فيصل ووايزمان لأن الامير كان يريد من الصهيونيين ان يضعوا ثقلهم الى جانب العرب ضد الفرنسيين بينما كان وايزمان يرى ان يحتل الفرنسيون المناطق الساحلية الآن ثم يمكن اخراجهم فيما بعد[٨٥] .

وفي ٣ تشرين اول ١٩١٩ ادلى فيصل بحديث الى مندوب صحيفة جويش كرونكل جاء فيه : « بان فلسطين هي جزء من سوريا ... وانه لا يزال يتفق مع رأي وايزمان في الهجرة والاستيطان ولكنه لا يعتقد ان فلسطين يمكن ان تستوعب اكثر من الف او الف وخمسمائة سنويا . وقد تشكل فلسطين فيما بعد ولاية من الدولة السورية ذات حكم ذاتي يتمتع فيها اليهود بحقوق متساوية مع العرب[٨٦] » ... وقد رد فيصل في هذا الحديث على تصريح ادلى به اسرائيل زانغويل الى نفس الجريدة بان « كل اليهود يتطلعون الى اقامة وطن قومي في فلسطين بحيث يصبح في النهاية دولة يهودية » . واثار حديث فيصل رد فعل صهيوني عبر عنه هربروت صموئيل (فيما بعد) في محاضرة القاها امام اللجنة التاريخية اليهودية في لندن ٢٥ شباط (فبراير)١٩٢٥ذكر فيها بأنه كان عليه ان يزيل سوء التفاهم الناجم عن عبارة فيصل التي ظهرت في الجويش كرونكل وان فيصل قد اخبره « بان ما يعترض عليه هو التأسيس المباشر لدولة يهودية في فلسطين ... لأن مثل هذا العمل سيضع الاغلبية تحت حكم الاقلية ... ولكنه لا يعترض على ما يريده زعماء الصهيونية اي تنمية الهجرة والاستيطان » وابرز هربرت صموئيل رسالة ذكر بان فيصل كان ارسلها له في ١٠كانون الاول (ديسمبر)١٩١٩ في باريس (نشرتها التايمز ٢ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠) يشكره فيها على ازالة سوء التفاهم ويؤكد ان هناك اتفاقا تاما بينه وبين وايزمان « سيكفل الانسجام اللازم لنجاح قضيتنا المشتركة[٨٧] » .

وربما تكون هذه الرسالة كسابقتها (رسالة فرنكفورتر)كتبت بتأثير ووحي بريطانيين . ويظهر من الرسالة غموض جوهري،فما هو سوء التفاهم ؟وعلى اي شيء كان هناك اتفاق تام ؟ وفي نفس الفترة التي يفترض ان فيصل قد كتب هذه الرسالة وكان يشكو بمرارة الى سكرتيريه من محاولات وايزمان التقرب منه قائلا : « ماذا يريد هذا الرجل مني ، اني سأعمل كل شيء للتخلص منه ، انه يمزقني باحاديثه الطويلة »[٨٨] .

الصراع مستمر

وبعد فشل مهمة فيصل في مفاوضاته الثانية في اوروبا . لم يحصل فيها الا على مقابلات غير حاسمة في لندن وتهديدات في باريس دفعته الى توقيع اتفاق مبدئي مع كلمنصو ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ بقبول الانتداب في سوريا وازدادت المعارضة الداخلية ونظر الكثيرون الى سياسته المعتدلة بشك وعدم ثقة وعجز عن السيطرة على الرأي العام . وتحت ضغط المتطرفين كتب الى اللنبي في ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠[٨٩] رسالة تصور حراجة موقفه وخاصة بعد نشر برقية والده التي تستنكر اي عمل لا يتفق مع وحدة واستقلال سوريا ، ووجد نفسه معرضا لاتهامات علنية وطالب بتصريح بريطاني حول السياسة المتعلقة بفلسطين حتى يعطي املا للشعب « ويحمي شرفه وشرف عائلته » التي وقفت تحارب الى جانب بريطانيا ، معرضة مركزها واضعة اعتمادها على دعم بريطانيا . ورغم انه يعرف ان مصير البلد قد ترك الى مؤتمر السلم الا انه يصر على معرفة رأي بريطانيا قبل ذهابه الى اوروبا وحضور مؤتمر السلم « حتى لا تبقى البلاد في ظلام من الممكن ان يؤدي الى ما يهدد الامن العام » .

وكان رد اللنبي استدعاء فيصل الى لندن لعرض قضيته ثانية على المجلس الاعلى للحلفاء . ولما وجد فيصل انه لا يستطيع اقناع اعوانه قبول سياسة التسوية التي اعلنها دون ان يخاطر بزعامته وشعبيته . وخشي ان تؤثر الشائعات على اسمه وخاصة ان المتطرفين والوفود العربية التي كانت تؤمه تضغط عليه وتطالبه بما وعد به من « ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » قرر ان يسير في الخط الموافق لاتجاه المعارضة رغم ادراكه صعوبة الموقف[٩٠] ، فوافق على اقتراح اقرب المستشارين والاصدقاء بضرورة وضع الحلفاء امام الامر الواقع باعلان ملكيته على سوريا المستقلة المتحدة بجميع مناطقها بما فيها فلسطين مع رفض الادعاء الصهيوني بالوطن القومي، وكذلك اعلن استقلال العراق مع نوع من الارتباط الاقتصادي بين البلدين .

وجاء رد الفعل البريطاني المباشر عنيفا بحجة ان مستقبل سوريا وفلسطين والعراق تقرره دول الحلفاء التي تعمل باتفاق ، وبذلت حكومة دمشق كل جهدها للمحافظة على الصلات الودية مع جميع الحلفاء وابدى فيصل ثقته الكبرى ببريطانيا التي لا يزال يعتبرها حليفة العرب الرئيسية ، واظهر استعداده لان يضمن المصالح البريطانية في البلاد العربية ويوفق بينها وبين الآمال العربية بشكل لا يضر بمبدأ الأستقلال[٩١] ، وبعث الى لويد جورج برسالة ردا على دعوة وجهت اليه للسفر الى اوروبا جاء فيها[٩٢] : « وردتني برقية من نظارة خارجية ... لأسمع امام المؤتمر (الاعلا) في المشكلة السورية تعلمون فخامتكم ان قصد السوريون هو (وحدت) بلادهم واستقلالهم وهم لا يرضون قط بفصل فلسطين عنها او اتخاذها (وطن قومي) لليهود وطرد العرب (السوريون) عنها انني ارغب بكل قلبي اجابة الدعوى والتوجه بسرعة ولكن حيث اني لا اعلم ما هو الاساس الذي سيتخذ لحل (المسئلة) السورية خاصة والعرب عامة ، فلذا وخوفا من انه بعد استماعي ايضا يصدر قرار يخالف رغباتهم فعندها اكون في موقف جدا حرج امام الامة العربية وامام المجلس (الاعلا) فلذا اطلب ان تخبروني مبدئيا عن القرار الذي سيتخذ وتطمنوني اولا عن استقلال البلاد السياسي ووحدتها فاذا كان يعترف بذلك فانني لا ارى بأسا من التوجه وان كان غير ذلك فأظن ان فخامتكم تعذروني بالنسبة لحراجة الموقف

الذي اكون امامه واؤكد لكم بان اذا قبل هذا المبدأ من طرف المؤتمر والحلفاء فانني اتمكن من التوجه لأجل المذاكرات في التفصيلات » .

ولكن الدولة الجديدة لم تحصل على الاعتراف باستقلالها من الحلفاء الا بشرط قبول الانتداب ، وكان لا يمكنها ان تقبل بالانتداب دون ان تتخلى عن الاستقلال وعن ثلثي سكانها

وقد رحب عرب فلسطين بقرار اعلان الاستقلال ، واكد فيصل ان لقبه كملك يشمل فلسطين كذلك لأن « هدف الحسين كان دوما ضم فلسطين الى المنطقة التي اشترط ان يشملها الاستقلال العربي[٩٣] » ، وعارض الصهيونيون ضم فلسطين للحكومة الجديدة ، ولجأ عرب فلسطين الى اسلوب العنف لأثبات حقهم وبدأت اعمال العصابات الوطنية على الحدود ضد المستعمرات اليهودية وحماتها من السلطات البريطانية وكانت هذه الاعمال يوحي بها سياسيون وضباط من حكومة دمشق . ولا يعرف بالضبط موقف فيصل في حماية هذه الاعمال ، وان كانت احدى رسائله الى اللنبي[٩٤] تذكر « الصداقة الشخصية التي تمنعني واياكم ان نتصور سحب السلاح ضد بعض ... لا يوجد في العرب نية عدائية ضد اي (حكومت) كانت وبالاخص الحكومة البريطانية وجيشها » . وفي مطلع نيسان (ابريل) ١٩٢٠ تفجرت اعمال العنف في القدس التي كانت مظهرا للشعور القومي العربي ولم تكن طائفية بل موجهة ضد الصهيونية وعملية الهجرة . واسف فيصل لحوادث القدس وذكر في برقية الى اللنبي ان سياسته كانت تسعى دوما لخلق اتفاق بين العرب والمواطنين اليهود في فلسطين . ولكن الخطة بتأسيس حكومة يهودية سببت قلقا ليس فقط في فلسطين بل في سوريا كلها[٩٥] .

وجاء قرار سان ريمو بتوزيع الانتداب على مستطيل المشرق العربي كارثة قومية بالنسبة لعرب فلسطين لأن الانتداب ضم مبدأ اقامة الوطن القومي ، وتمسكوا بالمطالب المنحصرة في استقلال سوريا من طوروس الى رفح ورفض الاطماع الصهيونية ، وقدم الوفد العربي احتجاجا رسميا لمؤتمر السلم وعصبة الامم بان الانتداب وزع بشكل مخالف لحق الشعوب في تقرير مصيرها وان فصل فلسطين عن سوريا يناقض رغبات السكان ويهمل بشكل عام الوحدة بين جزئي البلد .

ونقل اللنبي قرارات سان ريمو في ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ الى فيصل مع الالحاح عليه بالسفر لأوروبا . اما بشأن فلسطين فذكر اللنبي « انك كنت تعرف دائما ان حكومة جلالته ملتزمة بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لأن حكومة جلالته تعتبر نفسها ملزمة بحماية مصالح السكان المحليين في البلاد بكل ما في الكلمة من معنى ، وهذا الالتزام ستؤكده بنود الانتداب »[٩٦] .

وكان رد فيصل على اللنبي في ١٥ ايار (مايو)[٩٧] ، ١٩٢٠ برفض مبدأ الانتداب المتضمن في القرار لانه لا يجوز وضع اي جزء من المنطقة العربية تحت حكم اجنبي . ولم يكن هذا احتجاجه الشخصي بل رأي المؤتمر السوري ورأي الشعب الذي يشعر بالخطر على امنه واستقلاله في المستقبل ، ولا يعني ذلك عدم استعداده للحصول على المساعدة الضرورية . وتضيف الرسالة « اما فيما يتعلق بمستقبل فلسطين ، فانا لم الاحظ في كتابك توضيحا كافيا يفترض الاعتراف ان هذا البلد جزء مكمل لسوريا » رغم ان فلسطين من الناحية

الجغرافية والحضارية والاقتصادية ومن حيث اللغة والتطلع القومي لا يمكن فصلها عن سوريا . بالاضافة الى ذلك فانه قد جاء في مراسلات الحسين مكماهون رسالة باسم الحكومة البريطانية مؤرخة في ٢٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٥ نعترف بان تكون فلسطين ضمن الدولة العربية التي قبلت حدودها حكومة جلالته . كما ان وقائع اجتماع داوننغ ستريت تعتبر المراسلات لها نفس قيمة التعهدات مع فرنسا ، وحتى اتفاقية سايكس ـ بيكو قد ذكرت بوضوح في مادتها الثالثة .. ان تقام في فلسطين (المنطقة السمراء) ادارة دولية وان شكل هذه الادارة يجب ان يقرر فيما بعد بالاتفاق مع ممثلي شريف مكة ولم يرد في هذه الاتفاقية اي شيء يتعلق بالصهيونيين او اليهود . ولما كنت بحاجة الى تهدئة مشاعر القلق التي تعتمل في النفوس فاني آمل ان اتلقى من بريطانيا بعض التصريحات المرضية التي يمكن ان استخدمها لأبقي الثقة في قلوب العرب في بريطانيا حليفتهم الكبرى فتبرهن لهم بان اي اتفاق بين بريطانيا والصهيونيين لا يمكن ان يعتبر نو قيمة تفوق الاتفاق مع الحسين او مع فرنسا » .

ويوضح فيصل في خاتمة رسالته سوء الفهم حول موقفه تجاه الصهيونية[٩٨] « اما مسألة جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود فاني لم اتعهد ابدا به لا كتابة ولا شفاهة وكل ما تعهدت به واتعهد به اليوم ايضا هو ان حقوق اليهود تبقى محفوظة في بلادنا كما كانت في الماضي ، بمعنى اننا نحافظ عليها محافظتنا على العرب الوطنيين ويكون لهم من الحقوق والوظائف ما يكون للوطنيين فيها .. اني اريد قبل كل شيء ان يصرح لي بصورة قطعية ان المؤتمر لا يريد ان يفصل بين فلسطين وسوريا ويقطع ما بينهما من الروابط » .

وبعد ثلاثة ايام اي في ٨ أيار (مايو) بعث فيصل برسالة اخرى الى اللنبي[٩٩] يلفت نظره الى ثلاثة امور يرجو ان يتخذ بشأنها التدابير اللازمة لازالة سوء الفهم الذي يمكن ان ينتج بين السلطة والاهالي : فقد اشار اولا الى ورود خبر زاد هياج الرأي العام وهو انقاص مدة الحكم الذي حكم به على المسلحين اليهود ، وان المسلمين والمسيحيين قد حكموا باحكام هي اشد بكثير من التي حكم بها على اليهود ، والامر الثاني هو ان السلطة الانكليزية في فلسطين تسمح لليهود بان يتسلحوا ضد المسلمين بينما يمنع هؤلاء من اقتناء السلاح تحت عقاب غرامة كبيرة وسجن طويلة . اما الامر الثالث فهو « يفيد خبر ورد الى هنا مؤخرا تعيين السر هربرت صامويل كحاكم كبير في فلسطين ان هذا الخبر اثر تأثيراً سيئاً جداً في الامة العربية لأن هربرت صامويل كما يعلم الجميع هو صهيوني غايته تأسيس حكومة يهودية على انقاض قسم كبير من سوريا اعني به فلسطين فان كان خبر هذا التعيين صحيحا فان السكان العرب لا يمكنهم الا ان يعتبروه عملا مضرا بهم ، فأرجو منكم اذن ان تعلموني صحة الخبر فان كان صحيحا ان ترجو من حكومة بريطانيا ان ترجع عن قرارها هذا الذي يمس عواطف العرب » .

وتقدم فيصل باقتراح الى الحكومة البريطانية[١٠٠] من أجل « تأسيس حكومةعربية في فلسطين وان تقبل الحكومة البريطانية وحدة البلاد السورية والفلسطينية على اساس اللامركزية وان تقبل تقييد الهجرة بصورة تتفق مع منافع البلاد وتحفظ كيانها القومي مع عدم السماح بشراء اراض جديدة على ان تعطي الحكومة البريطانية الاولوية في جميع المشاريع الاقتصاديةوالمالية » ولم يكن لهذا الاقتراح اي اثر على التقرير النهائي لمستقبل فلسطين .

وكانت آخر محاولة صهيونية لاعادة الاتصال بفيصل قبل سقوط حكومة دمشق تلك التي تولاها رئيس المكتب العربي في المنظمة الصهيونية دكتور حاييم كالفارسكي وكان قد اسس في فلسطين الجمعية العربية اليهودية التي تدعو الى التعايش السلمي ، وقد جاء الى دمشق في حزيران (يونيو) ١٩٢٠ واتصل ببعض اوساط فيصل وبعض الشخصيات الفلسطينية في المؤتمر السوري محاولا اقناعها بضرورة التفاهم بين العرب واليهود مع عرض جديد بتحسين الاوضاع الثقافية والاقتصادية . وكان الرد حاسما : ففلسطين هي جزء من المملكة السورية ، ولا يمكن التفاهم الا بالتخلي عن فكرة الوطن القومي والهجرة مع ضمان حقوق اليهود الوطنيين المدنية والدينية(١٠١) . وقد فكر البعض باغتياله « ولكنا وجدناه لا يستحق العناية » كما ذكر عزة دروزه احد اعضاء المؤتمر السوري من الفلسطينيين(١٠٢) .

لم يكن طرق باب التفاهم بين العرب والصهيونيين في الفترة بين ١٩١٧ ــ ١٩٢٠ هي المحاولة الاولى والاخيرة التي لجأت اليها الصهيونية كأسلوب للتعامل مع العرب ، ليس بديلا على كل حال عن سياسة القوة . وحين استجاب فيصل للحوار كان يقع تحت تأثير وضغط الحكومة البريطانية ، ويقوم بمحاولة يائسة لتخليص سوريا من الادعاءات الفرنسية ولم تكن لديه فكرة واضحة عن المقترحات الصهيونية او انه لم يخبر بها كاملة ، ولم يكن فيصل يعني مطلقا موافقته فصل فلسطين عن سوريا لتصبح وطنا قوميا لليهود ، ولذلك لما توضح له ان خطة بريطانيا هي الوصاية على فلسطين فقط وليس على سوريا الموحدة ، تمهيدا لتنفيذ تصريح بلفور تغيرت سياسته تجاه الصهيونية تغيراً جذرياً وخاصة بعد قرارات المؤتمر السوري العام ، وازدياد المعارضة للصهيونية وخيبة الامل بمقررات مؤتمر السلم .

ولو قبلنا بصحة كل الوثائق والمراسلات التي جرت بين فيصل وزعماء الصهيونية فانه ليس من العدل القول ان هذه الوثائق والمراسلات كانت بالنيابة عن الحركة العربية او عن زعمائها لانه لم يكن هناك اي زعيم له صلاحية منح هذه الوثائق ، فقد بدأت بفيصل وانتهت به ، ونظرا لانها لم تعرض على الحسين ولا على غيره من زعماء الحركة العربية فليس لها ادنى قيمة كتعبير نهائي عن السياسة العربية .

الحواشي

(1) Bentwich, *Palestine of the Jews*, London 1919, *pp.* 201-207.

(2) Arab Bureau papers, F.O. 882-14 *p a*, 17-14.

(3) Jabotinsky, V., *Turkey and the war*, London 1916, *p.* 215.

(4) Arab Bureau Papers, 882-14 *pa*, *1712.*

(5) Perlmann, Chapters of Arab-Jewish Diplomacy, 1918-1922, Jewish soial studies Vol. XI. No. 2 April 1944. *p.* 129.

(6) Arab Bureau papers, F.O. 882-14 Mis 16-15.

(7)Leslie, Sh., Mark. *Sykes, his life and letters*, London, 1923, *p.* 288.

(8) *Palestine*, 17. 3. 1917. *p.* 57

(٩) برقية سايكس من القاهرة ٣/٤/١٩١٧

(10) F.O. 371- 3053- 88954- 84173.

(١١) برقية الخارجية الى وينجيت (المندوب

السامي في مصر) صباح ١٩١٧/١١/٢ F. O. 371- 3054.

(12) F.O. 371- 3054- 225623.

(١٣) برقية سايكس الى كلايتون في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر/ ١٩١٧ F.O. 371- 3054- 234304.

(14) F. O. 311- 3062- 228698.
(15) F.O. 371- 3054- 235780.
(16) F.O. 371- 3054- 235780- 86526.

(١٧) كان وليم ييل ممثل وزارة الخارجية الامريكية في حملة اللنبي وكان يرسل تقاريره عن الاوضاع المحلية وقسم كبير منها متعلق بفلسطين والمسالة الصهيونية Yale Papers, No. 23, April 22, 1918.

(١٨) برقية الى بيكو F. O. 371 3054- 236- 062- 86526.

(١٩) ١٥ تشرين الثاني /نوفمبر ١٩١٧ F. O. 371- 3398- 27647.

(٢٠) F. O. 371- 3054- 241270.

(٢١) رسالة وينجيت ١٩١٧/١٢/٣١ F. O. 371- 3054- 245810.

(٢٢) جورج انطونيوس **يقظة العرب** ، تاريخ حركة العرب القومية . مترجم بيروت ، ١٩٦٢ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٨ نشرت الحكومة البريطانية وقائع ما دار بين الحسين وهوغارت عام ١٩٣٩ . مع تقرير لجنة دراسة مراسلات حسين مكماهون .

(٢٣) كانت اللجنة قد جمعت تبرعات بمناسبة الاستيلاء على القدس وارسلتها الى الحسين عن طريق سايكس مع امتنانهم له ولابنائه لاستخدام التبرع (للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا) F. O. 371- 3404.

(٢٤) رسالة كلايتون الى سايكس ٤ شباط فبراير ١٩١٨ F. O. 371- 3388- 14557.

(25) *Arab Bulletin*, 30. 4. 1918.

(26) Arab Bureau Papers F.O. 882- 14 *p*a. 18-3.

(٢٧) رسالة سليمان ناصيف (احد زعماء السوريين في القاهرة) الى سايكس ١٩١٨/١/١٧ ، F. O. 371- 3388- 14557.

(28) *Arab Bulletin* 30. 4. 1918.

(٢٩) من رسالة وايزمان الى سايكس في ١٩١٩/٤/١٦ F. O. 371- 3398- 92392.

(٣٠) ١٩١٨/٤/٢٢ F. O. 371- 3398.

(٣١) تقرير ستورز الى الخارجية ٧ ايار ١٩١٨

F. O. 371- 3395- 98470- 11053.

(٣٢) **الكوكب** (القاهرة) ١٩١٨/٦/٤ وتشرف عليها السلطات البريطانية .

(٣٣) ٣٠ مايو/ ايار ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 125475.

(٣٤) رسالة كلايتون الى بلفور ١٦ حزيران ١٩١٨ F. O. 371- 3381- 123868- 1467.

(35) Arab Bureau Papers, F.O. 882-14 *p*a. 18-14.

(٣٦) ٢٩ حزيران ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 137853.

(٣٧) رسالة وايزمان الى بلفور ٣٠ ايار/مايو ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 125475- 11053.

(٣٨) ١ تموز ١٩١٨ F. O. 371- 3395- 105824- 27647.

(٣٩) **القبلة** العدد ١٨٣ (١٣ شعبان ١٣٣٦ ، ٢٤ ايار/مايو ١٩١٨) والشائع ان هذا المقال قد كتب اثر زيارة هوغارت كما ذكر .

Perlmann, *Chapters of Arab-Jewish Diplomacy*. 1918-1922, *p*. 130.

(40) F.O. 371- 3388- 14557.
(41) F.O. 371- 3398- 94197.

(42) Arab Bureau Papers, F. O. 882-14 *p*a. 18-9.

(43) F. O. 371- 3395- 125475- 11053.

(44) Arab Bureau Papers. F. O. 882-14 *P*a. 18-10.

(٤٥) رسالة حزيران/يونيو ١٩١٨ ـ F. O. 317- 3395 - 130342

رسالة ١ تموز/يونيو ١٩١٨ - F. O. 317 - 3395 - 105824 - 17646.

(٤٦) رسالة سايكس الى وينجنيت ٢٥ تموز/يوليو ١٩١٨

(٤٧) رسالة سايكس الى وينجيت ٢٥ تموز/يوليو F. O. 371 - 3381 - 123868

(٤٨) ١٧ تموز/يوليو ١٩١٨ - F. O. 371 - 3398 - 138908.

(٤٩) تقرير وارلاند في تموز/يوليو ١٩١٨ Arab Bureauu Papers F. O. 882- 14.

(٥٠) مذكرة هوغارت الى وزارة الخارجية في ١٩١٨/٨/٢ F. O. 371- 3381- 146256.

(٥١) رفع التقرير الى اللنبي ١٩١٨/٩/٢٩

F. O. 882-14 Arab Bureau Papers.

(٥٢) من هذه الصحف الهدى والشعب ومراة الغرب والسايح

(٥٣) المستقبل (باريس) عدد ١٢٢ ١٩١٨/٨/٣٠ .

(٥٤) رسالته من القاهرة في ١٧ تشرين ثاني نوفمبر ١٩١٨ . F. O. 371- 3398- 190446

(٥٥) تعليق كلايتون على برقية وايزمان في ٥ كانون اول/ديسمبر ١٩١٨ - F. O. 361- 3885 201968

Yale's Paper, No. 24. April 22, (٥٦) 1918.

(٥٧) في مقابلة خاصة مع عوني عبد الهادي (وكان سكرتيرا للوفد العربي) يقول حضر فيصل لاوروبا على سفينة بريطانية كما ان نفقات الوفد العربي كانت تدفعها بريطانية بالاضافة الى ان ادارة حكومة دمشق كانت تتلقى معونة شهرية قدرها ١٥٠,٠٠٠ جنيه .

(٥٨) من مقابلة شخصية مع عوني عبد الهادي (لم يحضر لقاء فيصل وايزمان احد من اعضاء الوفد العربي) .

(59) Esco Foundation for Palestine, *A study of Jewish- Arab and British Policies*, Vol. I Yale University Press 1947-1949, *pp.* 132, 139.

(60) Weizmann, *Trid and Error, London 1949, p. 306.*

(61) Woodward, E. L. Butler, R., (edit.) *Documents on British Foreign Policy*, 1st series, Vol. IV. *pp.* 421-422.
من تقرير لضابط الارتباط البريطاني في دمشق (كورونواليس) حول حديث ادلى به فيصل في ١٩١٩/٩/٢٥.

(62) Jeffries, J., *Palestine the Reality*, London 1939, *p.* 249.

(٦٣) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ، المجموعة الاولى ١٩١٥ ـ ١٩٤٦ ، ادارة فلسطين ، جامعة الدول العربية ص ٢٧٦ ، وهي ترجمة عربية للنص الوارد في كتاب : D. H. Miller, *My Diary of the conference of Paris*, Vol. I. New York 1924, *p* 67.

(٦٤) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٥٩٢ والملاحظ ان نص الاتفاق الوارد في مجموعة وثائق Miller يخلو من التحفظ الذي سطره فيصل بالعربية.

(65)*Palestine: the Reality, p.* 249.

(٦٦) الملاحظ ان وايزمان لم ينكر الا المادتين الثالثة والرابعة من الاتفاقية *Trial and Eror, pp.* 308-309.

(67) Palestine: The Reality, 249.

(٦٨) من مقابلة خاصة مع عوني عبد الهادي .

(69) Meinertzhagen, 13., *Middle East Diary* 1917-1956, London 1959 *pp.* 13-43,
وكان الكولونيل مينرتزهاجن مساعدا لاللنبي وهو من الانجليز الصهيونيين ، ولعب دورا كبيرا في السياسة البريطانية وكان يفاخر بان لورنس فعل ذلك بتأثير منه .

(70) Tibawi, A., Syria from the Peace conference to the fall of Damascus, *Islamic Quarterly*, Vol. XI July December 1967, p. 83.

وقد ارسل لورنس برقية باسم فيصل من باريس الى زيد في دمشق محتجا على المعارضة للصهيونية في الصحافة السورية بحجة ان المنظمة الصهيونية تساعد القضية العربية .

(71) Weizmann, p. 308.

(72) Rasheed-Duddin- Khan, The Peace Settlement, Arab Diplomacy and Anglo- French Power Politics, 1919- 1920, *Islamic Culture*, April 1968, July 1968.

(٧٣) من مقابلة شخصية مع عوني عبد الهادي .

(74) Zeine, Z., *Struggle for Indepence*, Beirut 1960 Appendix C. والملاحظ ان انطونيوس لم يشر الى هذه المذكرة واكتفى بالمذكرة الثانية بتاريخ ١٩١٩/١/٢٩ . وينكر سليمان موسى في كتابه « المراسلات التاريخية ١٩١٩ : الثورة العربية الكبرى المجلد الثاني ، عمان ١٩٧٥ (من اوراق الامير زيد) ان مذكرة ١٩١٩/١/١ قد قدمت حقيقة بتاريخ ١٩١٩/٢/٥ واثبت فيصل هذا التاريخ عليها وقال في رسالة بعثها الى ابيه ١٦ فبراير/ شباط ١٩١٩ انه قدم المذكرة قبل دخوله مؤتمر السلم بساعة واحدة ، وقد يكون فيصل قد اعد هذه المذكرة في لندن بتاريخ ١٩١٩/١/١ وارسلها الانجليز الى امانة مؤتمر السلم ، وقد تكون هي المذكرة التي جاء ذكرها في تحفظ فيصل على اتفاقه مع وايزمان .

(٧٥) سليمان موسى ، المراسلات التاريخية ١٩١٩) مصدر سابق

(٧٦) عوني عبد الهادي وانطونيوس .

(٧٧) وهو النص الذي ارسله فيصل الى الحسين تحت رقم (١٣) (اوراق الامير زيد) .

(78) Hurwitz, *Diplomacy in the Near and Middle East.* Vol. II. New York 1956 *pp.* 45-50.

(79) Weizmann, *p.* 306. Jeffries *pp.* 256-257.

(80) *Ibid p.* 256.

(81) *Ibid, p.* 242, 257.

Documents on British Foreign Policy, *Ibid,* Vol. IV, *p.* 290.

(82) Howard. H., *The king-crane commission,* (confidential Annex) Beirut 1963.

(83) F. O. 371- 4182.

(84) F.O. 371- 4182.

(85) *Documents on British Foreign Policy pp.* 421-422.

(٨٦) جريدة **العاصمة** (دمشق) ، عدد ١٣٦٦ تشرين اول/اكتوبر ١٩١٩ .

(87) Esco Foundation for Palestine, *Ibid, p.* 204 Jeffries, *Ibid., op . Cit .p.* 308.

(٨٨) مقابلة خاصة مع عوني عبد الهادي .

(٨٩) من مجموعة اوراق عوني عبد الهادي .

(90) Jeffries,*op . cit* 319.

(91) Ibid, *pp.* 3232-24.

(٩٢) من اوراق عوني عبد الهادي .

(93) Jeffries, *op . cit. p .* 325.

(٩٤) مجموعة عوني عبد الهادي .

(95) Tibawi, *op. cit. p* 112.

(96) Butler and Burry, (eds.) *Documents on British Foreign Policy,* Vol. XIII, London 1963. No. 442.

(٩٧) الرسالة بالانجليزية من اوراق وزارة الخارجية في الحكومة العربية السورية ١٩٢٠ (مجموعة عوني عبد الهادي) .

(٩٨) الجزء الاخير من الرسالة هي مسودة بالعربية بخط فيصل (مجموعة اوراق عوني عبد الهادي) وهي لا تختلف في مضمونها عن النص الانجليزي .

(٩٩) من مجموعة اوراق عوني عبد الهادي (رسالة بالعربية بخط فيصل) .

(١٠٠) مسودة رسالة بخط فيصل من مجموعة اوراق عوني عبد الهادي .

(١٠١) **الدفاع** (دمشق) عدد ١٣٦ في ٢٥ حزيران/يونيو ١٩٢٠ ، **الكنانة** (دمشق) عدد ٢٩١ في ٢٢ تموز/يوليو ١٩٢١ .

(١٠٢) مذكرات غير منشورة لعزة دروزه .

صدر حديثا
عن مركز الابحاث

قطاع غزة
١٩٤٨ ـ ١٩٦٧

تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية

تأليف : حسين أبو النمل

يطلب من التوزيع : ص . ب ١٦٩١ ، ومن جميع المكتبات

محمد عدنان البخيت

من تاريخ حيفا العثمانية
دراسة في أحوال عمران الساحل الشامي

في سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م عندما كان الداعية الاسماعيلي ناصر خسرو[١] (ت ح ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م) في طريقه من مرو الى القاهرة ، مركز الدعوة الفاطمية انذاك ، مر بحيفا[٢] التي يصفها لنا بقوله : « ثم غادرتها (أي عكة) الى قرية تسمى حيفا في طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم والمسمى بالرمل المكي . وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل واشجار كثيرة . وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالحودى »[٣] . وبعد

---

(١) ابو معين الدين ناصر خسرو القباديانى المروزي من مواليد سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م ، عمل ، بعد دراسته مختلف فروع المعرفة المعروفة في عصره انذاك ، موظفا في مرو وتقلب في عدد من المناصب ، الا انه تركها وغادر مرو لاداء فريضة الحج وربما جاء ذلك تلبية لدعوة من الخليفة الفاطمي في القاهرة. وبعد اقامة له بالقاهرة ادى فريضة الحج وعاد الى بلخ وهو يحمل « لقب الحجة في الدعوة» طارده السلاجقة فالتجا الى مناطق يمكان حيث انصرف للتاليف والدعوة. توفي سنة ٤٥٢هـ/ سنة ١٠٦٠ م ، حول مؤلفاته ورحلته انظر

E. Berthels, «Nasir-i: Khusraw» *E.I.* Vol.III, *pp.* 869-70.

كذلك انظر المقدمة التي صدر بها يحيى الخشاب الترجمة العربية لسفر نامة ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٠ ص ٥ ــ ٣٢ .

(٢) حول حيفا انظر :

«Hayfa» *E.I*[2], Vol. III, *pp.* 324-6.

انظر كذلك النصوص المجموعة عنها

Palestine Under The Moslems, by Guy Le Strange, Khayats, Beirut, 1965, *p.*446.

وفي كتاب بلدانية فلسطين العربية للأب ا.س. مرمرجي الدومنيكي ، مطبعة جان داك ، ١٩٤٨ ، ص ٦٥ . اما عن حيفا في القرن التاسع عشر انظر كتاب

Laurence Oliphant, *Haifa or Life in Modern Palestine*, London, 1887.

اشكر الاستاذ عبد العزيز الدوري والدكتور عوض خليفات اللذان زوداني بنسخة مصورة عن هذا الكتاب ، كذلك انظر مقالة :

Archedeacon Dawling, «The Town of Haifa», *Palestine Expolaration Fund*, (1914) *pp.* 184-91.

اما عن حيفا في مطلع القرن العشرين راجع محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الحلبي ، ولاية بيروت ــ القسم الجنوبي ، مطبعة الاقبال ، بيروت ، ١٣٣٥هـ ، ص ٢٢٦ ــ ٢٧٠ .

(٣) ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص ٥٣ ، اما الجودى فهي مفردة قرانية ترد في سورة هود في معرض قصة سفينة نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه وتعالى : (وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء

تلك بقرن من الزمان يشير الجغرافي ابو عبد الله محمد بن محمد الادريسي الحسني(٤) (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٠م) ، اليها بقوله : « وحيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لارساء الاساطيل وغيرها ، ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراحل خفاف »(٥) . ان هذه الصورة المشرقة لحيفا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، تنعكس وتبدو مكفهرة في المصادر العربية وذلك بسبب الخراب الذي لحق بها بعد استرجاعها من ايدي الفرنجة . فهذا شهاب الدين ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م) ، لا يذكر شيئا عن صناعة السفن فيها ولا يشير الى مرساها وجل ما يسجله لنا عنها على انها : « حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ولم يزل في ايدي المسلمين الى ان تغلب عليه كندفري(٦) الذي ملك القدس في سنة ٤٩٤هـ/ ١٠٩٩م)(٧) وخربه »(٨) . ولم تمكث

وقضي الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين) آية رقم ٤٤ . وفسرت الجودى هنا بأنها مكان حيث يذكر ياقوت ذلك بقوله « الجودى ... هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من اعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء . ومثل ذلك يذكره ابن منظور الا انه يضيف اليها معنى اخر نقلا عن الجواليقي فيقول : « والجود ياء بالنبطية او الفارسية الكساء » ونكرت الكلمة في بيت من الشعر بمعنى « جبة السمور » حتى هنا نرى ان هذه اللفظة لا تستخدم بمعنى السفينة . والجدير بالذكر ان شمس الدين محمد بن احمد بن ابي بكر البناء البشاري المقدسي (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥ م) عند تعداده لبعض انواع السفن لا يذكر الجودى ، زيادة على ذلك لا يأتي على ذكر حيفا عند تناوله اقليم الشام . كما ان حبيب الزيات في مقالته « معجم المراكب والسفن في الاسلام » لا يذكرها ، وعند العودة الى كتاب جورج فضلو حوراني فانه لا يذكر الجودى . راجع موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م) **المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم** ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر ، طبعة الاوفست ، طهران ، ١٩٦٦ م ، ص ١١١ ، انظر **احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ، تحقيق دوغويه ليدن ١٩٠٦ م ، ص ٨١ ، ص ١٥١ ــ ١٩٢ ، **معجم البلدان** ، ٦ م ، تحقيق فردناند وستنفيلد ، طبعة مصورة ، طهران ، ١٩٦٥ ــ م ٢ ، ص ١٤٤ ، **لسان العرب** ، ١٤ م ، دار صادر بيروت ، ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، م ٣ ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ، حبيب الزيات ، « معجم المراكب والسفن في الاسلام » ، **المشرق** ، م ٤٣ ، (١٩٤٩ م) ص ٣٢١ ــ ٣٦٤ .

George Fadlo Hourani, *Arab Seafarino in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Khayats, Beirut, 1953.*

(٤) حول حياة الأدريسي انظر : G. Oman, «Al-Idrisi» *E.I²*, Vol.III, *pp.* 1032-5.

(٥) الادريسي ، **نزهة المشتاق في اختراق الافاق** ، المجلد الرابع ، روما ، ١٩٧٤ ص ٣٦٥ .

(٦) كندفري المقصود به هو Godfrey de Bouillon(١٠٦٠ ــ ١١٠٠ م) دوق لورين، كان قد استجاب مع اخوته لنداء البابا اوربان الثاني في ارسال حملات صليبية لاستخلاص قبر السيد المسيح من ايدي المسلمين ، وشارك في حصار القدس والدخول اليها في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ ، حيث وقع عليه الاختيار ليكون اول ملك صليبي للقدس ولكنه رفض لقب ملك واكتفى بلقب Advocatus Sancti Sepulchri

ولقد كانت وفاته يوم الأربعاء في ١٨ تموز سنة ١١٠٠ م وخلفه على ملك القدس اخوه بلدوين الأول ، انظر حول هذه :

S. Runcimen. *A History of the Crusades*, Vol. I, Combridge U. P, *pp.* 112, 145-7, 28-6, 291-318.

(٧) ذكر ياقوت خطأ ان تاريخ استرجاع حيفا كان سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م والواقع كان ذلك بعد عشر سنوات من التاريخ الذي ذكره . حول ذلك انظر العماد الاصفهاني ، محمد بن صفي الدين (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) ، **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، تحقيق وشرح محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٩٤ ، حيث يذكر ان حيفا استسلمت الى بدر الدين دلديم وغرس الدين قليج بعد فتحهم قيساريه .

(٨) ياقوت ، **معجم البلدان** ، م٢ ، ص ٣٨١ .

حيفا طويلا في ايدي المسلمين اذ استرجعها الفرنجة منهم ، والجدير بالذكر ان الملك لويس التاسع حوالي سنة ١٢٥٠ ــ ١٢٥١م حصن فيها القلعة التي تعرضت للخراب ثانية على يد المماليك وذلك في سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م . فينكر القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) ، في اخبار سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ، مما يلي : « وفي سادس وعشرين جمادي الأول (٢ آذار ١٢٦٥م) توجه السلطان (الظاهر بيبرس) الى جهة عثليت جريدة وسير الامير شمس الدين اقسنقر السلاح دار الظاهري والأمير عز الدين الحموي والامير شمس الدين سنقر الألفي الظاهري الى حيفا فساروا اليها ودخلوا قلعتها فنجا الفرنج بانفسهم الى المراكب بعد ان قتل منهم واسر ، واحضرت الاسارى والروس ، وخربوا المدينة وقلعتها واحرقوا ابوابها وجعلوها خاوية على عروشها كأن لم تكن بالامس. وكان اخذها وما اعتمد فيها من قتل واسر وخراب واحراق في يوم واحد وعاد الامراء سالمين »[٩] . ويؤكد على هذه الصورة من الخراب احمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) الذي ينقل عنه الكاتب الموسوعي شهاب الدين احمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) ، وصفه لحيفا بهذه الكلمات : « وهي خراب على الساحل»[١٠] والى مثل ذلك اشار البحارة العثماني بيري محي الدين ريس .[١١] (ت ح ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤ . م) ، في مؤلفه : **كتاب بحرية** ، الذي قدمه سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥ م) الى السلطان سليمان القانوني ، حيث ذكر ان قلعتها مدمرة لكن ميناءها يصلح للرسو .[١٢]

كانت حيفا في العهد المملوكي جزءا من عمل اللجون[١٣] الذي كان تابعا لصفد والتي هي

---

(٩) حول هذا الدمار الذي لحق بحيفا في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، انظر محي الدين بن عبد الظاهر **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ١٩٧٦ م ، ص ٢٣٤ وكذلك راجع بيبرس الدوادارس المنصوري (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة** ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 23325 ورقة ٧٠ ب ، راجع ايضا تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) ، **السلوك لمعرفة دول الملوك** ، م١/ق٢ تحقيق محمد مصطفى زياده ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٥٢٧ ــ ٥٢٨ ، والملاحظ ان الشيخ قطب الدين يونس بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) لا يذكر خبر مهاجمة حيفا في اخبار سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م ، انظر **ذيل مرآة الزمان** ، ٢م ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م ، م٢ ، ص ٣١٨ . اما ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) فيشير الى ان الظاهر بيبرس فتح قيساريه « وتسلم قلعتها في يوم الخميس الآخر خامس عشرة فهدمها وانتقل الى غيرها « **البداية والنهاية**»، ١٤م ، بيروت ، ١٩٦٦ ، م١٣ ، ص ٢٤٤ .

(١٠) القلقشندي ، **صبح الاعشى في صناعة الانشا** ١٤م ، المطبعة الاميرية ، دار الكتب المصرية ١٩١٣ ــ ١٩١٩ ، م٤ ، ص ١٥٥.

(١١) حول حياة هذا البحار انظر :

Franz Babinger, «Piri Muhyi al-Din Reis» *E.I*, Vol. III, *pp.* 1070-71.

(١٢) انظر هذا الوصف في النص الذي ترجمه ونشره U. Heyd, «A Turkish Description of the Coast of Palestine in the Early Sixteenth Century», *Israel Exploration Journal*, Vol. VI, (1956), *pp.* 201-216.

(١٣) حول اللجون انظر صدر الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني الدمشقي (ت ٧٨٠هـ/ ١٣٧٦م) حيث ينكره على انه ولاية من العمل السابع في صفد وان اهله من عشير يمن

Bernard Lewis, «An Arabic Account of the Prvince of Safad», *BSOAS*, Vol. XV-3, (1953), *p.* 483.

وانظر ايضا ياقوت ، **مصدر سبق ذكره** ، م ٤ ، ص ٣٥١ .

بدورها كانت تشكل القاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشامية[١٤] ولم تتبدل هذه التبعية في العهد العثماني . فمن المعروف ان العثمانيين بعد قضائهم سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، على حركة العصيان التي قادها ضدهم الامير المملوكي جان بردى بن عبد الله الغزالي المولى على دمشق « ومعاملاتها »[١٥] ، من قبل السلطان سليم الأول ، قسموا بلاد الشام الى ثلاث ولايات : ولاية حلب ، ولاية طرابلس الشام وولاية دمشق الشام . وقسمت الولاية الاخيرة الى عدد من السناجق (الألوية) هي : دمشق ، تدمر ، عجلون ، الكرك (كانت في معظم الاحيان تدمج مع عجلون) غزة ، القدس الشريف ، نابلس ، صفد واللجون[١٦] . وعند العودة الى دفاتر الطابو (الأراضي) العائدة الى سنجق اللجون نجدها تذكر حيفا كقرية في ناحية ساحل عتليت الغربي التابع للسنجق المذكور . ولعله من المفيد هنا ان نقارن المعلومات الواردة عن حيفا في دفترين من دفاتر الطابو : الأول منهما[١٧] يعود تاريخه الى سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م ، أما الثاني[١٨] فيرجع بتاريخه الى سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م .

---

(١٤) حول صفد المملوكية انظر العثماني المذكور اعلاه ، والقلقشندي **مصدر سبق ذكره** ، م٤ ، ص ١٤٩ .

(١٥) حول هذه الحركة انظر شمس الدين بن طولون (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م) **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** ، ٢م ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٤ ، م٢ ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ ، كذلك لنفس المؤلف ، **اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى** ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٧ .

(١٦) حول هذه التقسيمات انظر : U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine 1552-1615,* (O.U.P.) 1960, *p.* 53.

(١٧) هذا الدفتر محفوظ بمديرية المحفوظات التابع لرئاسة الوزراء باسطنبول ، تحت رقم ١٩٢ . والجدير بالذكر انه يوجد بنفس المديرية دفتر طابو آخر تحت رقم ١٠٣٨ ، غير مؤرخ يزودنا بالمعلومات التالية عن حيفا « قرية حيفا تابع مرج بني عامر خانة ١٦ ، حاصل قسم من الربيع ،

حنطة/غراره	شعير/غراره	خراج زيتون	خراج تين	رسم معزة	رسم نحل
١٥	٨				
١٩٥٠	٥٦٠	١١٦٥	٥٠	١٣٥	٢٥٠

يكون ٤١١٠ ، ص ٢٢١ » ويبدو ان هذا الدفتر اقدم بعض الشيء من دفتر رقم ١٩٢ .

(١٨) مديرية الأراضي والطابو بانقرة ، رقم ١٨١ . لقد استخدم كل من W. D. Hutteroth and K. Abdul Fattah هذا الدفتر في دراستهما المعنونة باسم

Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Date 16th Century, Erlangen, 1977.

عن دفاتر الطابو انظر ايضا O. L. Barkan, «Daftar-i Khakani: E. *II*

اما عن الدفاتر المتعلقة بالبلاد العربية انظر : «The Ottoman Archives and Source for the History of the Arab Lands» *JRAS,* London, op. 139-55 Ibidum,» Studies in the Ottoman Archives I « *BSOAS* Vol. XVI-3, London, 1954, *pp.* 469-501.

هذا بالاضافة الى الدليل الواسع الذي اعده

Midhat Sertoglu, *Muthera Bakimindan Bosvekolet Arsivi,* Ankara, 1955.

اما بشأن مديرية محفوظات اسطنبول التابعة لرئاسة الوزراء ، انظر

B. Lewis, «Bosvekolet Arsivi» *E.12.* Vol. I, *pp.* 1089-91.

الضرائب مقدرة بالاقجة وهي ربع المحصول الشتوي

رقم الدفتر وتاريخه	عدد السكان خانة(١٩)	حنطة غراره	شعير غراره	خراج اشجار زيتون + تين	رسم معزة	رسم نحل	بادهوا	معادية	محصول اسكلة (ميناء)
١٩٢ (اسطنبول) ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م	٢٠ مسلمون	٢٥ ٣٠٠٠	١٠ ٧٢٠	٧٥	٦٣ +نحل	٢٩٣	٢٠٠	٤٠٠	١٠٠٠ + محصول اسكلة ساحل عتليت وطيونة وطرطورة ٥٠٠ (خاص شاهي)
١٨١ (انقرة) ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦ م	٣٢ مسلمون	٤٠ ٥٦٠٠	٢٠ ١٦٠٠	+ كروم وغيره ١٠٠٠	٣٥٠		باد هوا + رسم عروس ٣٥٠		

نلاحظ من هذين الاحصائين انه خلال العهد العثماني من القرن السادس عشر الميلادي ان عدد السكان بحيفا كان قد تضاعف . وهذه الزيادة العالية جاءت متفقة مع ظاهرة زيادة السكان التي شهدتها ولاية دمشق حتى مطلع سبعينات القرن السادس عشر ، الا ان سكان حيفا لم يتناقصوا على غرار ما لوحظ في ولاية الشام(٢٠) . ولقد واكب هذه الزيادة ارتفاع في كميات الضرائب المحصلة اذ ارتفعت من ٤٧٥١ اقجة(٢١) بموجب الدفتر الأول الى عشرة آلاف اقجة حسبما جاء في احصاءات الدفتر الثاني . بجانب ذلك نلحظ ارتفاع الاسعار ، فمثلا كانت غرارة(٢٢) الحنطة تقدر بمائة وعشرين اقجة سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م فأصبحت تقوم بمائة واربعين اقجة بعيد نهاية القرن . وعلينا ان نتذكر هنا ، ان الدولة العثمانية في اواخر القرن السادس عشر الميلادي قد بدأت تعاني من ازمة تضخم مالي كبيرة ، اذ ان عملتها الفضية لم تعد قادرة على مواجهة ضغط العملات الاوروبية خاصة الفلوري الايطالي الذهبي الذي بدأ يغزو الاسواق العثمانية المفتوحة نتيجة لتدفق كميات ضخمة من الذهب والفضة من امريكا على اوروبا . وكان اجتهاد الدولة العثمانية الذي الحق الضرر الكبير بعملتها يتلخص بانقاص كمية

---

(١٩) الخانة وحده تعداد السكان في الدولة العثمانية ، والمقصود بذلك الاسرة ويقدر الدارسون لهذا الموضوع عدد افرادها ما بين ٥ ــ ٧ اشخاص . اما الذين لم يكن لهم اسر فكانوا يدونون تحت عنوان مجردين ، أي غير متزوجين .

(٢٠) حول سكان لواء دمشق الشام في القرن السادس عشر ، انظر :

M.A. Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century*, Ph. D. London, 1972, *pp.* 44-94.

(٢١) الاقجة : الاسم الذي كان يطلق على وحدة النقد العثماني المضروبة من الفضة وتشير اليها المصادر الاوروبية عادة باسم اسبر المحرف عن اليونانية . حول تاريخ هذه الوحدة النقدية ، انظر :

H. Bowen, «Akce» *E.I.²*, Vol. I, *pp.* 317-8.

(٢٢) كانت غرارة دمشق تزيد بقليل عن ٢٥٠ ليتر ، حول ذلك انظر :

B. Lewis, «Jaffa in the 16th Century According to the Ottoman Tahrir Registers» in *Arabic and Islamic Studies in Honour of Hamilton A. R. Gibb*, Leiden, *p.* 437, Footnotes.

الفضة في تلك العملة فارتفعت نتيجة لذلك اسعار السلع وبهذا ضعفت القوة الشرائية للاقجة(٢٣) .

كما نرى من قائمة الضرائب المدونة اعلاه ، ان الدولة العثمانية كانت تأخذ ربع الحاصل الشتوي عينا او قيمته نقدا(٢٤) . اما فيما يتعلق باشجار الزيتون فلقد نص قانون لواء اللجون على ما يلي : اذا كان الزيتون روماني فنصف حاصله يعطى للسباهية ، اما اذا كان الزيتون اسلاميا فلقد كانت الدولة تجبي اقجة عثمانية واحدة عن كل شجرتين . وكانت الدولة تأخذ عن كل مائة شجرة من الكرمة خمس اقجات عثمانية . والجدير بالملاحظة ان الضريبة على الاشجار يشار اليها في هذه الدفاتر بالمصطلح الاسلامي المعروف « خراج »(٢٥) . اما الضريبة المحصلة عن الماعز فيشار اليها باسم « رسم » والقاعدة التي اتبعت في جبايتها ان تؤخذ اقجة واحدة عن كل رأسين من الماعز(٢٦) . والطريف ان العثمانيين كانوا يجبون رسوما على المناحل بمعدل اقجة واحدة عن كل منحلة(٢٧) . ويلمس الدارس لدفاتر الطابو المتعلقة ببلاد الشام ان تربية النحل كانت منتشرة في هذه البلاد .

لقد شهدت المحاكم في بلاد الشام في العهد العثماني اجراءات جديدة تتمثل في جمع رسم محدد عند النظر في الدعاوى والقضايا ، او عند عقد نكاح وكذلك عند تسجيل حجة . فكانت الرسوم التي تجمع عند عقد نكاح بكر او مطلقة او ارملة يطلق عليها اسم « رسم عروس »(٢٨) كان جزء من هذه الرسوم يخصص للقاضي ولمن يعمل معه في المحكمة والقسم الاكبر كان يعطى لاصحاب « الخاص » او « الزعامت » او « التمار » حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو لكل بلدة او موقع . اما الضرائب الطارئة والمتفرقة وهي تشبه ما كان يشار اليه في العهد العباسي باسم

---

(٢٣) حول اسباب هذه المشكلة من التضخم وارتفاع الاسعار ، انظر :

B. Lewis, *The Emergence of Modern Turkey*, (O.U.P.) 1965, *pp.* 29-32.

وانظر ايضا :

Halil Sqhilliegla, «Sivis Year Crises» in *Studies in the Economic History of the Middle East,* Edited by M.A. Cook, O.U., P, 1970, *pp.* 240-1.

(٢٤) انظر : O. L. Borkan, *Kanunlar*, Istanbul, 1945, *p.* 220.

(٢٥) **دفتري طابو** ، ١٨١ (انقرة) ، ص ٢ .

(٢٦) **المصدر والمكان ذاتهما .**

(٢٧) ينص قانون نامة لواء الشام على ما يلي :

«Ve iki kovona Bir Para resim olino» Borkan, *Kanunlar, p.* 220.

(٢٨) حول هذه الضريبة انظر : B. Lewis, «Arus Resmi» *E.I.*, Vol. I. *p.* 678.

وكانت القاعدة في دمشق الشام انه عند عقد نكاح بنت بكر أن تأخذ الدولة مائة وخمسة وعشرين درهما ، عشرون منها تعطى للقاضي العثماني الحنفي ، ودرهم واحد للمأذون الذي اجرى العقد ، واربعة للشهود ، اما المائة الباقية فكانت اما ان تحول للخاص السلطاني او لخاص امير اللواء او لاحد اصحاب التيمارات حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو . اما في حالة الارملة او المطلقة فكان الرسم دون ذلك ويبلغ خمسة وسبعين درهما ، خمسة وعشرون منها توزع بالطريقة المشروحة اعلاه والباقي تحول اما للخاص او لصاحب الزعامة او للمستفيد من التيمار ، انظر :

Bakhit, *The Ottoman Province of Damascus, pp.* 139-40.

« الطيارات » ، فان المصادر العثمانية عادة ما تعبر عنها بالمصطلح الفارسي « بادهوا »[٢٩] ــ وعند وقوع جريمة قتل او سرقة او انتحار فان الدولة كانت تأخذ من المسؤولين عن تلك الجريمة رسوما تعرف باسم « رسم جرم وجنايت » . اما اذا كان المتسببون بذلك مجهولين فان اهالي الحارة كانوا يجبرون على دفع تلك الرسوم[٣٠] .

اذا ما اجلنا النظر في قائمة الضرائب المدونة اعلاه نجدها تشير الى ضريبة تسميها محصول اسلكة[٣١] (ميناء) . واذا ما عدنا الى قانون نامة لواء اللجون فاننا لا نجد نصا يوضح القاعدة التي كان يتم بموجبها جمع هذه الضريبة . الا أن قانون نامة لواء الشام لحسن الحظ ، يحدد بالتفصيل مقدار الرسوم المحصلة سواء على المواد المصدرة او المستوردة ويشير الى ذلك بما يلي : « يطلق على ما يجبى من جمارك ورسوم وغيرها من الواردات عند ابواب الموانىء الكائنة في ولاية الشام كبيروت وصيدا وصور وعكة ويافا ، يطلق عليها اسم « موجب باب المينا » . ويزودنا قانون نامه المذكور اعلاه بقائمة طويلة ومفصلة باسماء السلع والمواد المستوردة او المصدرة ومقدار الرسم المتوجب عليها، مبينا القاعدة المتبعة في تقدير قيمة البضاعة والرسم المستحق[٣٢] . وهناك ضريبة تذكر في الدفتر الأول فقط بينما لا يذكرها الدفتر الثاني، حيث ترد باسم معادية وليس لدينا معلومات عنها ، ولربما كانت المعادية تشبه الضريبة التي كانت تجمع في لواء نابلس من المسلمين باسم « رسم رجالية » بمعدل ٤٠ أقجة على الخانة المسلمة الواحدة[٣٣] . واخيرا فان هذين الدفترين لا يشيران الى ضريبة تجمع عن اشجار النخيل في حيفا مما يدل على عدم وجودها ، هذا مع العلم ان ناصر خسرو كما رأينا في رحلته يشير اليها في حيفا بقوله : « وبها نخل واشجار كثيرة » .

ان كلا الدفترين يشيران الى ان قرية حيفا كانت من ضمن اقطاع اسرة آل طراباي[٣٤]

---

(٢٩) بادهوا (ريح الهواء) مصطلح فارسي مركب من كلمتين باد ــ ريح وهواء العربية وهي الضرائب المتفرقة حول هذه الضريبة راجع :

B. Lewis, «Bad-i Hawa» *E. I²*. Vol. I, I, 850.

(٣٠) حول هذه الضريبة انظر : Bakhit, *The Ottoman Province*, I, 140. حول الغرامات والعقوبات التي تلحق المرتكب « للجرم والجنايت » في قانون العقوبات العثماني ، انظر : U. Heyd, *Studies in Old Ottoman Criminal Law*, «Edited by V.L. Menage, (O.U.P.) 1973, *p.* 276.

(٣١) كلمة اسكلة مفردة من اصل يوناني تفيد معنى التحميل والتنزيل ، دخلت الى اللغة الايطالية وعن طريق هذه اللغة وبسبب النشاط التجاري للمدن الايطالية تسربت هذه الكلمة للغة العربية على شكل « سقالة » والى اللغة التركية باسم اسكلة ــ اي الميناء . حول تاريخ هذا المصطلح البحري انظر :

H. Kahane and A Tietze, *The Lingua Franca in the Levant, Turkih Noutical Terms Of Italian and Greek Origin*, Urban, 1953, *pp.* 568-72.

R. Dozy, *Supplement aux Dictionares*, 2 Vols, Brill : Leiden. 1881 Vol. I, *pp.* 23.

(32) J. Redhcuse, Turkse-Ingilizce Sozlugn, Istanbul, 1966, I, 550. Borkan, *Kanunlar*, *pp.* 224-6.

(٣٣) طابو دفتري ١٠٣٨ (اسطنبول) ص ٢٣٥ .

(٣٤) طابو دفتري ١٩٢ ، ص ٤ .

التي اصبحت تعرف فيما بعد باسم الاسرة الحارثية[٣٥] . فالدفتر الأول ينكرها من ضمن الاقطاعات التي اعطتها الدولة العثمانية « لأمير الدربين » طراباي بن قراجه . كما ان الدفتر الثاني يبين ان ريعها كان موزعا ما بين احمد وعلي : ولدي طراباي ووكيلهم (كتخداهم) داؤد . هذا بالاضافة الى خمس مزارع جوار حيفا، بلغ مجموع ما يتوجب منها سبعة آلاف اقجة موزعة بين ثلاثتهم[٣٦] . الا انه من الملاحظ ان هذه الاسرة لم تسع الى تطوير ميناء حيفا واستغلاله تجاريا مع اوروبا التي نمت تجارتها مع سواحل بلاد الشام في مطلع القرن السابع عشر ، على غرار ما اقدم عليه معاصرهم فخر الدين المعني في تطوير وتوفير الأمن في موانىء بيروت وصيدا وعكه . بل كانوا في سياستهم تلك يلتقون الى حد بعيد مع سياسة الزعيم السني يوسف باشا سيفا (ت ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م) في طرابلس[٣٧] في عدم اكتراثه بتشجيع التجارة مع الاوروبيين . بل اكثر من ذلك فان احد الاحكام الشريفة المرسلة من السلطان الى قاضي اللجون بتاريخ ١٧ شوال ١٠١٩هـ/ ٢ كانون الثاني ١٦١١م ، يشير الى ان تجار الافرنج الذين كانوا يفدون على حيفا للتجارة كانوا يتعرضون للأذى والخطر من جانب امير اللواء واخرين ، لذا فان هؤلاء التجار لم يعودوا يرتادون حيفا، وان الحكم يطلب من القاضي ان يمنع امير اللواء ورجاله عن التعرض بأي اذى لهؤلاء التجار[٣٨] . ويمكننا القول انه نتيجة للصراع الذي نشب ما بين الامير فخر الدين المعني والامير احمد الحارثي (ت ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م) فان حيفا قد اصيبت باضرار بالغة . ففي سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م تبين لفخر الدين المذكور ، زعيم الجناح القيسي في بلاد الشام ، ان احمد الحارثي ، زعيم الجناح اليمني آنذاك ، يعمل ضده فارسل فخر الدين احد رجاله « نصوح بلوكباشي مسك برج حيفا » فما كان من علي الحارثي ، شقيق احمد ، الا ان اغار على ساحل عكا « واخذ طرشه وعاد الى بلاده مارا على حيفا، فطلع اليه ولاقاه نصوح بلوكباشي بسكمانيته وبيرقه في برج حيفا لأن الامير كان اوقفه فيه كما ذكرنا ، وحاربه وقصد بذلك اخذ الطرش منه واستخلاصه فركضوا عليه وعلى جماعته بالخيل مع جماعة مشاة فقتل نصوح المذكور مع رجلين آخرين وانهزم الباقي الى البرج

---

(٣٥) حول هذه الاسرة انظر دراستي : **الاسرة الحارثية في مرج بني عامر ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ـ ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧م** . المقدمة الى ندوة تاريخ العرب الحديث ، جامعة عين شمس ، ايار ١٩٧٧ ، وكذلك مقالة :
M. Sharon, «The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centureis» in *Studies on Palestine During the Ottoman Period»* Jerusalem, 1975, *pp.* 11-30.

(٣٦) **طابو دفتري** ١٨١ (انقرة) ، ص ١٩ .

(٣٧) حول حياة ودور هذا الزعيم في مجريات الاحداث المحلية انظر محمد امين بن فضل الله (ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩ م) **خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر** ، تصوير مكتبة خياط، بيروت، لا، ت ، م٤ ، ص ٥٠٣ وكذلك دراسة
K. Salibi, «The Sayfas and the Eyalet of Tripoli 1579-1640» *Arabica,* Vol. XX, (1973), *pp.* 25-52.

كذلك مقالتي « احداث بلاد طرابلس الشام ١٠١٥/ ١٠١٦هـ ، ١٦٠٥/ ١٦٠٦م ، **مجلة المجمع العلمي الاردني** ، العدد الأول ، ١٩٧٨ ، ص ١٧١ ـ ٢٠٦ والمصادر المذكورة في هذا المقال .

(38) U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine, p.* 129.

فدخل عليهم الوهم ونزلوا في مركب وجاؤوا الى عكه..»[٣٩]... وصارت عرب الأمير احمد بن طرباي تغير على بلاد كفركنا وتأخذ طرشها وغلالها وصيرتها دكا، واستمروا على ذلك الى ان وصل اليهم خبر كسرة عسكر الشام « في معركة عنجر »[٤٠] فبعد انتصار فخر الدين في تلك المعركة ، قام في شهر شعبان ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م بالتوجه الى شمالي فلسطين حيث اعادها الى سيطرته وكان من ضمن ذلك حيفا . « وابقى في برج حيفا ترتر حمزه بلوكباشي وحط عنده عازقا[٤١] يكفيه ، وعمل الامير فخر الدين في هذه المنزلة أوتراق[٤٢] ثلاثة أيام »[٤٣] وكانت قد جرت اتصالات للصلح ما بين المعنيين والحوارث « وفي عاشر شهر شوال (١٠٣٣هـ/ ٢٧ تموز ١٦٢٤م) صار بين الامير فخر الدين وبين الامير احمد بن طرباي مكاتبات ومراجعة ومراسلات وحصل الاتفاق بينهما ان الامير فخر الدين بن معن يرفع سكمانيته من برج حيفا، وان الامير احمد بن طرباي يمنع عربانه عن التخريب في بلاد صفد وتصير المصافاة بينهما على بعد ، ففعل كل منهما ذلك ، غير ان الامير احمد بن طرباي ارسل من هدم برج حيفا المذكور بعد خروج السكمانية منه ومشت الدروب بين بلاد حارثة وبلاد صفد وما عاد احد يتعرض الى احمد »[٤٤] فلربما بسبب هذا الخراب نرى احمد الحارثي يخرج عن سياسته التقليدية القائمة على عدم الاهتمام بالميناء فنجده يسمح لاحد الرهبان الكرمليين سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م ببناء مساكن في الميناء ويعطيه بذلك دستورا يقول فيه : « ... وكذلك في المينا يعمر ما يحتاج اليه من المساكن واعطيناه دستورا في ذلك ، فبموجب ذلك لا احد يعترض لهم في ذلك بوجه من الوجوه لا من اهل البلد ولا من غيرهم من العربان والفلاحين وكل من يعترض لهم لا يلوم الا نفسه والحذر من المخالفة في ذلك ، وذلك جرى في اواخر شهر جمادي الأول سنة واحد واربعين بعد الألف »[٤٥] . وكما يبدو ان هذه التجربة لم يكتب لها النجاح اذ ان هناك بعض الاشارات تفيد

---

(٣٩) الشيخ احمد الخالدي الصفدي (ت ١٠٣٤ هـ/ ١٦٢٤م) ، **تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني** ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

(٤٠) **المصدر نفسه** ، ص ١٤٢ .

(٤١) العازق ، محرفة عن ازيق التركية وهي المؤونة ، انظر **رد هاوس** ، ص ٨٢ ـ ٨٣ (طبعة ١٩٢١) .

(٤٢) اوتراق : الاقامة ، انظر **رد هاوس** ص ٩٠٤ (طبعة ١٩٦٨) .

(٤٣) الخالدي الصفدي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩٣ .

(٤٤) الخالدي ، **المصدر نفسه** ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ ، ينكر طنوس الشدياق (ت ١٨٥٩ م) دون ان ينكر مصدره ان هدم البرج كان جزءاً من بنود الاتفاق ، **أخبار الاعيان في جبل لبنان** ، ٢م تحقيق فؤاد افرام البستاني ، بيروت ١٩٨٠ ، م١ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، يشير جميل البحري الى برج العجوز او برج الزورة على انه « صخرة منتصبة على شاطىء البحر قيل انها من بقايا برج حصين للمدينة القديمة » فلربما كانت هذه الصخرة من بقايا البرج الذي هدمه احمد الحارثي . هذا مع العلم ان ظاهر العمر الزيداني سنة ١٧٥٠م هدم حيفا وبنى مدينة جديدة بالقرب منها اسماها العمارة الجديدة وانه بسبب ذلك وعلى الارجح ، لم يعن بالبرج القديم انظر ، جميل البحري ، **تاريخ حيفا** ، المطبعة الوطنية ، ١٩٢٢ ، ص ٥ ، كذلك راجع :

L. A. Mayer and J. Pinkerfeld, *Some Principal Muslim Religious Buildings*, Jerusalem, 1950, *pp.* 39-40.

(٤٥) انظر نص هذا الدستور في كتاب جميل البحري ، **تاريخ حيفا** ، ص ٥٠ ، وينكر البحري انه نقله عن مخطوط موجود في مكتبة دير الكرمل .

انه بدأ يضايق الرهبان بل زيادة على ذلك سجن احدهم ولم يطلقه الا بعد ان دفع ذاك الراهب لأحمد الحارثي فدية عن نفسه(٤٦) .

كانت الدولة العثمانية السنية تنظر بمزيد من الحذر لتحركات الاقليات من الجماعات والطوائف غير السنية في بلاد الشام خاصة في منطقة الشوف وجبل عاملة والجليل الاعلى . فلقد كان سكان هذه المناطق خاصة جنوبي لبنان وشمالي فلسطين ، خليطا من الدروز والشيعة الاثنى عشرية (المتاولة) والعناصر المسيحية التي كان من ابرزها الموارنة الذين دأبوا على الهجرة من الشمال الى الجنوب، بتشجيع من فخر الدين المعني الثاني ، هذا اذا اخذنا أيضا بعين الاعتبار الهجرة اليهودية في القرن السادس عشر(٤٧) الى منطقتي طبرية وصفد . يضاف الى كل ما ذكر اعلاه تواجد العناصر البدوية ، ولعلنا لا نجانب الحقيقة اذا قلنا ان نسبة العناصر السنية المستقرة كانت في تلك المنطقة ضئيلة بالنسبة لمجموع السكان . فمن اجل معالجة هذا الأمر نجد ان الدولة العثمانية تحاول سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م ، بعد هروب فخر الدين المعني الى تسكانيا ، اجراء تنظيم اداري جديد في ولاية دمشق الشام فاقتطعت ناحيتي صيدا وبيروت ولواء صفد وشكلت منها ولاية جديدة عرفت باسم ولاية صيدا ، وكانت الغاية الأولى من وراء ذلك مراقبة وضبط حركات الدروز(٤٨) . الا أن الحياة لم تكتب لهذه المحاولة،اذ ان الدولة العثمانية عادت وصرفت النظر عنها واعادت الولاية الجديدة الى ما كانت عليه في السابق، من حيث تبعيتها لولاية دمشق الشام. والمحاولة الثانية التنظيمية جاءت سنة ١٦٦٠م وهدفت كالأولى الى ضبط العناصر المحلية من المعنيين والشهابيين والحمادية والشيعة وكانت كما وصفها المطران الماروني اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤ م) مشيرا الى خطورة خطوة الوزير محمد باشا كوبريلي والي دمشق الشام آنذاك : « ... وحتى يحطم نزاع اولاد العرب عمل صيدا باشاوية وكتبها على علي باشا الدفتردار . »(٤٩) وبالرغم من هذا التنظيم الاداري الجديد ظلت حيفا جزءا من لواء اللجون وتابعة لولاية دمشق الشام مع العلم ان ساحات كبيرة من الأراضي المحيطة بحيفا بما في ذلك خليجها الشمالي ، كانت قد ضمت الى اراضي الولاية

---

(٤٦) انظر محمود العابدي ، **صفد في التاريخ** ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٧٠ .

(٤٧) انظر حول ذلك :

B. Lewis, «The Jews in Palestine in the 16th Century» in *Notes and Documents From the Turkish Archives*, Jerusalem, 1952, *pp.* 5-47, See also U. Heyd» Turkish Documents Concerning the Jews of Safed in the Sixteenth Century» in *Studies on Palestine During the Ottoman Period*, *pp.* 111-18.

(48) U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, *pp.* 47-8.

(٤٩) الدويهي ، اسطفان (ت ١٧٠٤ م) ، **تاريخ الازمنة** ، تحقيق الأب فردينان توتل اليسوعي ، بيروت ، ١٩٥١ ، ص ٣٥٧ ــ ٣٥٩ ، حول منزلة اسطفان الدويهي التاريخية انظر :

Kamal Salibi, Maronite Historians of Modeval Lebanon, Beirut, 1959, *pp.* 89-160.

الشدياق ، **اخبار الاعيان** ، م١ ، ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ ، راجع ايضا :

A. Rafeq, *The Province of Damascus 1723-1783*, Khayats, Beirut, 1966, *pp.* 3-4, 32.

الجديدة . وربما كان هذا من حسن حظ حيفا اذ انها بسبب بعدها عن سلطة دمشق اصبحت مأوى للقراصنة وللتجارة المهربة حتى اصبح يطلق عليها اسم « مالطة الصغرى » . فأخذت السفن تقصدها متجاوزة عن عكا وصيدا وعلى الأغلب للتهرب من دفع الضرائب المستحقة او لشراء مواد لم تكن الدولة تسمح بالمتاجرة بها كالقمح والبارود، وللتزود بالماء. وكان القنصل الهولندي في عكار طرفا في عملية التهريب تلك فكان ذلك مدعاة لاثارة حفيظة زميلة القنصل الفرنسي نظرا للاضرار التي لحقت بالتجارة الفرنسية التي كانت تعتمد مينائي صيدا وعكا . ونتيجة للشكاوى الفرنسية ، اصدرت الدولة العثمانية سنة ١٧١٦م فرمانا الى خليل باشا واليها في صيدا ، تشير فيه الى حركة القرصنة وتأمره ببناء عدد من الابراج حول ميناء حيفا في محاولة منها لوضع حد لعملية التهريب تلك . واستجابة لذلك قام الوالي المذكور بزيارة استطلاعية للمنطقة وكانت توصياته تتخلص باعادة بناء القلعة ولكن وفاته المفاجئة أجلت الموضوع الى ان استؤنف النظر فيه سنة ١٧٢٢م(٥٠) . وكان قرار الدولة العثمانية يتلخص في تعمير برجين على جانبي الخليج ، بدل اعادة تعمير القلعة نظرا لما كان يتطلبه اعادة بنائها من التكاليف الباهظة . وكلفت واليها عثمان باشا ابو طوق(٥١) في صيدا بالاشراف على تنفيذ هذا القرار . فتم انجاز تعمير البرج الأول على الجهة الشرقية في سنة ١٧٢٣م وفرغ من اقامة البرج الثاني على الجهة الغربية من الميناء في سنة ١٧٢٥م . وأقام عثمان باشا ابو طوق في كل منها

---

(٥٠) انظر: Amnon Cohen, *Palestine in the 18th Century, Patterns of Government and Administration*, Jerusalem, 1973, *pp.* 137-140.

وحول تواجد القناصل في الدولة الاسلامية انظر :

B. Spuler «Consul». *E.I.*^{2}, Vol, II, *pp.* 60-61.

والجدير بالذكر ان السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م) ، يعرف القنصل بقوله : « قلت ويعبر به عن الوكيل للكفار في بلاد الشام ، **تاريخ العروس** م٨ ، ص ٨٩ .

(٥١) القبودان عثمان باشا ابو طوق (ت ١٧ ربيع الثاني ٣٩ (١هـ/ ٢٦ كانون الأول ١٧٢٦ م) ، كان زوجا لشقيقة السلطان ، تولى حكومة دمشق الشام اكثر من مرة ، وكذلك البصرة وصيدا ، واثناء توليه دمشق كان امير قافلة الحاج الشريف اكثر من مرة،ومن هنا اكتسب لقب حاج . ولي احد ابنائه الذي كان زوجا لابنة السلطان صيدا واخر ولي القدس . اتسم عهده بدمشق بظهور فئة اطلق عليها اسم العوانية ، الحقت الضرر بالناس وابتزت اموالهم مما دفع العامة بقيادة المفتي محمد خليل البكري الصديقي (ت ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م) الى ان يهاجموا العوانية « فمنهم من قتل ومنهم من صلب واخبروا الدولة العلية بما وقع وصدر » ، حول اوضاع بلاد الشام في عهده انظر ، محمد بن جمعة المقار (ت ح ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م) ، **كتاب الباشات والقضاة** نشره صلاح الدين المنجد مع نصوص اخرى **باسم ولاة دمشق في العهد العثماني** ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧ ـ ٦٠ ، الشدياق ، **اخبار الاعيان** ، م١ ، ص ٥٧ ، م٢ ، ص ٣١٦ ، حيدر احمد الشهابي (ت ١٨٣٥م) **الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان** ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، م٢ ، ص ١٧ ، عبد الكريم رافق ، **بلاد الشام ومصر** ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ولنفس المؤلف : *The Province of Damascus*, *pp.* 77-85, 112-13.

يذكر عبد الامير محمد امين شخصا باسم الوزير عثمان باشا متسلما للبصرة ما بين ١٧١٢ ـ ١٧١٤ ، **القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر** ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ملحق رقم ٣ ، ص ٩٣ ، حول حياة الشيخ البكري راجع محمد خليل المرادي (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١ م) **سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر** ، م٢ ، ص ٨٣ ـ ٩٧ .

ستة وثمانين من جنود المدفعية(٥٢) وستة وثلاثين من الجبجية(٥٣) . ولقد زار الرحالة الانجليزي Richard Fococke حيفا سنة ١٧٣٧ وأشار الى ان الهدف من وراء تشييد هذين البرجين ، كان صد هجمات القراصنة . ومن خلال تفاصيل رحلته يلاحظ القارىء نشاط القراصنة من مالطا في منطقة شرقي البحر الابيض المتوسط(٥٤) . كل ذلك تم وحيفا ما زالت تابعة لولاية الشام ، فمن اجل تصحيح هذا الوضع ووضع الامور في اطارها الطبيعي صدرت اوامر الدولة في سنة ١٧٢٥م بضمها وضم طنطورة الى ولاية صيدا(٥٥) . ورغبة من الدولة في تعمير حيفا ، وعدت ستة من اصحاب الزعامات في سنجق اللجون وخمسة وثلاثين من اصحاب التيمارات في السنجق المذكور باعفائهم من دفع بدل رواتب الجنود الذين كان يجب عليهم توفيرهم على حسابهم الخاص مقابل حصولهم على تلك الزعامات والتيمارات ، فيما اذا انتقلوا وسكنوا في بيوت تقام لهم بالقرب من البرجين المذكورين. وزيادة في التشجيع على السكن في حيفا ، وعدت الدولة المسيحيين الذين ينتقلون للاقامة في حيفا باعفائهم من الجزية وكذلك من سائر التكاليف العرفية .(٥٦) ولقد كانت الاستجابة من جانب اصحاب الزعامات والتيمارات والينكجرية كبيرة ، ويلاحظ انه بعد انتقالهم للسكنى في حيفا بدأوا بالعمل في الزراعة، مما جعلهم يصطدمون مع الأهالي من سكان حيفا ومع الفلاحين هناك . ولقد عقد اجتماع في اواخر صفر ١١٣٨هـ/ اوائل تشرين الثاني ١٧٢٥م ، برئاسة الوالي الحاج عثمان باشا ابو طوق المذكور اعلاه للنظر في الأمر وللبحث عن حل للمشكلة . ولقد تم الاتفاق في ذلك الاجتماع ان لا يتعرض الاهالي ولا الفلاحون اصحاب الزعامات لحراثة وفلاحة الأراضي المهجورة . ولقد تم تسجيل بنود الاتفاق في حجة شرعية باللغتين العربية والعثمانية وحفظت نسخة منها في « الجبخانة » للعودة اليها . ونظرا لأهمية هذه الحجة فاننا نثبت نصها التالي(٥٧) .

---

(٥٢) تذكر المصادر العثمانية جنود المدفعية باسم طوبجو ، حول هذا المصطلح انظر :

H. A. R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West,* (O. U. P) 1963, Vol. I, Parti, *pp.* 66-7.

(٥٣) الجبجية : الجنود الذين يلبسون الدروع ، انظر **المصدر نفسه** ، الصفحة ذاتها .

(٥٤) يصف ذلك بقوله :

«There are also ruins of a large building that seems to have been the castle; and they have built two forts, as adefence aginst the corsairs», *A Description of the East and Some other Countries,* Vol, II Parti, *Observation on Palestine or the Holy Land. Syria, Mosoptamia, Cyprus and Candia.* London, W. Bowyer, 1745, *pp.* 51, 56.

لمزيد من التفاصيل حول هذه المرحلة انظر :

Mohammad Ali Hachicho, *English Travel Books About the Arab Near East in the Eighteenth Century,* Leiden, E. J. Brill, 1965, *pp.* 35-8.

(٥٥) امنين كوهين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٤٠ .

(٥٦) **المصدر نفسه** ، ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

(٥٧) الحجة التي نثبت النص العربي منها هنا وجدتها ملصقة في داخل دفتر الطابو رقم ١٨١ الموجود في مديرية الاراضي بانقرة . وتاريخها « اواخر صفر الخير لسنة ثمان وثلاثين ومائة والف » بينما يشير امنين كوهين الى وثيقة مشابهة لها ضمن مجموعة المالية المدورة باسطنبول ولكن تاريخها ١٣ ربيع الثاني ١١٣٨هـ/ ١٩ كانون الأول ١٧٢٥م . انظر كوهين ، **المصدر نفسه** ، ص ١٤١ ــ ١٤٢ ، وهامش رقم ٩٦ .

« لما انعقد المجلس الشرعي في القلعة المجددة بموجب الفرمان العالي الشريف غربي اسكلة حيفا بحضرة جناب الدستور المكرم المشير المفخم ناظم مناظم الأمم الحاج عثمان[٥٨] باشا محافظ ايالة صيدا حالا زاده الله رفعة واجلالا وبحضرة فخر الاشباه الحاج مصطفى[٥٩] حمود زاده ضابط[٦٠] اسكلة حيفا الملحقة باسكلة عكا[٦١] وفخري المستحفظين[٦٢] طوبجي ابراهيم اغا وجبجي باشي محمد أغا وشعبان اغا وفخر الاشباه حسين بيك اميرالاي[٦٣] سنجق اللجون حالا واميرالاي السنجق للزبور سابقا مصطفى زعيم[٦٤] الطيرة[٦٥] وحيفا

---

(٥٨) انظر هامش رقم ٥١ اعـــلاه .

(٥٩) لم اعثر على ترجمة للحاج مصطفى حمود زاده الا انه كما يبدو ان عائلة حمود الصيداوية خلال مطلع القرن الثامن عشر قد كانت تلتزم جباية الضرائب المتوجبة على عكا وصور وصيدا وبيروت. وبهذا الخصوص يذكر عبود الصباغ ما يلي : « بما ان عكه لم تكن في ذلك الوقت في يد ضاهر بك كان ملتزمها علي اغا حمود الذي كان مقيماً في صيدا ويلتزم من كل وزير يحضر عكا وبيروت وصور واقلام صيدا ويرسل الى الاماكن المذكورة متسلما من طرفه « **الروض الزاهر في اخبار ضاهر** » ، المكتبة الوطنية ، باريس ، Arabe 4610 ورقة ١٩ .

(٦٠) ان طبيعة عمل الضابط من خلال هذا النص ونصوص اخرى تبدو لنا انها تعني الالتزام بالضرائب ولكن على نطاق ضيق ومحدود . وعلى الارجح انه ليس ذا بعد عسكري . وكان هذا اللقب يطلق على الملتزمين بغض النظر عن دينهم، فمثلا ينكر حيدر احمد الشهابي ان فارس الدهان (مسيحي) كان ضابط الكمرك لدى الجزار ، على اية حال فان الضابطية كمؤسسة بحاجة لدراسة اوفى ، انظر **تاريخ احمد باشا الجزار** ، نشـــره الأب انطونيوس شبلي والأب اغناطيوس عبده خليفة ، مكتبة انطوان ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٣ ، انظر ايضا .

B. Lewis, «Dabit.» *E.I.²*, Vol.II, *p.* 74.

(٦١) حول تطوير عكا في القرن الثامن عشر انظر ، امنين كوهين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٢٨ ــ ١٣٧ . راجع ايضا النصوص التي جمعها عنها الأب مرمرجي الدومنيكي ، **بلدانية فلسطين** ، ص ١٦١ ــ ١٦٦ كذلك انظر :
F. Buhl, «Akka» *E.I.2*, Vol. I, *p.* 341.

(٦٢) المستحفظان : هم الجنود الذين كانوا يوضعون لحماية القلاع .

(٦٣) الآي كلمة تركية تعني مجموعة من العسكر ، انظر : Gibb and Bowen **مصدر سبق ذكره** ، م١ ، ج١ ، ص١ ، ٥١ ، ١٤٥ .

(٦٤) زعيم رتبة في نظام التيمار العثماني ، كان صاحبها يمنح اقطاعا من صنف الخاص ، انظر **المصدر نفسه** ، ص ٤٦ ــ ٥٦ .

(٦٥) في القرن السادس عشر كان ثلاث قرى باسم الطيرة ، منها اولا قرية طيرة اللوز تابع ساحل عتليت الغربي التي كان عدد سكانها سنة ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م ، ٦٩ خانة ومجردين ، وقيمة حاصلاتها المستحقة ٢٠٣١٠ اقجة (ص ٥ ــ ٦) ، اما في سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م، فان عدد سكانها يتناقص الى ٥٢ خانة ، وكانت قيمة وريع حاصلاتها ٢٢٠٠٠ اقجة اما رسم الماعز والنحل المحصل منها فكان ٢٠٠ اقجة ومثل ذلك « الباد هوا ورسم عروس » خمسة عشر الف اقجة من هذه العائدات كانت مخصصة كجزء من زعامات احمد وعلي ولدي طراباي وكتخداهم (وكيلهم داود) . (ص ١٨ ــ ١٩) ، اما الطيرة الثانية ، فكانت تعرف باسم الطيرة الشمالية عدد سكانها بموجب الدفتر الأول ثلاث خانات وقيمة ربع حاصلاتها ١٩٤٢ اقجة . والطيرة الثالثة تذكر باسم الطيرة القبلية عدد سكانها ٥ خانات وقيمة ربع حاصلاتتها ١٩٧٠ اقجة (ص ٢٩ ــ ٣٠) ، وبموجب الدفتر الثاني تذكر الطيرة الشمالية والقبلية كمزارع من زعامات احمد وعلي ولدي طراباي وقيمة ربع حاصلاتها في السنة ١٢٠٠٠ اقجة (ص ١٧) . من هذا يظهر ان المقصود بقرية الطيرة هي ا المشار اليها باسم طيرة اللوز لأن الاخيرتين تحولتا الى مزارع . ويشير U. Heyd الى ان الامير عساف آل طراباي في سنة ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م ، قد بنى مسجدا في قرية الطيرة ، راجع :

U. Heyd, *Ottoman Documents on Palestine*, *p.* 110. n.4.

وبحضرة الشيخ[٦٦] رافع والشيخ احمد مرعي[٦٧] المتكلمين على اهالي حيفا وكافة الاسباهية واليكجرية الساكنين بقلعة حيفا الشرقية واحمد مصلح وسائر الفلاحين[٦٨] والاسباهية واليكجرية المرموقين . ان الشيخ رافع والسيد احمد مرعي مشايخ حيفا يتعارضونهم في اراضي ناحية حيفا قائلين وزاعمين انها لهم، ولا يأذنون لهم في حرثها وزرعها وطلبوا دفعهم عنهم وعدم المنازعة لهم . فسئل من مشايخ حيفا المذكورين ومن فلاحيها عن ذلك فأجابوا منكرين المنازعة

---

(٦٦) ان كلمة شيخ الشائعة والمتداولة منذ زمن بعيد في التاريخ العربي الاسلامي ذات مدلولات مختلفة ، فعند النسابيين تفيد معنى المتنفذ في العشيرة، وبالنسبة للصوفية تعني من بلغ مستوى رفيعا في الطريقة ، ولدى اصحاب الحرف والاصناف تدل ايضا على المستوى الرفيع في تنظيمهم الهرمي وهي رتبة علمية في وسط العلماء . والملاحظ ان مثل هذا اللقب يشيع استعماله في ريف بلاد الشام بين الفلاحين والزراع ولا يقتصر استخدامه على المسلمين السنة فقط بل ان غيرهم من بعض الاسر الدرزية والمسيحية كان لها مثل هذا اللقب . والسؤال الذي يطرح نفسه هل لقب امير وشيخ ومقدم الذي تنكره المصادر كان يمنح ويستخدم بموافقة الدولة العثمانية ام انه كلقب يدل على منزلة اجتماعية نشأ محليا ؟ من ناحية اخرى حافظت الدولة العثمانية على مؤسسة المشيخة التي كانت استمرارا لمؤسسة امارة العرب التي وجدت في العهد الايوبي واستمرت في عهد المماليك . والذي يبدو ان المشايخ في القرى كانوا اصحاب نفوذ ولم يكونوا اصحاب سلطة الى ان بداوا يعملون كملتزمين صغار ربما باستثناء ضاهر العمر الذي يصفه عبود الصباغ بقوله « فصار الاسم الى ضاهر عند الدولة والمشيخة عند الفلاحين » وانه كان يحارب « مشايخ الفلاحين الذين بالقرب منه ويأخذ بلادهم ويلتزمها » واصبح لقبه كما يذكره المرادي « شيخ شيوخ البلاد الصفدية » . وعلى الارجح انه لم يكن للشيخ في القرى في هذه المرحلة السلطة والصلاحيات وشبه الصفة الرسمية التي كان يتمتع بها الشيخ في القرية المصرية في القرن الثامن عشر. حول من تلقب بهذا اللقب انظر الشيخ حسن البوريني (ت١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م) ، **تراجم الاعيان من ابناء الزمان** ، ٢م تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م٢ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ص ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ص ٣٤ ، ٤١ ، ٦٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٩٦ ، المرادي ، **سلك الدرر** ، م٣ ، ص ١٨٤ ، عبود الصباغ ، **مصدر سبق ذكره** ، ورقة ٣ ب ، ٧أ ، حيدر الشهابي ، **الغرر الحسان** ، م٢ ، ص ٦ .

عن الشيخ في مصر في القرن الثامن عشر انظر :

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **الريف المصري في القرن الثامن عشر** ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ، ص ١٨ ــ ٢٣ .

انظر ايضا عن سياسة الدولة العثمانية تجاه القبائل واحياء المشيخة في القرن الثامن عشر .
Barbir, Carl K., *The Dynamics of Ottoman Rule in Damascus. During the First Half of the Eighteenth Century* Ph. D. Princeton 1976, *pp.* 135-139.

(٦٧) لم اعثر على ترجمة او اية معلومات عن الشيخ رافع او الشيخ احمد مرعي .

(٦٨) ان قوانين نامة الولايات العربية في الدولة العثمانية (قوانين نامة الموصل ، القدس ، الشام ومصر) . تنكر الفلاحين في معرض اعطائهم نصف محصول الزيتون الروماني ، وان الفلاحين كما نص قانون نامة لواء دمشق الشام ليسوا جزءا من ملكية الأرض وان اقتسامهم مخالف للقانون. والملاحظ ان الفلاحين في القرن الثامن عشر في بلاد الشام اصبحوا قوة محلية ذات رئاسة متمثلة بالمشايخ . ويلمس من يقرا **الروض الزاهر في تاريخ ضاهر** ، ان عبود الصباغ يكثر من استخدام هذا المصطلح مثل « .... والمشيخة له عند الفلاحين » وانه كان « ... يصطبر على الفلاحين لثاني سنة فلاجل ذلك كانت الفلاحين داخل البلاد جميعا يحبوه » ورقة ، ٣ ب ، ١٦ أ ، ١٦ ب ، حول كلمة فلاح في القوانين نامة
Barkan, O. L., *Kanunlar*, Istanbul 1945, *pp.* 122, 178, 217, 226, 359-72.

انظر ايضا الخالدي ، الصفدي عن الفلاحين في شمال فلسطين ، **المصدر ذاته** ، ص ١٩٣ .

والمعارضة بل لسائر سكان القلعيتن الشرقية والغربية ان يزرعوا ويحرثوا في اي ارض ارادوا زرعها وحرثها ان كانت من ارض السعادة(٦٩) او الحوارث(٧٠) وسائر اراضي احمد زيدان(٧١) واتباعه النازحين عن قريتهم واي ارض تركها اهلها ثلاث سنوات معطلة وغامرة من غير حرث ولا زرع لهم ان يحرثوا ويزرعوا ويتصرفوا بها كما شاءوا واختاروا شرعا . وفرعا لا ينازعهم منازع ولا يعارضهم معارض ، فعندها كان من كلام جناب الوزير المشار اليه ان هذه الاراضي حيث تركها اهلها ونزحوا عن بلادهم رجعت رقبتها وتصرفها لبيت مال المسلمين وصار امرها مفوضا لوكلاء حضرة السلطان نصرة العزيز الرحمن ولضابطي المقاطعات. ولما كان الأمر كذلك ، صدر الأمر منه ان من سكن في احدى القلعتين المذكورتين من الفلاحين والزراعين والحراثين وسائر الرعايا على موجب الفرمان العالي الشأن السلطاني وعمر بهما بيتا من حجر

---

(٦٩) يذكر الخالدي نهرا في لحف جبل الكرمل اسمه نهر السعادة فلربما كانت الأرض المحيطة به تسمى ارض السعادة ، الخالدي ، الصفدي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٩٣ .

(٧٠) اي اراضي الاسرة الحارثية ، ثم يذكر عبود الصباغ ان ضاهر العمر فيما بعد صار يتغلب على بلاد حارثة ويأخذها من مشايخ الفلاحين التي بها ، **مصدر سبق ذكره** ، ١٠ أ ، ب ، حول اسرة الحوارث ، انظر الملاحظات المذكورة في هامش رقم ٣٥ اعلاه .

(٧١) ان المصادر التاريخية المتوافرة لدينا غير واضحة في المادة التي توردها عن ظاهر العمر الزيداني ، فمثلا المرادي (ت ١٢٠٦هـ ١٧٩١م وهو من اقدم المصادر عن ظاهر يترجم له تحت حرف العين فيقول : « عمر بن صالح الملقب بالظاهر الصفدي الزيداني حاكم مدينة عكا وشيخ شيوخ البلاد الصفدية صاحب المواقع الشهيرة الخارج عن طاعة الدولة العثمانية مولده بصفد سنة ست ومائة والف (١٩٦٤ م) ومن غريب الاتفاق ان هذا التاريخ هو تاريخ مولده موافق لعدد لقبه ظاهر... وكان والده وجده واعمامه حكاما بصفد وعكا ويعرفون ببني زيدان وهم حمولة كبيرة » من هنا يظهر لنا حسبما جاء عند المرادي ان اسمه عمر وان اسم ابيه صالح وظاهر هو عبارة عن لقبه . واذا عدنا الى تاريخ ميخائيل نقولا الصباغ (ت ١٨٦١م) نجده ينكر ان الاسرة كانت تسكن في معرة النعمان وان كبيرها كان اسمه علي وان ابنه الذي تولى مشيخة العائلة كان اسمه عمر تزوج من السردية انجبت له ثلاثة اولاد علي توفي بعد والده عمر ، وسعد وظاهر ، وان الاسرة بقيادة عمر هاجرت الى الجليل« وقاموا جميعا جهزوا حالهم وشدوا رحالهم وسافروا ونزلوا عند قيساريه فاقاموا قليلا فما اعجبهم ذلك المكان لقبحه وخرابه فانتقلوا الى نواحي الاردن الى طبرية ونزلوا بكبير قومها وباهلها فاعجبتهم فاستوطنوها ورأوا اراضيها خصبة فاستفلحوا بها واشتروا الغنم والبقر واخصبت معهم تلك السنة وكان ذلك سنة ١٧٠١ وكان ظاهر له من العمر اثني عشر سنة » وفي سنة ١٧٣٠ انتقلوا من طبرية الى قرية عرابة ، فمن المعروف ان قيساريه تقع قريبة من جنوبي حيفا وربما كان جد ظاهر اسمه احمد زيدان ، او ان احد اقاربه كان يحمل هذا الاسم وعرفت الارض به بعد انتقال العائلة من قيساريه الى طبرية ثم فيما بعد الى عرابة . انظر المرادي **سلك الدرر** م٣ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٧ ، عبود الصباغ ، **الروض الزاهر في تاريخ ظاهر** ، ورقة ١ أ ـ ٣ ب ، ميخائيل نقولا الصباغ ، **تاريخ ظاهر العمر** ورقة ١ أ ـ ٣ أ ، حيدر الشهابي ، **الغرر الحسان** ، م٢ ، ص ٦ ، ص ٧ . انظر ايضا الرسالتين اللتين نشرهما عيسى اسكندر المعلوف ، بعنوان « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني » **المشرق** ، م٢٤ ، (١٩٢٦) ، ص ٥٣٩ ـ ٥٣٠ . حول ابناء واقارب ظاهر انظر :

Cohen, *Palestine in the 18thg Century: pp.* 6-10, 14, 25, 34, 46, 58, 81, 84, 85, 95-96.

حول قيمة مخطوط عبود الصباغ انظر :

George, Haddad, «The Chronicle of Aboud al-Sabbagh and the fall of Daher al-Umar of Acre» al-*Abhath*, Vol. xx (196) *pp.* 37-44.

ومدر وسكن واستقر بهما لأجل محافظة بلاد المسلمين ونفوس المؤمنين. ففي اي ارض حرث وزرع من سائر اراضي سنجق اللجون لا يدفع من محصولاتها الا العشر الشرعي للمعشر كما هو مسطر في كتب الفقه ويكونون معافون (كذا) من جميع التكاليف الشاقة وغيرها ، فعندها التمس سكان القلعتين سندا شرعيا يكون بيدهم مخلدا فقرر مشايخ حيفا ان بلدهم خمسية ومن الآن كل من طلبوا منه ما هو متوجب عليه من المال فيفر عنهم ويسكن في احدى القلعتين فيلزم منه خراب بلدتهم ، فعندها صدر الامر من جناب الوزير المشار اليه ان من فر من اهالي حيفا وسكن باحدى القلعتين فمهما كان متوجب عليه من المال يدفعه لهم ولا ينازعهم من سكان القلعتين منازع ومن تاريخ هذا الكتاب من اراد السكنى من اهالي حيفا في احدى القلعتين فلا يأويه احد من سكانهما وارتضى كل من الفريقين على ذلك واقره كل منهم وانفصل الامر عليه والتمس كل منهما كتب هذا الصك وحفظه في كل من القلعتين في الجبخانة العامرة ليكون للفريقين سندا شرعيا فكتب ما وقع وحرر بالطلب في اواخر صفر الخير لسنة ثمان وثلاثين ومائة وألف .

شهـــود

الحاج يوسف بيك	محمد بيك زعيم	ابراهيم بيك زعيم	رجب بيك
احمد بيك	عوض بيك	محمد بيك	قرا حسن طوبجي
	يوسف جبجي	وغيرهم	

لقد اتسم العهد العثماني في بلاد الشام ، مقارنة بغيره من العهود الاسلامية ، بتوفير الامن والحماية لسواحل تلك البلاد ، ولقد واكب ذلك ازدهار تجاري اوروبي مع السواحل الشامية ، فكان من النتائج التي ترتبت على ذلك ان السواحل التي كانت مهجورة منذ اخراج الصليبيين منها سنة ١٢٩١ ، قد دبت فيها حركة العمران. ونتيجة للاغراءات التجارية ونظرا للانقسام الذي اصاب الكنيسة الارثونكسية ، اصبحت العناصر السكانية ، خاصة المسيحية منها تهاجر بالتدريج من الداخل الى الساحل الذي اصبح يكتسب سمة مسيحية بارزة . زيادة على ذلك فان مراكز الثقل الحضاري والتجاري والفكري والسياسي قد بدأت ايضا تتحول تدريجيا عن الداخل نحو الساحل ومن هنا لم يكن ظهور الزيادنة واحمد باشا الجزار ثم نمو مدن السواحل في القرن التاسع عشر والعشرين عفويا .

ان حركة العمران تلك التي عرضنا لها في حيفا لم تكن الوحيدة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر بل ان هناك تجارب مشابهة ، والذي يهمنا ان ندعو اليه هنا انه من اجل فهم دقيق وموضوعي للقرن التاسع عشر ، فانه آن الأوان لدراسة القرن الثامن عشر من مختلف جوانبه، لفهم حركة الاصلاح والتجديد ، قبل هبوب رياح الحضارة الاوروبية على المجتمع الشامي الاسلامي لتتركه على مفترق الطرق .

حسين ابو النمل

ما قبل الحديث عن الصهيونية الاقتصادية

"عن التضخم ومستوى المعيشة وتخفيض الليرة والعجز في الميزان التجاري"

تناقض المقدمات والنتائج

رغم أختلاف وتعدد وجهات النظر التي طرحت بشأن الآثار الأقتصادية للسلام بين مصر وأسرائيل ، فأنها تكاد تتفق فيما بينها على أن الأقتصاد الأسرائيلي متدهور ، وأنه يعاني من جملة أمراض أبرز ظواهرها العجز في الميزان التجاري ، تدهور وضع الليرة الأسرائيلية ، أرتفاع نسبة التضخم ... الخ . ومع ذلك هناك شبه اتفاق عام على احتمال حدوث هيمنة أقتصادية أسرائيلية . وفي رأي البعض الآخر أحتمال توسع أقتصادي صهيوني في المنطقة . الأمر الذي أدخل في قاموس الصراع العربي ـ الأسرائيلي تعبيرا جديدا هو « الصهيونية الأقتصادية »[١] .

أن ابسط قواعد المنطق ، تقول بانسجام المقدمات مع النتائج ، وأن كان هنالك من تضارب بينهما فلا بد من تصحيح احدهما لصالح الآخر ، والا فان وجهة النظر المطروحة تكون قد فقدت الشرط الاول لصحتها . نقول هذا استنادا الى بديهية معروفة عن استحالة حدوث هيمنة ، أو توسع ، أو خطر أقتصادي اسرائيلي في حال أقامة علاقات طبيعية ، فيما لو ثبت صحة الرأي القائل بأن « الأعتماد على المساعدات الخارجية، خاصة الاميركية كان يزداد سنة بعد أخرى حتى بالنسبة الى وجبة الفطور». رغم ذلك ، « بدأ الأسرائيليون يشعرون أنهم على أبواب مرحلة جديدة مليئة بالفرص والأطماع ، حتى راحوا يتساءلون ، وبجدية كيف يمكن استغلال هذا الوضع لمصلحتهم »[٢] . ولذا فان « ما يهم اسرائيل هنا هو فتح السوق المصرية على مصراعيها امام البضائع الأسرائيلية »[٣] . البروفسور يسرائيل شاحاك تساءل عن « ما الذي تستطيع أسرائيل بيعه لمصر »... «حسب ما اسمع برادات ومكيفات وأدوية . لكن السؤال كم عدد المصريين الذين يستطيعون شراء هذه المنتوجات؟. ان الحالة هي أن الأمر بالنسبة لأسرائيل ومصر كحال مفلسين يودان دعم بعضهما »[٤] ، ربما ، يكون ما قيل عن موضوع

الافلاس صحيحا ، ولكن الملفت للنظر ان المفلس الأول قادر على أنتاج وبيع برادات وأدوية ومكيفات ، والمفلس الثاني في وضع لا يستطيع معه حتى على شراء منتجات المفلس الأول ! . ربما يكون الحديث عن الأفلاس صحيحا ، ولكن شتان بين مفلس لديه مصنع برادات وآخر لا يملكه ، ولا يستطيع شراء ما ينتجه المفلس الأول . هذا المنطق صحيح شكلا ، ربما ، لكنه خاطيء موضوعا . وكذا الأمر بشأن الرأي القائل بأن اسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة حتى بالنسبة الى وجبة الفطور ، لأن من تلك حالته غير قادر ولا مؤهل للأستفادة من اية « مرحلة جديدة مليئة بالفرص والأطماع»، ولأن من يستطيع أن « يبيع » الآخرين ، « ويتلهف » للوصول الى اسواقهم ، كان الأولى به ، وهذا هو منطق الأمور،ان يبيع ــ يؤمن لنفسه حتى وجبة الفطور !

ما تقدم من امثلة ليس سوى نموذج للأنفصال التام بين المقدمات والنتائج التي طبعت كثيرا من الدراسات المتعلقة بالأقتصاد الأسرائيلي ، انفصال يستدعي اعادة تصحيح العلاقة بين أطراف المعادلة السياسية الاقتصادية المطروحة . وذلك لكي تستوي ويزول التناقض .

عندما نعرف المقدمات ، يمكن لنا أن نتوقع النتائج ، ومن هنا فأن هذا البحث القصير سيكرس في محاولة لتصحيح بعض الأخطاء الشائعة عن أقتصاد العدو ، وذلك عبر محاولةتقديم الحقيقة ، عن طبيعة « الأمراض » التي يعاني منها ، لأنه ، وكما يبدو من سياق المقالات، « والأقاويل » ان دواء ذلك « المريض » هو في أبتلاعنا ، عندها يكون مريضا بداء « انفلات الشهية » . وهو مرض معروف وشائع منذ الثورة الصناعية ، وما تبعها من تمركز في الصناعة والأنتاج ، الأمر الذي جعل الرأسمالية تعيش ما يعرف في التاريخ الاقتصادي « بأزمة فيض الأنتاج »[٥] ، أي عجز السوق المحلية عن أستهلاك البضائع المنتجة بحكم تفاوت نمو عناصر الأنتاج المختلفة ، فكان ان صدرت الرأسمالية ازمتها للخارج ، أن بشكل بضائع ، كما في عهد ما يسمى « الرأسمالية القديمة »[٦] أو تصدير رأس المال والبضائع معا ، كما في عهد الأمبريالية .

ان ازمة الرأسمالية حين تكون « مفلسة تنتج برادات ومكيفات ، وأدوية » ، أنما هو عدم قدرتها على تصريف مزيد من الأنتاج ، وبالتالي عدم أستغلال رأس المال المتراكم لديها ، بالشكل الذي يحقق لها أقصى الأرباح . وحل هذه الأزمة ، تاريخيا ، أو كما في وضع أسرائيل الآن ، أنما هو في أيجاد مفلس آخر ، ، بالضبط ، كالمفلس الذي تحدث عنه البروفسور شاحاك .

المفلس الغني والمفلس الفقير

الاسرائيلي « المفلس » ، والأفلاس هنا تعبير رمزي وحالة نوعية ، ليس بحاجة الى مفلس من نفس نوعيته ، بل الى مفلس من نوعية أخرى ، ولقد عرفت الأمبريالية دوما ، كيف تخلق قدرة شرائية ، وعادات أستهلاكية جديدة لدى الشعوب النامية ، نقول هذا ، وفي الذهن الحقيقة المعروفة عن العلاقات التي تنشأ بين مركز الامبريالية ومحيطها ، دول تتخصص بانتاج وتصدير السلع المصنعة واخرى بأنتاج المواد الخام وتصديرها ، وأستيراد السلع المصنعة . واذا كان لدى أسرائيل « برادات وأدوية ومكيفات » معروضة للبيع ، فلدى مصر

نفط ، وقطن وسكر . ويمكن لها ان تبادلها ، ولكن على قاعدة السوق الأمبريالية ، لأن الدول غير المتطورة والدول المتطورة تعيش ازمات ، ولكن « الجوع والبؤس في الأولى هما وليد أنتاج ضعيف التطور وجدب هائل في المنتجات . اما في النظام الرأسمالي فتأتي الأزمات عن طريق زيادة الأنتاج ، من فيض « نسبي » في البضائع المنتجة »(٧) .

سوء اللغة وسوء الفهم

« ثلاث » تتكرر في كل مقال ، او دراسة تكتب . التضخم ، التدهور في الميزان التجاري ، تخفيض سعر الليرة الزاحف ، وغير الزاحف ، دون خشية من تهمةالتسرع ، أو خرق أصول المنهج ، وأستباق النتائج ، أستطيع الأدعاء أن « الأمراض » التي تعاني منها اسرائيل دليل عافية أقتصادية والصلة بين التضخم وتدهور الميزان التجاري وسعر الليرة صلة جدلية ، وهدفها معالجة الأزمة من خلال تعميقها ، بكلمة أخرى ان التضخم الذي تعاني منه أسرائيل ، في هذه المرحلة بالذات،ليس نوعاً من « انفلات الغدد » بل سياسة اقتصادية حازمة تمارسها الحكومات الأسرائيلية المتعاقبة منذ ١٩٧٣ (منتصف ١٩٧٣ وليس بعد حرب تشرين). بكلمة اخرى ، فأن الأمراض الثلاثة هي في حدود سيطرة المخطط الأقتصادي الأسرائيلي . وهي مسألة مختلفة تمام الأختلاف عما اذا كانت مرضا مزمنا .

ان أصدار حكم بشأن « أمراض » اسرائيل الأقتصادية ، يستدعي البحث عن لغة صحيحة للتداول ، يستدعي البحث عن أسباب الظاهرة المرضية معرض الخلاف ، البحث في النتائج القريبة والبعيدة لها ، البحث في مقدار صلتها بما عداها من ظواهر مرضية ، ، وعما اذا كانت العلاقة التي تربط بين ظاهرة وأخرى علاقة المرض المترتب على مرض آخر ، أم العملية الجراحية التي يستدعيها مرض ما ، ومن هنا ضرورةالتمييز بين « الأنواع » المختلفة للتضخم .

التضخم والأنتفاخ

يعرف التضخم بأنه « أرتفاع عام في أسعار السلع وعناصر الأنتاج»(٨) «الذي ينتج عن أختلال العلاقة بين كمية الأنتاج المعد للأستهلاك وحجم الطلب عليها معبرا عن هذا بالقدرة الشرائية للمستهلكين . وبكلمة أخرى الحصول على كمية من السلع مقابل مقدار معين من النقود اقل من الكمية التي كان من الممكن الحصول عليها سابقا لقاء نفس الكمية من النقود . وفي هذه الحالة تلعب النقود كوسيط للتبادل دور« القيمة المختزنة »(٩)،أي أنهبدلا من الأحتفاظ بسيارة مثلا ، يحتفظ بما يعادل قيمتها نقداً ، وبذلك تؤدي النقود وظيفة تحديد قيمة السلع ، وحين ترتفع أسعار السلع ، فأن هذا لا يعني أن قيمتها الأستعمالية قد ازدادت ، بل يعني أن القدرة الشرائية للنقد قد انخفضت . وفي هذه الحالة يؤدي تخفيض العملة وتترتب عليه النتائج نفسها التي يؤدي اليها التضخم أي أنخفاض القدرة الشرائية للعملة المحلية ، ولكن مع فارق جوهري بين الوضعين : لأن أثر تخفيض العملة يمس بشكل مباشر علاقات البلد المعني مع الخارج ، وبشكل ثانوي وضع المستهلك ، في الداخل ، والعكس صحيح لناحية أثر التضخم حيث يقع أثره المباشر على وضع المستهلك في الداخل .

المرض الواحد وتعدد الأسباب واختلاف النتائج

لا خلاف حول التعريف العام للتضخم ، اي زيادة عرض النقود عن السلع المعدة للأستهلاك . ولكن هذا التعريف العام يستدعي البحث في أسباب زيادة عرض النقود ، وبكلمة أخرى قلة السلع المعروضة ، لأن معرفة السبب هو الذي يمكننا من معرفة نوع التضخم ، وبالتالي ، تحديد ما اذا كان ظاهرة صحية أم مرضية . مرض ، أم عملية جراحية لمعالجة المرض ؟ تلك هي المسألة .

النوع الأول من التضخم ، وهو النوع الأكثر شيوعا في البلدان المتخلفة ، هو التضخم الناتج عن زيادة الأنفاق الحكومي دون أن يترافق ذلك مع نمو نشاط اجتماعي من نفس المستوى ، وحيث لا يراعى عند أصدار النقود وطرحها للتداول القواعد العلمية المطلوبة لناحية وجود الغطاء المطلوب ، وعلى سبيل المثال ، أن تقرر الحكومة لأعتبارات سياسية محضة ، زيادة الأجور مثلا فتقوم بطبع كميات من أوراق البنكنوت ، وتطرحها في السوق ، مع بقاء المعروض من السلع ثابتا ، وحينئذ تشهد البلاد موجات تضخمية ، بهذه النسبة او تلك تبعا للنسبة التي مولت بها الميزانية بعجز . في مثل هذه الحالة ، لا يترافق التضخم مع نمو يذكر في الأنتاج القومي ، ولم تعرف أسرائيل في كل تاريخها الأقتصادي هذا النوع من التضخم .

النوع الثاني من التضخم ، هو الذي ينتج عادة عن زيادة الأنفاق على المجالات غير المدنية ، اذ كلما تزايد الأنفاق الحربي كلما أرتفع معدل التضخم حيث يبلغ الذروة ابان الحروب وما يرافقها من زيادة في الأجور والبدلات والتعويضات للجنود ، اضافة الى توجيه جزء من طاقة الأقتصاد نحو المجالات ذات المساس بالحرب ، وذلك على حساب المجالات المخصصة للأستهلاك المدني ، وهنا تلعب مدة ونتائج الحرب دوراً حاسماً ، في تحديد معدلات التضخم . وقد عانت اسرائيل من آثار هذا النوع من التضخم مع ملاحظة ان حرب ١٩٧٣ بحكم نتائجها ومدتها قد كانت لها آثار تضخمية لم تكن لحرب ١٩٦٧ ، حيث لم تعرف أسرائيل من جرائها تضخما غير عادي . تجدر الأشارة بهذا الخصوص الى ان زوال التضخم (الحرب ، تزايد المصروفات الأمنية) يؤدي حكما الى زوال النتيجة المترتبة على السبب ، أي التضخم نفسه .

النوع الثالث من التضخم الذي عرفه الأقتصاد الأسرائيلي هو ذلك النوع الذي يترافق عادة مع نمو في الأنتاج القومي ، وذلك بفعل توجيه مزيد من الموارد البشرية والمالية نحو بناء رأس المال التحتي ، من طرقات وسكك حديد وموانىء ومنشآت كهربائية ... الخ . وتزداد معدلات التضخم في هذه الحالة تبعا لحجم الخطة الاقتصادية ، موضع التنفيذ ، وبالتالي بحجم الموارد المكرسة لها ، ونسبتها من مجمل الموارد الأقتصادية للبلد المعني . وفي هذه الحالة ، لا يمكن أمتصاص الطلب/ عرض النقود ، دون آثار تضخمية بسبب من ان « السلع » المنتجة مقابل النقود المدفوعة/ المعروضة غير قابلة للشراء أو البيع الفردي ، واذ لا يعقل ان يشتري العامل شارعاً ، او قاطرة سكك حديد او جسراً .. أسهـــــم في انشائه/ انتاجه وقبض لقاء ذلك أجراً .

هذا النوع من التضخم ، وان كان عبئاً آنياً على المجتمع ، لكنه ذو قيمة مستقبلية هامة

جدا ، فبدون استكمال بناء رأس المال التحتي لا يمكن للمجتمع المعني ان يلج مرحلة التصنيع المتوسط او الثقيل .

لقد عرفت أسرائيل هذا النمط من التضخم في مرحلة ما قبل ١٩٦٦ ، وهي الحقبة التي نفذ فيها البرنامج التصنيعي الشامل الذي غطي بأموال التعويضات الالمانية الغربية[١٠]،ويمكن لنا ملاحظة ذلك من التذبذب الحاد في معدلات التضخم من مرحلة لأخرى كما يدلنا على ذلك الجدول التالي :

جدول بتغير الأسعار في الفترة بين
١٩٥٣ ـ ١٩٧٦ (أساس القياس العام السابق)

السنة	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩[١١]	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢
نسبة التضخم	٤٣٪	٢٤٪	١٣٪	١٥٪	١٦٪	٩٪	٢٪	٢,٣٪	٦,٨٪	٩,٤٪
السنة	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦[١٢]	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١	١٩٧٢
نسبة التضخم	٦,٦٪	٥,١٪	٧,٧٪	٨٪	١,٦٪	٢,١٪	٢,٥٪	٦,١٪	١٢٪	١٢,٩٪
السنة	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦[١٣]						
نسبة التضخم	٢٠٪	٢٩,٧٪	٢٩,٣٪	٣١,٣٪						

ويلاحظ من خلال الجدول السابق أن أعلى معدلات التضخم قد كانت للسنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ ، ولقد قيل بشأن العام ١٩٥٧ أنه الوقت الذي « أصبحت فيه المصانع الأسرائيلية جاهزة لأستقبال الآلات »[١٤] ،ولذا، فقد هبط معدل التضخم في السنوات اللاحقة بهذه النسبة أو تلك ، ولكنها لم تبلغ في أي من سنوات المرحلة الثانية المعدلات التي بلغتها في سنوات المرحلة الأولى ، وذلك عائد الى أختلاف طبيعة المرحلتين .

لقد ظهرت النتائج المستقبلية الهامة في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ ، اذ، وبالرغم من وقوع الحرب ، هبط معدل التضخم الى أدنى معدل له في تاريخ أسرائيل الأقتصادي حيث لم تبلغ النسبة سوى ١,٦٪ .

هبوط معدل التضخم ، بعد ١٩٦٧ ، هو الوجه الآخر للطاقة الأنتاجية العاطلة في الصناعة الأسرائيلية سنة ١٩٦٦ ، تلك الطاقة التي أمكن تشغيلها بفعل الموارد التي توفرت للأقتصاد الأسرائيلي أثر حرب ١٩٦٧ . لأن مزيداً من الأنتاجية ، ومزيداً من السلع المعروضة ، وهو ما حدث فعلاً ، سيعني بدرجة او بأخرى توازنا بين عرض النقود وعرض السلع وبالتالي أستقراراً نسبياً في الاسعار .

التضخم بفعل قرار سياسي

النوع الرابع من التضخم ، وهو ما تعاني منه أسرائيل حالياً ، هو التضخم الناتج عن قرار سياسي ، دون أن يكون لأعتبارات السوق المحلية ، دور أساسي فيه ، والحديث عن هذا الأمر ، هو بالأساس حديث عن السياسة الأقتصادية الجديدة التي تنفذها

الحكومةالأسرائيلية ، والتي هي أخطر بكثير ، ولها من الأغراض والنتائج الايجابية على الصعيد الوطني ، ما لا يقارن البتة بالآثار السلبية لموجات التضخم على صعيد المستوطن العادي .

قبل تناول هذه المسألة لا بد من الأشارة الى أمر ملفت للنظر ألا وهو التزايد الطفيف في الأسعار للسنوات الأربع التي تلت حرب ١٩٦٧ ، والذي ترافق مع تزايد في الأنتاج القومي بنسب تكاد تكون قياسية ، ونلحظ في نهاية السنوات الأربع هذه آثار حرب الأستنزاف ، وتنامي قطاع البناء ، ان بفعل تزايد معدل الهجرة والطلب على المساكن ، أو لأعتبارات صناعية اخرى ،ولذا فقد عادت معدلات التضخم الى الأرتفاع ثانية ، الى ان بدأت جنونهـا سنة ١٩٧٣ وتابعت صعودها بنسب كانت تتزايد من عام لآخر . ولكن جنون الأسعار هذا ترافق مع جنون من نوع معاكس اصاب الميزان التجاري الأسرائيلي .

ثمة « أصرار » من قبل بعض وسائل الأعلام على تدهور وضع الميزان التجاري الأسرائيلي وميزان المدفوعات،اذارتفع العجز من حوالى مليار دولار في عام ١٩٧٢ الى ملياري دولار سنة ١٩٧٣ والى ٣,٥ مليارات سنة ١٩٧٤ »[١٥] . رقم مخيف ، ولكن !

حسنا ، لنتابع القراءة ، التاريخ لم يتوقف سنة ١٩٧٤ ، نحن في عام ١٩٧٩ ، خمس سنوات كافية لأن تعتبر مرحلة كاملة ، من الضروري على الأقل ان نعرف ما شهدته من تطورات . لو تابعنا قراءة الأرقام والسنوات لأكتشفنا أن العجز سنة ١٩٧٥ قد بلغ ٢٠٢٨ مليون دولار (اقل من سنة ١٩٧٤) انخفض ثانية سنة ١٩٧٦ الى ١٥١٣ مليـون دولار ... [١٦] .

خداع الأقام واخطار الخلط/ بين علم الحساب وعلم الأقتصاد

كي لا نقع في خداع الأرقام ، ونسهم عن حسن نية في نشر « الوعي الزائف » او في « الحملة المضادة من الوعي الزائف ايضا ».

علينا بالتساؤل عن ايهما أكبر « مليار دولار » سنة ١٩٧٢ أم مليار دولار و نصف سنة ١٩٧٦ ؟ حسابيا ، الجواب معروف سلفا ، ولكن اقتصاديا ، وبفعل التضخم الذي شهده العالم الرأسمالي عموما ما بعد ١٩٧٣ ، فأن القدرة الشرائية لمليار ونصف مليار دولار سنة ١٩٧٦ لا تساوي القدرة الشرائية لمليار دولار سنة ١٩٧٢ . في هذه الطريقة يعمم « الوعي الزائف » وحيث يقاس علم الأقتصاد بمعايير علم الحساب ، فالنقود كوسيلة لأختزان القيم ، ووسيط للتبادل تستمد أهميتها من موقع الطرف صاحب العلاقة ، وعما اذا كان دائنا أم مدينا ، مالكا للنقد كقيمة مختزنة ، أم سلع ، كقيمة أستعمالية بحد ذاتها ، لا يؤثر التضخم على قيمتها ، لكنه يسهم في رفع كمية النقود (السعر) التي يجب ان تدفع لقاء الحصول عليها . وهنا يمكن لنا ان نتساءل هل سيكون مطلوبا من أسرائيل أو غيرها سنة ١٩٧٦ نفس المقدار من السلع والخدمات التي كانت ستقدمها سنة ١٩٧٢ لقاء نفس المبلغ الذي يستحق عليها في السنتين المذكورتين ؟ قطعا لا ، وهذا هو السبب الذي دفع أحد المسؤولين الصهاينة لطمأنة المتخوفين من أرتفاع مديونية أسرائيل للخارج ، بقوله : « من جراء التضخم ، سندفع مقابل ديوننا سلعا اقل » ، وهذا يفسر لنا ولو جزئيا هبوط أحتياطي العملات الأجنبية في

اسرائيل ، وبالذات في السنوات الأخيرة ، رغم تحسن الصادرات وبقاء المساعدات الخارجية على نفس معدلها السابق .

جنون ايجابي وآخر سلبي

ترافق جنون التضخم كمظهر سلبي مع مظهر ايجابي آخر ، هو تحسن مضطرد في الميزان التجاري كما يدلنا عليه الجدول التالي :

جدول بصادرات وواردات اسرائيل
لجميع انحاء العالم والنسبة بينهما (بملايين الدولارات)

السنة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦[١٧]	١٩٧٧[١٨]
الصادرات	٢٠٣٩,٥٠٨	٢٢٠٢,٢١٥	٢٦٩٩,٢٨١	٣٤١٦,٤
الواردات	٤٢٨٣,٧١٤	٤٢٣٠,٢٦٢	٤٢١٢,٦٥٧	٤٩١٥,٢
نسبة الصادرات للواردات	٪٤٧,٦	٪٥٢,١	٪٦٤,١	٪٦٩,٥

جدول بصادرات وواردات اسرائيل والنسبة
بينهما لجميع انحاء العالم والمناطق المحتلة ١٩٦٧
(بملايين الدولارات)

السنة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨
الصادرات	١٧٣٧,٣٨٤	١٨٣٤,٥٦٣	٢٣٠٦,٥٦٠[١٩]	٣٠٨٣,٢[٢١]	٣٧١٨,٢
الواردات	٤١٧٦,٥٤٣	٤١٠٨,٦٨٤	٤٠٦٨٥٨٧	٤٨٤٥,٢	٥٦١٩,٢
نسبة الصادرات للواردات	٪٤١,٦	٪٤٤,٧	٪٥٦,٧[٢٠]	٪٦٣,٦	٦٦,١[٢٢]

مقابل كل مئة دولار ، واردات اسرائيلية ، كانت تصدر اسرائيل سنة ١٩٧٤ ، ٤٧,٦ دولاراً . سنة ١٩٧٨ أرتفع الرقم الى حوالي ٧٢ دولاراً بفارق ٢٤,٤ دولاراً خلال خمسة أعوام .[٢٣] سنة ١٩٧٦ ، هبط رقم الواردات عما كان عليه سنة ١٩٧٥ بـ ١٨ مليون دولار ، لكن رقم الصادرات أرتفع خلال نفس العام بحوالي ٥٠٠ مليون دولار .

٥٠٠ مليون دولار زيادة في الصادرات خلال عام واحد . العجز سنة ١٩٧٦ كان ١٥١٣ مليون دولار ، ترى فيما لو حافظت زيادة الصادرات على الوتيرة نفسها ، ألا يعني هذا أن اسرائيل خلال ثلاثة أعوام ستكون في وضع متوازن : الصادرات تساوي الواردات ؟ اذا لقد كان من الضروري أن نتابع القراءة لما بعد ١٩٧٤ !

ثمة تساؤل ، ولكن ما زال هنالك عجز تجاري ، كلام صحيح ، ولكن الفجوة تضيق

بأستمرار بين الصادرات والواردات ، وليس لنا أن نرى العجز ، دون أن نلاحظ تسارع نمو الصادرات وبالنسب المشار اليها .

ما تقدم يضعنا في مأزق ، مأزق ناتج عن تناقض دلالات الجداول الخاصة بالتضخم ، وجنون الأسعار ، ودلالات نمو الصادرات ونسبتها للواردات . مأزق لأن التضخم يعني « نقصا » في السلع . وتحسن الصادرات يعني « زيادة » في السلع . التناقض ناتج عن منطق شكلي يحكم علاقة التضخم بالعجز في الميزان التجاري . ولا يعود ثمة تناقض فيما لو وضعت المسائل في أطارها العلمي الصحيح ، فيما لو حددت الأولويات ، فيما لو أوضحت السياسة الأقتصاديةالمتبعة .

استهلاك الأنتاج أم تصديره ؟

سبق لنا الأشارة الى تناقض ظاهرة التضخم التي تعني نقصا في السلع مع ظاهرة زيادة الصادرات ، التي تعني زيادة في السلع ، « النقص » كان في السلع المخصصة للسوق الداخلية ، « والزيادة » كانت في السلع المخصصة للسوق الخارجية . وأية زيادة في مخصص السوق الأولى لا بد وأن تكون على حساب ما يخصص للسوق الثانية . هذه قاعدة بديهية من قواعد علم الأقتصاد ، وأسرائيل تعمل بموجبها منذ سنة ١٩٧٣ . قاعدة تنطبق على اسرائيل ، كما تنطبق على الولايات المتحدة ، كما على الاتحاد السوفياتي ، كما على اي دولة اخرى . قاعدة بديهية ، لأن هنالك ندرة في الأقتصاد ، ولو أطلقت الرغبات الشرائية لما أمكن سدها ولذا ففي حالة الدولة ، كما هو في حالة الفرد العادي ، لا بد من التوفيق بين الحاجات المتناقضة ، وتوزيع الموارد المتاحة حسب الأولوية .

في أسرائيل كان التناقض بين تخصيص كل الأنتاج للأستهلاك المحلي ، أو تصدير نسب متزايدة من الأنتاج،وذلك يكون عادة على حساب الأستهلاك المحلي ، وهو أمر يؤدي حكما للتضخم .

كان القرار الأسرائيلي اختيار طريق الأستقلال الأقتصادي ، من خلال رفع نسبة صادراته لوارداته . ما كان من الممكن ، سلوك ذلك الطريق الا على حساب المستهلك في الداخل . سياسة سليمة لأنه من الأولى الضغط على النفس ، لتخفيف الدين ، والحاجة للخارج . وعلى سبيل المثال فقد زادت صادرات اسرائيل سنة ١٩٧٦ قياسا للعام ١٩٧٥ بـ ٤٩٩,٥ مليون دولار وخفضت الواردات بـ ١٧,٦ مليون دولار،أي أن العجز التجاري قد خفض بـ ٥١٧,١ مليون دولار.اي انه قد أقتطع من السوق الأسرائيلية سلعا تساوي المبلغ المذكور ، أي نقص في السلع ، وبالتالي تضخم . السؤال ، فيما لو أن اسرائيل قد قررت عدم زيادة صادراتها وابقاء العجز التجاري على ما كان عليه في العام السابق فمما لا شك فيه أن التضخم كان سيقل ، وان لم نقل سيتلاشى .

التصدير أو الموت

سنة ١٩٧٣ ، وأثر انعقاد المؤتمر الأقتصادي الثالث ، لخصت صحيفة « الجيروزاليم

بوست » مهمة المؤتمر بالشعار الذي اطلقته بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية وهو «التصدير أو الموت »[٢٤]. الأمر ليس بهذه الخطورة ، فالهدف منذ سنة ١٩٦٩ : « ان نزيد الصادرات بمعدل ١٥٪ سنويا ونبقي وارداتنا بنسبة ١٠٪ » لماذا ؟ اجاب دافيد هوروفيتش حاكم البنك المركزي السابق ، اذا حدث هذا « فسنحقق استقلالنا الأقتصادي خلال عشر سنوات »[٢٥]. قبل ذلك وصفت جويش اوبزرفر هدف المؤتمر الأقتصادي التحضيري الذي عقد سنة ١٩٦٧ بانه لـ « أسداء المشورة الى دولة اسرائيل حول أفضل السبل للتوصل الى هدفها الأقتصادي بالأكتفاء الذاتي »[٢٦] ، وقد كانت هذه المسألة محط اهتمام المؤتمر الأقتصادي الثاني والثالث كما سبقت الأشارة .

أن قراءة دقيقة في الميزان التجاري الأسرائيلي ما بعد ١٩٧٠ تبين لنا ان الفجوة بين الصادرات والواردات ، تهبط بأستمرار ، ما عدا عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤ حيث هبطت النسبة لكنها عادت للصعود ثانية كما سبق لنا الأشارة . وذلك رغم ان عدد السكان قد تزايد من ٣,٠٢٢ مليون سنة ١٩٧٠ الى ٣,٥٧٥ مليون سنة ١٩٧٦[٢٧] اي بفارق يبلغ ٥٥٤ ألف نسمة . وهؤلاء طاقة استهلاكية جديدة لا بد من ان توفر أحتياجاتهم ، وأن يخصص لهم نصيبهم من السلع المنتجة .

التضخم ومظلة الحرب

لم تتعود اسرائيل تبديد الفرص ، تلك حقيقة يجب الأقرار بها . وجدت في حرب تشرين مناسبة ملائمة لتطبيق سياستها الأقتصادية المقرة قبل الحرب ، والتي تقضي بزيادة الصادرات . لقد قررت ان تلعب أوراقها جميعا ، دفعة واحدة .

الورقة الأولى ، كانت معدلات التضخم العالية التي ترتبت على حرب تشرين ، وهي ظاهرة طبيعية ترافق الحروب عادة ، وقد سبق لنا الأشارة اليها . ارتفع معدل التضخم سنة ٧٣ الى ٢٠٪ ، عاد للأرتفاع ثانية سنة ١٩٧٤ الى ٣٩٪ واستمر منذ ذلك الحين ولم يتوقف .

حسنا ، حرب تشرين أفرزت تضخما ، ولكن الحرب انتهت. مرة اولى سنة ١٩٧٥ ، بفك الأشتباك الثاني ، مرة ثانية سنة ١٩٧٨ بزيارة السادات . سنة ١٩٧٩ بتوقيع معاهدة استسلام السادات لأسرائيل . ذهبت الحرب وبقي التضخم ، أستمر بفعل السياسة المرسومة سلفا ، وما قبل الحرب التي أتت لتشكل غطاء مناسبا ، لكي تنفذ السياسة التضخمية بهدف زيادة ما يخصص للخارج ، وعلى حساب الأستهلاك الداخلي . وقد أشار موشي زنبار حاكم البنك المركزي سنة ١٩٧٣ الى أن « السياسة الأقتصادية ينبغي ان تهدف الى القاء العبء الأساسي على الأستهلاك الفردي والمحافظة على أقصى سرعة للزيادة في الصادرات »[٢٨]. ولقد كانت « سياسة تشجيع التصدير وتخفيض الأستيراد » محل أتفاق اقتصاديي المعراخ والليكود حيث قدموا الحلول نفسها مقترحين «أعانة للمصدرين ورفع اسعار الواردات» [٢٩] وذلك أنسجاما مع الدعوة الى التصرف انطلاقا من الأولوية في جميع المجالات هي بهدف زيادة الصادرات[٣٠]. كان هذا هو عنوان البرنامج الأقتصادي ، ولم تكن لدى الأسرائيليين اوهام حول أن « جميع البنود الأخرى في البرنامج الأقتصادي مشروطة بتخفيض القدرة الشرائية لدى الجمهور »[٣١] وهي الدعوة نفسها التي عبر عنها دافيد هوروفيتش الحاكم السابق لبنك اسرائيل

حيث قال في ١٦ آذار ١٩٧٢:« يجب تقليص القوة الشرائية العامة في البلد »[٣٢]،بكلمةاخرى ، الدعوة الى اتباع سياسة تضخمية .

لم يكن ممكنا زيادة الصادرات ، الا على حساب كبح الأستهلاك الفردي . كانت الأمكانيات التسويقية أغراء كبيراً لأسرائيل فمنذ ١٩٦٨ اعلن نائب وزير المال الأسرائيلي ان « مجالات التسويق اكثر مما نستطيع ان نغطيها...»[٣٣] ، سنة ١٩٧٨ ، كانت المشكلة هي ذاتها فـ« هنالك عدة طلبات لمنتوجات صناعية الى بلدان خارجية بقيمة نصف مليون دولار لا تستطيع المصانع في أسرائيل انتاجها ... »[٣٤] .

تقليص القوة الشرائية للجمهور يكون عبر وسائل متعددة ، اسهلها واسرعها تأثيراً ، رفع الأسعار بفعل التضخم ، وابقاء الزيادة في المداخيل أقل من زيادة الأسعار ، وبذا يحصل المستهلك على سلع أقل مما يحصل في السابق . ما يمكن توفيره من سلع أن بسبب التضخم أو بسبب زيادة الأنتاج يوجه للخارج لتحسين الصادرات ... وهذا ما حدث .

السياسة الأسرائيلية المشار اليها ، كان الأستاذ الدكتور يوسف شيل قد توقعها منذ سنة ١٩٧٠ حين عدد البدائل التي قد تلجأ اليها اسرائيل لحل مشاكلها الاقتصادية فوضع « خفض حجم الأستهلاك للجمهور لتخفيف العبء على الميزان التجاري »[٣٥] في رأس المقترحات ـ البدائل التي أفترض حدوثها . الأمر الذي يمكننا من القول ان السياسة التضخمية التي لجأت اليها اسرائيل ، سواء في عهد المعراخ او الليكود ، هي السياسة المنسجمة مع المعايير الأقتصادية السليمة والتي يعتقد بها اقتصادي عربي بارز .

الهجرة ومستوى المعيشة والتضخم

كانت لدى المخطط الأقتصادي الأسرائيلي ورقة ثانية ، أستغلها جيدا ، وأعطته امكانية كبيرة للضغط على مستوى الأستهلاك الفردي في اسرائيل ، دون أن يكون لهذا الضغط مضاعفات خطرة ، لأنه سرعان ما يتبادر للذهن موضوع « مستوى المعيشة المرتفع » كشرط لتدفق الهجرة . ومن هنا كانت المقولة المعروفة ، عن انه « بدون هجرة لا توجد اسرائيل ، وبدون مستوى معيشة مرتفع لا توجد هجرة »[٣٦] ، ومهما قيل في نسبية هذه المقولة فمما لا شك فيه ان لها دوراً في أتباع اسرائيل لـ « سياسات اقتصادية مجافية للمنطق الأقتصادي[٣٧] وبأعتبار « ان الأجراء الأقتصادي السليم قد لا يكون اجراء سياسيا سليما[٣٨] » فأن « المعايير الاقتصادية كانت تتراجع أمام المعايير الأيديولوجية عند ظهور تناقض بينهما[٣٩] . ولذلك فان الأجور التي كانت تدفع كانت تفوق الأنتاجية الحدية للقوى العاملة »[٤٠] لهذا السبب فأن الاستقلال الأقتصادي وتعديل وضع الميزان التجاري ، يصبح ممكنا فيما لو كان هنالك أستعداداً للتضحية . بمعدلات الأستهلاك العالية ، ولكن هل معدلات الأستهلاك عالية ؟ نعم ، أن مستوى المعيشة في اسرائيل ومنذ سنة ١٩٦٨ « اعلى من مثيله في ايطاليا وهولندا والنمسا »[٤٢] لماذا ؟ لأن « الحفاظ على مستوى المعيشة المرتفع ضمان للأمن القومي »[٤٣] ، لهذا السبب حرصت اسرائيل وحتى سنة ١٩٧٣ على عدم المساس بمستوى

المعيشة ، بل واكثر من ذلك فقد كان « راتفاع الأجور في بعض الأحيان اكبر من ارتفاع الأسعار » . (٣٪ ارتفاع الأجور : ٢٪ أرتفاع الأسعار)[٤٤] .

سنة ١٩٧٣ ، / ١٩٧٤ ، كان لدى المستوطن الصهيوني مستوى معيشة جيد ، كان الجو السياسي مؤاتيا لأطلاق جنون التضخم ، وكانت السياسة الأقتصادية ومنذ أيار ١٩٧٣ واضحة ، تخفيض الأستهلاك الداخلي وزيادة الصادرات ، لذا فقد كان رأي موشي زينار حاكم البنك المركزي « يجدر تخفيض مستوى المعيشة »[٤٥] . دان بنتكن أستاذ الأقتصاد في الجامعة العبرية ، اعتبر « خفض مستوى المعيشة سابقة لا مثيل لها في تاريخ الأقتصاد الأسرائيلي » ولكن هل ثمة خطر ؟ كان جواب بنتكن « الأقتصاد الأسرائيلي أستطاع من سنة لأخرى رفع مستوى معيشة السكان بنسبة ٥٪ وأكثر . الأرتفاع الدائم في مستوى المعيشة في الماضي وخصوصا منذ سنة ١٩٧٠ يوفر لنا ، من ناحية أخرى ، ما هو بمثابة الأحتياطي الذي يمكننا من أمتصاص الخفض اللازم في مستوى المعيشة الآن ، دون الوصول الى وضع خطر لا يمكن أحتماله »[٤٦] .

كان دان بنتكن يعرف مقدار « الدهن » الذي على جسد المستوطن الصهيوني.كان يعرف ان الضغط هو في حدود التحمل . لذلك ، وابان المظاهرات التي نظمها الهستدروت احتجاجاً على اجراءات حكومة الليكود اتضحت معاني وحدود الضغط والعب' الذي وقع على المستوطنين الصهاينة . احد المتظاهرين كان يدعى « دافيد يحزقيل » قال : « كنت اتدبر اموري بصعوبة قبل زيادة الأسعار ، اما الآن فقد تحطمت تماماً » ! ترى ما يعني بـ « تحطم تماماً ؟ . اضاف « هناك نفقات ومصروفات للملابس ، وليس بأستطاعتي ان لا البس اولادي جيداً ، هذا يؤثرعلى معنوياتهم... ماذا اقول لك ،.. بؤس كامل ، ان زيادة الأسعار الأخيرة كسرتنا تماماً »[٤٧] .وليفي بدورهما تظاهرا ايضا ، قالا انهما يقيمان في شقة من ثلاث غرف نوم لديهما سيارة قديمة ، لكن لماذا يتظاهران ؟ ليفي اجاب على سؤال مراسل الأذاعة : « ان الحياة صعبة ، وخاصة بالنسبة للنزهات فانها تكلف كثيراً » ، زوجته مريام سئلت ، هل أثر ذلك على حياتكم وعلى طعامكم ، مريام اجابت :« بالنسبة للطعام لا ، لكني اعمل حسابي ، بدل ان اشتري لبنة اشتري لبنا ، بدل ان اشتري خبزا فاخراً اشتري خبزا عادياً »[٤٨] .

ان الأشارة لما تقدم أنما هي بغرض تبيان طبيعة المشاكل المعيشية التي قد يجابهها المستوطن الصهيوني ، والتي هي مشاكل مواطن دولة صناعية متقدمة ، لها نمطها في الأستهلاك والمتطلبات ، حيث تتزايد الكماليات التي تنتقل الى مصاف الضروريات ، ومن هنا لا يجوز البتة قياس المشاكل المعيشية في اسرائيل بمقاييس دولة نامية، نظرا لأختلاف المتطلبات ، وعادات الأستهلاك، وبالتالي الخط الأحمر الذي يجب أن لا تتجاوزه عملية التخفيض، وبكلمة أدق عدم تحسين مستوى المعيشة .

وفي هذا الأطار لا بد لنا من تسجيل تحفظ ، وذلك تجنبا لسوء الفهم ، ان هذه الدراسة لا تستطيع تناول المشاكل الأجتماعية والمعيشية الا في اطارها العام ، وفي حدود تماسها مع موضوع التضخم الذي هو محور هذه الدراسة ، هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى ، فان مضامين كلمة « مستوى معيشة » تحتمل سوء فهم كبيراً ، كما هو حال تعبير التضخم ، حيث

تبين لنا تعدد الأسباب التي قد تؤدي اليه ، أو النتائج التي تترتب عليه ، والتي تختلف جذريا بين حالة واخرى .

تخفيض سعر الليرة وعلاقته بالتضخم والعجز في الميزان التجاري

سبق لنا الاشارة الى ان محور الخطة الاقتصادية الأسرائيلية كان تحسين وضع الميزان التجاري ، وبالتالي فقد مارست اسرائيل سياسة تضخمية بغرض كبح الأستهلاك الفردي وتوجيه مزيد من السلع المنتجة نحو التصدير ، تساوي ، اهمية الزيادة في الصادرات تخفيض الواردات ، وبتقليل حجم الطلب على السلع المستوردة ، ومن أبرز الوسائل التي يمكن ان يتم اللجوء اليها ،رفع أسعار الواردات . وهي مسألة يمكن الوصول اليها من خلال رفع نسبة الجمارك المفروضة على الواردات او تخفيض سعر صرف العملة بالقياس للعملات الاخرى ... ولكل من الخطوتين آثارهما المختلفة لناحية حدود تأثيرها والمجالات التي تمسها .

ان فرض رسم جمركي يساوي ١٠٠٪ من قيمةالسلعة المستوردة يضاعف من سعرها ، ولكن رفع الرسم الى ٢٠٠٪ يضاعف سعرها مرتين ، ويخفض مقدار المستهلك منها حجم الطلب عليها ، وبالتالي تنخفض الواردات . لهذه السياسة آثار جانبية ضارة على صعيد الصادرات ، حيث يترافق هبوط الواردات مع هبوط مشابه في الصادرات ، وذلك لأن فرض جمارك عالية على الواردات ، لا بد وان تقابل بحواجز جمركية من نفس المعدل من قبل الدول الأخرى التي تصدر لأسرائيل لكنها في الوقت نفسه مستوردة للبضائع الاسرائيلية .

أضافة لذلك فأن هنالك أتفاقيات عامة تنظم وضع التجارة الدولية ، كما أن هنالك أتفاقيات خاصة تربط بين أسرائيل وبعض الكتل الأقتصادية الهامة في العالم (السوق المشتركة) ، أتفاقيات ، رغم التسهيلات المؤقتة ، وفترة السماح المعطاة لأسرائيل لناحية الأحتفاظ بالحواجز الجمركية على وارداتها لفترة معينة ، فان اسرائيل مضطرة ،وبموجب الأتفاق المذكور الى رفع تلك الحواجز في نهاية المطاف .

لذا فقد كان الأفضل ، آنيا ومستقبليا معا ، ولمصلحة الصادرات والواردات على السواء ان تلجأ إلى خيار آخر الا وهو تخفيض مقدار سعر صرف العملة الأسرائيلية قياسا للعملات الأخرى ، او ما يعرف بتخفيض قيمة العملة ، رغم ما يحتمل هذا التعبير من دلالات خاطئة يتجنبها التعبير الأول . وهنا وكما هو شأن التضخم ، لا يجوز الخلط بين الأسباب المختلفة والمتعددة للقرارات الأسرائيلية المتعاقبة بتخفيض سعر صرف الليرة الأسرائيلية .

١ ــ التخفيضات الأولى التي لحقت بسعر الليرة الأسرائيلية كانت تابعة ومنسجمة مع التخفيضات التي أجريت على الجنيه الاسترليني والدولار الأميركي ، وبحكم أرتباط الليرة الأسرائيلية بأسواق هاتين العملتين،تصديراًوأستيراداً، فقد كان على أسرائيل ان تخفض سعر صرف عملتها بنفس النسب التي خفضت بها تلك العملات ، وذلك حفاظا على مواقعها في أسواق تلك البلدان (٤٩) .

٢ ـ النوع الثاني من التخفيضات والتي عرفت بـ « التخفيض الزاحف » والذي بدأ مع المعراخ واكتمل مع الليكود ، كان هدفه ليس تثبيت وضع الصادرات والواردات . بل تحسين الأولى ، وتخفيض الثانية.كيف ؟

أرتفاع سعر صرف الليرة من ١٠ ليرات اسرائيلية مقابل الدولار الواحد الى عشرين ليرة أسرائيلية ، يعني على صعيد الواردات ان المستهلك الأسرائيلي سيدفع مقابل سلعة اميركية دولاراً واحـد ، اي ١٠ ليرات أسرائيلية في الوضع الأول و ٢٠ ليرة اسرائيلية في الوضع الثاني.

والعكس صحيح على صعيد الصادرات حيث سيدفع المستهلك الاميركي دولاراً واحدا لشراء سلعة اسرائيلية قيمتها ٢٠ ليرة اسرائيلية بناء على السعر الجديد،في حين كان سيدفع دولارين بناء على السعر القديم ، وذلك على افتراض ان سعر صرف الدولار قد بقي ثابتاً .

ان ما تقدم يعني أن المستهلك الأسرائيلي سيدفع مبالغ أكبر من النقود الأسرائيلية مما كان يدفع في السابق لقاء الحصول على نفس السلعة . وذلك دون أن تكون الدولة مضطرة لرفع نسبة الجمارك على وارداتها . وبذا تلعب مسألة تخفيض العملة الدور الذي يؤديه التضخم .

من ناحية ثانية ، تؤدي عملية تخفيض سعر صرف العملة ، الدور الذي كانت تؤديه سابقا» اعانات التصدير » والتي كانت تدفع بواقع ١٠٪ من قيمة الصادرات(٥٠) . أي ان المصدر يحصل على قيمة صادراته عن طريقين : سعر البيع في الأسواق الخارجية ، وأعانة التصدير التي تدفعها الدولة للمصدر . ولكن اسرائيل لم تعد قادرة على تقديم أعانات تصدير للسلع المصدرة لأسواق دول السوق الأوروبية المشتركة، لاعتبارات تتعلق بقوانين السوق المشتركة التي تحرم الا في حدود استثنائية تقديم دعم لبعض السلع المصدرة بين دولها ، وهي محصورة في السلع الزراعية .

من خلال رفع سعر صرف العملات الأجنبية، بالقياس لليرة الأسرائيلية،يعود على المصدر الأسرائيلي عائد من الليرات الأسرائيلية ثمنا للبضائع المصدرة اعلى من العائد/الثمن الذي كان يعود عليهم من اساس سعر الصرف القديم،وبهذه الطريقة تتلاف أسرائيل الآثار المترتبة على الغاء الحواجز الجمركية على وارداتها ، وتوقفها عن منح أعانات تصدير لبضائعها المصدرة .

في هذا الخصوص تجدر الأشارة الى أن مسألة تخفيض سعر صرف الليرة الأسرائيلية بشكل زاحف قد بدأ تنفيذه منذ سنة ١٩٧٥ ، وفي عهد المعراخ ، وقيام حكومة الليكود بتخفيض سعر الصرف مرة واحدة ، وبمعدلات كبيرة ، لا ينفصل البتة عن بدء سريان الشق الصناعي من اتفاق اسرائيل والسوق المشتركة ، حيث فتحت أسواق الأخيرة امام الصادرات الأسرائيلية .

أن مراقبة تطور وضع الليرة الأسرائيلية والتضخم ، ووضع الميزان التجاري الأسرائيلي يشير الى أن اسرائيل قد تمكنت من تحقيق الهدف المعلن لسياساتها وخططها الأقتصادية الموضوعة منذ سنة ١٩٧٣ ، والقائمة على اعطاء الاولوية لزيادة الصادرات وتخفيض الواردات ، على طريق تحقيق قدر من التوازن في ميزانها التجاري حتى ولو كان ذلك ولفترة معينة على حساب كبح الأستهلاك الفردي . وهي تضحية مقبولة ، وسعر مناسب جدا لكي ترتفع نسبة الصادرات للواردات من ٤٧,٦٪ سنة ١٩٧٤ الى حوالي ٧٠٪ سنة ١٩٧٧ .

الخيار الصعب والحل البديل

ان لجوء اسرائيل الى خيار صعب مهما قيل في شأنه ، خيار بين التضخم الذي لا بد وان يمس حكما مستوى المعيشة ، وبين استمرار العجز في الميزان التجاري ، لا يعني ان باب الخيارات قد اغلق . هنالك طريق آخر هو زيادة الأنتاج بما يغطي فرص التصدير للخارج وحاجات الأستهلاك الداخلي في آن معاً ، حيث لا يكون تخصيص مزيد من السلع للأسواق الخارجية على حساب الطلب الداخلي .

الخيار الجديد يبدو في الأفق مع السلام ، مع أحتمال تدفق اليد العاملةالرخيصة من جديد ... فهنالك طلبات لمنتوجات صناعية الى بلدان خارجية بقيمة نصف مليار دولار ، لا تستطيع المصانع في اسرائيل انتاجها وتزويدها بسبب النقص في الطاقة البشرية »(٥٨) . التاريخ ربماينكرر. ربما نعود لسنة١٩٦٧ والفرص الجديدة التي اتيحت للأقتصاد ذلك العام . حينذاك ربما تحقق اسرائيل سنة ١٩٧٩ سلما ، ما كانت قد حققته سنة ١٩٦٧ حربا .

الحواشي

(١) فارس غلوب ، جريدة **السفير** البيروتية ، عدد يوم ١٩٧٩/٣/٣١ ص ١١ .

(٢) **شؤون فلسطينية** ، عدد شباط/آذار ١٩٧٩ رقم ٨٨/٨٧ ، ص ٦٧

(٣) **المصدر نفسه** .

(٤) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٤ .

(٥) راجع : **دراسات في الاقتصاد ، أسلوب الانتاج الرأسمالي** ، بيروت ، دار الفارابي ، لا تاريخ للنشر ، راجع « الأزمات الأقتصادية ـ اساس ازمات فيض الانتاج » حيث تشير الدراسة الى ان « الأزمات الرأسمالية هي أزمات فيض انتاج ، وأول ما تظهر به الأزمة هو كساد البضائع التي انتج منها اكثر مما يمكن ان يستوعبه المستهلكون الرئيسيون ... » .

(٦) « الرأسمالية القديمة » ، هي رأسمالية المزاحمة الحرة . والطور ما قبل الأخير في تحول الرأسمالية الى امبريالية . راجع . لينين ، **الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية** ، موسكو ، منشورات دار التقدم سنة ١٩٧٠ ، ص ٥٥ .

(٧) فوربيه ، **نصوص مختارة** ، باريس ، سلسلة المطبوعات الشعبية اصدار دار المنشورات الاجتماعية ، ١٩٥٣ ، ص ١٠٥ ، ذكرها كتاب اسلوب الأنتاج الرأسمالي ص ١٩١ .

(٨) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥٤و دكتور محمد زكي الشافعي ، **مقدمة النقود والبنوك** ، بيروت دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٠ ، المبحث الثالث ، ص ٧٣ .

(٩) شافعي ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٥ .

(١٠) حسين ابو النمل **بحوث في الأقتصاد الاسرائيلي** ، بيروت مركز الأبحاث ، ١٩٧٥ ، ص ـ ٥ ـ ٥١

(١١) **الاحصائيات الاسرائيلية** ، سنة ١٩٦١ ص ٣٣٩ ، وذلك للسنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٩ .

(١٢) **المصدر نفسه** ، سنة ١٩٦٧ ص ٢٤٠ وذلك للسنوات ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ .

(١٣) **المصدر نفسه** ، سنة ١٩٧٧ ، ص٢٣٤.

(١٤) ابو النمل ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٥) **السفير** ، **مصدر سبق ذكره** .

(١٦) **الاحصائيات الأسرائيلية** ، سنة ١٩٧٧ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(١٧) **المصدر نفسه** ، سنة ١٩٧٧ ص ١٨٤ ـ ١٨٥

(١٨) **المصدر نفسه** لسنة ١٩٧٨ ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(١٩) **المصدر نفسه** سنة ١٩٧٧ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٢٠) النسب مستخرجة .

(٢١) **النشرة الشهرية للأحصائيات الأسرائيلية** ، عدد ديسمبر ١٩٧٨ ، ص ٣٢ .

(٢٢) **المصدر نفسه** ، شباط ١٩٧٩ ص ٣٠ .

(٢٣) البيانات بشأن تجارة اسرائيل الخارجية لسنة ١٩٧٨ تنقصها تجارة اسرائيل مع المناطق المحتلة ١٩٦٧ ، ومن خلال البيانات المتوفرة عن السنوات السابقة يتضح ان المناطق المحتلة ١٩٦٧ ترفع نسبةالصادرات للواردات. بحد ادنى يبلغ ٧٪

وعلى هذا فقد اضيفت لنسبة ١٩٧٨ (مع جميع انحاء العالم عدا المناطق المحتلة ١٩٦٧) حيث امكننا التوقع ان انحد الأدنى لنسبة الصادرات للواردات كانت ٧٢٪ (٦٦,١٪ ــ ٥,٩ ٪).

(٢٤) ذكرتهـــا نشرة **مؤسسةالـــدراسات الفلسطينية** ، سنة ١٩٧٣ ، عن جيروزاليم بوست ١٩٧٣/٣/٢ ص ٢٨٩.

(٢٥) **المصدر نفسه** ، عن جيروزاليم بوست عدد يوم ١٩٦٩/٧/١ ، وذلك في المجلد ١٩٧٣ ، ملحق العدد ٩ ، ص ٢٨٥ .

(٢٦) **المصدر نفسه** ص ٢٨٠ ، عن جويش اوبرزفر ، عدد يوم ١٩٦٧/٨/١٨

(٢٧) **الاحصائيات السنوية** لسنة ١٩٧٧ ، ص ٢٠ .

(٢٨) **نشرة مؤسسة الدراسات** مجلد سنة ١٩٧٤ . ص ٢٥ ، نقلا عن دافار ، ١٩٧٣/٢/١٦

(٢٩) نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** رقم ٥٦٩ .

(٣٠) **نشرة مؤسسة الدراسات** ، مجلد سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨٥.

(٣١) **نشرة رصد اذاعة اسرئيل** ، رقم ٥٧٢ .

(٣٢) **نشرة مؤسسات الدراسات** ، مجلد سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨٥ .

(٣٣) **المصدر نفسه** مجلد سنة ١٩٧٣ ص ٢٨٤.

(٣٤) **شؤون فلسطينية** ، عدد ٨٧/٨٨/ ص ٦٩ ، نقلا عن قول رئيس اتحاد الصناعيين الأسرائيليين الى معاريف عدد ١٩٧٨/١٠/١٣ .

(٣٥) د . يوسف شبل ، **اعبـاء الحـرب على الاقتصاد الأسرائيلي** ، بيروت، مركز الأبحـاث ، ١٩٧٠ ، ص ٥٩ .

(٣٦) د . عمرو محي الدين الاقتصاد الاسرائيلي بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، جامعة بغداد ، ١٩٦٣ .

الفلسطينية ، جامعة بغداد ، ١٩٧٣ .

(٣٧) بسام ابو غزالة ، **التخطيط في اسرائيل** ، بيروت ، مركز الابحاث راجع الصفحات ١١٤ ــ ١٣٣ .

(٣٨) شبل جريدة **السياسة** اللبنانية ، عدد يوم ١٩٧١/١/١٦ .

(٣٩) محي الدين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٧٨ .

(٤٠) شبل ، **السياسة الماليـة في اسرائيـل** ، بيروت ، مركز الأبحاث سنة ١٩٦٨ ، ص ١٠٦ .

(٤١) **المصدر نفسه** ، ص ٩٨ .

(٤٢) **شؤون فلسطينية** ، عدد ٢٠ ، ص ٨٤ . الأمبريالية والأقتصاد الأسرائيلي لاري لاك وود . وكذلك محي الدين ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤٣) محي الدين ، **مصدر سبق ذكره** .

(٤٤) شبل ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٨ .

(٤٥) ر . ا . ا . رقم ٤٠٨ .

(٤٦) **نشرة مؤسسة الدراسات** سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨١

(٤٧) ر . ا . ا . رقم ١٣٣٦ .

(٤٨) **المصدر نفسه** .

(٤٩) لمزيد من التفاصيـل عن تخفيض اللـيرة الأسرائيلية راجع : **شؤون فلسطينية** ، رقم العدد ٥ ، مقالة الدكتـور يوسف شبـل عن « اللـيرة الأسرائيلية وازمةالدولار ،» ص ١٨ . وايضا شبل ، **تجارة اسرائيل الخارجيـة** ، بـيروت ، مركـز الابحـــاث ١٩٦٩ الفصل الرابـــع . **وشؤون فلسطينية** ، العدد ٥٢ ، تقرير عن « تخفيض الليرة الأسرائيلية » ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

(٥٠) ابو النمل، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٤٦ .

محمود اللبدي

جولة في العقل الاعلامي الصهيوني

مقدمة

لقد أصبح معروفاً تأثير الدعاية الصهيونية على الرأي العام العالمي ، ومدى سيطرتها على وسائل وأجهزة الاعلام الغربية . وقد أدى النشاط الاعلامي الصهيوني المتعدد الجوانب الى عزل القضية الفلسطينية ، وطمس معالمها ، حتى كادت كلمة فلسطين ان تختفي ، وأن يصبح الفلسطيني مرادفاً للارهابي أو المجرم . ولا بد لنا في هذا البحث المتواضع ان نضع أمام القارىء العربي محاولة في فهم العقل الاعلامي الصهيوني ، وأساليبه المتنوعة .

لقد تفهم الصهاينة تأثير الرأي العام في البلدان الغربية ، وخصوصا ذات النظم البرلمانية والانتخابات الحرة، ودوره في التأثير على القرار السياسي في هذه البلدان . ولهذا جعلوا من الرأي العام شغلهم الشاغل ، حيث اغرقوه بالدعاية التي تبشر بآرائهم وأفكارهم السياسية ، حتى أصبحت تلك المجتمعات حكراً عليهم ، ومغلقة أمام خصومهم . والأنكى من ذلك انهم جعلوا من تلك المجتمعات بوقا لافكارهم ، وخير مدافع عن اطماعهم وتطلعاتهم .

نجح الصهاينة باساليبهم الاعلامية المختلفة ، وبالوسائل المتاحة لديهم في ان يحققوا اكبر عملية غسل دماغ بشرية في التاريخ لصالح قضيتهم ، التي عملوا من اجلها ، الا وهي تهويد فلسطين ، وتغيير معالمها العربية . ويعود سبب هذا النجاح الاعلامي الصهيوني الى عدة عوامل ذاتية وموضوعية ، سخرت لانجاح فكرتهم . وقد سهلت عليهم تلك جذورهم الأوروبية ، وفهمهم لطبيعة المجتمعات التي عاشوا بينها ، ومعرفتهم لأفكارها ولغاتها . وجعلوا من انتشارهم شرقا وغربا قوة تؤثر على عقول الآخرين وأساليب تفكيرهم ، مستفيدين من نفوذهم السياسي والمالي الخ ... في سبيل تثبيت دعاواهم حول حقهم في فلسطين .

الادعاء الصهيوني في فلسطين

ادعى الصهاينة بان لهم حقا في فلسطين ، وان حقهم قديم قدم الزمن ، قدم التوراة أو العهد القديم ، حيث استنبطوا من الكتاب المقدس هذا الادعاء ، أو هذا الحق ، حسب

تفسيرهم . وقد وضعت الحركة الصهيونية هذا الادعاء في اطر عملية في مؤتمر بازل الصهيوني ، الذي عقد سنة ١٨٩٧ في سويسرا . وكان ذلك بدعوة من مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هرتسل اليهودي النمساوي الأصل . وبهذا المؤتمر ارادت الحركة الصهيونية ان تضع حدا للنقاش الدائر في ذلك الوقت حول فكرة اندماج اليهود في المجتمعات الاخرى ، والنضال مع هذه المجتمعات اجتماعيا وطبقيا وفق الفكر الماركسي ، لتحرير هذه المجتمعات المضطهدة من العبودية والاستغلال ، وكحل للمسألة اليهودية[1] . ورسخ الصهاينة فكرة تأسيس دولة يهودية في فلسطين ، وهجرة اليهود الى هذه الدولة بدلا من الاندماج والانخراط في مجتمعات أوروبا .

ومنذ ذلك الوقت دأبت الحركة الصهيونية ، بجد ونشاط ، على اقناع الدول المسيطرة ومجتمعاتها بفكرتهم ، والعمل داخل التجمعات اليهودية لحث اليهود على الهجرة الى فلسطين كحل وحيد للمسألة اليهودية . واذا كانت الحركة الصهيونية قد حققت نجاحا كبيرا في انتزاع وعد بلفور من حكومة جلالة ملكة بريطانيا سنة ١٩١٧ ، الا ان الحركة النازية قد ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر على انجاح الفكرة الصهيونية . ان زج هتلر النازي لمئات الآلاف من اليهود في معسكرات الاعتقال وافران الغاز، قد اعطى الفكرة الصهيونية دفعا كبيرا الى الأمام . حيث استفادت الحركة الصهيونية من ذلك ، سواء بالتعاون المباشر مع الحركة النازية التي كانت ترفض اليهود وتريد التخلص منهم ، او غير المباشر عندما هرب الكثير من اليهود الألمان الى فلسطين او الى امريكا . فألمانيا النازية ترفض اليهود ، وتريد طردهم ، والصهاينة يريدونهم ليشكلوا مادة اساسية لبناء دولتهم الصهيونية في فلسطين . وتجدر الاشارة هنا إلى ان نسبة الهجرة اليهودية الى فلسطين قد وصلت ذروتها ابان الحكم النازي الذي استمر منذ ١٩٣٣ حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

استفادت الحركة الصهيونية من النازية ، سواء أكان ذلك بزيادة كمية الهجرة اليهودية من اوروبا الى فلسطين ، او بكسب مزيد من العطف الدولي لصالح الفكرة الصهيونية القائلة بانشاء وطن قومي لليهود ، كحل للمسألة اليهودية في اوروبا . ولا بد هنا من الاشارة الى أن اجماع الدول الكبرى المسيطرة في ذلك الوقت ، وخصوصا بعد الحرب العالمية الثانية [أي الدول المنتصرة على الحلف النازي الياباني : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي] هو الذي أدى بشكل او بآخر الى تأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين .

لقد جاءت مذابح النازية لليهود لكي تصب في طاحونة الحركة الصهيونية التي استفادت استثمرت هذه المآسي الانسانية لصالح اهدافها . ولم تقف عند هذا الحد ، بل طرقت كل الابواب واستفادت من كل الوسائل المتاحة لها ، وطورت لنفسها ميكانيكية خاصة وفريدة من نوعها للتأثير على العقول ، ووضعت لهم أطرا يفكرون بها تخدم الفكرة الصهيونية ، واعلنت نفسها صاحبة حق في فلسطين، لها ان تفعل ما تريد : تقتل، وتذبح ، وتحتل الاراضي ، وتتوسع ، وتطرد ، وتعاقب ، وتنكل ، دون ان تشعر ولو حتى بادنى ذنب لما تقوم به من اعمال

---

(1) oHo Hellen *Der Untergana des Judentums* Reprint 1975 *p.*15.

لا انسانية ضد اناس لا ذنب لهم ولم يرتكبوا جرماً . وفيما يلي بعض الحجج الصهيونية التي استخدمتها لغسل الأدمغة .

١ ــ الحق التاريخي او التوراتي

عزل اليهود انفسهم في غيتوات ، إما نتيجة لتصوراتهم الدينية المميزة إذ وقعوا فريسة لمقولة « شعب الله المختار » من جهة ، او انهم عزلوا في المجتمعات المسيحية في اوروبا لاسباب دينية مثل مقولة « صالبي المسيح » ، او لاسباب اقتصادية او احتكارية ، وذلك لرفضهم العمل اليدوي ، وامتهانهم التجارة او الربى.ولهذا لم يشارك اليهود في قضايا المجتمعات التي عاشوا بينها في اوروبا . وبالرغم من ان اليهود الاشكناز (اليهود من اصل اوروبي) ينتمون اصلا الى قبائل الخزر الذين سكنوا المناطق شمال البحر الاسود وبحر قزوين الواقعة الآن في الاتحاد السوفياتي واعتنقوا الدين اليهودي في القرن الثامن الميلادي[٢] ، الا انهم ظلوا يرددون جملة « العام القادم في اوروشليم » في نهاية صلواتهم الى الرب يهوه ، ولهذه الجملة رومنسية وجانبية خاصة في صلواتهم ، مما طبع في اذهانهم بان اصلهم يعود الى فلسطين او القدس ــ اورشليم .

ربط اليهود مصيرهم بالقدس ، وبالمعبد الذي هدمه القائد الروماني المسيحي تيتوس في عام ٧٠ ميلادية ، حيث دمر هيكل سليمان ، واقتاد اليهود معه اسرى الى روما . ومنذ ذلك الوقت وقعت فلسطين في ظل الامبراطورية الرومانية المسيحية ، حتى فتحها عمر بن الخطاب عام ٦٣٨ ميلادية .

استطاع كاتبو العهد القديم[٣] ــ التوراة ــ أن يشدوا اتباع الدين اليهودي الى اورشليم والى البلاد المقدسة ، واعتمد اليهود التوراة بمثابة صك الملكية ، ومنها طوروا فكرة الحق التاريخي . وهكذا ، صورت الدعاية الصهيونية ان تاريخ فلسطين يبدأ من التوراة ، متجاهلة تاريخ القبائل الكنعانية المختلفة التي سكنت البلاد منذ ثلاثة الاف سنة على الاقل ، كما ينكر التاريخ . وقد عرفت فلسطين ببلاد الكنعان او ارض كنعان كما يذكر العهد القديم ــ التوراة . ولم يقتصر هذا التوجه على الجاليات اليهودية فحسب ، بل انطلق الصهاينة الى المجتمعات الاوروبية المسيحية المذهب لاقناعها بان لهم الحق في فلسطين . ومن اجل ذلك ابرز الصهاينة فقرات خاصة من العهد القديم لتثبت ادعاءهم . وقد نشطت حركات دينية مسيحية في اوروبا وامريكا ، متبنية هذا الادعاء الصهيوني ، ومدافعة عنه ، مشوهة بذلك الوجه الصحيح للدين المسيحي في الغرب ، الذي هو دين المحبة والتسامح . وقد غالت بعض الكنائس مثل طائفة **الفندامنتالت** (Fundamentalist) **والمعمدانيين** (Baptist) حتى جعلت اسرائيل وكأنها ارادة الله على الارض .

Arthur Koestler, *The Thirteenth Tribe*
The Khazar Empire and its Heritage,
Hutchinson of London 1976, *p.* 14, 15, 16.

٢ ــ راجع كتاب جوجي كنعان **وثيقة الصهيونية** « **في العهد القديم** » بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٧

وبذلك امنت الحركة الصهيونية جانب الدين المسيحي والمسيحيين في الغرب ، بينما بقي الدين المسيحي في الشرق بعيداً عن التأثيرات الصهيونية . واصبح الغرب يفكر ضمن الاطر الصهيونية وبات يشر بها الطفل الغربي منذ نعومة اظفاره ، ويشب عليها عبر المدارس في دروس الدين . وهنا نلاحظ ان اشد الفئات تعصبا لاسرائيل هي المسيحية المتدينة في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية .

٢ ـ حق العودة

ومن العهد القديم استنبط الصهاينة مقولة « حق العودة » ، اذ اعتمدت الحركة الصهيونية على التوراة لتأكيد ما يسمى بحق العودة . ونشرت هذه المقولة بين اليهود المترددين لاقناعهم وحثهم على الانسلاخ عن مجتمعاتهم الأم ، والهجرة الى فلسطين او اورشليم التي طردوا منها . كان ذلك قبل تأسيس الدولة الصهيونية ، أما بعد أن تأسست دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، فقد نشطت الدعاية الصهيونية لنشر هذه المقولة بين المجتمعات الاوروبية المسيحية التي عاشوا بينها ، لكسب تأييدهم لفكرة العودة الى « الوطن الأصلي » لليهود ، الذي وعدهم به الرب يهوه ، او كاتبو العهد القديم . ومن الطبيعي ان تلاقي هذه المقولة آذانا صاغية واستحسانا لدى المجتمعات الغربية المسيحية التي إما لأنها ارادت ان تتخلص من اقلياتها اليهودية من جهة ، او شفقة عليها ورأفة بها لما حل بها من ويلات ومآسي ابان العصور الغابرة في اوروبا ، واخيرا في المانيا النازية .

وتعتبر مقولة « حق العودة » من الحجج الصهيونية المدعمة توراتيا وتاريخيا ، كما انها مدعمة منطقيا ايضا ، لان من حق المطرود من ارض ان يعود اليها . واستعملت الدعاية الصهيونية هذه الحجة بذكاء وخبث ، متجاهلة تماما ما حل بشعب فلسطين الذي طرد من وطنه ، وشرد على أيدي الصهاينة . ولكن الصهاينة فهموا عقلية الغرب ، فطرحوا على شعوبه ما يؤثر من افكارهم السامة .

٣ ـ الارض الخالية من السكان

صورت الدعاية الصهيونية للمجتمعات الغربية أن فلسطين بقيت خالية منذ ان طرد منها اليهود ، ولهذا طرحوا مقولة « أرض بلا شعب لشعب بلا ارض » . اذ طرحت الحركة الصهيونية أن اليهود شعب نو سمات متجانسة ، وهذا مغالط لقوانين علم الشعوب .* وانهم بحاجة الى ارض يحكمونها ، وهذه الارض خالية من السكان ، ومنطقهم يدور حول : من هو أحق بالأرض من سكانها الاصليين الذين طردوا منها ؟

ساهمت هذه المقولة في تشجيع اليهود على الهجرة الى فلسطين ، حيث اعتقد معظم المهاجرين اليهود بان فلسطين خالية . ولو كان هؤلاء يعلمون ان فلسطين مأهولة ، وان فيها

(*) ان العقيدة الصهيونية مبنية على وحدة الدين والقومية وهذا خطأ اساسي . فالصهيونية تدعي بان اليهود ينتمون الى دين واحد والى قومية واحدة . والفكر الصهيوني ينادي بالقومية الصهيونية ، واليهودية ليست ديانة سماوية فحسب . والقصد من ذلك هو أن الصهاينة يريدون ربط اليهود في اصل واحد تعود جذوره الى فلسطين .

شعباً يسكنها منذ آلاف السنين ، وحتى قبل الهجرات اليهودية الأولى ، لعدل الكثيرون عن الهجرة ، ولاقتصرت الهجرة فقط على فئة قليلة من الشبان المغامرين ، او بعض الشيوخ المسنين المسالمين الذين يأتون لقضاء آخر ايامهم من اجل الموت في الاراضي المقدسة .

صدقت الشعوب الأوروبية،التي عاش بينها اليهود،هذه المقولة،مما دفعها الى تأييد ودعم فكرة الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية استفاد الصهاينة من جهل الشعوب الاوروبية واقنعوها بان فلسطين كانت فعلا خالية من السكان ، وظلت الدعاية الصهيونية مستمرة في هذا النهج حتى عبرت عن ذلك غولده مئير عندما قالت : « لا يوجد هناك شيء اسمه شعب فلسطين » واستطردت تقول في التصريح نفسه ، في ١٥ حزيران ١٩٦٩ « ليس لهم وجود » .

٤ ـ فلسطين صحراء قاحلة

ومن مقولة « فلسطين خالية من السكان » الى « فلسطين جرداء قاحلة » . وتناقضوا بذلك مع الكتاب المقدس الذي وصف فلسطين بأنها ارض الحليب والعسل . ومن منطلق ان فلسطين صحراء قاحلة ، نشط الاعلام الصهيوني في تصوير ما عمروا فيها وما حولوه الى حزام اخضر بفضل نشاطهم وعبقريتهم . والمنطق يقول إن الأرض لمن يعمرها . انن هم عمروا الصحراء حسب ادعائهم ، ولذلك فان لهم الحق في امتلاكها . وقد عملوا على تجهيل العقول في البلدان الغربية ، حاجبين عنها أن فلسطين كانت بلداً مصدراً للحمضيات منذ خمسين سنة على الأقل ، قبل تأسيس دولة اسرائيل .

وحجة « فلسطين صحراء » توجهت بها الدعاية الصهيونية الى عقول الغربيين بعد اعلان الدولة الصهيونية في فلسطين ، مستفيدة بذلك من جهلهم ، ثم لكسب تأييدهم للدولة الصهيونية ، وعطفهم عليها ، لانها نشيطة ومنتجة .

ومما لا شك فيه أن الاعلام الصهيوني قد استفاد بشكل مباشر من غياب الاعلام العربي عن الساحة الدولية في العشرين سنة الاولى على الأقل ، مما اعطى للاعلام الصهيوني فرصة للامتداد والانتشار .

٥ ـ حق الولادة والاجيال

من الطبيعي ان من يولد في ارض تصبح وطنه الام وقد ولدت اجيال جديدة من هؤلاء المستوطنين الصهاينة في فلسطين . لذا يدعي الصهاينة بان هذه الارض تعتبر وطنهم بالولادة ، ولا يحق لاحد طردهم منها . وان اي محاولة لطردهم تعتبر عملية عدوانية ضد هذه الاجيال الجديدة من المستوطنين . وتدعي الدعاية الصهيونية بان ليس لهؤلاء الصغار من ذنب اقترفوه .

لقد نشطت الدعاية الصهيونية في نشر هذه المقولة بعد تأسيس دولة اسرائيل . فقامت الدعاية الصهيونية بنشر الصور والمقالات عن الاجيال الجديدة التي ولدت هناك ، وأطلقوا على هؤلاء الشباب لقب « صابرا » ونشطوا في تفسير كلمة « صابرا » والتي تعني بان كل شاب يولد في فلسطين هو مثل كوز الصبر « شوكي من الخارج ولذيذ من الداخل » ، وان لكل

« صابرا » ان يعتبر فلسطين او « اسرائيل » موطنا أساسيا .

والاجيال الجديدة التي تولد تعطي لاسرائيل الحق والشرعية في أن تستمر في المنطقة أكبر مدة ممكنة . والصهاينة يعون ذلك جيدا ، لذلك ينشرون هذه الحجج للتأثير على عقول الغربيين وكسب تأييدهم .

اساليب الاعلام الصهيوني

للاعلام الصهيوني اساليب مختلفة يستعملها في خدمة الاهداف والاطماع الصهيونية في فلسطين . وقد خاطبت الدعاية الصهيونية الناس حسب مستوياتهم وتوجهاتهم الفكرية والايديولوجية . لهذا تعددت وتنوعت اساليب المخاطبة للرأي العام . وقد نشطت دعايتهم على صعيدين مهمين وهما ـ كما ذكرنا ـ اجتذاب المستوطنين الجدد واقناعهم بالهجرة الى فلسطين ، ومن جهة اخرى إقناع الشعوب والدول التي عاشوا بينها بعدالة ادعائهم في فلسطين . بالاضافة الى الحرص على ابقاء اليهود المهاجرين في فلسطين ، واقناعهم بعدم مغادرة البلاد والهجرة المضادة .

ونستطيع ان نحدد بان النشاط الاعلامي الصهيوني قد تركز بشكل رئيسي على مراكز النقل العالمية ، وخصوصا في اوروبا وامريكا الشمالية . وبما ان الحركة الصهيونية قد ربطت نفسها دائما بالدول الكبرى وبطموحاتها واطماعها ، فقد دأبت الدعاية الصهيونية على التأثير على الرأي العام في هذه البلدان ، لكي تجعل منه رافدا وداعما لسياسة الدولة المؤيدة المتفقة مع الاهداف الصهيونية الاستيطانية . نستطيع ان نسوق مثلا على سيطرة الدعاية الصهيونية على الولايات المتحدة الامريكية ، اذ جعلت الدعاية الصهيونية من المجتمع الامريكي العوبة بايدي الادارة الامريكية المؤيدة للاطماع الصهيونية . ونتيجة لعمل دؤوب متواصل لم يعد المجتمع الامريكي يرى نزاع الشرق الاوسط الا من خلال الرؤية الصهيونية . وان ما حققته الحركة الصهيونية من تأثير على المجتمع الامريكي هو عملية غسل دماغ مدروسة لشعب باكمله . من هنا نستطيع القول بان الدعاية الصهيونية هي التي تفكر نيابة عن شعوب العالم الغربي . اذ تعطيهم المعلومات التي تريد ، وتحجب عنهم ما تريد . وهي تمطرهم بالمعلومات الموجهة بشكل يومي مكثف ، حتى لا تسمح لهذه الشعوب بالبحث عن مصادر معلومات خاصة او مغايرة لرؤيتها وتفسيرها للامور .

١ ـ اسلوب الاستعطاف

استفاد الصهاينة من كافة المآسي والويلات التي مر بها اليهود عبر الاجيال من معاناة وملاحقة ، من محاكم التفتيش في اسبانيا الى « البوغروم » في روسيا ، واخيرا افران الغاز الهتلرية ، فنشطت الدعاية الصهيونية من أجل كسب عطف المجتمعات الاوروبية والامريكية لصالح اهدافهم الاستيطانية ، ولدعم دولتهم المنشودة في فلسطين .

بعد تأسيس دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨ ، طوروا اسلوبهم الدعاوي لكي يناسب المرحلة الجديدة . لقد استعطفوا العالم حتى يؤيدهم ، ولم يتركوا حجة الا واستخدموها لكي يظهروا للعالم بانهم مساكين بحاجة الى عطف وتأييد . لقد اظهروا للعالم بان اسرائيل مسالمة وتحتاج

الى عطف ، لان العرب دمويون ويريدون القضاء عليها . ومن حججهم المؤثرة أن اسرائيل محاطة ببحر من الاعداء ، وان اسرائيل صغيرة ، اما العرب فهم عديدون وبلادهم كبيرة ، وهم يريدون رمي اليهدو في البحر . وابان عهد الرئيس الراحل عبد الناصر صورت الدعاية الصهيونية عبد الناصر كهتلر جديد يريد قتل اليهود الذي نجوا من معسكرات الغاز النازية* . ومن الشعارات التي لا تزال تثير العطف والتعاطف مع اسرائيل ، ولها تأثير كبير على المجتمعات الغربية مقولة « مستحيل مرة اخرى » . « اي لن نذبح مرة اخرى كما نبحنا هتلر » . هذه المقولة تستخدم ايضا لكي تزيد من التماسك داخل المجتمع الاسرائيلي ، لكي يتوجه باجمعه الى العدو الخارجي ، اي الى العرب . وتظهر هذه المقولة بكثافة عندما تقترب ساعة الخطر .

ولا تزال أجهزة الدعاية الصهيونية تعتمد الاستعطاف كاسلوب ناجح ومؤثر على الشعوب الاوروبية والامريكية الشمالية . وتحرص باستمرار على تأجيج العواطف ، هذا اذا لوحظ فتور في الدعم والتأييد لاهداف اسرائيل الاستيطانية .

٢ ـ اسلوب التشبه بالشعوب المتحضرة

ومن اسلوب الاستعطاف الى اسلوب التشبه بالشعوب الاخرى ، وخصوصا الاوروبية . لقد فهمت اسرائيل انها « جزء من اوروبا وانها حاملة لواء الحضارة الاوروبية في الشرق البربري المتخلف » يقول تيودور هرتسل ويضيف « بالنسبة لاوروبا سوف نبني هناك سداً ضد آسيا ، كما سوف نشكل قلعة متقدمة للحضارة ضد البربرية » . وانطلاقا من ذلك طور الصهاينة عدة شعارات وطروحات استخدموها لكسب تأييد الشعوب والانظمة المختلفة لصالحها .

وقد شبهت اسرائيل نفسها بالانظمة البرلمانية . وطرحت نفسها على انها تبني نظاما برلمانيا ينتخب انتخابا مباشرا من الشعب ، كالنظم في اوروبا الغربية وامريكا ، لتصور نفسها على انها الدولة الوحيدة في الشرق التي تتبنى حضارة الغرب ونظمه السياسية ، فهي بذلك جزء منه ومن الطبيعي ان الانسان يؤيد ويتعاطف مع مثيله او شبيهه .

ولكسب تأييد الشبيبة الاشتراكية في اوروبا وامريكا طرحت الدعاية الصهيونية مقولة « اسرائيل بلد اشتراكي » . والدليل الذي طرحته الصهيونيـة على ذلك وجـود نظـام « الكيبوتس » . وقد نشطت الدعاية الصهيونية بين الشباب في اوروبا وامريكا لاجتذابهم للعمل داخل الكيبوتسات في عطل الصيف المدرسية ، حيث كانت شركات السياحة تقلهم بالمئات للعمل في داخل الكيبوتسات .

ومقولة اخرى طرحتها الدعاية الصهيونية لاجتذاب التجار والرأسماليين وهي ان اسرائيل بلد ذو اقتصاد حر ، وأنه يحق لأي مستثمر غربي ان يستثمر فلوسه في اسرائيل ، وان يجني منها الارباح ، دون أن يهدده خطر التأميم والخوف على ضياع الأموال . وبهذه المقولة كسبت

(*) وظلت هذه المقولة مسيطرة في الغرب حتى هزيمة حزيران ٦٧ عندما هزمت القلة الكثرة ، فتنفس الغرب الصعداء ، وصورت الدعاية الصهيونية هذا الانتصار بانه انتصار داوود على جوليات .

اسرائيل كبار التجار والشركات التجارية الغربية ، بالاضافة الى اجتذاب الاموال اليهودية الى اسرائيل .

٣ ـ اسلوب الابتزاز والتهديد

هذا اسلوب استعملته الدعاية الصهيونية ضد من يفكر في ان يغير سياسته في الاتجاه المضاد لها . وقد وضعت الدعاية الصهيونية السياسيين الغربيين في حالة خوف دائم . ومن الطبيعي ان يحرص كل سياسي على سمعته السياسية ، ولذا فهو بحاجة الى اداة اعلامية قوية تتكلم عنه باطراء . واستخدم الصهاينة الاعلام لحاربة خصومهم ، وتحطيمهم سياسيا ، اذا هم وقفوا موقف المعارض لاسرائيل وسياساتها العدوانية والتوسعية . وقد استعملوا هذه السياسة ببراعة ضد الالمان ، خاصة في المانيا الغربية ، حيث لم يجرؤ اي سياسي الماني غربي على ان ينتقد سياسات اسرائيل العدوانية والتوسعية ضد الامة العربية . وكل من تخول له نفسه ذلك كان يوصف بأنه معاد للسامية او لا سامي ، وهي تهمة تكفي لتحطيم الحياة السياسية لاي سياسي غربي . وبهذا الاسلوب الابتزازي كانوا يشعرون الالمان بعقدة الذنب عن مصرع ستة ملايين يهودي ، نبحهم هتلر حسب ادعائهم . وبهذا الاسلوب كان عطف الرأي العام في المانيا الغربية يأتي دائما لصالح اسرائيل ، ظالمة كانت ام مظلومة .

وتعتبر الحملة الصهيونية الاخيرة المتمثلة في سلسلة افلام الهولوكوست نموذجا من نماذج الابتزاز والتهديد غير المباشر ، حتى يذكروا الشعوب الاوروبية وامريكا بمذابح هتلر ، وحتى لا ينسوا هذه المذابح ، ولتظل عقدة الذنب ماثلة امام اعينهم ، وحتى لا يخف تأييدهم لاسرائيل أو يضعف .

أما في الولايات المتحدة فان اسلوب الابتزاز يتوضح بشكل رئيسي اثناء الانتخابات الرئاسية ، فهم يسخرون اجهزتهم الاعلامية واموالهم لانتخاب رئيس يلائمهم ، ولهذا يحرص كل رئيس ، أو يتسابق المرشحون للرئاسة إلى الادلاء بتصريحات مؤيدة اكثر لاسرائيل ، حتى لا يخسر المرشح الاعلام الصهيوني المسيطر على عقول الناخبين الامريكيين .

٤ ـ اسلوب التهويل بصورة العدو وبشاعتها

تزوير الحقائق هي من اختصاصات الدعاية الصهيونية . فهم يرفعون من يريدون ، ويحطمون من يريدون ، دون ان يقف احد في طريقهم . وقد عمدت بالدرجة الاولى الى التشنيع على الخصم ، وتشويه صورته لدى الرأي العام . وقد صورت الدعاية الصهيونية العرب برابرة ومتخلفين وكسالى وراكبي جمال ومحبي أمية ، وهذا طبعا قبل نشوء المقاومة الفلسطينية . وعندما برزت المقاومة الفلسطينية على الساحة نشطوا لتشويه وجه المقاومة وحقيقة اهدافها ، حتى اصبحت كلمة فلسطيني تساوي « ارهابيا » او « مجرما » يقتل النساء والاطفال . ونشطوا في تزوير الحقائق عن العالم العربي،حتى اصبحت صورة العربي انسانا له ذنب . لقد شوهت اجهزة الدعاية الصهيونية حقائق النزاع في الشرق الاوسط واعلنت عن موت « الفلسطيني وقضيته » التي هي جوهر الصراع العربي ـ الاسرائيلي . وجعلت من نزاع الشرق الاوسط نزاع حدود بين اسرائيل وجيرانها من الدول العربية ، حتى اذا حلت مشكلة

الحدود ، اصبحت كل الامور في الشرق الأوسط محلولة . واما الفلسطينيون فهؤلاء قتلة وارهابيون ، فكيف يؤيد العالم هؤلاء الارهابيين القتلة حسب رأيهم ؟

ولا تزال رواسب التشنيع الذي الحقته اجهزة الدعاية الصهيونية بالعرب مستفحلة في مجتمعات الغرب . فبعد حرب حزيران نشطت الدعاية الصهيونية في تصوير الجندي العربي على انه جبان يخلع حذاءه، ويهرب من المعركة امام الجندي الاسرائيلي الشجاع .

وأكثر الأمثلة وضوحا على اساليب التزوير هو انهم فسروا الامور على هواهم ، واستعملوا كلمات معينة للتعبير عنها . فالاراضي المحتلة هي اراض محررة ، والاحتلال هو احتلال ديمقراطي وانساني ، والضفة الغربية اصبحت يهودا والسامرة ، والقدس المحتلة هي القدس الموحدة . اما الفلسطينيون فقد اصبحوا عرب ارض ــ اسرائيل ، او سكان ارض ــ اسرائيل ، والمناطق المحتلة هي المناطق المدارة في قاموسهم ، او المناطق فقط والخ ... من هذه الاصطلاحات التي تهدف الى الهاء الناس وحجب الحقائق عنهم ، وخصوصا في الغرب .

اما الصورة الحديثة للعربي فهي تصوره جالسا على منابع البترول ، يمنع البترول عن امريكا والعالم . والعربي هو سبب ازمة الطاقة وغلاء اسعار البنزين ، وهو متخلف وجشع ، وهو سبب كل المشاكل في هذا العالم .

٥ ــ اسلوب التعظيم للذات

اما الاسلوب الذي عمدت الدعاية الصهيونية الى اتباعه مع المستوطنين الصهاينة فهو اسلوب المديح والتفخيم والتعظيم . فالمستوطن الصهيوني اوروبي بكل معنى الكلمة : شجاع ، متفوق ، يجيد استخدام التكنولوجيا الحديثة ، واشقر كالاوروبيين ، ونكي وتصل المغالاة في المديح الى حد الغرور والعنجهية . فالجندي الاسرائيلي يفتش العرب ويرفع ايديهم ويدير وجوههم الى الحائط ، ويتصرف وكأنه بطل فيلم كاوبوي امريكي . ونادرا ما تتحدث الدعاية الصهيونية عن خسائرهم البشرية امام عمليات الفدائيين ، فهم يتكتمون تكتما شديدا حول هذا الموضوع . كما يصورون الاحتلال على انه نعمة من الله الى عرب الضفة الغربية ، وهو ، بالطبع ، احتلال حضاري ينعمون فيه بديمقراطية لم يعرفها العرب من قبل .

وسائل الاعلام

بعد التطور المذهل في وسائل الاعلام اصبح الانسان رهينة لها ، فهو سريع التأثر بما يرى ويسمع ، وبات بالامكان التأثير على مجتمع بأسره وتعبئته تعبئة معينة . فبهذه الوسائل الاعلامية الجماعية يمكنها الصعود بالمجتمع الى القمة ، كما يمكنها النـزول به الى الحضيض ، تماما كما فعل الاعلام النازي بالشعب الالماني عندما رفعه الى القمة ثم حطم المانيا وشعبها ووحدتها ابان الحرب العالمية الثانية ، عندما وقف الشعب الالماني ، المسحور بالاعلام النازي الجبار الذي كان يقوده غوبلز ، وزير اعلام هتلر ، عندما اعلن الأخير الحرب على العالم .

وخير مثال على الاستفادة من وسائل الاعلام الحديثة واستخدامها استخداما ذكيا هو

الاعلام الصهيوني . فالاعلام الصهيوني المتشعب والمنتشر عبر العالم احسن استخدام الوسائل الحديثة ، لا ليؤثر على شعب واحد كشعب المانيا في عهد النازية فحسب ، بل ليؤثر على شعوب العالم اجمع . فقد استفاد الاعلام الصهيوني من المراكز الاعلامية المتشعبة والمنتشرة بانتشار الجاليات اليهودية عبر العالم . وامتهن كثير من اليهود الصحافة ، وخصوصا في أوروبا والامريكتين واستراليا ، كما امتلك اليهود كبريات الصحف العالمية ، وخصوصا في أوروبا الغربية والولايات المتحدة . انهم يجلسون في كبريات الصحف او شركات التلفزة والراديو لبث الافكار الصهيونية التي تبشر بامجاد اسرائيل ووجهها الحضاري . كما تعمل في الوقت نفسه على تشويه وجه الانسان العربي والفلسطيني المناضل من اجل قضيته العادلة . ولم يقتصر ذلك على الجاليات اليهودية فحسب ، بل ان هناك صهاينة غير يهود ، متحمسين ومندفعين لخدمة اسرائيل اكثر من اليهود انفسهم . وخير مثال على ذلك هي مؤسسة شبرنغر الالمانية الغربية[٤] لصاحبها اكسل شبرنغر المسيحي المذهب ، ولكنه متعصب لاسرائيل ، وملكي اكثر من الملك . وهذا الرجل يمتلك حوالي ٤٠٪ من صحف ومجلات المانيا الغربية ، مسخراً جميعها لخدمة اسرائيل ، ولتشويه سمعة العرب . ويمتلك شبرنغر صحيفتين يوميتين رئيسيتين مثل « دي فلت »وهي موجهة لذوي الثقافة المتوسطة و« بلد تسايتونغ » وهي موجهة للطبعة العاملة والبسيطة وتصدر خمسة ملايين نسخة يوميا ، و« بلد ام سونتاغ » وهي جريدة اسبوعية تقرأها ربات البيوت والطبقة العاملة في عطلة الاسبوع .

أما في الولايات المتحدة الامريكية فنسوق مثلا في صحيفة نيويورك تايمز ، والتي تمتلكها عائلة سولزبرغر اليهودية ، وهي تعد من كبريات الصحف في الولايات المتحدة ، وتقرأها الطبقة المثقفة ، ولها تأثير على صانعي القرار الامريكي . وطبعا لهذه الصحيفة دور فعال في تشويه الوجه العربي بشكل عام ، والحق العربي والفلسطيني بوجه خاص .

ومن وسائل الاعلام الناجحة هي النوادي والجمعيات والنشاطات الاجتماعية ، حيث يستطيع الصهاينة ، من خلال هذه النوادي والجمعيات ، تجنيد الانصار وبث الافكار بين الناس . وهذه الجمعيات تعمل على مستويات مختلفة تخاطب الناس وتشدهم لتبني وجهات النظر الصهيونية والدفاع عنها .

ولا شك ان صناعة الافلام هي من الادوات الحديثة للمخاطبة ، فمن خلال السينما انطلق الصهاينة يصنعون الافلام التاريخية والحديثة والتي تشوه التاريخ ، وتفسره تفسيرا مغلوطا يناسب تصوراتهم واهدافهم . ويمتلك الصهاينة شركات الافلام العالمية ، كما ان هناك عدداً كبيراً من اعلام ونجوم السينما من اليهود المتعاطفين مع اسرائيل ، وهم يخدمون الافكار الصهيونية عن وعي وعن سابق اصرار . فالافلام الصهيونية كثيرة ومتعددة ، بدءا بفيلم الوصايا العشر ، الى فيلم اكسودس ، وجميعها مسخرة لخدمة اسرائيل وتشويه الحق العربي والفلسطيني .

وتعرض الافلام الروائية ايضا على الشاشة الصغيرة ــ التلفزيون ، حيث يمتلك الصهاينة شركات التلفزيون ، وخصوصا في الولايات المتحدة ، لأنها خاصة ، وخارجة عن اشراف الدولة

---

(4) Imperium Springer Macht and manipulation, Bernd Jansen and Arno Klonne Koln, 1968 *p.* 184.

المباشر . فالتلفزيون مؤثر اكثر من السينما ، لانه في كل بيت وسهل الاستعمال ، وهو ينقل الاخبار اليومية والاعلانات والافلام الدعائية والوثائقية والخ ... ويشاهده الكبار والصغار . وهو وسيلة اعلامية في غاية الاهمية واصبح يحتل الصدارة في التوجيه والتوعية بما في ذلك التعليم المدرسي والجامعي . وتكمن اهميته ايضا في تعدد وتنوع البرامج التي تبث للتأثير على المشاهد وصقل دماغه ، لصالح الفئة الحاكمة او المسيطرة على شركات التلفزة . فمن يمتلك السلطة على التلفزيون يستطيع ان يمتلك عقول البشر ، وخصوصا عقول الشرائح غير المسيسة .

استطاع الصهاينة من خلال امتلاكهم لوسائل الاعلام المختلفة ان يطوقوا العقل البشري في اوروبا وامريكا واستراليا ، وان يجعلوه يفكر ضمن اطرهم ، ولم يبق خارج دائرة التفكير الصهيوني سوى قلة قليلة من المثقفين الذين تمكنهم ظروفهم الحصول على مصادر اخرى للمعلومات ، بينما وقع عامة الشعب في شراك الصهيونية ودوائرها ونمط تفكيرها .

الخاتمة

لسنا هنا بصدد المقارنة بين الاعلام العربي والاعلام الصهيوني . إنما لا بد من التطرق الى هذا الموضوع ، لما له من اهمية في وضع الامور بامانة واخلاص امام القارىء العربي . فالاعلام العربي يمكن وصفه بانه اعلام محلي ومحدود ، وهو لا يصل الى حد التأثير في الرأي العام العالمي لعدة اسباب ذاتية وموضوعية .

لم يعر الاعلام العربي اهتماما للرأي العام الدولي . فرجل الاعلام العربي والسياسي العربي يخاطب نفسه ومجتمعه ولا يخاطب العالم ، كما انه لا يهتم بالطرق والاساليب المتنوعة التي تخاطب الناس على قدر عقولهم .

ولا بد من الاشارة الى ان الاعلام العربي قد اقتصر نشاطه على العرب ، وقد كان بعيدا عن الدراسة والعلمية والموضوعية ، وهو عاطفي . لذلك فقد استفاد الاعلام الصهيوني من هفوات العرب الاعلامية لخدمة اطماعهم في فلسطين ، ولخدمة افكارهم ومواقفهم وادعاءاتهم . فمقولة « رمي اليهود في البحر » ، سواء قيلت رسميا ام بشكل غير رسمي ، خدمت الدعاية الصهيونية واهدافها الاستيطانية في فلسطين . وكم من تصريح عربي كان يصب في طاحونة الاعلام الصهيوني ، وكم من كاريكاتير عربي استفاد منه الصهاينة ونشروه في الغرب لخدمة اهدافهم . وبالرغم من زيادة الوعي والخبرة في مجال الاعلام ، فقد استمر الاعلام العربي يخدم الصهاينة حتى هزيمة حزيران ٦٧ . وهذه الصدمة هزت وجدان العرب ، وخصوصا عندما رأوا ان العالم كله يقف الى جانب اسرائيل ، ويفرح لانتصارها .

اما بعد ٦٧ فقد استفاد العرب من اخطائهم السابقة ، وبدأوا يهتمون بشكل اكبر بالرأي العام العالمي . كما ساعد بروز المقاومة الفلسطينية ، صاحبة الحق المشروع في مقاومة الاحتلال الاجنبي ، على التأثير بشكل ايجابي على الرأي العام الدولي . وما من شك بان الثورة الفلسطينية لم تكن قفزة سياسية على الصعيدين العربي والدولي فحسب ، بل كانت قفزة اعلامية كبيرة بدأت تخرق الحواجز والحصون الصهيونية التي سيطرت لفترة طويلة على الرأي العام الدولي .

فالثورة الفلسطينية الغت مقولة « رمي اليهود في البحر » ، وطرحت شعارا انسانيا معقولا ومنطقيا يناسب العالم المتحضر ، الا وهو شعار الدولة الديمقراطية المتعددة الاديان . والثورة الفلسطينية وضعت قضية الشرق الاوسط في اطارها الصحيح ، بعيدا عن العواطف والمهاترات . فهي صاحبة حق ، وهي مدافعة عن نفسها ، وشعبها صاحب حق في ان يعيش بسلام كباقي شعوب الأرض ، وهي ليست مهاجمة ، وحربها حرب دفاعية ، وشعب فلسطين تحت الاحتلال ، وفي السجون وتحت التعذيب ، وهو ضعيف أمام غطرسة اسرائيل وجبروتها ، ولكنها مصممة على المضي في المقاومة ، لان لا خيار لها في ذلك ولابديل لها عن ذلك وشعب فلسطين يطالب بحق تقرير المصير ويطالب بالعودة الى وطنه الذي شرد منه ويطالب بانسحاب القوات المحتلة ، وبايقاف بناء المستوطنات ، الى آخره من هذه الحجج المنطقية التي لا يمكن ان يرفضها انسان متحضر ، وانسان يحب السلام والحرية والعدالة . ان هذه الحجج التي توجه الى العقل الغربي والى الرأي العام العالمي تتوافق مع عقله ومع انسانيته ولهذا نستطيع ان نقول بان الاعلام الفلسطيني بدأ يحتل مكانة لا بأس بها لدى الرأي العام الدولي ، إذ كسب حتى الآن عدة جولات اعلامية مهمة ؛ كما في جولته في حرب السنتين ضد القوى اليمينية والانعزالية ، وكذلك في حرب الثمانية ايام ضد اسرائيل في آذار ١٩٧٨ في جنوب لبنان . ولا يزال الاعلام الفلسطيني يسير الى الامام بخطى حثيثة ومستمرة في مجابهة الاعلام الصهيوني وفي تعرية الادعاءات الصهيونية ومغالطاتها . وللاعلام الصهيوني هفواته ايضا وهو ضعيف اذا ما اخذنا ضحالة حججه وبعدها عن المنطق وعن الواقع ايضا . فالحق بجانب الفلسطينيين ، وهم اصحاب قضية عادلة ، ولابد ان يكون سهلا ويسيرا على صاحب الحق ان يشرح قضيته . فهو ليس بحاجة الى الكذب والغش والخداع . فقليل من المنطق يكفي رجل الاعلام الفلسطيني لكي يشرح قضيته ويقنع العلم بعدالتها .

بقي ان نقول بان المعارك الاعلامية يخوضها الاعلاميون كما يخوض السياسيون معاركهم السياسية والعسكريون معاركهم العسكرية . فعقل الانسان لا يزال هو المادة التي يحارب من اجلها رجل الاعلام لكسبها الى صفه . والرأي العام المؤيد هو من ضروريات ولوازم حرب الشعب الطويلة الامد حتى ينتصر . والاعلام يتطور ويتألق بتطور حرب الشعب واستمراريتها وانتصاراتها .

ان الاعلام الفلسطيني والعربي لا يزالان ضعيفين اذا ما قورنا بنشاط الاعلام الصهيوني واتساع دائرة تأثيره ، ولكنهما آخذان بالتطور والنمو حتى يصبحا في مستوى القضية التي يناضلان من اجلها ، والتي هي من اعقد قضايا العصر .

عربي عواد

حول الوحدة الوطنية الفلسطينية

اذا كانت الوحدة الوطنية الفلسطينية ترتدي اهمية استثنائية في هذه المرحلة،فلا يعني ذلك انها لم تكن موضع اهتمام في الماضي ، اذ كانت باستمرار قضية حيوية بالنسبة للشعب الفلسطيني ، وشرطا اساسيا لانتصار ثورته نظرا لطبيعة هذه الثورة كثورة تحرروطني ، تجسد مصالح قوى اجتماعية وسياسية عريضة ، ونظرا لضخامة القوى المعادية المتمثلة في التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي الذي يضم دولة اسرائيل الصهيونية ، ومعها الحركة الصهيونية العالمية والامبرياليةالعالمية ،وعلى رأسها الامبريالية الاميركية ، بالاضافة الى ادواتها من الرجعيين والعملاء في المنطقة العربية ، وفي منطقة الشرق الاوسط ، مما يستدعي تعبئة كل طاقات الشعب الفلسطيني النضالية ضمن وحدة وطنية شاملة تضم كل الطبقات والقوى الوطنية وممثليها من المنظمات والهيئات والاحزاب السياسية .

ان ما يستوجب التركيز على الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير ، في المرحلة الراهنة ، وتوفير كل المستلزمات لتعزيزها ، هو الوضع الخطير الذي نشأ نتيجة خيانة السادات وانتقاله بشكل سافر ، بعد اتفاقية كامب ديفيد ، الى التحالف مع الامبريالية الاميركية واسرائيل ،وهو التحالف الموجه ضد حركة التحرر الوطني العربية والافريقية بوجه عام ، وضد حركة التحرر الوطني الفلسطينية بوجه خاص . فمن خلال مشروع الحكم الذاتي الاداري الذي تضمنه اتفاق كامب ديفيد اتفق السادات مع اميركا واسرائيل على حرمان الشعب الفلسطيني من حقه في العودة وتقرير المصير والاستقلال الوطني ، وعلى تكريس الاحتلال لارضه .

وبالاتفاق بين اطراف كامب ديفيد ، اخذ التآمر ضد الشعب الفلسطيني مجاله للتطبيق العملي من خلال سلسلة الاعتداءات الاسرائيلية الوحشية على لبنان ، بقصد سحق المقاومة الفلسطينية وحليفتها الحركة الوطنية اللبنانية ، والضغط على سوريا لتركيعها ، واطلاق الصهاينة العنان لمشاريع الاستيطان والتهديد على حساب الارض العربية في المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ ، وامتداد هذه السياسةاللصوصيةلتشملما تبقى من الارض في ايدي العرب المقيمين

تحت الاحتلال ، وخاصة في الجليل والنقب ، وتصعيد اجراءات القمع والارهاب ضد الجماهير الفلسطينية الرازحة تحت نير الاحتلال والتحكم الصهيوني .

فمن الطبيعي اذن في مواجهة هذا الوضع الخطير ان تبرز الوحدة الوطنية الفلسطينية الى المقدمة ، وتستحوذ على اهتمام كل الفصائل والقوى الوطنية الفلسطينية ، وتصبح مطلبا جماهيريا يجري التعبير عنه في الندوات والمؤتمرات والاجتماعات والمذكرات المرفوعة لقيادة منظمة التحرير .

وقد انعكس ذلك في برنامج الوحدة الوطنية بشقيه السياسي والتنظيمي ، الذي وافقت عليه كافة المنظمات والقوى الوطنية الفلسطينية ، وقدم للمجلس الوطني في دورته الرابعة عشرة باعتباره الوثيقة الاساسية، في حين كانت الوثيقتان الاساسيتان اللتان قدمتا للمجلس الوطني في دورتيه الثانية عشرة والثالثة عشرة هما برنامج النقاط العشر ، وبرنامج النقاط الخمس عشرة التي يغلب عليها الطابع السياسي .

ومع ان المجلس الوطني اقر في دورته الاخيرة برنامج الوحدة الوطنية ، الأمر الذي يشكل خطوة هامة على طريق الوحدة الوطنية ، اذ انه لأول مرة منذ عدة سنوات كان هناك اجماع على تأييد الاهداف الوطنية الفلسطينية في هذه المرحلة ، ممثلة في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة . الا ان استبعاد ممثلي عدد من الفصائل والقوى الوطنية من اللجنة التنفيذية جاء مخالفا لبرنامج الوحدة الوطنية، الذي نص بشكل واضح على ضرورة مشاركة كافة الفصائل والقوى الوطنية الفلسطينية في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ، باعتبارها القيادة اليومية للنضال الفلسطيني .

الوحدة الوطنية في الأرض المحتلة في مواجهة مؤامرة كامب ديفيد

اثار اتفاق كامب ديفيد موجة عارمة من الاستنكار والمقاومة في الارض المحتلة ، لأن الجماهير الفلسطينية هناك ادركت منذ الاعلان عن تلك الاتفاقية انها مؤامرة حاكها الثالوث غير المقدس كارتر ــ بيغن ــ السادات ، ضد الشعوب العربية بوجه عام ، وضد الشعب الفلسطيني بوجه خاص ، بقصد تصفية قضيته الوطنية وتخليد الاحتلال لارضه .

وقد اجتاحت الضفة الغربية وقطاع غزة الاضرابات والمظاهرات الصاخبة ، تندد بتلك المؤامرة ، وتدين خيانة السادات ، وتشتبك مع قوات الاحتلال ، معلنة تصميمها على المضي في المقاومة ، حتى دحر الاحتلال والظفر بحق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والعودة الى دياره ، واقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني . وقد تجلت الوحدة الوطنية في غمرة النضالات الجماهيرية ضد مؤامرة كامب ديفيد ، من خلال البيانات والمذكرات والمسيرات وسلسلة المؤتمرات الشعبية في القدس وبيرزيت وبيت لحم وغزة ونابلس ، التي ضمت عدة الوف شارك فيها ممثلون عن المجالس البلدية والنقابات العمالية والمهنية ومجالس الطلبة والهيئات النسائية والدينية والاندية . وقد واكب هذه النضالات الجماهيرية اتساع نطاق المقاومة المسلحة ضد المحتلين الصهاينة ، بحيث شملت كل الأرض الفلسطينية ، واججت الحماس الشعبي .

وكان لقاء القوى الوطنية في تلك المؤتمرات وفي النضالات الاخرى يستند الى الاتفاق على

مجموعة من الاهداف والشعارات تجسدت في رفض مؤامرة كامب ديفيد ، وادانة مشروع الحكم الذاتي شكلا وموضوعا ، والتمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني ، والاصرار على حق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير وبناء الدولةالفلسطينية المستقلة على التراب الوطني .

وقد كان من بين الشعارات التي غطت جدران قاعة بيرزيت خلال انعقاد المؤتمر الشعبي فيها : « **لا للادارة الذاتية ، نعم لمنظمة التحرير** » ، « **عاش النضال في سبيل حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ولاقامة دولته المستقلة** » . « **الجبهة الوطنية العريضة هي الطريق السليم لأفشال المؤامرة** » .

ولقد ادركت القوى الوطنية في الارض المحتلة ان هذه المؤتمرات رغم اهميتها ورغم صيغة التمثيل الواسع فيها ، لا تكفي لمواجهة مؤامرة كبيرة خطيرة مثل اتفاق كامب ديفيد ومشروع الادارة الذاتية ، بل لا بد من اطار تنظيمي ثابت يتولى قيادة هذه المواجهة . ومن هنا فقد تمخضت تلك المؤتمرات عن اقامة لجنة عليا للعمل الوطني تفرع عنها عدد من اللجان الفرعية ، تمثل القوى الوطنية المختلفة ، وتتولى مهمة تعبئة الطاقات الشعبية .

واصبحت مهمة تعزيز صيغة الوحدة الوطنية التي برزت في مواجهة كامب ديفيد تتطلب الاستمرار في التعبئة الجماهيرية ضده ، بتنظيم مختلف النضالات ، والتصدي لدعايات واحابيل السادات والمحتلين الصهاينة ورسل الامبريالية الاميركية التي تستهدف تزيين وجه مؤامرة الادارة الذاتية،والسعي لتمريرها على الجماهير الفلسطينية في الداخل ، والرد على هذه الاحابيل التي كانت تتردد هنا وهناك على لسان عدد من الوجهاء من كبار الملاكين والبورجوازية الكبيرة ممن لهم صلات وثيقة بالسادات وبالحكم في الاردن ، المعروفين بمواقفهم المهادنة للاحتلال ، واستعدادهم بحكم طبيعتهم الطبقية وارتباطاتهم للسير على طريق المساومة ، وهذا الاتجاه كان يدعو على استيحاء ، سواء في السر او العلن ، للتريث في الحكم على اتفاقيات كامب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي ، ويسعى لتمييع المقاومة ضدهما تحت حجج وذرائع لا تختلف كثيرا عن الحجج والذرائع التي يسوقها السادات ومن يؤيده من الانظمة الرجعية العربية، لتبرير خضوعه للامبريالية والصهيونية ، وتوقيعه صك الاستسلام لمخططاتها العدوانية . ويقدم نشاط رشاد الشوا رئيس بلدية غزة المعين من الحكم العسكري الاسرائيلي ، وتصريحاته التي نشرتها الصحف خلال جولته الاخيرة في الاردن ولبنان وسوريا ، صورة واضحة عن مثل هذا الاتجاه.

وقد جاء كراس « ضد كامب دايفيد » صدر في القدس ،في اوائل تشرين الثاني الماضي ، بقلم بشير البرغوثي،في سياق الحملة ضد الادارة الذاتية والرد على الحجج والمبررات التي تصور ان الحكم الذاتي هو خطوة على طريق الاستقلال الوطني واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة . اذ يبين في معرض رده على نصائح دعاة « التعقل والواقعية » الذين يروجون للحكم الذاتي بالتخلي عن عقدة « لا » التي حكمت الموقف الفلسطيني باستمرار ، كما يزعمون ، والتحلي بشعار « خذ وطالب » .

« ان عرض الادارة الذاتية لا يعطي شيئا للشعب الفلسطيني ،بل يأخذ منه حقه في

الاستقلال الوطني . والصحيح ان اسرائيل هي التي طبقت شعار « خذ وطالب » في كامب ديفيد ، فاخذت الصلح المنفرد مع مصر والموافقة المصرية على بقاء قواتها في الضفة الغربية وارجاء بحث موضوع القدس والسيادة ، والموافقة المصريةعلى استمرار سيادتها على الضفة والقطاع . وقد صرح رئيس الوزارة الاسرائيلية انه بعد الفترة الانتقالية سيطالب باقرار سيادة اسرائيل على الضفة والقطاع والا سيبقى كل شيء على حاله » .

استشراء الاستيطان وتفاقم الارهاب

كان من نتائج عقد اتفاقية كامب ديفيد ونهج السادات الاستسلامي ، واطمئنان الصهاينة لخروجه نهائيا من الصف العربي ، وانتقاله الى التحالف معهم ، تشجيعهم لاطلاق العنان لمشاريع الاستيطان والتهويد . فبعد ان كانت خطة حكومات حزب العمل الاسرائيلي السابقة تغطي الاستيطان بالمناورة والخداع والتركيز على اقامة المستوطنات في الاطراف على غرار حزام المستوطنات الامني حسب مشروع الون ، فان حكومة بيغن اندفعت بشكل سافر ومكشوف لبناء المستوطنات في قلب المناطق ذات الكثافة السكانية في كل ارجاء الضفة الغربية .

واخذ بيغن يضع موضع التطبيق تفسيره لمشروع الحكم الذاتي بانه يشمل السكان ، ولا علاقة له بالارض وما بداخلها من مياه وثروات ، فهي حسب رأيه اسرائيلية ، وراحت حكومته تشق الطرق الجديدة الواسعة التي تقطع الضفة الغربية طولا وعرضا ، بحيث قسمتها الى مربعات زرعت فيها المستوطنات الجديدة ، مما جعل خطر تهويد الارض وطمس معالمها العربية ماثلا امام جماهيرنا في الارض المحتلة . وكانت هذه الهجمة الاستيطانية حافزا لمواجهتها ، والدفاع عن ارض الاباء والاجداد من اوساط واسعة ، ضمت عددا من الوجهاء والاعيان الذين تطلق عليهم الاوساط الامبريالية والصهيونية صفة « المعتدلين » لأنهم عرفوا بترددهم في مواجهة كامب ديفيد ، واستعدادهم للمهادنة والمساومة مع المحتلين . وقد شهدت الضفة الغربية موجة عارمة من النضالات الجماهيرية ضد الهجمة الاستيطانية ، وتحولت في حالات كثيرة في جلحول والخليل وبيرزيت ورام الله ونابلس الى اشتباكات دموية مع قوات الاحتلال ، سقط فيها عدد من الشهداء والجرحى ، بعد ان رد عليها المحتلون بمزيد من الاجراءات الارهابية التي شارك فيها المستوطنون انفسهم . وكانت مسيرة نابلس الضخمة احتجاجا على بناء مستوطنة الون موريه في مشارف المدينة ، مثلا بارزا على شمول حركة مقاومة الاستيطان ، حيث ضمت تلك المسيرة زهاء سبعة آلاف مواطن ، وشاركت فيها كل القوى والاتجاهات في المدينة .

كما لعبت نقابات العمال دورا بارزا في هذه النضالات الجماهيرية : بالاضافة الى مشاركتها في كل المؤتمرات والاجتماعات المكرسة لمقاومة كامب ديفيد والاستيطان ، وعقدت مؤتمرات خاصة بها ، نددت بالحكم الذاتي ، واكدت الموقف الوطني في الالتفاف حول منظمة التحرير وتأييد الدولة المستقلة .

وقد ادى هذا الجو الوطني الى مزيد من النشاطات في الحركة النقابية ورص صفوفها ،

وزيادة المنتسبين اليها مثلما ظهر في مؤتمر اتحاد النقابات في شهر حزيران الماضي،الذي شاركت فيه الاغلبية الساحقة من اعضاء مجلس الاتحاد ، وتمخض عن انتخاب لجنة تنفيذية تمثلت فيها مختلف القوى والمناطق ، بحيث وضع حد للنشاط الانقسامي في الحقل النقابي .

وقد برز الوعي الوطني والغيرة على الوحدة الوطنية في مسلك النقابات العمالية ، وحرصها وهي تقوم بواجبها في الدفاع عن مصالح العمال وحقوقهم على حماية المشاريع والمؤسسات الوطنية ، شريطة ان لا يكون ذلك على حساب العمال والحاق الحيف بهم لصالح اصحاب العمل . وقدمت نقابة عمال ومستخدمي شركة كهرباء القدس مثلا بارزا على هذا المسلك ، فهي رغم موقفها الحازم والصلب في الدفاع عن حقوق العمال في وجه تعنت رئيس مجلس الادارة وعدم اهتمامه بتأمين هذه الحقوق كانت تؤكد في بياناتها ونشاطها العملي حرصها الكامل على حماية الشركة كمؤسسةوطنية امام مساعي شركة الكهرباء القطرية الاسرائيلية للقضاء عليها وابتلاعها .

وفي قطاع غزة تسير الامور على خلاف حسابات وترتيبات المحتلين وحليفهم السادات ، التي بنوها على اعتبار ان القطاع نقطة ضعف يمكن البدء به في تنفيذ مشروع الادارة الذاتية،اذ تمخضت انتخابات جمعية الهلال الاحمر ، وهي اكبر مؤسسة وطنية في القطاع وتضم زهاء ٣٠٠٠ عضو ، وتمارس النشاط في المجالين الاجتماعي والسياسي ، عن فوز قائمة الائتلاف الوطني التي يتزعمها الدكتور حيدر عبد الشافي ، الشخصية الوطنية المرموقة ، وهزيمة القائمة المنافسة المرتبطة برشاد الشوا .

والى جانب ذلك فقد تعززت العلاقة بين القوى الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، من خلال المؤتمرات الشعبية والاجتماعات العامة التي يشارك فيها ممثلون عن الضفة والقطاع لتأكيد وحدة موقف جماهيرنا الفلسطينية في مقاومة الاحتلال ، ورفض الحكم الذاتي ، والالتفاف حول منظمة التحرير ، والتمسك بحق تقرير المصير والعودة وبناء الدولة المستقلة . فقد صدر عن الاجتماع الذي عقد في الثامن من حزيران الماضي ، في مجمع النقابات المهنية في القدس ، وضم مجالس النقابات المهنية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، عدة قرارات تتضمن الاهداف الوطنية الفلسطينية ، من ضمنها قرار يبرز اهمية الوحدة الوطنية على النحو التالي : « لما كان العدو يوجه جهوده المكثفة كجبهة معادية لحقوقنا الوطنية بغرض تمزيق شعبنا وشق ارادته،فان المجتمعين يدعون الى ضرورة تلاقي القوى الوطنية قولا وعملا ، ممثلة باجهزتها السياسية والنقابية والاجتماعية في جبهة وطنية واحدة تقود النضال الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، في اطار وتحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وان تجسد هذه الوحدة من خلال الممارسة الفعلية وفي اطار الجو الديمقراطي البناء ، وضمن برنامج الحد الادنى المتمثل في مقاومة الاحتلال الاسرائيلي والنهج الاميركي الساداتي الاسرائيلي،الهادف الى تطبيق الادارة الذاتية ضد ارادة شعبنا ، والعمل نحو تحقيق حقوقنا الوطنية الثابتة » .

ان الوعي السياسي العميق ، والشعور العالي بالمسؤولية الوطنية هما الطابع المميز لجماهيرنا في الارض المحتلة،وهو الوعي الذي يبرز في نشاطاتها الاجتماعية والفنية والثقافية . فمؤتمر الجمعيات الخيرية الذي انعقد في القدس في قاعة جمعية الشبان المسيحية كان مكرسا في

الأساس لبحث المشاكل الاجتماعية ، وكان مقررا ان لا يزيد عدد المدعوين له عن ثلاثمائة مواطن ، ولكنه تحول الى مؤتمر وطني واسع بعد ان زاد عدد المشاركين فيه عن الالف من ممثلي النقابات العمالية والمهنية والمجالس البلدية ومجالس الطلبة والهيئات النسائية في الضفة والقطاع ، وصدرت عنه قرارات سياسية وطنية تدين الاحتلال والحكم الذاتي ، وتؤيد الدولة الفلسطينية المستقلة ومنظمة التحرير . هذا الطابع المميز نفسه كان سائدا في اسبوع الفولكلور الفلسطيني الذي نظمه نادي الموظفين في القدس ، ومؤتمر التنمية في مجمع النقابات المهنية في القدس .

بيان الجبهة الوطنية الفلسطينية

لقد جاء بيان الجبهة الوطنية الفلسطينية التي تضم في صفوفها التنظيم الشيوعي الفلسطيني وعددا من منظمات المقاومة ، وممثلي القوى الوطنية الاخرى ، ثمرة لهذه النضالات التي جرت في اطار الوحدة الوطنية ، وتتويجا لها ، باعتبار الجبهة الاطار التنظيمي الثابت الذي يتولى تعبئة جماهيرنا في الارض المحتلة وقيادة نضالاتها .

وقد حدد البيان الارضية التي تستند اليها الجبهة الوطنية في نضالها ، والتي تتلخص في رفض « النهج الاستسلامي الذي يقوده السادات ، والذي ادى الى عزلة مصر عن الوطن العربي وتعرية الدور الاميركي الذي راهن عليه السادات تضليلا لشعبنا وللشعوب العربية،فلم يزحزح اسرائيل قيد انملة عن مخططها الصهيوني . وتأكد ذلك بقوة بدعم من الامبريالية ، بعد المبادرة باعلان القادة الصهاينة في اسرائيل بان لا تنازل عن شبر من ارض فلسطين ، ولا تراجع عن القدس ، ولا تراجع عن سياسة الاستيطان ، ولا تسليم بأي حق للشعب الفلسطيني ، وانكار وجوده اصلا .

لقد اسندت الامبريالية والصهيونية العالمية الى نظام السادات والحركة الصهيونية،دور الشرطي لضرب حركة التحرر الفلسطينية والعربية والافريقية واخضاع المنظمة لسيطرتهم .

وقد حذر البيان من المراهنة على الامبريالية الاميركية ، والتعلق بسراب الاوهام بان تقوم بممارسة الضغط على اسرائيل لصالح الشعب الفلسطيني والشعوب العربية . « ان اسلوب المراهنة على الامبريالية الاميركية من اجل الضغط على اسرائيل ادى الى تنازلات وتفريط بحق شعبنا وحق الشعوب العربية ، وانه رهان خاسر ومهين للامة العربية » .

ودعا البيان الى تعزيز التحالف مع قوى التحرير العربية والتقدمية وجبهة الصمود والتصدي ، وزيادة فعاليتها النضالية لكي تتحول إلى قوة قادرة على مجابهة الحلف الجديد الامبريالي الصهيوني الرجعي . كما دعا الى تعزيز التحالف مع الدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي .

الانعطاف في موقف الجماهير العربية الفلسطينية في اسرائيل

ان بروز الشخصية الوطنية المستقلة للجماهير العربيةالفلسطينية داخل اسرائيل ،

ونهوضها للدفاع عن ارضها في وجه مشاريع الاستيطان والتهويد ، وصيانة حقوقها المعيشية والوطنية امام سياسة التمييز والاضطهاد العنصري الصهيوني ، يشكل ظاهرة هامة بالنسبة لنضال الشعب الفلسطيني . ورافق هذا النهوض وساهم في دفعه وتحريكه، الوحدة الوطنية التي تمثلت في عدد من الهيئات والمنظمات ، مثل اللجنة القطرية للدفاع عن الارض ، ولجنة الطلبة العرب الجامعيين والثانويين وجمعية انصار السجين الفلسطيني ، ولجنة المبادرة الدرزية حيث تشكل هذه الهيئات ائتلافا وطنيا كما يضم بعضها ممثلين عن القوى التقدمية اليهودية . واستنادا الى هذا الائتلاف الوطني ، وبالتحالف مع القوى التقدمية اليهودية خاضت الجماهير العربية الفلسطينية على امتداد السنوات الثلاث الاخيرة عدة نضالات جريئة ، خاصة في مجال الدفاع عن الارض ، تحولت الى معارك دموية كان آخرها الصدامات في معليا ، والمظاهرة الكبيرة التي نظمت حول الكنيست دفاعا عن ارض النقب ، وشارك فيها الالوف من بدو النقب والجماهير الفلسطينية في الجليل والمثلث ، بالاضافة الى ممثلي القوى التقدمية .

وقد حرصت الجماهير العربية خلال هذه النضالات على التأكيد على وحدة الشعب الفلسطيني في مختلف مواقفه، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني ، وتأييدها لمنظمة التحرير بوصفها الممثل الشرعي الوحيد لهذا الشعب ، والتمسك بحقه في العودة وتقرير المصير ، واقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني ، ومقاومة كل المشاريع والمؤامرات التي تحيكها الامبريالية والصهيونية والرجعية لتصفية قضية الشعب الفلسطيني وفي مقدمتها مؤامرة كامب ديفيد .

وكانت هذه الظاهرة مفاجئة للصهاينة باحزابهم وهيئاتهم واجهزتهم الحكومية ، لانها كشفت فشل مخططاتهم لتذويب الجماهير العربية وطمس شخصيتها القومية ، رغم كل ما استخدموه من اساليب القمع والضغط والاغراء على امتداد الثلاثين عاما الماضية .

وجاءت وثيقة كنغ التي كشف امرها في اعقاب معارك يوم الارض ١٩٧٦ ، والدراسة التي نشرتها جريدة الجيروزاليم بوست في عدة حلقات في مطلع هذا العام ، لتوضح ما يعده الصهاينة لمواجهة هذه الظاهرة وضربها عن طريق الارهاب او اعتماد سياسة الاحتواء والتذويب ، وتوجيه النار بشكل خاص ضد الحزب الشيوعي الاسرائيلي « راكح » ، وشن حملات متوالية من التحريض والارهاب ضده واثارة الشكوك حول ولائه الوطني .

ومن الطبيعي ان تتركز الحملة الصهيونية ضد الحزب الشيوعي الاسرائيلي لانه يشكل نواة الائتلاف الوطني ، والمحرك الرئيسي للنهوض الوطني في السنوات الاخيرة ، ونظرا لدوره الكبير في المحافظة على الشخصية الوطنية المستقلة للجماهير العربية بفضل نضاله المثابر على امتداد الثلاثين عاما، دفاعا عن ارضها وتاريخها وثقافتها العربية وحقوقها الوطنية في وجه اشرس اشكال العنصرية الصهيونية، واستقطابه خيرة المناضلين والمثقفين والكتاب والشعراء والفنانين العرب ، ونجاحه من خلال تركيبه العربي اليهودي في تقديم مثل حي ملموس للتعاون الذي يقوم على اساس مناهضة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، والاعتراف بحق الفلسطيني في العودة ، وتقرير المصير ، والاستقلال الوطني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

ومن الطبيعي ايضا ان يلقى هذا الدور التقدير والدعم في صفوف شعبنا الفلسطيني ، وبين اوساط المقاومة الفلسطينية . وقد انعكس ذلك في قرارات المجلس الوطني في دورتيه الثالثة عشرة والرابعة عشرة ، وفي لقاء براغ الذي جرى قبل عامين بين وفد منظمة التحرير ووفد الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، وفي الاحتفالات المشتركة التي نظمتها فروع الاتحاد العام لطلبة فلسطين بالتعاون مع طلاب الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، في عدد من البلدان الاشتراكية ، وفيما تنشره « فلسطين الثورة » الصحيفة المركزية لمنظمة التحرير ، وصحف المقاومة الاخرى ، من مقالات « الاتحاد » ومواقف القادة الشيوعيين العرب واليهود ، امثال توفيق طوبي واميل حبيبي وماير فلنر وفيلتسيا لانغر .

لقد اصبح واضحا ان نهوض النصف مليون فلسطيني في اسرائيل ، ووحدتهم الوطنية ، يشكل رافدا من روافد النضال الفلسطيني يلتقي مع الروافد الاخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة في العديد من النضالات المشتركة ، التي كان يوم الارض سنة ١٩٧٦ نقطة انطلاق بارزة فيها ، دفاعا عن الارض ضد الاستيطان والتهويد ، واستنكارا لاجراءات القمع والارهاب ، وتأكيدا على التمسك بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني ، مما يؤكد وحدة الشعب الفلسطيني ، وفشل كل محاولات الصهاينة لتجزئته وتمزيقه .

شرطان اساسيان لتعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية

عند التعمق في العوامل الكامنة وراء الوحدة الوطنية بصيغتها المتقدمة في الارض المحتلة يتبين ان هناك عاملين اساسيين : اولهما ان هذه الوحدة انما تقوم وتتقوى في خضم النضال المثابر ضد الاحتلال والتصدي لكل المشاريع والمخططات التي تحيكها الامبريالية والصهيونية والرجعية ، والتخلي عن كل وهم بشأنها ، والقناعة بان الوسيلة الوحيدة لاحباط هذه المخططات هي مواصلة النضال ضدها ، رغم كل الصعاب والتضحيات ونبذ كل الدعاوى والميول الاستسلامية .

والعامل الثاني هو القرار الفلسطيني المستقل الذي يحكم في الاساس مواقف جماهيرنا وقواها الوطنية في الارض المحتلة ، وينبع من الالتزام بالمصلحة الوطنية العليا في حماية ارضها وثقافتها ومقدساتها وكرامتها القومية ، او الخلاص من نير الاحتلال ، مما يفرض على هذه الجماهير وقواها الوطنية ان تتكاتف وتتلاحم ، رغم تعدد تنظيماتها ، واختلاف اتجاهاتها الايديولوجية والسياسية .

ولذلك فان قيام وحدة وطنية راسخة وشاملة في اطار منظمة التحرير يتطلب بالضرورة توفر هذين الشرطين : الموقف الحازم ازاء المؤامرة ومناورات الامبرياليين واعوانهم من الرجعيين ، واليقظة الدائمة ازاءهما ، والقرار الفلسطيني المستقل الذي يضع المصلحة الوطنية الفلسطينية فوق كل اعتبار آخر .

وهكذا ، فان الثغرات التي ما زالت قائمة في مجال الوحدة الوطنية داخل منظمة التحرير ، تعود اساسا الى حقيقة ان مؤامرات ومناورات الامبريالية والرجعية ما زالت قادرة على استدراج بعض الاوساط في الساحة الفلسطينية والى التعلق بالاوهام حول جدوى الحوار مع اميركا ،

رغم عدم تخليها عن عدائها للشعب الفلسطيني وحقوقه الوطنية ، وحول امكانية تحييد اصدقاء اسرائيل وحلفائها من الامبرياليين ، وتتأثر بنصائحهم الرامية الى تمزيق الصف الوطني الفلسطيني ، بالدعوة الى « الاعتدال » وتحجيم « المتطرفين » ، والتلويح بالقزاعة البالية حول خطر انتشار الشيوعية بين الفلسطينيين .

ولا بد من التأكيد على ضرورة تجديد اليقظة ازاء المناورات الامبريالية في الشهور الاخيرة التي ملأت الاجواء بتصريحات العديد من ساسة الامبرياليين في اميركا،وصدور فيض من الاحاديث والبيانات والتعليقات عن الموقف الاميركي الجديد بالنسبة للقضية الفلسطينية ، واستعداد الولايات المتحدة للحوار مع منظمة التحرير .

ان الدافع وراء هذه المناورات ، هو ادراك الامبرياليين في اميركا واوروبا الغربية ، ان مؤامرة كامب ديفيد تعترض طريقها عقبة رئيسية هي العقبة الفلسطينية التي لم تستطع ازاحتها رغم خيانة السادات ، ورغم حرب الابادة التي يشنها الصهاينة ضد الشعب الفلسطيني بدعم من الولايات المتحدة ومباركة السادات ، ولذلك ، فالقصد من هذه المناورات هو نشر البلبلة في صفوف الشعب الفلسطيني ،وشق صفه الوطني ، وتمييع الموقف العربي في مواجهة مؤامرة كامب ديفيد ، واضعاف علاقات التحالف مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية .

وتعود هذه الثغرات ايضا الى تدخل العديد من الانظمة العربية في شؤون منظمة التحرير ، وسعيها لفرض سياستها الخاصة على القرار الفلسطيني في اتجاه استبعاد او تحجيم هذه القوة الوطنية الفلسطينية او تلك ، مستغلة حاجة الشعب الفلسطيني ومنظماته للدعم المادي والسياسي من الشعوب العربية كلها ، نظرا للطابع القومي للمعركةالتي يخوضها الشعب الفلسطيني دفاعا عن الامةالعربية وشعوبها في وجه الغزوة الامبريالية الصهيونية التي تستهدف بسط سيطرتها ، وتحقيق اطماعها التوسعية في الوطن العربي .

ولذلك ، فان المساعي والدعوات لتعزيز الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار منظمة التحرير ، وتطبيق برنامج الوحدة الوطنية الذي اقره المجلس الوطني في دورته الاخيرة : سيظلان متعثرين ان لم يتوفر الشرطان الاساسيان : الموقف الحازم ازاء مناورات ومؤامرات الامبريالية،والحرص على حماية القرار الفلسطيني المستقل .

وبالمقابل ، فان التصدي الثابت للامبريالية بكل مؤامراتها ومناوراتها ، والتمسك بالاهداف الوطنية في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة المستقلة ، ورفض كامب ديفيد والحكم الذاتي ،وباقي المشاريع التصفوية ، أو الحرص على التلاحم مع حركة التحرر الوطني العربية بكل قواها الوطنية والتقدمية ، والتحالف مع الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية ، وحماية القرار الفلسطيني المستقل ، كل ذلك يشكل القاعدة الصلبة الثابتة التي تقوم على اوسع وأشمل وحدة وطنية راسخة تعبىء طاقات شعبنا النضالية ، وتحقق له النصر .

أميرة الزين

دم عربي في روايات غربية

بين يدي روايات فرنسية وانكليزية ، وبعضها منقول عن الالمانية ، يطلق عليها عادة أسم روايات بوليسية أو خيالية أو تجسسية أو مغامرات رائجة جدا « Best Seller » يجمعها خيط زمني واحد ، فهي كلها مكتوبة أبتداء من عام ١٩٦٧ ، وتدور أحداثها بين العالم العربي وعواصم العالم الغربي . أنها روايات تشكل ردة فعل على « الخطر العربي » . فمنذ « تدويل » القضية الفلسطينية و « أزمة » النفط التي تقض مضجع العالم الغربي اليوم ، والغرب يصور ان وجوده مهدد من قبل العرب سواء كانوا « أرهابيين فلسطينيين أو شيوخ نفط » . انها روايات التعليق على الحدث العربي من وجهة نظر رأسمالية غربية ، وهي تكتب اليوم بغزارة كما كتبت قبل سنوات روايات«جيمس بوند » كردة فعل على « خطر المعسكر الاشتراكي » . وعلى الرغم من ان بعضها خيالي الا انها جميعا تربط ربطا وثيقا بين الوجود الروائي والمجتمعات التي تصفها ، فهي تعرف جيدا حساسية القارىء الغربي لها وتجاهها ، وتدرك كيف تثير أهتماماته .

طبعا لكل ظروف أجتماعية نصوصها . النص يتزوج الحدث ، والحدث يولد النص . ومنذ ان عرف الانسان السرد وهو يلوذ به ليصب فيه كوابيس مجتمعاته وطموحاتها ، فكل مجتمع يفرض روايته ، ويفرض بذلك شبكة رموزه . بدءاً من ظهور الرواية ، تناسلت أشكالها الى ما لا نهاية مواكبة انتقال المجتمع من المرحلة الاقطاعية الى الصناعية فالالية . بذلك أصبحت عالما اجتماعيا مصغرا يعكس العالم الاجتماعي الاكبر .

وازاء تورط الرواية اجتماعيا تحمل الروائي مسؤولية كبيرة . أراده بلزاك ان يكون على مستوى خطر رجل العلم والسياسة واراده هيجل ان يمارس وظيفة اساسية هي تصوير الفرد في وسطه اليومي . ومع هذا التورط لم تكن الرواية بريئة . كانت تخدم غرائز جماهيرها وتتفنن في تجميل نفسها لاغراء هذه الجماهير . ولقد اطلق المجتمع الحديث انواعا شتى من الروايات

ليشبع حاجة مجتمع معين وطبقة معينة مكرسة لحياة آلية تسعى الى الهرب منها . الوجود الروائي متشابك ابدا مع الوجود الاجتماعي . واذا كان القرن التاسع عشر قد عرف ازدهار الرواية النفسية وولادة الرواية البوليسية ، فاننا لم نشهد عصرا عرف مثل هذا الركام من الانتاج الروائي البوليسي التجسسي الخيالي كعصرنا بالرغم من نشوب الحروب التي شهدها القرن السابق ، وحدوث الانهيارات الاقتصادية . ربما لان السياسة يومها لم تكن بحاجة الى خلق انواع روائية متخصصة بالرد المباشر او غير المباشر على هذا التيار او ذاك ، بالرغم من ان روايات القرن التاسع عشر كانت أيضا غير بريئة سياسيا .

في فترة الحرب الباردة انتج الغرب بطلا شعبيا أطلق عليه أسم « جيمس بوند » وجسد فيه خوفه من المعسكر الاشتراكي ، ومجد عبره تفوق المجتمع الرأسمالي ، وفساد المجتمعات المالية ، وحضارة المدن التي شبت بسرعة ، وسيطرة الجنس وهوس العنف . كان جيمس بوند وريث أرسين لوبين الذي مثل قبله الصراع بين الديمقراطية والعدالة .

وبحكم هذا الارتباط الوثيق بين الرواية والمجتمع فاننا سنركز عليه في دراستنا لرواياتنا التي تحدثنا عنها . وكما يقول لينهارت « ان السمة التاريخية الاجتماعية لاشكال اللغة واضحة الى درجة لا يمكن لاجتماعيتها ان تغيب عنا . انها ليست جزأ منفصلا من كل يمكن تسميته بتاريخ الاشكال بقدر ما هي جزء من كل يمكن تسميته بتاريخ الايديولوجيات التي تفرزها المجتمعات ، والتي تعكس تناقضات الفرد في التاريخ وتناقضات التاريخ في الفرد » .

ان الروايات التي بين ايدينا هي جزء من تاريخ ايديولوجي ، بل هي بحد ذاتها واقع تاريخي اجتماعي . لذلك ليس من الغريب ان تبدو طبيعية لابناء الايديولوجية التي تضفي عليها شرعيتها كما تعطي للسلطة شرعيتها . وليس من الغريب كذلك ان تواكب هذه النصوص تغير بنية السوق ، وتتحول الى سلعة تخضع لقانون العرض والطلب ، وبالتالي لمراحل الانتاج والتوزيع والاستهلاك الرأسمالي . ولقد عبر هربرت غانز عن العلاقة الوثيقة للانتاج الثقافي في البلدان الرأسمالية مع التجارة بقوله « ان بعض الشخصيات الحكومية الاميركية تحاول توجيه دور النشر لحساب هذا التيار السياسي او ذلك ، وبالتالي فان الموزعين سياسيون ثقافيون ، وان الجمهور ليس الا الناخب الثقافي » . اما ليو بوغارت فقد كشف عن أرتباط الجريمة السياسية بالجريمة في وسائل الاعلام ، حين ذكر ان لجنة رئاسية قامت ، بعد مقتل كينيدي ، بتحقيق اثبتت فيه ان الفترة التي أغتيل فيها كينيدي كانت الفترة التي روجت فيها وسائل الاعلام لأفلام الاغتيالات السياسية وقصصها . ان الجريمة السياسية في نظر بوغارت نفسه تدفع الى تسويق اكبر لروايات العنف ، او ان روايات العنف هي التي تدفع الى الجريمة السياسية ، وتمنحها شتى التقنيات الخيالية للوصول اليها .

غير اننا لن نصنف الروايات التي بين أيدينا تصنيفها التقليدي ، ولن ندخل في أدبياتها او جمالياتها او مواقعها اللغوية لان أي تحليل من هذا النوع سيطمس بعدها الاجتماعي كما سيعتبر تحليلا عبثيا ، لانها روايات هشة ، وتكاد تكون صحافية . فهذه الروايات هي شبه قوالب جاهزة يسكب فيها التصور الغربي للعربي . انها ليست نصوصا تجريبية ، كالرواية الحديثة التي توجه اللغة في عدد من الاتجاهات وتخضعها لولادات مستمرة ، بل هي نصوص

وظائفية « اذ يمكن تقسيم الانواع الروائية الى نوعين : الروايات التلميحية او النفسية ، والروايات الوظائفية أي الشعبية » . ولكن هذه النصوص تصنف أيضا كنصوص الثقافة الجماهيرية . وقد وضع هذه التسمية » علم أجتماع وسائل الاعلام « حين قسم الثقافة الحديثة الى نوعين : ثقافة تتخصص بها النخبة ، وتخف كلما تعقد المجتمع الصناعي . وثقافة للجماهير لا يقصد بها ثقافة الفقراء ازاء ثقافة النخبة ، بل هي ثقافة المجتمع ككل بما في ذلك ثقافة النخبة . انها ثقافة الفرد المقتلع في المجتمع البرجوازي التقني الصناعي الحديث . وهي الثقافة التي يضيق مضمونها كلما اتسع جمهورها .

من هم كتاب هذه الروايات ؟

أنهم وسطاء بين الغرب وبين الشخصيات العربية التي يصفونها . انهم ليسوا وسطاء خياليين يكتبون من وراء مكاتبهم بل هم وسطاء واقعيون تجولوا و « ساحوا » في المنطقة العربية ، والسياحة هنا تعني التجسس . فمعظم هؤلاء الكتاب مستشارون لهذه الشركة او تلك المؤسسة او الوزارة . وهم غالبا في مراكز فعالة تساعدهم على الحصول على مادة تصورهم الروائية الخام . ان « غي سارتو ليه » كآتب رواية « نيويورك ستنفجر » هو مراسل محطة التلفزيون الفرنسية الاولى من لبنان ، و « بول اردمان » كاتب « انهيار ٩٧٩ » كان مستشارا ماليا لدى الحكومة الاميركية لفترة طويلة ، وقد تجول بحكم عمله في منطقة الخليج ، و « ميخائيل حاييم » كاتب رواية « لوانفجر سد اسوان » مدير قسم الشرق الاوسط في مجلة ميونيخيه ، يعرف المنطقة العربية عن ظهر قلب . اما « جيرار دو فيلييه » الذي يفبرك كل شهر تقريبا رواية عن أهوال وأخطار الشرق الاوسط ، فيبدو انه يعرف المدن العربية التي يصفها بدقة أكثر مما يعرف شوارع عاصمته باريس .

ومع ان تصور هؤلاء الكتاب للعربي مستمد من علاقتهم مع الطبقة البرجوازية التي استضافتهم فان وصفهم لهذه الطبقة اياها لم يكن افضل من وصفهم للنموذج العربي الثاني ، أي الفلسطيني . فالبرجوازية اللبنانية والاردنية في رواية « موت في بيروت »و «مذبحة في عمان » ليست باقل شراسة من « جعفر » الفلسطيني في رواية « اقتلوا كيسنجر » .

ولكي نمسك بخيوط هذه الروايات بشكل افضل لا بد من عرض سريع لبعضها :

«نيويورك ستنفجر » للفرنسي غي سارتوليـــه

تتلخص الرواية في ان فرقة من « الارهابيين » بينهم فلسطينيون ويابانيون واميركيون لاتينيون ، ومهندس اميركي ، وهم ينتمون جميعا الى منظمة « أمل » . يسرقون البلوتونيوم من مركز طاقة أميركي ثم يخطفون السفير الاميركي في باريس ويطلبون من الامم المتحدة ان تعلن تحرير الضفة الغربية ، وان تلتزم بوحدة اراضي هذا الوطن الجديد ، وتتعهد بانسحاب اسرائيل منها خلال فترة قصيرة . ثم تتوجه بالطائرة التي خطفت السفير الاميركي من باريس الى نيويورك وهي تهدد بأن هنالك قنبلة نووية موجودة في مكان ما من نيويورك ،'وقد تنفجر المدينة بين لحظة واخرى اذا لم تستجب الامم المتحدة والحكومة الاميركية لمطالبهم .

وبعد جهود موظفي مكتب التحقيق الفيدرالي يلقى القبض على المهندس الاميركي في قلب نيويورك ، وتعطل القنبلة .

خلال ذلك يقتل الارهابيون وزير الخارجية الاميركية الذي احتجزوه عندما حطوا في مطار كينيدي . وتنتهي الرواية بالقاء القبض على مختطفي الطائرة .

« قطط الامارات » لشارل دييباش

يصور كاتب الرواية وهو رئيس جامعة « اكس ان بروفانس » الفرنسية العالم بعد نفاد النفط : الغرب خائف من تدهور حضارته الصناعية ويبحث عن طاقة بديلة عن النفط . وفي أحدى امارات الخليج التي يسميها الكاتب بامارة «البروفان» يكتشف احد البدو وهو ينقل هرته على عربة ان جلدها يزيد من سرعة الدولاب . وهكذا يقتلها ويضع جلدها على الدولاب ، فتنطلق العربة بسرعة هائلة . وبالمصادفة يرى هذه الحادثة عالم اجتماع فرنسي اسمه روفائيل كان يقوم بدراسة عن البدو ، فيرحل الى فرنسا فورا ليخبر رئيس جمهوريتها بالامر العجب . ويسارع رئيس الجمهورية الفرنسية « غي غوردان » الى ابرام عقد مع امارة البروفان لاستيراد جلد القطط بكميات هائلة ، بعد ان يصدر المجلس العلمي الفرنسي دراسة تقول ان جلد قطط امارة البروفان وحدها صالحة لانتاج الطاقة .

« القرصان » لهارولد روبينز

ملياردير خليجي أسمه سمير يحلم بطفل يرثه . وتشاء الظروف ان تضع زوجته طفلة أنثى خلال رحلة عبر الصحراء الى الحج . في ذلك الوقت كان هنالك يهودي « بن عزرا » يتسلل مع زوجته الى القدس عبر الصحراء وتشاء الظروف ان تكون زوجة اليهودي حاملا ، وتضع في الوقت نفسه طفلا ذكرا على يدي الملياردير الخليجي الجراح . ويقوم الرجلان بمبادلة الطفلين ، خاصة وان الام اليهودية تموت خلال الولادة . ويكبر الطفل اليهودي « بيدر » في بيت الملياردير العربي دون ان يعرف أصله ، ثم يتزوج من فتاة لبنانية يطلقها بعد ذلك ليتزوج من فتاة أمريكية . ويصبح له دور كبير في أبرام الصفقات الكبرى بين أميركا والبلدان العربية ، وتلتحق طفلته « ليلى » بصفوف المقاومة دون علم أبيها ، ثم تنسق مع المقاومة للحصول على اسرار صفقات أبيها . بعدها تقوم بخطف زوجة أبيها الاميركية وأبنيها على طائرة متوجهة الى بيروت . وتطالب بفدية ضخمة للافراج عنهم .

هنا يتصل « بيدر » بوالده سمير طالبا المعونة . ثم يتصل سمير ببن عزرا الوالد الحقيقي لبيدر طالبا منه انقاذ الموقف . وكان بن عزرا قد أصبح ضابطا في الجيش الاسرائيلي . وهكذا يتوجه بن عزرا مع فرقة من جنوده الى حدود بلد عربي قريب من لبنان ، وينقذ الطائرة المختطفة ، ويرد الزوجة وأبنيها لبيدر .

« لو انفجر سد أسوان » لميخائيل حاييم

هي أهم الروايات التي بين أيدينا ، فقد ترجمت الى عشرات اللغات من الالمانية . تدور أحداثها عام ١٩٧٣ بعد الحرب على السيناريو التالي : اسرائيل تهدد مصر بتفجير سد أسوان واغراقها بطوفان جديد اذا استمرت طائراتها تعبر قناة السويس . ولتخويف المصريين ترمي الطائرات الاسرائيلية اعلاما في أماكن عديدة قريبة من بحيرة ناصر فتبث الرعب في قلوب الجيش المصري الذي يسرع للتحقيق ، ويستعين بالخبراء السوفيات .

وتدل تقارير الخبراء السوفيات والجيش المصري ان هنالك خللا يهدد بانهيار السد وانه يجب ايجاد حل علمي على مستوى دولي لايقاف أكبر كارثة تاريخية عرفها هذا العصر اذ يمكن في أية لحظة ان يهجم ٢٠٠ مليار متر مكعب من الماء والطمي على المدن المصرية .

بعد ذلك تظهر تيارات مائية في البحيرات الاصطناعية ويسقط عدد كبير من الضحايا في المناطق القريبة من السد . وتهدد اسرائيل مصر : اما ان توقعي على معاهدة صلح معنا ، او نغرقك . ان علماءنا التكنولوجيين يملكون حلا لمشكلة السد . اما اذا رفضت الصلح فأننا سنمحو مدينة الموتى وطيبة والقاهرة والاسكندرية من الوجود بلمح البصر .

ويبدأ المنجمون والحاخامات الاسرائيليون بحملة خلاصتها ان الجرح الثاني عشر والاخير لمصر قد تحقق وان النبؤات التوراتية صادقة . وتضطر مصر التي يرئسها رجل أسمه « داسات » الى توقيع معاهدة صلح مع رئيس دولة اسرائيل دايان ، وان تستقبل مفتوحة الذراعين اول سفير اسرائيلي في مصر مناحيم بيغن (الرواية مكتوبة عام ١٩٧٣) .

غير ان الاسرائيليين بعد توقيع السلام يعلنون ان انقاذ السد قد فات اوانه ، وان الكارثة واقعة لا ريب . ويخصص الكاتب الفصل الاخير من الرواية لوصف القاهرة وهي تغرق بطوفان هائل .

روايات « دوفيلييه » الفرنسي

أما روايات دوفيلييه الست « موت في بيروت » و « مذبحة في عمان » و «غرب القدس » و « أقتلوا كيسنجر » و « حارس أسرائيل » و « تموت بعد ان ترى مالطا » فتدور جميعا حول البطل « مالكو » الذي يعمل لحساب السي أي أيه في البلدان العربية كما يعمل لحساب بعض الانظمة العربية لحمايتها من المقاومة الفلسطينية كما في « مذبحة في عمان » و « أقتلوا كيسنجر » .

ويعمل مالكو احيانا في التحقيق عن جريمة قام بها السوفيات ضد أحد عملاء السي أي أيه كما في « حارس أسرائيل » و « موت بيروت » ، او يطالب بالتحقيق في قضية أغتيال موظف تابع للسي أي أيه على يد استخبارات احد بلدان الخليج كما في « غرب القدس » ، او يحقق في نشاط المخابرات الليبية في مالطا وعلاقتها بالمقاومة كما في « تموت بعد ان ترى مالطا » ، حيث تلعب ملكة جمال عالمية لبنانية دور جاسوسة للمقاومة ضد السي أي أيه وتعمل مع زعيم فلسطيني يتنقل بين بيروت وروما ومالطا ، ويقتل في النهاية ، كما في كل روايات دوفيلييه التي ينتصر فيها مالكو على الشياطين العرب والسوفيات .

وأول استنتاج يخرج به القارىء من هذه الروايات هو العنصرية الفجة التي لا تعرف المواربة . فمنذ الصفحة الأولى لا تسعى الى وصف او دراسة نفسية للشخصية الروائية. الكتابة هنا ذات هدف وظائفي واحد: وصف العدو يعني تحطيمه معنويا لذلك ترسم الروايات شخصية العربي كاريكاتوريا ، وبطل افلام كرتون ، وتتفنن في تشويهه جسديا وخلقيا حتى يصير انسانا بشعا جدا غريب الملامح يثير القرف والاشمئزاز . انه بهلوان مضحك ، ومهرج تشفق عليه .

ويلجأ الكتاب الى التكرار كلما استطاعوا حتى يخيل اليك احيانا ان الرواية ليست الا مجموعة اعلانات تجارية تحذيرية من شخصية العربي . ففي « أقتلوا كيسنجر » ص ٥٠ : دعا عبد الزكي مالكو الى الطعام ، واوقفه امام جمل مشوي ، بداخله خروف مشوي ، بداخله دجاج مشوي ، بداخله حمام مشوي ، وبداخل الحمام بيض مسلوق . اكتفى مالكو بان تناول بيضة مسلوقة . كان الوقت متأخرا ولم يبق سوى بعض المدعوين الذين يأكلون بأصابعهم الجمال المشوية ، اذ لا يستطيع أي بدوي ان يقاوم اغراء المآدب . وفي ص ٣٨ من هذه الرواية أيضا : « كانت عيون الشيخ ابو شرجة تلمع سرورا وكبرياء . عيون حمراء جاحظة ، لم يكن دم عشرة أجيال من البداوة يسيل عبثا في عروقه » . وفي ص ١٥٦ : « كان أبو شرجة مقرفا يسيل ككتلة من زبدة » .

وفي ص ٥٦ من «قطط الامارات»« : دعا الامير رئيس الجمهورية (الفرنسية) غي غوردان للالتحاق به في المسبح حيث يتوضأ . ونزل غي غوردان الى الماء بدون تردد وهو حذر نظرا لشيخوخته . .. والقى الامير بثقله على عنق الرئيس ، وقبله بحماسة شديدة على الخدين والعنق . وكانه عاشق يلتقي بحبيبته بعد حرب طويلة ، وقال :

« فخامة رئيس فرنسا المبجل . اريد ان اشكرك على الماء الذي وضعته في تصرفي . انه أجمل هدية . ثم عب الامير جرعة كبيرة من الماء نفخت خديه ، ثم لفظها على صلعة غي غوردان وكانها ماء مطهر » .

وفي ص ٦١ من الرواية : « خلال كل زيارته لباريس لم يفارق الامير المغطس . كان يرفض الدعوات الفخمة ، ويطلب تمرا وتينا ولحم حمار مشويا » .

وفي « موت في بيروت » ص ٦٠ :« كانت منى قد كونت لنفسها فلسفة خاصة عن هؤلاء الشيوخ المتخلفين والمهووسين بنبيهم . يدعونها الى قصورهم البشعة الغارقة بالنفط ثم يجنون فوق جسدها . كانت تعلم انهم يزعمون الايمان بتعاليم نبيهم لكنها رأتهم لاتفه الأسباب يعلنون الجهاد ثم يسكبون الويسكي على جسدها ويلعقونه » .

وتتطور مفردات هذه العنصرية مع تطور الاحداث . فجيرار دوفيلييه يتفنن في أشراك شخصيات جديدة باستمرار . ففي رواية « تموت بعد ان ترى مالطا » يبدأ لاول مرة بوصف شخصيات مستلهمة من الثورة الايرانية . وهكذا تكون الشخصية الرئيسية تحمل أسم آية الله : « كان لا يعرف الابتسامة ابدا كأنه آية الله » و « كان شلال من الشعر الاسود ينسدل على خصرها حتى ان آية الله نفسه يفقد عقله ويجن لو رأها » .

ويبقى تطور هذه المفردات عند جيرار دوفيلييه مرتبطا بما يسميه « حرب الكفار » وخاصة في رواية مالطا : « كان مالكو وحيدا في حملته الصليبية . وكان يتابع حرب جده ضد الكفار ، وان تأخر ذلك ، وأختلف الشكل . لم يكن ذلك يزعج مالكو ، فمالطا اذا كانت تتحدث بلغة غريبة وتشبه أرضها أرض شمال أفريقيا أكثر مما تشبه السويد فأنها في أوروبا على كل حال». ان مالكو نفسه ينتمي الى « حركة فرسان مالطا » ، يريد ان « يحرر » هذه الجزيرة من أي وجود عربي أو أسلامي . ولهذا تتحول الرواية الى صراع أوروبي عربي حول هذه الجزيرة

الاستراتيجية : الليبيون والفلسطينيون في جبهة والسي آي آيه والحضارة الغربية في جبهة . اما « آنا ماريا »المالطية أحدى شخصيات الرواية فانها تتوسل لمد لو (ممثل السي آي آيه) بلسان كل مالطا لكي يخلصها من الاستعباد العربي :« لا أريد ان اترك الجزيرة ففيها ولدت . ان هذه الارض لنا ويجب ان لا تعود للعرب . لقد دحرناهم دائما . انها قضيتكم ايضا . خلال الحصار الكبير عام ١٥٦٥ لم يكن فرسان مالطا سوى ٥٤٠ فارسا ومعهم بضعة الاف من المرتزقة ، ومع ذلك فقد وقفوا في وجه ٤٠ ألف تركي وانتصروا » (ص ١٠٣) .

ويحاول مالكو ان يقنعها بان الغرب لم يعد قويا كما كان من قبل : « قال مالكو بحزن انني مقتنع بما تقولين ولكن السي آي آيه لم تعد كما كانت . انهم يخافون من ظلهم . وفي لانغلي يمارسون المحبة المسيحية كما لم يمارسوها من قبل . وكلما صفعوهم على خد اداروا الخد الاخر . ان للرئيس كارتر خلقا كريما » .

«وانهالت آنا ماريا على الرئيس كارتر بالشتائم » (ص ١٠٢) .

وتصور العنصرية العربي احيانا بأنه ضعيف وطيب وساذج . فأنت لا تحتقره لان منظره بشع او لانه مهرج وحسب ، وانما تحتقره ضمن منطق عالم يأكل فيه الكبير الصغير . ويجري مالكو حوارا في سره حول ذلك :« شرب مالكو قهوته المرة القوية . كانت تلك فرصته الوحيدة ليستلم زمام الامور وليفاجيء اعداءه . خاصة رضوى . لا شك في ان الخطر كبير ، لكنه تعود على العرب ، فهو يعرف انهم لن يصيروا محترفين ابدا. انه لا يستطيع ان يغامر على هذا الشكل مع الالمان او الروس لانهم لن يمنحوه اية فرصة . اما مع الفدائيين والوهم الرومانتيكي فلا بأس من ذلك » (ص ٤٠ من مذبحة في عمان) .

وفي ص ٢٥١ من الرواية نفسها : « حجز مالكو غرفة في فندق العقبة ، ثم قام الى الشاطيء الفارغ ، ووجد مركبا للتزلج قريبا ، فأقترب وسأل هل يمكنني ان اقوم برحلة في البحر ، وان اصل حتى الشواطيء السعودية . كان ذلك ممكنا . وأعطى مالكو للملاح أربعة دنانير ثم صعد الى المركب . بعد ثلاث دقائق كان المركب يتوجه الى العقبة وكان هنالك بعض ناقلات النفط ، وليس من مركب أخر في الافق . جلس على المقعد الخلفي وابتدأ يتشمس . بعد ربع ساعة أختفت العقبة . نهض مالكو ثم أقترب من الملاح ، ووجه الى عنقه مسدسه . ابتدأ العربي يرتجف ، واصطكت أسنانه بالرغم من ان مالكو كان يبتسم له برقة . أشار اليه بطرف مسدسه ، وقال بالانكليزية : اقفز الى الماء . فرك العربي عينيه . وكرر مالكو السؤال بقوة هذه المرة : اقفز أو تموت . أخيرا فهم العربي . كان الساحل على بعد مائتي متر فقط . وقفز العربي الى الماء وابتدأ بالسباحة . ووجه مالكو المركب باتجاه الغرب . كانت صحراء سيناء تبعد ٦٠ كلم ، وكذلك مدينة ايلات « الاسرائيلية »توأم العقبة . أي على بعد ثماني دقائق بهذا المركب السريع . ان العرب لا يملكون ردة فعل ابدا . وحين يصل الى منتصف مضيق تيران فأنه يدخل الى المناطق الاسرائيلية ، أي الى الامان . واذا خطر على بال الاردنيين اطلاق رصاصة واحدة فأن أسرائيل ستبيد العقبة عن بكرة أبيها . خلال حرب الايام الستة لم يتجرأ الاردنيون على اطلاق رصاصة واحدة بالرغم من ان أربعة كيلومترات فقط كانت تفصل بين المدينتين » .

اما كاتب رواية« لو انفجر سد أسوان » فلا يملك أية عواطف انسانية امام الطوفان الذي

يجتاح القاهرة ، بل كان يرى انه من الضروري تخليص البشرية من هذه « الملايين الحقيرة » : « رأى دانيو (خبير فرنسي استقدمته السلطات المصرية لفحص سد أسوان) الحارس وابنه في الشارع يحاولان زحزحة السيارة من الموقف . وكان دانيو يراقب تلاعبهما منذ ان وصل الى القاهرة . كان الوالد وأبنه يدفعان بالسيارة وهما يتظاهران ان سيارة أخرى ستاتي وان ليس هنالك من مكان . وهكذا يمضيان النهار على هذه الحال تلمع النقود في الهواء ويلتقطها الصبي بيد واحدة . قال دانيو بسره انها مهنة رابحة خاصة مع الاوضاع المعيشية المصرية . هكذا تأكل عائلة بأكملها . بزحزحة سيارات الناس شمالا وجنوبا يربحون خروفا وبصلا وورق عنب . ولكن اذا أنهار السد فان ذلك سينتهي ، ولن أرى بعد ذلك على مدخل الفنادق صبيانا من النوبة بعيون تشبه عيون الكلاب ... هذا الرجل الذي يحمل خروفا على دراجته وعليه علامة حمراء .. هذا الرجل سيموت أيضا ، وكذلك البائع عند كوبرى التحرير الذي سرق منه المال » (ص ٢٣٢/٢٣٣) .

« وتابع دانيو هل ستموت الصبية بجذع شجرة يقتلها ؟ كلا انها ستموت تحت تأثير الضغط الجوي الذي سينفخ رئتيها ، ثم سيفجرهما . ان جلدها حار جدا . اما قذاف بأنفه الشديد الحمرة فسيموت ايضا على سطح مباني هليوبوليس لا شك . سيحاول التعلق بهوائي تلفزيون قبل ان يغمره الطوفان . كان دانيو في الطابق الاول من الفندق. حاول ان يقدر المسافة التي تبعد نافذته عن الشارع . وكانت مجلة سويسرية قد تنبأت بأن ارتفاع موج الطوفان سيبلغ ١٢ مترا حين يصل الى القاهرة . اذن ١٢ مترا ... بأمكانه ان يبقى نائما مع الصبية حتى مجيء المراكب . ستأتي المراكب وترمي الحبال لكي تنقذه ، وسينزل هو والصبية على الدرجات الموحلة ، ويغطس في الطمي الى ان يصل الى المركب . وقال في سره هل أحملها ؟ سيكون في الغرفة خرفان ميتة ، وربما كان هنالك جثث اطفال جرفتها المياه » .

ولا تكتفي هذه الروايات بهذا الرسم العنصري للعربي ولا بالتشفي من فواجعه ، بل تشحن مشاعر القارىء لقبول كل انواع العنف والتعذيب والقتل للانتقام من هذا العربي ، حتى ان كل هذه الروايات تقوم سطراسطراً وصفحة صفحة على جثث عربية تتساقط ، وعالم يولول ويستغيث ، وكأنك تعيش في جو الانتقام التوراتي نفسه وخاصة في روايات دوفيلييه ورواية « لو انفجر سد أسوان » . ان هنالك حربا مقدسة ضد العرب ، وثنائية حادة بين الاله الغربي والشيطان العربي . ان مالكو لا يستطيع ان يرتاح في حربه المقدسة هذه ، فطالما ظل هنالك عربي فأن العالم في خطر كما في سفر ارميا أصحاح (١٧/٤٨) : ملعون من يعمل عمل الرب برخاء . وملعون من يمنع سيفه عن الدم . أو أصحاح (٦/٤٧) آه يا سيف الرب حتى متى لا تستريح . انضم الى غمدك وأهدأ وأسكن . كيف يستريح والرب قد أوصاه . واصحاح(٣٠/٥١ ــ ٣٢) انت لي فأس وأدوات حرب فاسحق بك الامم وأهلك بك الممالك واكسر بك الفرس وراكبه واسحق بك المركبة وراكبها ، وأسحق بك الرجل والمرأة واسحق بك الشيخ والفتى وأسحق بك الغلام والعذراء .

وفعلا فان دوفيلييه وميخائيل حاييم يقولان انهما استوحيا التوراة في كتاباتهم بل ان الثاني يقول ان كل روايته (لو انفجر سد أسوان) تحقيق لنبؤة توراتية : « راح الاسرائيليون الاتقياء يقولون ان نبؤة اشعيا قد تحققت مع مصر : سيجف ماء البحيرات وسيجف النهر

ويندثر» (ص ٨٨) . حتى لم ينس الكاتب ان يجعل ابطاله اليهود يقومون ببعض الذبائح الطقسية احتفالا بتمركزهم في مصر : « قال رئيس الشعبة عادل صبرى للاسرائيلي من اين جاء هذا الدم ؟ أجاب الاسرائيلي لقد ذبحنا عنزة صغيرة :

ـ ولكنه دم انسان ؟

ـ كلا انها مجرد عنزة .

كان الطفل يبكي على الدرج . دخل الضابط المصري الى الدهليز وقال لزميله ان كل قبضات الابواب في الشارع ملوثة بالدم . أجاب صبري انهم يريدون ان يحرقوا الموتى . لقد شممت الرائحة . أجاب الاسرائيلي : لقد رمينا الجلد والرأس فقط داخل النار ، وصار يتمتم :« ستحرقون بالنار كل ما يتبقى قبل مجيىء الغد » . وأمسك صبري بلحية الاسرائيلي وهو يصرخ : هل جننت ؟

بقي الاسرائيلي صامتا منخفض الرأس .

كان الطفل ما يزال يبكي على الدرج ، وفي الدهليز كان صبري يسمع صوت أقدام حافية تقترب .

سأل الدركي صبري : هل نعلم القيادة ؟

كلا لم أنته من التحقيق بعد . ووضع الضابط المصري يده على كتف الاسرائيلي وقال أذن انت قتلت عنزة ؟

أجاب الاسرائيلي وهو يتمتم : « تأخذون عنزا ذكرا من بين الخراف والماعز وتذبحونه ، ثم تأخذون قبضة من الزوفاء وتغمسونها بدمه ، وتدهنون بها قبضات الابواب » .

أنهال عليه صبري بالصفعات : أفتح عينيك . وأجاب الاسرائيلي وهو يتمتم : « ان الرب سيأتي وسيعذب المصريين » . (ص ٣٠٠/٣٠١) .

وفي مقطع آخر من الرواية نفسها نقرا :

« في قرية قريبة من الاقصر أختفى طفل في الثالثة وهو أبن معلم . وتم البحث عنه في الحقول وعلى ضفاف قنوات الري لكنها توقفت مع المساء . وفي اليوم التالي وجد البوليس عظام طفل مع شعر محترق ، وأنتشر الخبر : ان الاسرائيليين الذين يعملون في مؤسسة الابحاث الزراعية التقطوا الطفل وذبحوه ، وجن جنون الفلاحين مما أضطر الحاكم العسكري للاقصر ان يبعث بشرطته لحماية المبتشارين العسكريين الاسرائيليين » (١٨٨) .

اما روايات دوفيلييه فان مالكو لا يرتاح ابدا من مطاردة « الارهابيين » اوامراء النفط : « يكسر عظام الامير الخليجي واحدة بعد أخرى . وخاصة فقرات ظهره » . وفي رواية « حارس أسرائيل » : « راح كريس جونز وميلتون براباك يصوبان كالمجانين على الفلسطيني . فجأة صار الفلسطيني يرتجف كالمجنون . ثم صرخ وأسقط بندقيته وتراجع . قفز كريست جونز ، وهو يتابع اطلاق الرصاص ، ولم يتوقف حتى أفرغ كل مسدسه . وحين وصل مالكو الى

الفلسطيني كان هذا الاخير قد مات وظهره الى الحائط وعيناه مفتوحتان ، والدم ينزف من كل مكان . كان الرصاص قد أصابه في أنفه وصدره وبطنه ، وكان الدم يسيل كالنهر » ... « ولم تجب عاليه . شاهد مالكو وجهها مختنقا بالالم والتعب ثم رأى انفجارا أحمر . طارت الفلسطينية في الفضاء عبر لهب أحمر ثم سقطت في غيمة من الغبار في حين كانت مئات الشظايا تسقط على الارض والجدران » .(ص ١٥٣) .

وفي « مذبحة في عمان » يصف مالكو كيف قتل قائد العملية « الارهابية » : « بحث مالكو عن الخنجر الذي كان قد خباه في حزام البلو جينز ثم وضع حده على صدر العقيد غرغور ، تماما ما بين ضلعين من أضلاعه ثم ألقى بكل ثقله على الخنجر . دخل حد الخنجر بسهولة وسمع صوته . حاول العقيد ان ينشب أظافره في مالكو ، ثم صرخ وأبتدأ جسده يرتجف، ورأسه يهتز شمالا ويمينا . كان يقاوم الموت ، وكان مالكو يحس بارتياح فيما كانت آخر نبضات قلب العقيد تصل الى قبضة الخنجر » (ص ٢٤٦) .

هنالك وسيلة ثانية لاشباع تشفي القارىء ورغباته . انها وسيلة الجنس . وكما يقول مارسيل دوهاميل عن هذه الروايات التي يطلق عليها اسم « الروايات السوداء » : « أن اللا أخلاقية هنا هي أجمل المشاعر الانسانية » . نجد في هذه الروايات الحب ولكنه حب حيواني . انه شغف وجنون وحقد ، وكما يقول لينهارت ايضا عن هذه الروايات :«اننا لانشهد في الادب التكنوقراطي الرأسمالي مشروعات أجتماعية ذات صفة اخلاقية ، ولكننا نشهد قمعا لهذه الاخلاقية باعتبار القمع أحد صفات المجتمع » . في كل هذه الروايات وصف مجنون للمرأة العربية « الخائنة لزوجها ، لان العربي ينام مع زوجته كما ينام مع ناقته » . لذلك تتوسل المرأة العربية دوما الى مالكو البطل الاشقر ذي العينين الزرقاوين ان ينام معها لانه يحسن ممارسة الجنس . حتى الثائرات العربيات لا يقاومن أغراءه .

اما هارولد روبينز في القرصان فان العربي سواء كان اميرا أو أرهابيا يكاد لا يتوقف عن ممارسة الجنس . في الطائرة والمكتب ، وفي خلال أبرامه صفقات التجارة وخلال دخوله الى المرحاض . وكذلك الامر بالنسبة لزوجته . انها في أميركا تجرب كل أنواع الرجال من الاسود الى الهيبي الى الشخصيات المرموقة .

في «مذبحة في عمان»نقرأ «كانت عجيزتها الوقحة المستديرة مضغوطة بمشد ستنفجر فيه في أية لحظة . وعلى خصرها حزام ضخم يبرز الثديين أكثر . ونظرت الى نفسها أمام المرآة وتلمظت بشفتيها للتعبير عن سعادتها . ان زيارتها للقصر ستترك أثارا في تاريخ الاردن » وتضيف الرواية أيضا : « كان فادي كرك يتسلق الستائر كلما أبصرا شقراء . كان ذلك ضعفه الوحيد في حياته المتقشفة » . وكان « يمشي وراء الانكليزية الفائقة الجمال وكأنه احدب نوتردام » (ص ٤٩) .

اما في « ترى مالطا وتموت » فنجد : « نظر مالكو الى عجيزتها المقوسة وقال يا للاسف ان هذه اللبنانية مع الاشرار » (ص ٦٤) ، ثم يعلق على نشاط ملكة الجمال العالمية اللبنانية بقوله « ان الشرق الاوسط مليء بالنساء الشريرات مثلها انهن يخضن الحرب وهن يمارسن الجنس . لذلك كان حذرا جدا من تصرفات تمرة » (ص ٦١) .

وفي « موت في بيروت » يصف أعجاب اللبنانيات بالسائح الغربي وكيف يهرولن للنوم معه : « نظرت اللبنانية اليه فأشتهته على الفور نظرت اليه كما ينظر الباكستاني الى قصعة من الرز » (ص ١٤١) .

ولا شك في ان هذه الروايات الجماهيرية تكرس عنصريتها بأنتشارها دوليا وبطموحها الى جعل قارىء هذا البنتاج معنيا بالعربي في حياته اليومية ، فهي تدول المكان والزمان لتسليط الضوء على « الخطر العربي » الذي يمسك العالم بقبضته . كل مكان خطر ما دام فيه عربي . تخطف الطائرة من باريس ، وتحط في نيويورك ... مستشار السعودية يقرر مصير العالم الاقتصادي بين روما وزيوريخ وطهران والرياض ... مالكو يبحث عن ماندي بين صقلية وجنيف وواشنطن .. الخبراء العالميون ينتشرون في كل مكان لعقد المؤتمرات عن خطر انفجار سد أسوان .

وكما ينتشر التصور مكانيا ينتشر كذلك زمانيا ، وذلك بجعل الزمن مسدودا داخل دائرة النفط العربي ، فأذا انتهى النفط فأن الطاقة ستخرج من جديد من بلدان الخليج على شكل جلد قطط . وبمعنى آخر ان الزمن غير موجود الا وظائفيا كعنصر في شبكة سيميولوجية .

ولكي يتسع أيضال هذه النصوص يستخدم كتابها أساليب وسائل الاعلام نفسها فيتكامل النص مع السينما والتلفزيون والاذاعة . ويطبق هؤلاء الكتاب نظرية « الكاميرا القلم » التي ابتدعها الكسندر ستروك من أجل ان يتحول القلم الى كاميرا والكاميرا الى قلم لجذب طبقة أكبر من الجماهير . لذلك نرى في هذه الروايات كثيرا من « الريبورتاجات » والتحليلات الصحافية السريعة والسياسية والاقتصادية . كل ذلك يشكل شبكة تلف الاعلام من كل جهاته عبر ثالوث شهير : عنف . جنس . سياسة . لذلك تشكل هذه الروايات خطرا لا ينتبه اليه العربي الذي يجيء سائحا الى الغرب بالرغم من ان قابلية فرانكشتاين ودراكولا وامانويل العرب موجودة في الكتب الرائجة والافلام البوليسية ومسلسلات التلفزيون التي يذخر بها الغرب .

وهنالك حاليا روايات تتحول الى أفلام مثل رواية القرصان وانهيار ١٩٧٩ . اما عن روايات دوفيلييه فان هنالك بعض قاعات السينما الباريسية تتخصص في عرض نتاجه .

اذا كان الغرب يريد « من السياسة الثقافية ان تحول المراهق من متلقي نص الى منتج نص » (بارت) ، بأمكاننا ان نتخيل اي مستقبل أعلامي يرشح حقدا ضد العرب .

الرويات

-«Le Krach de 1979»: par Paul Erdurau

- «Le chat des Emirats»: Charles Deblbach. Aux Editions Sainte-Victoire.

- «Explasive New-York». Guy Santhoulet. Aux Edition Claude cicérou.

- «Le Pirate». Harold Robins. Aux Edition Belfoud.

- «Assouau: Sile barrage cédait Michaël haîm. Albin Michel.

Gèrard de Villiers روايات

- «Massacre à Ammane. Editions Plom

- «Kill henry kissinger».

- «Mort à Beyrouth».

- «Le gardien d'Israël».

- «A L'ouest de Jèrusalem».

- «Voir Malte et mourir».

مراجعات

عبرة وذكرى
أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده

تحقيق ودراسة خالد زيادة

(دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت١٩٧٨) ٢٥٢ صفحة من القطع المتوسط .

لقد مضى ما ينيف على السبعين عاما منذ صدور هذا الكتاب ـ الوثيقة غداةالانقلاب العثماني وإعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد الثاني (٢٤تموز ١٩٠٨) . وفي ذلك يقول سليمان البستاني« اننا تحرر هذه السطور ولم يكد يمر عشرون يوما على استلام الاحرار ازمة الاحكام »(ص ١٨٨) . على ان طابع العمالة لا يفقد هذا الكتاب اهميته من الناحية الوثائقية والسياسية والتراثيةالتاريخية ولا غرو فان العنوان الذي اختارهسليمانالبستاني ليتصدر غلاف الكتاب عن الدولة العثمانيةقبل الدستور وبعده ـ « عبرة وذكرى ـ »يهدف الى استخلاص العبرة من احوال البلاد في ظل عهد الاستبداد الحميدي ، والى توجيه الاحرار ورجالات الاصلاح صوب الاستفادة من امثولات الماضي . كما يرمي الى تخليد الذكرى التي تمثلت باعلان الدستور إثر حركة الانقلاب العثماني .

وفي ذلك يقول البستاني مختتما عرضه السريع وتاركا المجال لغيره من الكتاب ودعاة الى الاصلاح ، وتحت عنوان« الدولة العثمانية بعد خمس وعشرين سنة » ، ما نصه :« هذه عجالة سطرناها في شؤون البلاد العامة عبرة وذكرى ، وهذا ما تراءى لنا وجوب الخوض فيه إبان هذا الانتقال الغريب والانقلاب العجيب . وإن هو إلا قطرة من عباب المباحث التي يجب على كتاب العثمانيين ان يخوضوا غمارها ، استلفاتا لانظار إخوانهم وحكومتهم الى كل فرع من فروع الاصلاح ،مما يتناول البلاد برمتها او ينحصر خاصة في كل قطعة منها » . (ص ٢٢٧) .

ويوجز سليمان البستاني في صفحات تمهيدية موجهة « الى ابناء الوطن العثماني ـ وبعد إهداء الكتاب الى روح مدحت باشا ، ابي الاحرار العثمانيين ـ الطابع العام للآراء والافكار التي يعرضها في كتاب « عبرة وذكرى » . فالمؤرخ لا بدله من التاني في تدوين الوقائع ،« ريثما يستجمع مادته وتمر فترة تسكن في خلالها ثورات الفكر المضطربة » (ص ٨٠) . لكن الاحداث تمر متسارعة الخطى ، والمؤلف ليس« من ابناء السياسات » ، والواجب يفرض عليه ان يدلي بدلوه بين الدلاء ،وخير البر عاجله : ـ« وان نجمع على هذه الصفحات بعض ما وعته الذاكرة فيما مضى ، بالنظر الى الدستور العثماني وما يتراءى لنا من نتائجه المقبلة ، وما ينال العثمانيين من رغد العيش بخفوق اعلام الحرية فوق رؤوسهم ،وفك عقال العقل والفكر واللسان ، وإطلاق عنان التجارة والصناعة ، وتمهيد سبل الزراعة واستخراج ثروة البلاد الدفينة تحت التراب والمنبوذة على رؤوس الجبال ، وما يخيم عنه من اصلاح جباية الاموال ومالية البلاد (ص ٨٠) .

العثمانية اولا

ولربما جاز وصف الكتاب بانه يتضمن برنامجا وضعه سليمان البستاني لرفع شأن الفكرة العثمانية ولكي يسترشد به الانقلابيون خلال فترة جلوسهم على مقاعد الحكم . إنه أشبه ما يكون بالبرنامج الاصلاحي الشامل ـ على حد قول محقق الكتاب في الدراسة التي قدم له بها . لكن الانطباع الذي يخرج به القارىءالمتتبع لسيرة حياة المؤلف الى جانب متابعته للافكار والاراء المبثوثة في صفحات

الكتاب ،لا يستبعد فكرة إقدام المؤلف على تسطير برنامجه الانتخابي الذي يعلن فيه ولاءه الخالص للجامعة العثمانية اولا وأخيرا .ولقد كتب مارون عبود في **رواد النهضة الادبية**(دار العلم للملايين : بيروت ١٩٥٢ . ص ٣٣١) يقول :« وللبستاني غير ترجمة الالياذة كتاب(عبرة ونكرى) الذي طبع عام ١٩٠٨ يوم كنا نبث له الدعوة ليكون نائب بيروت في مجلس المبعوثـــان . فكان ثم صار في مجلس الاعيان ، واخيرا أمسى وزيرا خطيرا يرجع الى رأيه في الجلى . » .

حقا ، ان كتاب « عبرة ونكرى » لا يخرج عن كونه « وثيقة دفاع عن الانقلابيين وعن الدستور »(من دراسة المحقق عن الدولة العثمانية والاصلاح ، ص ٤٤) . ولا يدخر البستاني جهدا في التأكيد على ولائه المطلق للفكرة العثمانية مع العلم بان الشهادة للدولة العثمانية الجامعة يسجلها« واحد من الذين لم يدينوا بدينها » . وسوف نرى في عرضنا الموجز لافكار سليمان البستاني انه لا يؤرخ للدولة العثمانية قبل الدستور وبعده الا في نطاق ضيق ومحـدود للغاية . لا بل هو يؤدي واجبه كعثماني في الدفاع عن تلك الدولة في ظل الدستور ، ويعمل جاهدا رفع شأن الجامعة العثمانية :« وانما هي نفثات عثماني محب لوطنه باح بشيء منها وادخر ما بقي منها لفرصة اخرى »(ص ٢٢٦) .

وفي التمهيد الموجـه الى « ابنـاء الوطـن العثماني »ينبه البستاني الى الاعتقاد الخاطىء لدى من« يحسبون ان للدول ادوار وقد انقض من بينهن دور دولتهم الباسلة »(ص ٣٦) . ومن الصحيح تبعا لنظرته ان الدول لها اد وار ، لكن دور الدولة العثمانية لم ينقض . فهو يرمي في خاتمة الكتاب الى طمأنة ابناء الوطن وتعزيز ثقتهم بالمعلومة التاريخية النظرية التالية :« إن الدول تزول وتنقرض ، وأما الامم فلا تنقرض ولا تتلاشى بل تبقى حية ما حيي الناس . وقد تتحول من حال الى حال فتنحط وترتقي وتندمج بغيرها . وقد تتفرق وتتوزع افرادها في المجتمـــع البشري فتفقـــد وطنيتهـــا الاولى »(ص٢٤٣ ــ٤) . وهذه النغمـة ليسـت ببعيدة عن آراء ابن خلدون في العصبية وأدوار الملك ، كما تتكرر فيها اصداء نظرية شبنغلر في الدورة الحياتية التي تمر بها الحضارات والدول .

عبرة وذكرى أخرى

ومما تجدر الاشارة اليه بالنسبة لعنـوان الكتاب ومناسبة تاليفه وصدوره ، إن هناك مجموعة من المقالات صدرت في كراس عام ١٩٠٩(بيروت) يحمل العنوان إياه بالضبط : [« عبرة ونكرى أو كلمة حول الشورى »] ، وقد كتبها الدكتور ايوب تابت لمناسبة إعلان الدستور العثماني . ويقول امين الريحاني في إحدى رسائله المؤرخة سنة ١٩٠٩ ان ريع كتاب الدكتور تابت قد « حبس على شهداء وجرحى الجيش الدستوري الزاحف » من سالونيك تحت راية الاتحاد والترقي للاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني .ونعرف من رسالة الريحاني في تقريظ الكتيب ونقده ان الدكتورتابت تناول موضوعات « الملك والرعية والسلطة ومصدرها وحقوق الانسان الطبيعية » كما أفرد فصلا بعنـوان « لا دخـل للمذاهب في ترقي الامم وانحطاطها » . وقد يكون ايوب تابت قد توخى الرد على سليمان البستاني . أو الذهاب الى أبعد مما ذهب اليه معرب الالياذة . وليس هنا مجال المقارنة بين هذين الكتابين في تناولهما لموضوع واحد من زوايا مختلفة . ففي تلك الفترة التي أعقبت إعلان الدستور العثماني (القانون الاساسي ، الشورى) استفاق الكثيرون من نشوة الحماس للتآخي والاخاء والانتصـار العثمانـي والفرحة العارمة التي غمرت النفوس لكي يرسموا أبعاد المرحلة ويحددوا طبيعة التغيير الذي كاد يضيع في زحمة التطبيل والتزمير وبيانات التغني بالاخاء العربي ــ العثماني . فالدكتور ايوب تابت يتحدث في كراس « عبرة ونكرى » ــ مثلا ــ عن استنارة الشعب كشرط لنجاح الثورة ومن أن الثورات يتبع بعضها بعضا وتتفاوت ازمان وقوعها بتفاوت الامم النازعة اليها في الاستنارة والعلم ويكتب الدكتور تابت في مجلة **المقتطف**(المجلد السادس والثلاثون ،ص ٨٣٩ ، ١٩١٠) مقالة ليشرح فيها فكرته الاساسية وتقويمه للانقلاب العثمانـي ملخصـا الموقف بعبارة ان « ثورتنا السياسية لم تتقدمها ثورة في الافكار » .

بينما نجد مفكرا نهضويا آخر هو الدكتور شبلي شميل يتحدث عن الانقلاب العثماني بوصفه

« تغييرا يقتصر على صورة الهيئة الحاكمة »* وفي الرسالة التي بعث بها الشميل الى جمعية الاتحاد السوري في نيويورك (ربيع ١٩٠٩)** ، نجده يتساءل عن طبيعة الانقلاب العثماني ويناشد مستمعيه الاعتراف بان هذا الانقلاب الذي حصل في تركيا سياسي اكثر منه اجتماعي ، وخارجي اكثر منه داخلي ، ومالي اضطراري اكثر منه استقلالي »(ص ١٩) الى ان يتوصل الى إعلان النتيجة المبنية على مقدماته في طبيعة الانقلاب ومستقبل الحكومةالعثمانية ، فيقول مخاطبا جمعية الاتحاد السوري : « فاذا وعيتم ما تقدم فهمتم ان هذا الانقلاب الحميد في المملكة العثمانية لم يكن عن اسباب داخلية اجتماعية في قلب الامة وان قبولها له لا يكفي وحده للاحتفاظ به الى حد الاستقلال التام » . (ص ٢٢ من كراس رسائل) .

ولا يتجاهل سليمان البستاني اثر الثورة الفرنسية في قيام الحكم الدستوري ، بل يعتبران هذا الحكم « لم يستتب امره على هذا الشكل ويعم دول الحضارة إلا على اثر الثورةالفرنسوية . وإن كانت الثورة الانجليزية ، قبل زهاء قرن ، من اعظم مهيئاته »(ص٨٦)(***)

الاستبداد وإصلاح الدولة

« هناك إجماع في الممالك العثمانية« على وجوب تحقيق الاصلاح » . وهي حقيقة معلومة ينشرها البستاني في مطلع كتابه « عبرة وذكرى » اذ يعلن « انه لم يبق في البلاد العثمانية رجل واحد من ارباب العقول لا يرى وجوب تبدل الحال »(ص ٧٦) . ولا يساوره من شك في ان التاريخ سوف يدون في سجلاته تلك المعجزة« أعجوبة القرن العشرين »التي حققها رجالات الاصلاح وانصار الجيش العثماني وزعماء جمعية الاتحاد والترقي . فالاجماع على ضرورة تحقيق الاصلاح وتبديل الاحوال واعلان الدستور ونيل الحريات الاساسية يقابله استعداد وتجاوب من جانب الامة التي « على تمام الاهمية والاستعداد لتلقي هذا الانقلاب »(ص ٧٩)

ومتى علمنا ان الدستور الجديد (مجموع القوانين والنظامات الذي كان معروفا في بلاد الدولة العثمانية باسم الدستور Code .ص ٨٤) . لايخرج عن كونه نسخة طبق الاصل للدستور القديم (« نفس دستورنا القديم » ،ص ٨٥) ، لتبين لنا ان العمل بأحكام الدستور وقوانينه الاساسية وموادّه هو بيت القصيد . فالعبرة بالتنفيذ :« هذا الدستور ... لوعمل به لما كان بنا الآن حاجة الى هذا الانقلاب العظيم »(ص ٨٥) . والحياة السياسية في ظل الدستور هي الحكم النيابي على الطراز الحديث (« حيث تحكم الامة نفسها بنفسها ، مع حفظ حقوق الخليفة الاعظم » السلطان العثماني) ، مقابل الحكم الاستبدادي المطلق والجائر على حد سواء . والشكوى لم تكن في معظمها – على حد قول البستاني – من الاستبدادبمعنى الحكم المطلق ، لان دولة هذا الطراز في الحكم قد دالت ، وانماكانت الشكوى في البلاد العثمانية من الاستبداد بمعنى الحكم الجائر .

ويصف البستاني أعمال الحكم الجائر والمستبد على النحو التالي :أباح الموبقات واستباح المحرمات

استبداد حكم الانذال برقاب الرجال . تنكيس الرؤوس وإذلال النفوس

(*)يمكن للقارىء ان يعود الى المقالات التالية في مجموعة الدكتور شميل ، وكلها مكتوبة غداة الانقلاب العثماني وإعلان الدستور :« سيادة الامم ومستقبل الملوك »(جريدة البصير ، ١٩٠٨) الامم والحروب(البصير ، ١٩٠٨) . وهناك مقالتان للشميل ترجعان الى فترة مبكرة وتفوقان ما عداهما من حيث الاهمية :« وكما تكونون يولى عليكم ، تركيا الفتاة وتركيا العجوز »(البصير ، ١٨٩٨) و« انحطاط الشرق الادبي والعقلي »(البصير ، ١٨٩٨) .

(**) انظر :رسائل العلامة سليمان افندي البستاني (احد مبعوثي مدينة بيروت في مجلس الامة العثماني)والدكتورشبلي افندي شميل (الكاتب الاجتماعي والطبيب الشهير في مصر القاهرة) وآخرون ، الى جمعية الاتحاد السوري في نيويورك ،(مطبعة جريدة مرآةالغرب بنيويورك ،١٩٠٩) .

(***) يستخدم البستاني لفظة « استحياء »الارض بمعنى انعاش الارض الموات والبور واستصلاحها للزراعة وإعادة دورة الحياة والانتاج الى تربتها .

استبداد لامرشدله إلا التعنت عن هوى
لاشرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غدا
استبداد يتمثل لنفسه بنفسه ،
تصادر به الاموال بغير حساب .
ويبطش المجرمون بالابرياء بغير عقاب ...
ذلك هو الاستبداد الذي نقصده في بحثنا »(ص ٨٨ ــ٨٩) .

الحريات بين الواقع والمرتجى

والملاحظ ان مؤلف « عبرة وذكرى »يقف الفصول التالية من كتابه على شرح الابعاد والصفات الملازمة لكل من الحرية والاستبداد على حد سواء .فهو يضع مقولة الحرية وبلاد الحرية على انواعها مقابل الاستبداد وبلاد الاستبداد في شتى أشكاله ومظاهره ، على طرفي نقيض . وإذا كانت طبيعة البلاد العثمانية تأبى الاستبداد ــ على حد قوله ، فان عهد الاستبداد إذا طال على الامة ، فليس من الجائز أو المستحسن إغراقها دفعة واحدة في مناخ الحرية وإطلاق العنان للحريات الاساسية . والسبب في ذلك يرجع الى استحكام الفوضى والى نشوء نوع من الاستبداد(استبداد الجماعات) هو اشد بلاء من استبداد الرجل الفرد .

والحريات التي يتحدث عنها البستاني ويعقد لكل منها فصلا في الكتاب هي التالية :

(١)**الحرية الشخصية** : « ان اول ما يحرص عليه المرء حرية شخصه . فلقد كانت لعهد مضى مطلقة يسرح المرء ويمرح أيان شاء ويخالط من شاء . ويقول ويعمل ما شاء ، مما لاينال سواه بأذى . »(ص٩٣)

ففي ظل الاستبداد الحميدي ظهر الوشاة الذين أحصوا على الناس حركاتهم وسكناتهم . فكانت الاعتقالات . والتصفيات(إلقاء الجثث في البوسفور) . وجرى نفي الاحرار وابعادهم(شقاء المبعدين الى اطراف السلطنة . لكن عصر الحرية في ظل الدستور كفيل بوضع حد لذلك الكابوس ،ويفتح المجال أمام المستقبل :« سيقوم منا في الغد جهابذة وفحول في العلم والسياسة والادارةوالقضاء ... ») (ص ٩٥) .

٢ ــ حرية الصحافة : اذا كانت الصحافة بمثابة الآلة الحيةالتي تنطق بلسان الامة وتنبه الافكار وترشد الى الاصلاح وتشير الى مواطن الخلل ، وتنادي حي على الفلاح ، فانها قد تحولت في ظل المراقبة الحميدية الى« ابواق تمجيد واغوال تهديد » وكان « التعطيل » هو السيف المسلط فوق راسها . حتى سئم الناس قراءة جرائد بلادهم . لقد خضعت الصحف الصادرة في البلاد العثمانية الى قيود واصطلاحات مفروضة . فالبستاني يتحدث عن شيء هو اشبه ما يكون بمعجم الالفاظ الكتابية الذي يتضمن قائمة الممنوعات والمخطورات :كالقانون الاساسي والقتل والخلع وما اشتق منه والجمهورية والديناميت والثورة والانصاف والحرية . والشورى والمجلس النيابي وغير ذلك من العبارات والاقوال المأثورة . مثل : العدل اساس الملك ، والظلم مرتعة وخيم والحرية منتهى غايات الامم (ص ٩٨) ان حرية الصحافة هي نعمة واسعة الانتشار في قلب افريقيا واقاصي اسيا . ولا يجوز حرمان العثمانيين منها ، وهم الذين الفوها منذ ٣٦ سنة وليسوا بحديثي العهد فيها . لا بل هي حق تمتعت به الامة على عهد الاسلاف فجاء الاستبداد الحميدي ليسلبها إياها . والبستاني يتحفظ تجاه إطلاق الحرية الى حد يفضي بها الى الفوضى المستحكمة في جرائد مصر خلال فترة من الفترات على حد قوله . إنه لا ينوي تجاوز الحد المعقول ، وجل ما يرمي اليه :« لا نطمع ولا نود ان نتخطى الآن الى ما وراء المعقول ، فنثب وثبة واحدة من وهدة المسكنة الاضطرارية الى قمة التهور الاختياري ، بل جل ما نتمناه ان تباح لنا رواية الاخبار وترديد صدى الافكار والنظر في شؤون انفسنا من القاء درس مفيد روحي مقترح جديد ونقد عامل وعمل والبحث في كل ما من شانه ان يلذ ويهذب ويفيد »(ص ١٠٢ ــ ٣)

(٣) **حرية التعليم** :يسجل البستاني درجة التقدم والرقي التي احرزها العلم والتعليم في البلاد العثمانية ، حيث« أربى عدد القارئين الكاتبين على عدد الاميين في كثير من الولايات »(ص ٤٠١) .

ويأخذ على شدة المراقبة في العصر الحميدي انها احدثت اختلالا في طرق التعليم وعمدت الى تشويه دراسة التاريخ والجغرافيا عن طريق الحذف والتبديل . حتى انهم حظروا تعليم العلوم الفلسفية والاجتماعية وقراءتها .

ويطيب لصاحب « عبرة وذكرى »التذكير بمسألتين على جانب كبير من الاهمية والمغزى : أولا ـ العنف والضغط والخطر في ميدان التربية والتعليم من شأنها الافضاء الى نتائج معكوسة قد تولد الانفجار (« وهل فاتهم ان دعاةالثورات والاصلاح في اوروبا كان معظمهم ممن عنى في تربيته على خلاف ما نشأ عليه ؟ » (ص ١٠٦) وثانيا ـ بالنسبة للتعليم الوطني والتعليم الاجنبي في مدارس كل منهما ، ينبه سليمان البستاني الى امر خطير يتعلق باهتمام المدارس الاجنبية في بث روح الوطنية بين تلامذتها ، ويقول جهاراان ارباب هذه المدارس ينتمون الى امم متناظرة ويسعى الواحد منهم جهد طاقته الى استمالة التلامذة العثمانيين الى امته ودولته . ثم يعلن النتيجة التي اسفر عنها التعليم الاجنبي والثمار التي جناها طلاب العلم وأبناء الوطن :

« وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الافكار والمذاهب ، وهكذا عمل الاجانب بطريق العلم ، على اقتسام عقولنا ، كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا » .(ص ١٠٧)

(٤)حرية التاليف والقراءة : إذا كانت الدولة العثمانية قد شهدت شيئا من الازدهار على صعيد العلم والتعليم ـ « وإن اتت بالقسر عنه » ـ فان التضييق على الكتابة والكتاب قد اتخذ شكل عدم السماح بنشر الكتب مالم يتم عرضها على « مجلس التفتيش والمعاينة في نفس الاستانة »(ص ١٠٩) . حتى ان مواضيع البحث التي اباحوا التأليف فيها قد خضعت لمواقفة سلطات المراقبة ، « فلم تكن تشمل شيئا من المباحث الاخلاقية والاجتماعية والفلسفية » . والشعر الذي سمح بنظمه وإلقائه هو « ما كان ينفخ منه في نفير التدجيل ويوق التبجيل »(ص ١١٢) . ناهيك عن احراق الكتب الممنوعة والتمتع عن العمل بنصوص قانون المطبوعات .

(٥) حرية الكتابة او البوستة والتلغراف : ازدهرت في البلاد العثمانية مكاتب البريد الاجنبية ، لكن رجال السلطان دأبوا على خرق حرية المراسلة والمكاتبة . فعمدوا الى فتح التحارير وفض الاختام ومراقبة رسائل الاحرار من الناس . وخشية من ان تسهل مكاتب البريد الداخلي على دعاة الاصلاح « حرية التخاطب »لجأوا الى إغلاق تلك المكاتب ثم اعادوا فتحها مشترطين« ان لا تقبل إلا التذاكر المفتوحة » . كما ان الرسائل التلغرافية (البرقيات) المتبادلة بين اوروبا والهند تحولت عن المرور ببغداد (طريقها الطبيعي) الى طريق السويس ، مما افقد السلطنة العثمانية موردا ماليا لا بأس به .

(٦) حرية الجمعيات :والمقصود بذلك إباحة الاجتماع وتشجيع ابناء الوطن على تأليف الجمعيات العلمية والادبية والخيرية :« وهيهات ان يسد الافراد في الاعمال العامة مسد الجماعات »(ص ١٢٥) . لكن رجال الاستبداد عمدوا الى تحريم الجمعيات والاجتماعات لخوفهم من تحولها الى اوكار للمؤامرات السياسية ، مع انها كانت ترمي الى تثقيف العقل وترويض الفكر حتى انه لم يبق في البلاد العثمانية سوى الجمعيات الخيرية الطائفية التي أجازوا تأليفها علما بانه « ليس من شأنها ان تسعى في التأليف بين ابناء البلاد » .

حرية الاصلاح والمصلحين

ويمضي سليمان البستاني في الحديث عن الحرية ورجال الدولة ضمن إطارالمقارنة بين بلاد الحرية وبلاد الاستبداد . فالرجل المصاعد في سلم الارتقاء تزداد الرقابة عليه . ولقد انتشر جواسيس السلطان في كل مكان ، وكثرت الوشايات والسعايات . وكان « زعماء الخفية » انفسهم يخضعون لرقابة خفية اخرى . وكيف يتسنى رجال الدولة في ظل الاستبداد والرقابة ان ينصرفوا الى تحقيق الاصلاح ، متى علمنا قبل كل شيىء ان « كلمة الاصلاح نفسها كانت من الحروف المقضي عليها بالالغاء . إذا نطق بها ناطق اتهم في انه من دعاة الثورة »(١٣٠)

وهناك إسهاب في شرح الاصلاحات والتنظيمات التي أدخلها مدحت باشا اثناء توليه بغداد (١٧٨٠) . لكن مدحت لم يستطع تنفيذ اصلاحاته

في سوريا (١٨٧٨) ، والسبب يعود الى اطلاق يده في الاولى وغلها بأصفاد الجواسيس والاوامر السرية بعد ذلك » (ص ١٣٥) . ومن الموضوعات التي تمت بصلة وثيقة الى إعلان الدستور وأصلاح حال البلاد واستئصال شأفة الفساد في الاخلاق ، وبخاصة أخلاق المأمورين ، قول البستاني إن « اصلاح الحال يصلح بالطبع أخلاق الرجال ، وأن اعلان الدستور وحده يصلح من أخلاق المأمورين الفاسدة ، في زمن الحرية والعدل ،ما لم يكن من الممكن ان ينجح فيه دواء في زمن الاستبداد والظلم »(ص ١٨٧) .

وحين يتحدث سليمان البستاني عن موضوع الدستور والتعصب الذميم ، فانه يميز بين التعصب الديني والتعصب الجنسي . فالدولة العثمانية قد ضمت خليطا متنافرا من الاجناس والامم . والاصلاح يستهدف حصول التفاهم والتغلب على الجهل (« رفيق ملازم للتعصب »)وتحقيق الاندماج والتمازج . على ان روح التعصب الخبيثة لم يخترق الا صدور جهلاء العامة(ص ١٥٧) والهدف المنشود في عصر ما بعد الدستور هو إعلاء الشأن الصالح العام العثماني ، وتعزيز روابط التواد والاخاء ، وترسيخ دعائم الدستور . لكي تعم المساواة في ظل الجامعة العثمانية . وفي ذلك يقول صاحب « عبرة وذكرى » :

« إن اعظم الوسائل لضمان اضمحلال التعصب الديني تجنيد المسيحيين مع المسلمين . واعظم وسيلة لاضمحلال التعصب الجنسي تعميم اللغة الرسمية وجعل تعليم اللغة التركية إجباريا . فان هاتين الوسيلتين . مع تعميم اسباب العلم والتهذيب ، يضمنان توثيق عرى التواد والاخاء » .(ص ١٥٩) .

ثم يتوقف عند مسألة الدستور والمهاجرة بنوعيها : هجرة السكان العثمانيين الى خارج بلاد السلطنة ، وقدوم الاجانب الى اراضي الدولة العثمانية بقصد الاقامة والاستيطان . فالمهاجرة من البلاد العثمانية ،سواء كانت هربا من البطش والاغتيال أم على سبيل السعي في طلب الرزق ، ترجع الى مصدر واحد هو الاستبداد الذي تساوى في ظله المسيحيون والمسلمون . وفي لبنان هناك دافع طبيعي إضافة الى دوافع الهجرة التي أشرنا اليها : تكاثر النسل وضيق البلاد من استيعاب الزيادة . غير ان هذه المهاجرة قد خفت حدتها وجاء إعلان الدستور ليشجع الكثيرين على اختصار مدة اغترابهم بعد ان عصف بهم الحنين الى الاوطان . والناحية الاشد خطرا في موضوع المهاجرة والنزوح هي ما يشير اليه البستاني من خلال حديثه عن « البلاء الاعظم الذي ابتليت به البلاد : جلاء الفلاح عن أرضه »(ص ١٧٤) .

الدستور وموارد البلاد : ينقلنا هذا الى القسم الرئيسي الثاني من كتاب « عبرة وذكرى » : موضوع العلاقة بين إعلان الدستور العثماني وموارد الثروة الدفينة في الممالك المحروسة . فالزراعة كانت ولا تزال اثبت موارد الثروة لهذه البلاد .(ص.١٩٢) واذا كانت البلاد قد ابتليت بجلاء الفلاح عن أرضه ، فكيف يتسنى لعهد الاصلاح ان ينطلق الى استصلاح الاراضي البائرة ودفع عجلة الزراعة . يسهب البستاني في الحديث عن مدحت باشاوالتخطيط الذي وضعه لاستصلاح اراضي العراق وريها . كما انه يبدي اهتماما بمسألة التبدي والتحضر ، وكيفية حمل العربان والقبائل البدوية على نبذ البداوة واختيار الاستقرار الحضري والانقطاع الى العمل الزراعي . فالاصلاح الزراعي يتوسل امرين لا بد من توفرهما ، مهما تباينت طرق الري وطبيعة البلاد وتضاريسها وأخلاق السكان وعاداتهم : توطيد الامن والعناية بالفلاح والمزارع . والبستاني يتوسم في الحكومة العثمانية تحت ظل الدستور انها ترمي الى توفير ذلك .

والى جانب الزراعة كمورد رئيسي من موارد الثروة ، يشير الكتاب الى المعادن والكنوز الدفينة في سائر انحاء البلاد العثمانية . ولا يستبعد وجود منابع بترولية غزيرة ، اضافة الى الينابيع المعدنية والغابات والاحراج والصناعةفي البلاد هي اسوأ حالا من الزراعة . هناك صناعات توشك ان تزول وتنقرض ، لكن « جرثومة الصناعة حية تنهض منبعثة لاول دافع ينفعها »(ص ١٢٥) .فالموارد اللازمة متوافرة ، والعمال المهرة ، والطاقة ولا ينقص العثماني سوى النشاط من عقال الخمول

والاطمئنان الى سيادة الامن واتخاذ الحيطة اللازمة لاتقان الصنعة والحرص على جودة المنتوجات .

والموقع الجغرافي للبلاد العثمانية(« عروة الوصل بين قارات العالم القديم الثلاث »(ص ٢٠٨) يؤهل سكانها لان يكونوا يوما في طليعة الامم التجارية . والمؤلف يتفاءل بنمو التجارة في كافة انحاء السلطنة ، في ظل استتباب الامن وتقدم وسائل النقل والمواصلات . وكذلك الحديث على الاعمال العامة والشركات . فانه منوط بوسائل النقل وتقريب سبل الاتصال .وهنا يدرك سليمان البستاني ان المرافق الهامة لا تزال بأيدي الاجانب والشركات الاجنبية ، باستثناءالخط الحديدي الحجازي . ولا بد من قيام شركات وطنية تأخذ زمام المبادرة وتنتزع الامتيازات التي تثقل كاهل الدولة والامة من ايدي المستثمرين الاجانب .

وحين يتساءل عن الموانع التي حالت دون انشاء الشركات الوطنية ، فانه يضيف سببا رابعا هو قلة الثقة بالحكومة الى الاسباب الثلاثة التي يوردها انصار الاستبداد في معرض تبرئتهم لساحة الحكومة : قلة المال ، وانعدام الرغبة لدى الاهالي في الاقبال على ذلك ،وتعذر وجود المديرين الصالحين لكي يقوموا بالعمل (ص ٢٢٧) .ومما تجدر الاشارة اليه ان البستاني يدعو الى « تثمير المال بواسطة المشروعات العامة » ، كما سبق له وابدى اعجابه بتلك العبارة التي تؤثر عن مدحت باشا حيث قال « سوف يأتي زمن يتيسر للدولة فيه ان تعادل بين العمل والاجرة »(ص ١٣١) . غير ان الاقرار بفضل الاجانب في تأليف الشركات وإنشائها والتساهل حيال وجودهم والاعتراف بالفائدة المتبادلة ، كل هذا لا يمنع سليمان البستاني من القول : « ولكننا ننكر كل الانكار ان لا يكون لنا يد في شيىء من تلك الاعمال في بلادنا »(ص ٢٢٩) .

ومما يسترعي انتباه القارىء لكتاب « عبرة ونكرى » ان المؤلف قد أفرد فصلا خاصا للحديث عن السياح والمستوطنين في باب موارد الثروة . فمصادر الثروة الطبيعية توفر اسباب النزهة والراحة ،كما ان الاماكن الدينية من مزارات ومقامات(« موطن الانبياءومهابط الوحي » تجتذب السائحين والزائرين الى البلاد . فلا بد إذا من توفير المناخ الملائم الى جانب تحقيق الاصلاحات اللازمة للمرافق السياحية وأماكن الزيارة بحيث تتأمن معدات الراحة في الاقامة ووسائل الانتقال والاتصال . ويتأكد الطابع العصري في نظرة البستاني الى موضوع السياحة من خلال اعتبار الآراء التي يعرضها في الكتاب وكأنها على سبيل البرنامج الانتخابي أو البيان الوزاري في تعهده بتنشيط السياحة وجعلها صناعة من الصناعات التي تدر دخلا محترما على البلاد . ومن الطريف انه يتحدث عن « المجتمعات السياحية » في أماكن الينابيع المعدنية والمياه الاستشفائية والعلاجية .

أما وقد أغفل البستاني في حديثه عن المهاجرة ناحية الهجرة الى البلاد العثمانية بقصد الاقامة أو الاستعمار ، فانه يعود الى تناولها في خاتمة هذا الفصل عن السياح والمستوطنون . ولا غرو فان الامر يتعلق هنا بالهجرة اليهودية الى فلسطين ، إذ تقع هذه الهجرة دون ريب في خانة الاستيطان والاستعمار . والبستاني يميز بين نوعين من الهجرة الاستيطانية :

« مهاجرة فئة من الاجانب ، بمعاونة أرباب الاموال منهم ، فتتوطن في بقعة من الارض كتوطنها في بعض جهات فلسطين ،مع البقاء على جنسيتها »(ص ٢٣٥)

« ومهاجرة القادمين اليها من تلقاء انفسهم بقصد الاقامة والتجنس بالجنسية العثمانية كمهاجري بلاد الجركس والكريت وبوسنة وهرسك . وهؤلاء هم الذين يجب ان توجه الحكومة كل عنايتها الى نفعهم والانتفاع بهم »(ص ٢٣٦)

من الواضح ان الفئة الاولى تنطبق على الهجرة اليهودية الى فلسطين بقصد الاستيطان والابتعمار . والبستاني يعتبر ان موضع البحث فيها ليس ضمن نطاق كتابه ، والسبب في ذلك،هو ان الهجرة اليهودية « وخصوصا ان هذه الفئة تجد لها ، من نفسها من اسباب العناية بها ، مايغنيها عن عناية الحكومة »(ص ٢٣٥) . فهو يعرف ان اسرةروتشيلد وغيرها كانت تقوم على تمويل المستوطنات اليهوديةبفلسطين ، وإن هذه المستوطنات ليست بحاجة الى العنايةالحكومية

العثمانية . لكن مؤلف « عبرة وذكرى »يتجاهل او يتغاضى عن مسألة الابقاء على جنسية المستوطنين اليهود . وهو الذي تحدث في مطلع الكتاب عن قانون التابعية العثمانية . ومن يدري لعله كانت هناك اعتبارات انتخابية قد حالت دون التوسع في شرح هذه المسألة التي كانت ستشغل مجلس المبعوثان إعتبارا من العام ١٩٠٩ فصاعدا .

حسنا فعل الناشر والمحقق بتقديم هذا الكتاب — الوثيقة الى القارىء في سلسلة « التراث العربي المعاصر » فانه كان يتصدى للدفاع عن الفكرة العثمانية التي تقوم عليها دعوة الجامعة العثمانية ، فانه يزودنا بوثيقة هامة عن الفترة التي سبقت إعلان الدستور العثماني وتطابقت مع عهد الاستبداد الحميدي . ويضع بالتالي برنامج عمل للمستقبل . كما نجد سليمان البستاني في خاتمة الكتاب يرسم صورة لما يرجو ان تكون عليه الدولة العثمانية العتيدة بعد خمس وعشرين سنة في ظل الدستور والحريات والتقدم المستمر في معارج الرقي . ولا غرو فقد عهد اليه السلطان محمد رشاد بتولي وزارة التجارة والزراعة سنة ١٩١٣ لكي يستقيل من هذا المنصب الوزاري عند اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى ، ويسافر الى سويسرا سنة ١٩١٤ للاقامة هناك حتى العام ١٩١٩ .واقام البستاني في العراق قرابة ٨ سنوات (١٨٧٦ ـ١٨٨٤) ، كما إن المجلس العثماني انتخبه وهو المبعوث عن مدينة بيروت رئيسا ثانيا له سنة ١٩١٠ .

يكتب البستاني في « عبرة وذكرى » بمرونة وسعة اطلاع ،وبلسان رجل الدولة الذي يندب نفسه للخير العام* ، أو كمن يضع برنامجا وزاريا للاصلاح في ظل إعلان الدستور والتطلع الى عودة الحريات .

ولا بد من الاشارة العابرة الى بعض الاخطاء المطبعية التي لا تفوت القارىء المدقق : معرض شيكاغو عام ١٨٨٣ وليس ١٩٨٣ (ص ٤٦) وعرف واقعه عن كثب وليس كسب (ص ٥٧) ، الزوراء ... أسسها مدحت باشا سنة ١٨٦٩ او ١٨٧٠ وليس ١٦٨٩ (ص ١٣٢) وإذا كان الأجر على قدر المشقة ، وليس وإن كذلك (١٥٠) ، في باريس وجنيف ولوندرا ، وليس جنوه (ص ١٨٠) وقد يكون هذا الخطأ من المؤلف . وعربنا بدلا من عربنا في الحاشية رقم ١٠٢ ، ص ٢٢٣ .

ملاحظة ختامية :

إنه من المستغرب ان كتاب رئيف خوري عن« الفكر العربي الحديث : أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي »(منشورات دار المكشوف ، بيروت ١٩٤٣) لا يأتي على ذكر سليمان البستاني وكتاب « عبرة وذكرى » ، بينما نجده يشير الى الكراس الذي اصدره الدكتور أيوب تابت في بيروت ١٩٠٩ حاملا العنوان ذاته . ولقد اعتمده خوري في النصوص المختارة . بينما نجد قدري قلعجي في كتابه عن **مدحت باشا :أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين**(سلسلة أعلام الحرية ٣٠ ، الطبعة الثانية ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٥١(ط .أولى : ١٩٤٧) قد اقتبس الكثير ، وبصورة شبه حرفية أحيانا ، عن كتاب سليمان البستاني « عبرة وذكرى » ، حتى انه أورد كافة المعلومات الواردة في كتاب البستاني عن مدحت باشا ومنجزاته .

اسعد رزوق

(*)يتحدث البستاني في رؤيته الشاملة لتقدم الدولة العثمانية خلال ٢٥ عاما في ظل الدستور عن دور المبعوث أو النائب في المجلس العثماني فيقول :

« إن كل مبعوث هو منتدب للنظر في جميع شؤون البلاد . وإن مصالح الولاية التي انتخبته ، إذا كان لها مصالح خاصة ، لا تأتي في الدرجة الثانية ، وإنه كلما خفف عنه منتخبوه من مطالبهم الخاصة ،زادوه مقدرة على خدمتهم ونفعهم »(ص ٢٤٠) .

هشام شرابي ،

الجمر والرماد ـ ذكريات مثقف عربي
(دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٨)

لقد اختار هشام شرابي كتصدير لمذكراته عبارة مستقـــاة من روايـــة تومـــاس مان « الجبل السحري » (١٩٢٤) ، حيث يقـول الروائـي الالماني ـ في معرض تقديمه وتقويمـه الوصفـي لشخصية الفتى هانز كاستورب* ، بطل الرواية ، ولحالته الخلقية والمناقبية ، غداة وصول المهندس هانز كاستورب اياه الى تلك المصحة الشهيرة في جبال الالب السويسرية ، في زيارة كان من المقرر لها ان تستغرق ثلاثة اسابيع ، لكن الزائر القـادم من هامبورغ الى المصحة في دانوس امضى ٧ سنوات هناك يقول ما يلي :

« لا يعيش المرء حياته الشخصية كفرد فحسب ، بل يعيش ايضا ـ عن وعي أو عن غير وعي ، حياة عصره وحياة معاصريه » .

ومن المؤكد ان هذا التصدير المقتبس من الرواية والمأخوذ من الذاكرة ، او من النص الانجليزي يقصد منه الايحاء للقارىء بكيفية النظر الى مذكرات الجمر والرماد ، أو ، على نحو أدق ، الى صاحب هذه المذكرات بوصفه مثقفا عربيا يريد لنا كقراء ان نتابع مسيرته الثقافيـة والحزبيـة والسياسيـة ، لكي نستكشف من خلالها حياة عصره ومعاصريه . وبذلك

* راجع الفصل الثاني من الطبعة الالمانية السادسة (دار فيشر للنشر) . فرانكفـورت ١٩٦٣ ، ص ٣٠ . ومما تجدر ملاحظته في مستهل هذه المراجعة ان شرابي يحدثنا في مذكراته عن عودته في مطلع ١٩٤٩ وبعد حصوله على شهـادة الماجستـير في الفلسفة ، على ظهر باخرة ايطالية من نيويورك الى بيروت . ثم نجد في الصفحـة ١٧٩ من الجمـر والرماد . ان شرابي قد اصطحب معه كتاب « الجبل السحري » لتوماس مان . ومن الطريف ان بطل رواية الجبل السحري هانز كاستورب تعلم غداة اقامته الاولى في المصحة كيف يلتف ببطانية الصوف على شرفة المصحة فاصبح في عزلة كلية عن العالم ، وبينما هو يضع جانبا كتابه الملازم له على الدوام عن « السفن التجارية العابرة للمحيطات » ، يأخذ في استطراده الشهير عن ماهية الزمـن واحسـاس الانسان بسيلانه ومروره وديمومته وانسيابه وتوقفه وسرعته ، كما ان موضوع الزمن والرياضة العقلية التي يمارسها بعض نزلاء المصحة في استطراداتهم حول مفهوم الزمن والاحساس به وقياسه وابعاده النفسية وعلاقته الوثيقة بالمرض ومدته، يؤلف الى جانب موضوع الموت والتحلل ، أو التآكل البطيء ، مجموعة من ابرز واهم الموضوعات التي تتناولها هذه الرواية في تشريحها النقدي للعقل الاوروبي وللحياة الاوروبية عشية اندلاع نيران الحرب الكونية الاولى .

يسهل علينا الجمع بين منظوري الوعي واللاوعي ، دون التورط في محاولة رسم الحد الفاصل بينهما .

ومن المرجح ان شرابي عمد الى كتابة مذكراته كمثقف عربي أمضى ثلاثين عاما من سنواته الخمسين في الغرب ــ وفي اميركا بالذات ــ لكي يتبين لنفسه ويبين للقارىء في آن معا حالة الجمر والرماد التي آلت اليها سيرة الوعي عشية بلوغ صاحبها عتبة الخمسين من عمره . ان صفحات مذكراته تعج بالصور والوجوه التي يستحضرها من الماضي ويحركها امام القارىء ببراعة فائقة ــ كالدمى احيانا ــ لكي نكتشف من خلال عنصر المفارقة الزمنية ان المراحل والمحطات التي بلغتها مسيرة الوعي الثقافي واجتازتها ، تبعا لمراحل الدراسة والانتماء الحزبي والنشاط السياسي ، تتوقف في خاتمة المذكرات عند العام ١٩٤٩ . فالفترة الممتدة من ١٩٤٩ الى ١٩٦٧ توصف في الفقرة التالية من الجمر والرماد بانها فترة « صمت في المنفى » : ــ

« ثم وقعت كارثة ١٩٤٨ . ولم يصبني منها الا الرذاذ . وفي سنة ١٩٤٩ ، التي حطم فيها الحزب (بعد عودتي من شيكاغو ببضعة اشهر) اصبت بضربة مباشرة . ورغم ذلك فقد نجوت بنفسي وعدت الى اميركا . في حين اعتقل معظم اصدقائي وقتل البعض . ومنذ ذلك الحين وحتى سنة ١٩٦٧ تحولت حياتي الى حياة صمت في المنفى »(ص ١٦٧)

لقد شهدت فترة الصمت هذه ــ والتي عاشها شرابي في المنفى . كما يقول في مذكراته ــ صعود الناصرية كظاهرة تحررية ومناهضة للاستعمار على الصعيد السياسي العربي والدولي ، هذا بالاضافة الى الزخم الذي استمده مسار الفكر القومي والوحدوي العربي . ومما يسترعي الانتباه ان مذكرات شرابي تصمت بالفعل حيال هذه الظاهرة البارزة التي استحوذت على عقول الكثيرين من المثقفين واستقطبت تفكيرهم وتوجههم السياسي والقومي طيلة فترة لا يستهان بها من تاريخ العرب المعاصر .

ولا بد من التساؤل عن مبرر هذا الاغفال او الصمت المتعمد من جانب صاحب مذكرات الجمر والرماد . ربما كان احد الاسباب يرجع الى كون هشام شرابي قد سبق له ان تناول هذا الموضوع في كتاب أصدره في « المنفى » عام ١٩٦٦ بعنوان « القومية والثورة في العالم العربي » (الشرق الاوسط وشمال افريقيا) ففي هذا الكتاب الصادر عن « مواطن اميركي » من « مواليد لبنان » (كما يقول غلافه) يقدم شرابي تحليلا للقوى التي لعبت وتلعب دورا حاسما وفعالا في تكوين سياسة الشرق الاوسط (اي العالم العربي وشمال افريقيا) .

واذا كان المجال لا يتسع هنا للتوقف عند الملامح الرئيسية لهذا الكتاب الذي نعتبره متمما للنواحي المغفلة في المذكرات ، فلا ضير هناك على الاطلاق في التذكير بان طالب الفلسفة قد تحول هنا الى استاذ للتاريخ وانظمة الحكم في جامعةجورجتاونوحبذا لو اشار شرابي في مذكراته الى هذه الأمور دفعا للالتباس وتنويرا للقارىء . مع العلم تماما بان فئة معينة من قراء الكتاب تكتفي بالترحيب والاستقبال الحار ، دون الخوض في التفاصيل والتساؤل عن مغزى الاغفال ومبررات اللوذ بالصمت .

ومن الملاحظ لدى متتبعي كتابات شرابي ان المقدمة التي كتبها عام ١٩٧٤ ونشرها في مطلع كتابه « مقدمات لدراسة المجتمع العربي » (صدر عن الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٥) ، تكاد تؤلف فصلا لاحقا من فصول مذكرات الجمر والرماد . فالمثقف الذي بلغ الاربعين من عمره عشية الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، خرج عن صمته في المنفى ودخل في مرحلة جديدة من حياته . لكي ينتقل من المحافظة الى الثورية في التفكير . ويقف عند هذا المنعطف التاريخي الفاصل . ومن ثم يأخذ باعادة النظر جذريا في مواقفه الفكرية والسياسية السابقة كلها . هنا تطالعنا المفارقة الزمنية ، حيث « الماضي يفتح ابوابه امامي » وتعود الذاكرة بهشام شرابي عشية الخامس من حزيران ١٩٦٧ الى مدينة يافا . مسقط رأسه . التي رآها صاحب الجمر والرماد للمرة الاخيرة من نافذة الطائرة التي اقلعت به ــ وعلى متنها فايز صايغ ــ من مطار اللد « في يوم ماطر من كانون الأول سنة ١٩٤٧ . في طريقها الى اميركا » (المقدمات ، ص ١٣) . وبهذه الرحلة التي ابعدته عن ارض الوطن طلبا للعلم؛والثقافة تبدأ فاتحة مذكرات الجمر والرماد .

وحين يعمد الباحثون الى دراسة الآثار التي خلفتها هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ لدى المثقف العربي سواء كان مقيما في الوطن أم مغتربا في

الخارج أم صامتاً في المنفى ــ لا بد لهم من التوقف عند الصراحة الفكرية و« الحقيقة » الملازمة للانسان الذي لا يستطيع العيش بدون « حقيقة » : « ولكل انسان حقيقته » يضم حياته حولها فتحدد اهدافها وتعطيها دلالة ومضموناً » (المقدمات ، ص ١٢) . لقد تزامن بلوغ هشام شرابي الأربعين من عمره مع « صدمة الخامس من حزيران » ، فكتب متذكراً هذا التزامن الموحي والمطهر للفكر من رواسب الماضي ، العبارة التوفيقية التاليه :

« يقال ، عندما يدخل المرء في الأربعينات ينسى حماقات الشباب ويصبح محافظاً ، متشدداً . بلغت الأربعين ، ولكن ، بدلا من ان اصبح محافظا اصبحت ثورياً بتفكيري . فقد كانت سنة ١٩٦٧ بالنسبة الي بداية مرحلة جديدة من حياتي اخذت فيها باعادة النظر جذرياً بمواقفي الفكرية والسياسية السابقة جميعا . وكان ذلك نتيجة لالتقاء سنواتي الأربعين بصدمة الخامس من حزيران » (مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، المقدمة ، ص ١٣) .

فالقارىء لمذكرات شرابي والمطلع على أمر هذا التحول الجذري في مواقفة الفكرية غداة هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، لا تفاجئه بعد الآن تلك العبارات التي يصف بها موقف شارل مالك من الذين « شبوا عن الطوق وخرجوا عن الدوران في فلك لهجة التسلط الكلامي والعجرفة الجوفاء واساليب التهكم الفكري » . ولقد جاءت الاحداث التي شهدها لبنان منذ ما ينيف على العشرين عاما ، لتثبت صدق وصحة التحليل الذي يقدمه شرابي في الجمر والرماد . ففي خريف العام ١٩٧٠ ، تسنى للمثقف العربي الذي درس الفلسفة في الجامعة الاميركية ببيروت تحت اشراف شارك مالك وتعرض لوطأة اسلوب التلقين« السلطوي » ان يكتشف بصورة قاطعة ومشرقة حقيقة الذين يتكلمون « باسم الحق والقيم العليا » ، وليس على القارىء الراغب في التوسع الا الرجوع الى كتابات سعيد تقي الدين ، حيث تطالعه مكتشفات شرابي بمفعولها الرجعي . ولا سيما في تلك المقالة الثابتة التي ترجع الى عقدين من الزمن وعنوانها « خلينا نشوفك » ــ والى سعيد تقي الدين يرجع الفضل الاول والاخير في نحت لفظة « الشملكة » (من شارل مالك) ! وفي معرض اشارة هشام شرابي الى قطع صلاته وعلاقاته الفكرية بشارل مالك (« منذ ذلك الحين انقطع الرباط الذي جمعني بشارل مالك . ولم يعد بالامكان تسويغ علاقتي به » ، ص ٣٠ من الجمر والرماد) ، ومنعا للاطالة المملة . يجدر بقارىء المذكرات ان يتذكر تلك الكلمات التي وردت في خاطر شرابي مقتبسة عن المفكر الفرنسي موريس ميرلوبونتي « تكمن في الشخص الذي ينادي دائما بالقيم العليا والأخلاق السامية وداخلية الانسان نزعة خفية للعنف والحقد والتعصب » . (ص ٢٩)

والنتيجة المنطقية لمسار تفكير استاذ الفلسفة الذي غادر الجامعة ليشغل منصب وزير لبنان المفوض في واشنطن سنة ١٩٤٥ . لا تتكشف امام طلابه حينذاك ، اذ اعتبروا رحيل استاذهم بمثابة خسارة لهم ومكسبا تجنيه اميركا . فالشق الثاني جاء بالفعل مكسبا اميركيا دون تردد :

« ولم يخطر ببالنا آنذاك ان ما سيفعله مالك في الولايات المتحدة هو التخصص في مهاجمة الشيوعية ومدح المسيحية ، ودعم الحرب الباردة ليعود الى لبنان ويصبح ايديولوجي اليمين المسيحي المتعصب »(ص ٣٩).

على ان المثقف العربي هشام شرابي في بحثه عن الثقافة الليبرالية النقدية («وقد افشلت الجامعة الأميركية في تلقيني إياها ») يتابع مسيرة وعيه من خلال التحاقه بجامعة شيكاغو فيبقى طيلة فترة طويلة نسبيا اسير الالتزام المسبق بوجهه نظر معينة « تعبر عن الايديولوجية المسيطرة ، وطابعها التأملي التجريدي ، الذي يميز الفكر البورجوازي باكلمه » (ص ١٢٠) فالفترة التي امضاها الوعي في دراسة الفلسفة تتيمز الى حد ما بمحاولة « التخلص من ادران ثقافتي الماضية » . لكن سفينة الوعي تسير مع التيار السائد ، مما يؤدي بالتالي الى تقبل المواقف الليبرالية المحافظة « دون تساؤل » ــ وهو الذي يشتهر عند عارفيه ومقدريه بكثرة التساؤل والتلذذ اللاواعي بطرح الاسئلة يمنة ويسرة دون كلل او تريث لاستقبال الجواب واتاحة الفرصة لصدور الرد .

بيد ان الصدق المقنن يبقى رائد المذكرات في تداعيها النفسي والزمني هذا بالاضافة الى نزعة الانتقاء والتوقف عند احداث وظواهر معينة والتركيز عليها دون سواها . وقد تكون لفظة « التأمرك » الفكري غير منصفة على الاطلاق ، ومن الانسب ان نصغي اليه متذكراً سيرة وعيه بين الجمر والرماد :

« فصار تفكيري مشبعاً بالنظرة الليبرالية الاميركية (الانجلوسكسونية) ، واتخذت موقفا معاديا للشيوعية والاتحاد السوفياتي . وقبلت بنظرية التنافس الحر والديمقراطية البرلمانية دون اي تساؤل او تردد » (ص ١٢٠) .

وهذا ما يجذبه عن وعي او لا وعي الى الدوران في فلك الشملكة . فالتحول الجذري في الموقف الفكري ترتب عليه الانتظار حتى نكسة الخامس من حزيران في التقائها مع بلوغ المثقف العربي صاحب المذكرات عتبة الاربعين من عمره .

اما بالنسبة الى الواقعة التي تنطلق منها مذكرات الجمر والرماد ــ « غادرنا بلادنا في وقت محنتها دون اي تردد او شعور بالذنب » (ص ١٤) ــ فان شرابي يحاول تفسير هذا السلوك دون تبريره ، وهو يعترف بعجزه التام عن القيام بذلك . وهنا يضعنا وجها لوجه أمام طبيعة الموقع الفكري لطبقة او فئة المثقفين في المجتمع ، ويلقي شيئا من الضوء على طبيعة وملابسات الدور الذي ينتظرهم او يناسبهم :

« ربما كوننا مثقفين ساعد على نر الرماد في اعيننا ، فصرنا نرى الأشياء من زاوية الفكر المجرد وحده ، وهكذا بدت الدنيا لنا موضوعا لكلامنا وفكرنا ، لا مجالا لتحقيق افعالنا وأعمالنا » (ص ١٤) .

لقد اختار شرابي كطالب جامعي ان يدرس الفلسفة تبعا لرغبة كانت تدفعه بالحاح « في ان اتخلص من حالة القلق النفسي والضياع الفكري التي كنت فيها » (ص ٢٧) . وقد يضيق بنا مجال هذه المراجعة لو شئنا التوقف عند القليل فحسب من تفاصيل المراحل التي مر بها تطوره في حقل دراسة الفلسفة ، والاشخاص والمفكرين الذين يأتي على ذكرهم معترفا بفضلهم ومشيرا الى التأثير الذي مارسوه والوقع الذي تركوه في نفسه .

كما انه لا يسعنا التوقف عند الناحية التي تشغل القسم الأكبر من الجمر والرماد ، الا وهي انضمام هشام شرابي الى الحزب السوري القومي الاجتماعي في ١٩ حزيران ١٩٤٦* ، بعد ان سبق له الالتحاق بجمعية سرية تهدف الى تحرير الوطن العربي وتوحيده . فالجو الفكري والعاطفي الذي انتقل اليه صاحب المذكرات ــ لدى « انتقالي فكريا من مركز القومية العربية الى نقيضها القومية السورية »لم يتميز كثيراً عن الجو الذي كان فيه . والتحول الجذري الذي مر به تفكير شرابي وموقفه بعد مرور ما ينيف على العشرين عاما منذ انتقاله بين القوميتين يتجلى على افضل وجه في الفقرة التالية التي من شأنها اثارة الانتقادات الشديدة ، اذ يقول :

« فالموضوعات التي كانت تمثل لي في ذلك الحين صلب الحقيقة لم تعد الأن تعني لي الكثير . موضوع الأمة ، ماذا يعني لي اليوم ؟ وتاريخ الأمة او حضارتها ، عربية كانت او سورية . ما اهميته ؟ الافكار المصاحبة لهذه النظرة او تلك ، لم تعد لها قيمة متميزة بالنسبة لي . ما يهمني اليوم هو حياة هذا الشعب المعذب ومصير هذه الجماهير المستغلة المستعبدة . جميع الأفكار والقيم والأهداف التي تدور حول حياة الشعب ومصير الجماهير لم تعد تمسني او تعني لي شيئا » (ص ٧٢) .

وتكتمل الدائرة حين تعود بنا الذاكرة الى مقدمة

---

* يريدنا شرابي في مذكراته ان نخرج بانطباع مؤداه ان المثقف الملتزم بموقف حزبي قد تخلى نهائيا عن التزامه غداة اعدام مؤسس الحزب وفي اعقاب عودته الى اميركا هربا من الاعتقال والمطاردة . بيد ان المقالة التي نشرها شرابي في العدد السنوي الممتاز (١٩٥٧ ــ ١٩٥٨) من **المجلة** (السنة الثانية) بعنوان « فلسفة جديدة » تنبىء باستمرارية في السير على خط التفكير الحزبي وفي تقديم المزيد من الشروحات لفلسفة العقيدة القومية الاجتماعية وصفاتها البارزة .

[انظر مجلة فكر ، العدد ٢٥ ، ٢٦ ، السنة الرابعة ، ايلول ــ تشرين الثاني ١٩٧٨ ، ص ١٤٥ ــ ١٥٥] . ولا بد من التساؤل عن الدوافع التي حدت كاتب المذكرات الى اغفال هذه الناحية او تجاهلها لانها تمد بحياته الحزبية وتبقي على الاتصال والاستمرار في خط تفكيره الحزبي ضمن اطار العقيدة القومية الاجتماعية ومنطلقاتها الفكرية والفلسفية . فهل جاء الاقصاء متعمدا ام انه اغفل سهوا ؟ ولا غرو فان الانقطاع البارز في المذكرات يشكل هوة زمنية وفكرية ليس من السهل القفز فوقها واسقاط التحول على هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

المذكرات ، لكي تضعنا امام المثقف العربي الذي قرر العودة الى وطنه بعد ان طال اغترابه واوغل بعيدا في تغربه ، ففي السطر الأول من المقدمة يطالعنا قرار شرابي بالعودة نهائيا الى الوطن العربي سنة ١٩٧٤ . وعندما اكتشف هذا المثقف العائد لخدمة وطنه « ان الشعب والوطن لا يأبهان به وبأحلامه ، وان الواقع يناقض الرؤيا . »(ص ٨) ، قرر من جديد الرجوع الى منفاه « كالجندي المهزوم » . ومما لا ريب فيه ان مذكرات الجمر والرماد هي محاولة يعمد شرابي من خلالها وعبرها الى مراجعة الماظي ومواكبة المسار الذي اجتازه وعيه الفكري والفلسفي والاجتماعي والقومي ــ الوطني :

« هذا الكتاب حصيلة تلك الفترة القلقة . بدأت في كتابته صيف ١٩٧٥ لاسجل فيه نهاية مرحلة من حياتي ظننتها انتهت . وبداية مرحلة جديدة ظننتها بدأت أو على وشك ان تبدأ . الا ان المرحلة الجديدة لم تتحقق والمرحلة السابقة ما زالت مستمرة »(ص ٩).

ان هذا التواصل بين المرحلتين السابقة واللاحقة يسهم الى حد ما في الاحساس المتفائل الذي يغمر شرابي ابان تقديمه للمذكرات ، فيضع حدا لتردده بين العودة من جديد الى الوطن او تمضية ما تبقى لي من العمر هنا في هذه البلاد الغريبة » ، مؤكدا عجزه عن التخلي عن وطنه : « سأعود يوما » وحين يستقل شرابي الطائرة في صيف العام ١٩٤٩ عائدا الى اميركا يطالعنا السطر الأخير من جمره ورماده بنغمة متشائمة تشوبها المرارة والخيبة ــ على غرار فقرات المقدمة التي اشرنا اليها . فهو يهمس لنفسه متمتما : « لقد نبذتني يا وطني ... لن ارجع اليك ... لن أرجع ابدا ... » (ص٢٢٨) .

وليس من قبيل المبالغة ان صاحب المذكرات يمارس ضربا من التعري الفكري على صعيد سيرة الوعي واللاوعي وفي مسار المفارقة الزمنية . فالقارىء مدعو الى متابعته من خلال الجمر والرماد في ايراده لذلك السيل المستمر والحشد الغفير من الاسماء والوجوه التي اكتشف الوعي ذاته من خلالها وتمرأى فيها ، فتحول الى وعي شقي واحيانا الى وعي منفصم . ومن الفقرات التي تسترعي الانتباه تلك التي يتحدث فيها شرابي عن رصد وعيه الذاتي لموت الآخرين لا سيما الاصدقاء (الفصل الثالث من الجمر والرماد . الفقرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) فهو يقول : « لامس الموت حياتي في فترات مختلفة .. وكنت اشعر انه سيخطفني باكرا». فالمذكرات التي كتبها هشام شرابي لها نكهة خاصة ــ وان جاءت متأخرة ومجتزأة بعض الشيء . ولقد اشفقت احيانا على القارىء من سيل الاسماء والاشخاص والوجوه الذي لا ينقطع . كما فاجأتني كلمة الغلاف التي وقعها ادونيس : « نادرا ما قرات نتاجا عربيا حديثا هزني ، فتمنيت لو انني كنت صاحبه » . وما على الشاعر ادونيس الا ان يحقق امنيته ويتحفنا بكتاب يضم بين دفتيه مذكرات تنيرنا وتأسرنا ، دون ان تهزنا ، وتضعنا في الجو المماثل ولا تستفزنا كقراء . ولشد ما بلغت بي الدهشة والاستغراب عندما وجدت ان عبارة ادونيس التي اتخذتها الترجمة العربية لكتاب شرابي «المثقفون العرب والغرب»،(١٩٧١) جاءت بديلا لكلمة نيتشه التي تتصدر الغلاف الداخلي للنص الانكليزي الاصلي ، حيث استبعدت عبارة نيتشه «عليكم ان تكفروا امام ابنائكم عن ذنب تحدركم من آبائكم ، وبغير هذه الكفارة لن تنقذوا الماضي » (هكذا تكلم زارادشت : هذه هي الوصية الجديدة اعلق لوحها فوق رؤوسكم ــ « الوصايا القديمة والوصايا الجديدة»)، وحلت محلها وايقنت عندما صرت في الثلاثين ان حياتي قد قاربت على النهاية (١٩٥٧) . وفي الخامسة والثلاثين اعتقدت اعتقادا راسخا بان ما تبقى من عمري لا يتعدى السنوات (١٩٦٢) وتاكدت ان الموت لا مفر منه لما اصبحت في الاربعين ، في الحقبة التي توفي فيها كيركيغارد (٤٣) وسعاده (٤٥) وكامو (٤٧) . لكن الموت لم يأت ... وها هي الخمسينات اصبحت على الابواب (١٩٧٧) . اصبحت مؤمنا ان الموت قد غض الطرف عني » (ص ١٤٨) .

جملة ادونيس التالية : «ان اوروبا لم تعد ، بالنسبة لنا نحن هذه الشعوب « المتخلفة » ، « الجاهلة » ، « الفقيرة » اكثر من جيفة متمدنة » . نتوقف هنا تاركين للقارىء مجالا للتأمل والتروي قبل اصدار الحكم النقدي الموزون ودون اغفال الحيثيات التي رافقت تلك التحول الجذري البارز .

شهريات

اسرائيليات

العلاقات الاسرائيلية المصرية

« من التطبيع الى الصداقة »

منذ الزيارة الاولى التي قام بها رئيس الحكومة الاسرائيلية للقاهرة في ١٩٧٩/٤/٢ بدعوة من الرئيس المصري انور السادات ، كان واضحا ان كلا منهما مستعد للقيام بقفزة واسعة الى الامام، في اتجاه تطبيق بنود معاهدة السلام المنفردة بين مصر واسرائيل، وخاصة المتعلقة منها بخلق علاقات طبيعية بين البلدين . وقد اتضح ذلك من النتائج التي تمخضت عنها هذه الزيارة في المؤتمر الصحفي الذي عقداه في ختام مباحثاتهما ، والذي سارع مناحيم بيغن للاعلان فيه عن اتفاقه مع الرئيس المصري،لفتح الحدود بين البلدين غداة الانسحاب الاسرائيلي من مدينة العريش والاحتفال بتسليمها للسلطات المصرية في ١٩٧٩/٥/٢٧ وبحضور كل منهما : وذلك بتقديم موعد الانسحاب بشهر واحد عن الفترة المنصوص عليها في بنود المعاهدة ، وبالمقابل تقديم موعد فتح الحدود الذي كان مرهونا باقامة علاقات دبلوماسية على مستوى السفراء بين البلدين،بعد ٩ اشهر من اتمام المرحلة الاولى من الانسحاب . وكما اتضح ذلك ايضا من التقرير الذي قدمه مناحيم بيغن للكنيست الاسرائيلي في ١٩٧٩/٤/٤ عن نتائج هذه الزيارة (انظر **شؤون فلسطينية** ، العدد ٩٠ ، ص ١٦١) .

وعلى الرغم من التخوف الذي ابداه مساعدو الرئيس السادات ومستشاروه ، من النتائج المترتبة على هذا الاندفاع في خلق العلاقات مع اسرائيل بالنسبة للعالم العربي ، اذ كان في رأيهم ان مصر « اصبحت معزولة بما فيه الكفاية في العالم العربي وليس من حاجة الى شد الحبل اكثر » ولا بد من « التقدم بخطوات بطيئة نحو الهدف » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) ، فقد سارت عملية تطبيع العلاقات بخطى حثيثة . وتم ذلك ايضا على الرغم من كل المحاولات التي بذلها هؤلاء المساعدون والمستشارون ، وعلى الاخص رئيس الحكومة المصرية مصطفى خليل ، ووزير الخارجية بالوكالة بطرس غالي ، اللذان « وقفا مذهولين امام هذه الديناميكية في سير العملية ، لاعاقتها وابطائها وتأجيلها » (المصدر نفسه) . وكان ما حصل في لقاء السادات ـ بيغن في مدينة العريش بمناسبة تسليمها للمصريين في ١٩٧٩/٥/٢٧ ، هو ما اعلن عنه بالفعل مناحيم بيغن ، في ختام زيارته الاولى للقاهرة ، وهو عكس ما كان يسعى اليه مصطفى خليل وبطرس غالي تماما ، فـ « لا اعاقة ولا ابطاء ولا تأجيل » (المصدر نفسه) ، في عملية « تطبيع العلاقات » بين الدولتين ، بل تعميقها في كل جوانبها السياسية والعسكرية والثقافية .

العلاقات السياسية

لكي توضع تلك الاتفاقات موضع التنفيذ الفعلي ، اتفق الطرفان،الاسرائيلي والمصري ، علاوة على فتح الحدود بين الدولتين ، على قيام الزعماء الاسرائيليين بسلسلة من الزيارات المتلاحقة لمصر ابتداء بوزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان ، الذي توجه الى

القاهرة في ١٩٧٩/٥/٤ ، لاجراء « محادثات مع رئيس الحكومة المصري مصطفى خليل ، ووزير الدولة للشؤون الخارجية بطرس غالي ، بشأن الترجمة الفعلية لهذه القرارات » (هآرتس ومعاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) . ومن بينها تلك المتعلقةبقرار فتح الحدود، الذي كان قداعلن عنه بيغن بحضور السادات في العريش ، انسجاما مع ما كان قد صرح به السادات للصحافيين الذين رافقوه في رحلته الجوية الى بئر السبع بأن « وزراء من الدولتين هم الذين سيتفاوضون على تفاصيل تطبيع العلاقات المعجلة » ، وانه « يترتب على هؤلاء الوزراء الآن ان يضعوا الترتيبات الاخرى لذلك » بعد ان « اتفقنا، بيغن وانا ، بالنسبة للمبادىء باننا كلما استطعنا ان نعطي دفعة جديدة لعملية السلام فاننا سنفعل ذلك » (المصدر نفسه) .

وكانت الزيارة التي قام بها موشي دايان الى القاهرة في ١٩٧٩/٦/٤ ، والتي التقى خلالها انور السادات ، بالاضافة الى مصطفى خليل وبطرس غالي ، قد تمخضت عن الاعلان في بيان مشترك له ولرئيس الحكومة المصري عن « فتح المجال الجوي بين اسرائيل ومصر ، وعن اعطاء الحق لمواطني البلدين في التزاور » (ر.أ ، ١٩٧٩/٦/٦ ، ومعاريف ، ١٩٧٩/٦/٧) . واضاف خليل بان المحادثات حول المسائل المتعلقة بالعريش « لم تنته خلال هذه الزيارة التي قام بها دايان » ، وان معالجة هذا الموضوع ستتم « من قبل حاكم العريش مع زميله في اللجنة الاسرائيلية ـ المصرية المشتركة . » اما عن العبور بين الدولتين برا ، فقد اوضح خليل ان « هذا الموضوع ومواضيع اخرى مشتركة ستجري مناقشتها في اللقاء الذي سيتم بين دايان وبطرس غالي في بئر السبع » . وانه سيكون هناك، « اعتبارا من الآن ، اتصال مباشر بين وزارتي خارجية البلدين » (المصدر نفسه) .

اما موشي دايان فكان قد صرح في مطار اللد ، لدى عودته من هذه الزيارة في ١٩٧٩/٦/٦ : « انني اعود الى البيت ولدي شعور بانني حصلت هناك على اكثر مما توقعته » (ر.أ ، ١٩٧٩/٦/٦ ومعاريف ، ١٩٧٩/٦/٧) . وعلى الرغم من ان الوزير دايان لم يتحدث سوى عن « الانجازات في مسار تطبيع العلاقات ، فقد المح الى ان ثمة « مواضيع اخرى تتعلق بالعلاقات بين الدولتين قد طرحت » في المحادثات التي وصفت بانها « خاصة » (المصدر نفسه) . وليس من المستبعد ان يكون موضوع تبادل السفراء بين مصر اسرائيل ، من بين المواضيع التي طرحت في هذه المحادثات « الخاصة » ، اذ تسربت اخبار عن لقاء العريش بين السادات وبيغن تفيد بانهما « اتفقا على تبادل السفراء بين البلدين بعد وقت اقصر بكثير من ذلك الذي اتفق عليه بين الدولتين » (هآرتس ، ١٩٧٩/٥/٢٨) . وقد لخص موشي دايان كنه محادثاته في معرض رده على السؤال عما اذا كان موضوع الحكم الذاتي قد طرح بطريقة ما اثناء محادثاته مع القادة المصريين قائلا : « استطيع القول بانه خلال كل هذه المحادثات ، لم تطرح ، وبأي طريقة كانت ، مسألة الحكم الذاتي ، ولم يلمحوا [المصريون] الى اي شيء ، ولم يسألوا عن المستوطنات ولا عن اية مواضيع اخرى ، لا الرئيس السادات ولا رئيس الحكومة مصطفى خليل ، ولا بطرس غالي » (ر.أ ، ١٩٧٩/٦/٦ ، ومعاريف وهآرتس ، ١٩٧٩/٦/٧) . واضاف دايان مؤكدا : « لقد ناقشنا بصورة عملية طريقة تطبيق اتفاق السلام الاسرائيلي ـ المصري ، وما استطيع قوله هو اننا ناقشنا في الايام الثلاثة التي قضيناها هناك وباكثر الصور عملية مسائل تطبيق اتفاق السلام ، ولم يربط المصريون ذلك باي شكل من الاشكال ، ولا بأي شرط يتعلق بموضوع الحكم الذاتي » (المصدر نفسه) .

اما بالنسبة للاتفاق الذي تم بين البلدين على « فتح الحدود » ، فقد قال دايان : « ستكون هناك زيارات حرة بين الدولتين لجميع المواطنين : اي ان المواطنين الاسرائيليين يستطيعون السفر الى مصر وبالعكس ، وباستطاعتهم تقديم الطلبات للحصول على تأشيرات السفر ، وستكون الاستجابة لهذه الطلبات خاضعة للقوانين العادية لكل من الدولتين » ، ثم اضاف معقبا : « هذا هو البند الاساسي ، وهذا هو التغيير الاساسي في الوضع الذي كان سائدا حتى الآن » (المصدر نفسه) .

وكانت مسألة فتح الحدود بين الدولتين ، قد تحولت منذ التوقيع على معاهدة كمب ديفيد ، الى هدف رئيسي بالنسبة لاسرائيل في علاقاتها مع مصر ، حتى بدا كأن شعار « الحدود المفتوحة » الذي رفعه بيغن قد ورث شعار « الحدود الآمنة » : الذي ما

انفكت اسرائيل تلوح به طيلة الوقت . وكان مناحيم بيغن بالذات قد اصر عند التوقيع على معاهدة كمب ديفيد في واشنطن ، على الاعلان عن « حدود مفتوحة » بين مصر واسرائيل ، ثم اصر على ذلك اثناء زيارته الاولى للقاهرة في شهر نيسان الفائت بقوله ، وبحضور السادات ، بان « الحدود ستفتح بين الدولتين » يوم تسليم العريش للسيادة المصرية . ثم اتبع اعلانيه هذين باعلان ثالث ، وبحضور السادات ايضا ، في حفل تسليم العريش مفاده بان « الحدود مفتوحة بين البلدين ابتداء من اليوم » (هآرتس ودافار ومعاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) .

ومع ان هذا الاعلان لا يجلب معه تدفقا من الاسرائيليين والمصريين الى كل من مصر واسرائيل ، ولا يغير من مجرى زيارات الوفود المضبوطة لكل من الدولتين في الوقت الحاضر ــ حتى ولا بعد الاتفاق الاخير الذي اسفرت عنه محادثات دايان في القاهرة ــ الا انه ذو معنى كبير بحد ذاته : اذ كان قد « تردد على خلفية صراع داخل القمة المصرية » ، وبالتحديد بين « وزارة الخارجية التي كانت تحاول تأجيل ذلك الى ما بعد انتهاء المرحلة الاولى من الانسحاب ، بعد تسعة اشهر ، وبين الرئيس السادات » (المصدر نفسه) . وهذا ما يفسر الحقيقة التي تسترعي الانتباه ، والتي زافقت هذه المسألة ، وهي مناحيم بيغن هو الذي اعلن بنفسه في المناسبات الثلاث ــ في واشنطن والقاهرة وبئر السبع ــ عن « فتح الحدود » بحضور السادات ، وليس السادات نفسه ! ويكاد يبدو وكأن السادات اوكل مسألة الحسم العلني في هذا الجدال المصري الداخلي لمناحيم بيغن ، وهذا بالفعل ما قد حصل . وكان السادات نفسه قد كشف النقاب عن هذا الصراع ، في رده على السؤال حول التصريحات المتناقضة التي ترددت على السنة مسؤولين مصريين في هذا الشأن ، قائلا : « ان وزارة خارجيتي تعارض الفكرة ، ولكنني كنت قد وعدت بيغن [بذلك] عندما التقينا في القاهرة في نيسان الماضي ... وعندما سئل وزير خارجيتي بالنسبة لذلك ، فانه عرض موقف وزارته .. ولكنني كنت وعدت بيغن » (المصدر نفسه) . ثم اضاف السادات ، مقللا من هذا الصراع الداخلي : « لم يكن بيننا اي تناقض او سوء فهم : لقد اجرينا حوارا طويلا جدا في مصر قبل وصولي الى هنا [العريش] . لقد كان الخيار واضحا : اما ان اقنعهم او يقنعوني ، وهكذا ، ولحسن الحظ اقنعتهم انا ... » (المصدر نفسه) .

وكان بطرس غالي قد صرح عقب محادثاته مع وزير الخارجية الاسرائيلية موشي دايان ، في العريش اثناء الاحتفال بتسليمها في ١٩٧٩/٥/٢٣ ، اي قبل يومين من الاعلان عن « الحدود المفتوحة » ان « الحدود بين اسرائيل ومصر ستفتح فقط بعد ثمانية اشهر » (هآرتس ودافار ، ١٩٧٩/٥/٢٤) . وليس بعد اسبوع كما كان قد اعلن في حينه . وحين سئل غالي في المؤتمر الصحافي الذي عقده مع نظيره الاسرائيلي ، عن هذا التحول في موقف مصر اجاب : « لا يوجد اي تغيير . الرئيس السادات تكلم عن المبدأ العام ، ونحن نتكلم عن تجسيد هذا المبدأ » (المصدر نفسه) . اما عن السؤال «ما معنى حدود مفتوحة اذن ؟ » ، فقد اجاب غالي بقوله ان المعنى هو « رمزي : ويترجم في ان قادة الدولتين يستطيعون الالتقاء والاجتماع » . واضاف موضحا « ان التجسيد العملي في الحياة اليومية سيكون بعد الفترة الانتقالية » (المصدر نفسه) .

وعلى الرغم من تحقيق ما كانت تسعى اليه اسرائيل بالنسبة لفتح الحدود بينها وبين مصر ، والاعلان عن ذلك رسميا في البيان المصري الاسرائيلي المشترك في ختام زيارة موشي دايان للقاهرة ، تعرضت مسألة تأجيل فتح الحدود البرية واقتصار ذلك على الحدود الجوية والبحرية فقط في هذه المرحلة ، للنقد الشديد في الصحف الاسرائيلية المعدودة على الائتلاف الحاكم ، حتى قبل قيام موشي دايان بهذه الزيارة ، وذلك لحمل مصر على فتحها ، بعد ان اصبح واضحا ان الحدود البرية قد استثنيت من قرار فتح الحدود . وقد تعدت صحيفة معاريف ، في انتقادها ، مسألة فتح الحدود الى التشكيك في نوايا السادات نفسه : فكتبت تحت عنوان « الحدود المفتوحة التي بقيت مغلقة » انه « في اليوم الذي اعلن فيه رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، في العريش عن « الحدود المفتوحة » بين اسرائيل ومصر ، عمل المصريون على اغلاق الطريق الوحيد بين الدولتين لفترة غير محددة » . واضافت الصحيفة موضحة بان الحكم المصري الذي عاد الى مدينة العريش ، قد « هدم القاعدة الطبيعية الوحيدة التي كانت قائمة لبداية فورية من التعايش الاسرائيلي المصري في

العريش » ، وان ذلك لم « يكن لاسباب امنية » ، وانما « بسبب الخط الواضح الذي ينتهجه انور السادات نفسه ، لعزل شمال سيناء عن كل اتصال مع اسرائيل ، ولمدة غير محددة » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) .

على اية حال ، على الرغم من اصرار مناحيم بيغن على التعجيل في « تطبيع » العلاقات مع مصر ، فقد اخذ يتبلور في حكومة اسرائيل اتجاه يدعو « لتهدئة مناحيم بيغن في موضوع تطبيع العلاقات » ، وترك العملية لتتطور « من تلقاء نفسها » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . ولا سيما وان معظم اعضاء الحكومة الاسرائيلية قد قاموا حتى الان بزيارة مصر ، سواء اولئك الذين يشاركون في مفاوضات الحكم الذاتي منهم ، او الذين تلقوا الدعوة من الرئيس السادات نفسه للقيام بمثل هذه الزيارات بمن فيهم رئيس الحكومة الاسرائيلية ، مناحيم بيغن ، ونائبه يغئال يادين .

وعلى الرغم من اجواء الوفاق التي حرص الطرفان الاسرائيلي والمصري على ابرازها ، الا ان ثمة « خلافات عائلية » عابرة كانت قد عكرت صفو هذه الاجواء : كان احدها على اثر التصريح الذي ادلى به وزير « الدفاع » الاسرائيلي ، عيزر وايزمان ، في مؤتمر حيروت الرابع عشر ، والذي قال فيه انه في « حالة انهيار السلام ، فان جيش « الدفاع » الاسرائيلي سوف يحتل سيناء للمرة » (معاريف ، ١٩٧٩/٦/١٢) . مما دعا رئيس الحكومة المصرية ، مصطفى خليل ، لان « يشن هجوما علنيا عليه » الامر الذي اثار بدوره حفيظة عيزر وايزمان ودعاه للرد على هذا الهجوم ، مغتنما فرصة التقائه بمصطفى خليل في ١٩٧٩/٦/١١ . وفي الحديث الشخصي الذي دار بينهما « تصرف وايزمان حسب القاعدة القائلة : ان خير وسيلة للدفاع هي الهجوم » (المصدر نفسه) . وادعى انه خلال اشهر طويلة « تحاشى الرد على الكثير من التصريحات المحرجة التي ادلى بها وزراء مصريون مختلفون ، بمن فيهم خليل نفسه وبطرس غالي » كما تطرق وايزمان الى تصريح نائب رئيس الحكومة المصرية محمد حسن التهامي « بشأن » مسيرة المليون مسلم للقدس » ، الا انه فضل « الاحتفاظ بها لنفسه وعدم الرد عليها » . ولكنه عندما يدلي هو بتصريح واحد ، فان اولئك انفسهم « يهاجمونه علنا وامام المراسلين الاجانب » ثم تساءل وايزمان غاضبا : « اهذا ما تسمونه صداقة ؟ » (المصدر نفسه) .

ولكن هذا الخلاف الذي « شكل موضوعا للتوضيح » ما كاد « ينتهي بالمصالحة بين الرجلين » (معاريف ، ١٩٧٩/٦/١٢) . حتى ثار خلاف اخر حول ما جاء في مقال « لموسى صبري » في صحيفة الاخبار ، والذي « شبه فيه مناحيم بيغن بالافعى » (المصدر نفسه) . الامر الذي حدا برجال الاعلام والمسؤولين الاسرائيليين بمن فيهم وزير الداخلية ، يوسف بورغ ، « لاثارة ضجة حوله » (المصدر نفسه) . الى حد ان وزير الزراعة الاسرائيلي ارئيل شارون الذي كان يقوم بزيارة للقاهرة ، « تحدث الى رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن واقترح عليه ان يؤخر خروج الوفد الاسرائيلي الى محادثات الحكم الذاتي في الاسكندرية احتجاجا على نشر المقال في جريدة الاخبار » (المصدر نفسه) . الا ان مناحيم بيغن ، الذي « تعامل بشدة مع مضمون المقال رفض الاقتراح بتأخير الوفد » لكنه كلف وزير الداخلية يوسف بورغ بأن « يطرح هذا الموضوع امام السلطات المصرية بحدة ، وهكذا حصل » (المصدر نفسه) . غير ان مناحيم بيغن لم يكتف في الواقع بذلك واصدر بيانا عاما ، تطرق فيه الى هذا الموضوع رمزا ، حيث جاء فيه : « في الايام الاخيرة تشن حملة تحريض بواسطة اوساط معينة ضد حكومة اسرائيل وضدي بشكل شخصي ، وهي نفس الاوساط التي اشادت قبل شهور بجهود اسرائيل التي ادت الى توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ... » (المصدر نفسه) . كما واثار نائب رئيس الحكومة الاسرائيلية ، يغئال يادين ، هذا الموضوع مع الرئيس السادات اثناء زيارته للقاهرة موضحا ان مقال موسى صبري « لا يساعد على تحسين العلاقات بين الدولتين » (دافار ، ١٩٧٩/٦/٢٢) . فاجابه السادات الذي كان قد « استقبله استقبالا حارا » ، بانه « آسف ، ولكنه لا يرى في مقال صبري اية نية المس بشخص رئيس الحكومة » ، وطلب اليه ان ينقل الى بيغن بانه « لن يكون بعد الان اي مساس شخصي من جانب اي طرف » (المصدر نفسه) .

ويبدو ان اثارة « الخلافات » ، واضفاء اجواء من « التوتر » على سير العلاقات بين مصر واسرائيل عشية اية زيارة يقوم بها مناحيم بيغن بالذات ، قد

اصبحت تقليدا محببا لدى الطرفين ، بل كما لو انها قد اصبحت احد الشروط الضرورية لعملية « تطبيع » العلاقات بين الدولتين ، وجزء مهما من الديكور المعد سلفا لنجاح هذه الزيارات وما يدور خلالها من محادثات بين الطرفين ، لا سيما المتعلقة منها بيغن والسادات ، وما ينجم عنها من بيانات مشتركة في المؤتمرات الصحفية التي يعقدانها في اختتام هذه الزيارات . وهكذا ، وكما جرت العادة إذن ، كانت الاجواء اللازمة لقيام مناحيم بيغن بزيارته الاخيرة للاسكندرية في ٩/٧/١٩٧٩ مهيأة تماما . ولهذا فقد انتهت وكما كان متوقعا « بنجاح كبير » بل و « شكلت مدماكا مهما في بناء تطبيع العلاقات والسلام بين الدولتين » (هتسوفية وداقار ومعاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . كما صرح مناحيم بيغن نفسه . وكان مناحيم بيغن والسادات اللذان التقيا في الاسكندرية قد « تحدثا بصراحة تامة سواء في المشاكل المتفق عليها بينهما كالحاجة في تعجيل عملية تطبيع العلاقات والحكم الذاتي ، والحفاظ على وحدة لبنان » ، وكذلك في المواضيع التي « بقيت موضوع خلاف بينهما ، مثل موضوع المستوطنات » (هستوفية ، ١٣/٧/١٩٧٩) . كما نستدل من الكلمتين اللتين القياها في مؤتمرهما الصحفي المشترك في ختام محادثاتهما في ١٢/٧/١٩٧٩ ، وقد حاول الاثنان « اخفاء الاختلافات في الرأي فيما بينهما في موضوع الاستيطان » (عل همشمار ، ١٣/٧/١٩٧٩) . اما في موضوع جنوب لبنان ، الذي ارتأى السادات ان يذكره في مستهل المؤتمر الصحفي المشترك ، كموضوع خلاف ثان بينهما ، بدا وكأنه مفتعل ، اذ ان مناحيم بيغن اعلن حالا انه « لا يرى نفسه شريكا للسادات في الرأي بالنسبة لضرورة الحفاظ على وحدة لبنان الاقليمية » (معاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . ولهذا اعتبر المراقبون السياسيون ان السادات ربما كان « يعني بذلك سوريا اكثر مما يعني اسرائيل » (المصدر نفسه) . ويبدو انه كان قد اعرب خلال محادثاته مع بيغن ، عن « عدم ارتياحه فقط ، من القصف الاسرائيلي لجنوب لبنان » كما يستدل من تعليلات مناحيم بيغن : لماذا « ترى اسرائيل انه من واجبها القيام بعمليات القصف هذه » (عل همشمار ، ١٣/٧/١٩٧٩) . اما بالنسبة لموضوع الحكم الذاتي فقد صرح السادات ان « التقدم في المحادثات غير كاف بعد » الا انه في المحادثات المغلقة بينه وبين مناحيم بيغن كان قد « اعرب عن ارتياحه » كمناحيم بيغن نفسه من « مجرى المحادثات ومن القرار في تشكيل مجموعات عمل » (المصدر نفسه) . ومن الواضح انه « لم يكن ثمّة اتفاق كامل بينهما في الموضوع الفلسطيني » الا انهما « اختارا ان لا يكشف عن هذا الاختلاف في الرأي بينهما » (المصدر نفسه) . على اية حال فقد « تكللت محادثات الاسكندرية بالنجاح » كما وضعها مناحيم بيغن ، الذي « يجد صعوبة في اخفاء فرحه بنجاح هذه المحادثات » (معاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . ومجرد ان السادات يعتقد ، بانه « ليس من طريق للعودة بعد الآن ، بل امامنا طريق واحد فقط ــ ان نتقدم » يدل ربما على ان محك عملية السلام بين مصر واسرائيل سوف « يكون في المصالح المشتركة للدولتين وتعميق العلاقات بينهما على اساس من التبادلية » (معاريف ، ١٣/٧/١٩٧٩) . رغم المستوطنات والقرى ، بل ورغم الموضوع الفلسطيني برمته . فالزيارة التي قام بها مناحيم بيغن للاسكندرية كانت على حد تعبير السادات نفسه في المؤتمر الصحفي المذكور : « مهمة جدا » ، اما بالنسبة للمباحثات التي اجرياها فقد قال : « كان لنا تبادل آراء جيدة جدا .. انني اتفق مع السيد بيغن على ان مباحثاتنا كانت من اكثر المباحثات اهمية » (عل همشمار ، ١٣/٧/١٩٧٩) . الا أن ايا منهما لم يوضح لماذا كانت هذه المباحثات على هذا المستوى من الاهمية ؟ . اللهم الا ما كان السادات قد تطرق اليه تلميحا حيث اضاف قائلا : « لقد استعرضنا الوضع بمجمله » (هتسوفيه ، ١٣/٧/١٩٧٩) .

واذا اخذنا ما قاله نائب الرئيس المصري ، حسني مبارك ، عندما ودع مناحيم بيغن في مطار الاسكندرية لدى ختام زيارته ، بأن « المباحثات بين مصر واسرائيل تسير في الطريق الصحيح » ثم اضاف : « اننا نأمل باننا سوف نتوصل ، بعد هذه اللقاءات والاتصالات ، الى تقدم آخر » . وان كل شيء يجري وفقا لما جاء في بنود معاهدة السلام » (هتسوفيه ، ١٣/٧/١٩٧٩) . فلو اخذنا ذلك كله ، بالاضافة الى النتيجة العملية الوحيدة التي اعلن عنها في هذه المحادثات ، وهي الاعلان عن زيارة السادات القريبة لمدينة حيفا في نهاية شهر آب » (عل همشمار ، ١٣/٧/١٩٧٩) . والتي

المح اليها بيغن في كلمته التي القاها في احتفالات تسليم العريش في ١٩٧٩/٦/٢٧ ، حيث قال معقبا على الدعوة التي وجهها له السادات لزيارة الاسكندرية بان « الاسكندرية جميلة ، ولكن حيفا جميلة ايضا »(را ، ١٩٧٩/٧/٢٧ ، ومعاريف ، ١٩٧٩/٧/٢٧) لوجدنا ان هذه الاهمية في مباحثات الثنائي الاسكندراني هي فيما كان قد المح اليه السادات تلميحا حذرا ، بالنسبة لبحث « الوضع بمجمله » . وما يؤكد هذا الاعتقادهو ما كان الناطق الرسمي باسم رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ، دان فتير ، قد صرح به للصحفيين من ان احد المواضيع المهمة التي طرحت في المباحثات « يتعلق بجولة افق منطقية » (هتسوفيه وعل همشمار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . اي بـ « الابعاد الاستراتيجية والاقتصادية للتحركات الاخيرة في تكتل القوى في منطقة الشرق الاوسط » (المصدر نفسه) . بما في ذلك « مشكلة النفط والمسائل الامنية » ، كما افاد مراسل ، يو.ن ، في القاهرة . والتي « تناولت شؤون السعودية وايران وليبيا » (المصدر نفسه) . وهذا ما يعززه ايضا ما كان قد صرح به مناحيم بيغن لدى عودته من زيارته للاسكندرية من ان « السلام مع مصر قد انتقل الى مرحلة الصداقة والتفاهم » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٧/١٣) .

واذا كنا نعلم ان الخطط الاستراتيجية للسادات وطاقم مساعديه الدائمين ، « تهدف الى تقسيم سياسي مجدد لمنطقة الشرق الاوسط » والذي يجب ان « يرتكز على مصر وليبيا والسودان والسعودية » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٣) . فقد نستطيع ربما استنباط كنه « الحوار الاستراتيجي » الذي اجراه مناحيم بيغن مع السادات في محادثاته المنفردة الطويلة ، فيما « يتعلق بالتطورات المتوقعة في المنطقة ، وامكانيات التعاون بهذا الخصوص بين اسرائيل ومصر » (المصدر نفسه) والتي قد تكون محادثات الحكم الذاتي التي تنفرد فيها مصر واسرائيل تحت اشراف الاخ الاميركي الاكبر ، احد بنود هذا « الحوار الاستراتيجي » ، الذي يصب في النهاية في هذه المخططات الساداتية الآيلة الى مخططات ساداتية ـ بيغينية . وهذا ما يفسر الاحتمال في ان « تسير اسرائيل على الطريق الصحيحة في المراحل المقبلة وتوجه الدفة الى ما يطمح اليه المصريون في المستقبل القريب » ، اي الى « خلق نوع من الحلف غير المكتوب مع اسرائيل » ، على الاقل « في مواضيع معينة في الوقت الحاضر ضد العناصر المتآمرة والمعادية في المنطقة » (المصدر نفسه) . وربما يفسر هذا ايضا الزيارة التي قام بها ضابط « الموساد » السابق ، روبرت داسا ، للاسكندرية ، « كسائح اسرائيلي حر » بعد ٢٥ عاما من الحكم عليه بالسجن مدى الحياة في مصر ، عندما « القي » القبض عليه ضمن الشبكة التخريبية التابعة للمخابرات الاسرائيلية » ، هذهالزيارة التي « ترمز هي الاخرى الى التغيير الكبير الذي طرأ على العلاقات بين اسرائيل ومصر » (المصدر نفسه) . والتي قد يكون لزيارات رئيس « الموساد » السابق مئير عمين لمصر » والشائعات الرائجة حول تعيينه السفير الاول لاسرائيل في القاهرة ، علاقة وثيقة بدفع هذا التطور نحو الحلف المنشود . اما بوادر هذا الحلف فقد برزت في التصريحات التي اكدت اكثر من مرة ان « ثمة مصلحة مشتركة بين مصر واسرائيل » في أن « تنسقا فيما بينهما وتحاربا ضد الارهاب الفلسطيني » ، (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٣) . كما وان ثمة تلميحات وبوادر الى ان محادثات رأس التين الاخيرة بين السادات وبيغن ، قد « تؤدي الى تفاهم مشابه بالنسبة لاخطار اخرى ايضا كتدخل سوريا في لبنان » (المصدر نفسه) . وهذا معناه ان اسرائيل ومصر سوف « تكفان من اعتبار الواحدة منهما عدوة للاخرى » ، وربما « انقلبتا الى حليفتين خلف الكواليس » (المصدر نفسه) .

العلاقات العسكرية

ولهذا بالذات قد نرى ان العلاقات العسكرية تبدو وكانها الوحيدة المتفق عليها اكثر من غيرها ، والتي يسعى الطرفان الاسرائيلي والمصري الى تعميقها وتوثيقها ، والتقدم بها نحو ما تتسم بها اية علاقات عسكرية بين بلدين صديقين ، من خلال التنسيق المتكامل بين المصريين والاسرائيليين في اللجنة العسكرية المشتركة المكلفة « بتطبيع » هذه العلاقات من كلا الجانبين . فالبرنامج الزمني قد نفذ بحذافيره دون اية عقبات او تصريحات تعكر « مزاج » الطرفين ، وجيش الاحتلال الاسرائيلي «اعادلمصر في المرحلة الاولى من الانسحاب حوالي ٣٠٠٠ كم٢ ، بما في ذلك بحيرة البرودیل وبستان الخضار الذي ادى الى بعض «التوتر » (هآرتس ،

١٩٧٩/٥/٢٧) . بل وقام الجيش المصري بتقديم بادرة حسن نية تجاه جيش الاحتلال الصديق بـ « ابقائه مصبغة شيئوت سيناي في المنطقة الفاصلة بين الخطين ، وبدون ان تكون حتى تحت اشراف قوات الطوارىء الدولية » (المصدر نفسه) . بعد ان كانت وفقا لبرنامج الانسحاب داخلة في المنطقة التي سيسيطر عليها الجيش المصري .

وكانت اسرائيل قد اقترحت في المحادثات العسكرية التي اجراها وزير « الدفاع » الاسرائيلي عيزر وايزمان في القاهرة ، « ادخال بعض التعديلات على خط الحدود الجديد في المنطقة : من اجل ضم المصبغة في السنوات الثلاث المقبلة للمنطقة الاسرائيلية » ، وكبديل لهذا الاقتراح الذي رفضه المصريون ، طلب الاسرائيليون ان « تبقى المصبغة في المنطقة العازلة » ، الا ان المصريين « رفضوا هذا الطلب إيضا » وهكذا اتفق الطرفان في حينه على ان « تبقى المصبغة في المنطقة المصرية » بينما يستطيع العاملون فيها المرور« بعد ابراز بطاقة خاصة دونما تفتيش او تأخير » (هآرتس ، ومعاريف ، ودافار ، ١٩٧٩/٥/٢٧) ، الا ان المصريين في اللجنة العسكرية المشتركة اقترحوا في الجلسة الاخيرة فجاة أن « يعودوا للاقتراح الاسرائيلي الاول بأن تكون المصبغة في المنطقة العازلة » (المصدر نفسه).

كما وقام جيش الاحتلال الاسرائيلي بتسليم مدينة العريش الى الجيش المصري قبل ايام من اخلاء المدينة نهائيا ، وبدون اية اشكالات او عقبات ، دون حضور اي من وزيري دفاع البلدين ، او رئيسي اركانهما ، وانما « تم التسليم بحضور العميد ، دان شومرون ، قائد المنطقة الجنوبية عن الجانب الاسرائيلي ، والعميد عبد الحميد حمدي ، مساعد وزير الدفاع المصري عن الجانب المصري » (المصدر نفسه). وقد عقب وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر وايزمان على هذا التطور في العلاقات العسكرية بين البلدين ، في مقابلة صحفية له قائلا : « في الايام التي سبقت اخلاء العريش حدث ثمة تجديد صغير ، ربما لم يسترع انتباه احد : لقد تم تسليم هذه المدينة بمطارها وما فيها ، بين اسرائيليين ومصريين ، بين عميد وعميد ، وبين عقيد وعقيد ، وبدون اي عنصر ومقدم ، او وسيط » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . واضاف وايزمان : « لم تكن ثمة حاجة لوقف اطلاق نار ، او لفصل قوات واتفاقات مؤقتة . اننا نقف اليوم في العريش حاجزا مقابل حاجز . مصريون واسرائيليون ، وهذا بحد ذاته شيء حسن » (المصدر نفسه) .

اما ما يدل على مدى ما وصلت اليه العلاقات العسكرية بين الجيش المصري والجيش الاسرائيلي الذي لا يزال يحتل الجزء الاكبر من سيناء فهو « مرور السفن الحربية الاسرائيلية الثلاث ، اخزيف واشكلون واشدود ، في قناة السويس » (راا ، ١٩٧٩/٥/٣٠ . وهآرتس ، ١٩٧٩/٥/٣١) في اليوم الثاني من تسليم العريش ، وتادية التحية العسكرية للرئيس السادات الذي وقف في شرفة بيته في الاسماعيليةببزته البيضاء(بزةالقائد الاعلى لقوات البحرية المصرية) مؤديا التحية العسكرية بدوره للسفن الحربية الاسرائيلية » (المصدر نفسه) الامر الذي لا يحدث الا بين الدول التي تربطها اكثر من مجرد علاقات سلمية او حسن جوار ، وليس كما هو الحال بالنسبة لدولتين لا تزال قوات احداهما تحتل جزءا من ارض الاخرى ، ولا تزالان تبحثان كيفية تنظيم العلاقات السياحية بينهما . وان دل ذلك على شيء ، فانما يدل بالفعل على ما تسعى اليه قيادة الدولتين الاسرائيلية والمصرية من انشاء حلف عسكري في المستقبل القريب ، وهو النتيجة الطبيعية والحتمية « للحلف الاستراتيجي » الذي لا بد وان يكون قد بحث في محادثات الاسكندرية بين السادات وبيغن « الاستراتيجية للوضع بمجمله » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٢) . الامر الذي دعا وزير « الدفاع » الاسرائيلي عيزر وايزمان لان يعقب على ذلك بقوله : « واذا كانت تمر اليوم ٣ سفن حربية تابعة لسلاح البحرية الاسرائيلية في قناة السويس ، وفي مصر يتحمسون لها اكثر مما في اسرائيل : فهذا يعني اننا لا ندرك عظمة الساعة » . ثم اضاف وهو لا يستطيع اخفاء فرحته : « أمل ان يقف منا من يقول : ها نحن قد وصلنا الى تطبيع العلاقات » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . وكان عيزر وايزمان يعني بذلك « الاستقبال الحار الذي اعده المصريون لطواقم السفن الحربية الاسرائيلية ، وما استقبلت به من تصفيق وباقات ورود من قبل ضباط وجنود مصريين على شرف طواقم السفن عند وصولها الى ميناء السويس » (هآرتس ، ١٩٧٩/٥/١٠) . هذا في الوقت الذي كان فيه الفريق كمال حسين علي

وزير الدفاع المصري « يولي اهتماما خاصا بتطور الصناعة الحربية الاسرائيلية » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . بعد ان « سمع » على حد قوله : بان اسرائيل قد « استطاعت وبنجاح كبير تحويل المدافع في الدبابات الروسية التي غنمتها في حرب يوم الغفران» (المصدر نفسه) . وقد قال الفريق علي في هذه المناسبة : « اننا مستعدون لشراء هذا المدفع من اسرائيل شريطة ان تساعدنا على تصنيع نخيرته » (المصدر نفسه) . ومجرد هذا القول يدل على اتجاه التفكير في قمة الجيش المصري نحو توحيد السلاح في المستقبل .

اما على صعيد الخطوات المقبلة لتنفيذ بنود المعاهدة فيما يختص الجانب العسكري ، فقد « جددت اللجنة العسكرية الاسرائيلية ـ المصرية المشتركة مفاوضاتها في بئر السبع في ١٩/٦/١٩٧٩ (را ، ١٩/٦/١٩٧٩) . وكان اعضاء اللجنة المصرية والتي تضم ١٨ عضوا ، برئاسة العميد صفي الدين ، قد « وصلوا على متن طائرة تابعة لسلاح الجو الاسرائيلي » (المصدر نفسه) مما جعل العميد ثاني دوف تسيون رئيس اللجنة العسكرية الاسرائيلية ، يعقب على ذلك بانهم« دشنوا الخط الجوي بين القاهرة وبئر السبع ، بعد اول طلعة للرئيس السادات ورئيس الحكومة بيغن » . واضاف دوف تسيون ، ان « لقاءات اللجنة العسكرية المشتركة تحولت الى عادة دائمة » معلنا : «لقد انهينا المرحلة الاولى من الملحق (أ) لاتفاقية السلام ، وقد اعدنا المنطقة الاولى » (را ، ١٩/٦/١٩٧٩) . وعن سير تطبيق هذه المرحلة الاولى . قال دوف تسيون : « لقد كانت عملية معقدة لانها الاولى ، وكانت تشمل على مواضيع متعددة ومختلفة ، سياسية وعسكرية ومدنية . كان علينا ان نحدد سياسة وادارة الموضوع ، وقد كان هناك عدة نقاط غير واضحة مثل : ما اذا كانت قوات الطوارىء الدولية سوف تشترك في تحديد الخطوط وتسليم المناطق ، ثم نقل وتسليم انظمة الحكم ، او نقل وتسليم المنشآت العسكرية بما في ذلك المطارات .. كل هذا في اقل من شهر ، وهو امر معقول ومقبول » (المصدر نفسه) . اما رئيس اللجنة العسكرية المصرية صفي الدين فقد قال ان « اللجنتين ستنقسمان الى عدة لجان فرعية ، لبحث المشاكل والقضايا العالقة والمطروحة » ذاكرا انه من بين هذه المواضيع « انسحاب قوات الجيش الاسرائيلي من المنطقة (ب) » (المصدر نفسه) .

وعلى الرغم من كل ما تبدو عليه هذه العلاقات العسكرية من تقدم سريع بين الدولتين ، الا ان ثمة مخاوف لا تزال تساور قادة الجيش الاسرائيلي ، مما يخبئه المستقبل بالنسبة لهذه العلاقات من « مفاجآت وتحولات سلبية » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . كما جاء على لسان وزير الدفاع الاسرائيلي عيزر وايزمان نفسه : والذي صرح في مقابلة صحفية اجرتها معه صحيفة « معاريف » الاسرائيلية في يوم ١٩٧٩/٥/٣١ ، قائلا : « ... ارى لزاما علي ان اؤكد على انني مع كل آمالي وطموحاتي ، والى حد كبير ثقتي ، ان عملية السلام سوف تتقدم ، واننا نقف على اعقاب عهد جديد ، بكل ايجابياته وسلبياته ، الا انه يتوجب علينا ان نكون جاهزين ايضا للتحول ودون تفصيل للاحتمالات » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢١) . واضاف عيزر وايزمان، بان ليس لديه من شك في ان « جيش الدفاع الاسرائيلي سيكون على اهبة الاستعداد في خط العريش ـ رأس محمد (خط الانسحاب في المرحلة الاولى) ، وما احراه ان يكون كذلك في خطوط الحدود الدولية الجديدة » (المصدر نفسه) . كما واستطرد وايزمان مطمئنا : « ... ما دمنا غير واثقين من حياتنا المشتركة ، فسوف تكون ثمة قوة ضخمة من جيش الدفاع الاسرائيلي وبكل قطاعاته في حالة استنفار دائم ـ خشية ان يكون ثمة خروج على معاهدة السلام . وكلي ثقة وامل بان وزراء الدفاع وقادة الاركان في المستقبل ، سيعرفون كيف يتخذون الاجراءات العسكرية الضرورية على ضوء التطورات السلبية . وهذا بالطبع يتعلق بالقرار السياسي ، كما كان عليه الحال قبل حرب عام ١٩٦٧ ، عندما اغلق ناصر مضائق تيران ، والقرارات التي كانت قبل ذلك نفذت بحذافيها » (المصدر نفسه) . الا ان عيزر وايزمان لم يشرح ما اذا كانت هذه التحولات التي ستطرأ هي عسكرية ام سياسية ؟ ولماذا كان يلمح في حديثه الى احتمال اغلاق قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية في المستقبل اذا ما اضطرت مصر لذلك تحت ظروف سياسية سواء كانت عربية ام داخلية ، كما يستشف من ذكره لقرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، باغلاق مضائق تيران . ومهما يكن الامر ، الا ان ثمة رائحة تهديد ما ، تفوح

من هذه التصريحات التي مهدت لتصريحه ـ التهديد ابان مؤتمر حيروت الاخير ، والذي قال فيه بأن « جيش الدفاع الاسرائيلي سيحتل سيناء مرة رابعة في حالة انهيار السلام » (معاريف ، ١٩٧٩/٦/١٢) . ولا ندري ما اذا كانت هذه التهديدات الوقائية التي اطلقها عيزر وايزمان موجهة لبعض معين في قمة الحكم السياسية في مصر ، أم لبعض آخر في القمة العسكرية ، ممن يعارضون معاهدة السلام الاسرائيلية المصرية المنفردة ، ونهج السادات السياسي ، وهذا هو الارجح ، نظرا لما قد تردد في المدة الاخيرة في كثير من تعليقات المراقبين ، بل وفي احد التصريحات التي ادلى بها عراب معاهدة السلام الاول ، هنري كيسنجر ، من ان ثمة حالة من التذمر تسود شريحة لا بأس بها من الجيش المصري من معاهدة السلام الاسرائيلية المصرية المنفردة ، بل ربما يكون عيزر وايزمان قد ارتأى اطلاق مثل هذه التصريحات التهديدات ، بناء على قراراته المباشرة لما يدور داخل الجيش المصري ، لا سيما وانه قد اصبح من « اهل البيت » المقربين جدا لدى الرئيس المصري ، ومن اجدر منه في الحفاظ على هذا البيت وسلامة ربه . لا سيما وانها جاءت على حين غرة ، وبدون اي موجب او معرض رد على تصريحات معينة من الجانب المصري ، من يدري ، فربما كانت هذه التصريحات ـ التهديدات موجهة للاستهلاك المحلي ، ولاغراض اسرائيلية داخلية ، لمواجهة ما تمر به اسرائيل من ازمة اقتصادية حادة ، قد تعصف بحكومة بيغن وما تقوله هذه الحكومة على المعاهدة السلمية المنفردة مع مصر من رخاء اقتصادي ، يتدفق على الاسرائيليين منا وسلوى من سيناء ، عبر الحدود المفتوحة مع مصر .

العلاقات الاقتصادية

فالحدود المفتوحة التى اعلن عنها مع مصر ، سوف « تفتح الطريق الجديد الذي تكلم عنه السادات عدة مرات ، وهو ما يشبه مشروع مارشال ، اميركي للترميم الاقتصادي في الشرق الاوسط » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٢٨) . واذا كانت اسرائيل قد سعت في الاتفاقات السابقة المؤقتة مع مصر ، المتعلقة منها بفصل القوات عام ١٩٧٥ ، لتأمين التواجد العسكري الاميركي بينهما ، سواء بمحطات الانذار المبكر ، ورحلات الاستطلاع الجوية فوق الخطوط الفاصلة بين الجيشين المصري والاسرائيلي ، فالاتفاق الآن بينهما يختلف . انه الآن معاهدة سلام دائمة ، ومن المفروض ان « يحل التواجد الاقتصادي بدلا من التواجد العسكري » وليس « نقطة من المساعدات الاقتصادية كما كان في الماضي (!) » وانما « بزخم هذه المرة من اجل تغيير ثوري في المنطقة » (المصدر نفسه) . ففي التفاهم الاسرائيلي المصري في هذا الشأن « يوجد المفتاح لفتح ابواب الراي العام الاميركي » الذي سيخطر الى « توظيف كل امكانياته اللازمة لبداية مشروع مارشال ، شرق اوسطي » (المصدر نفسه) . ولهذا يرى الاقتصاديون الاسرائيليون ، انه من المستحسن « بحث هذا الموضوع مع المصريين الآن بدلا من الاستمرار في النقاش حول تفسيرات كمب ديفيد » (المصدر نفسه) .

ونظرا لذلك ، فان مجموعة من « الرجال المركزيين في الاقتصاد الاسرائيلي ، سوف ينضمون الى مجموعة من الشخصيات اليهودية المعروفة التي ستقابل الرئيس السادات في القاهرة وبعض رجال الاقتصاد المصريين » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١١) . وسوف يكون رجال الاقتصاد الاسرائيليين هؤلاء في عداد « مجموعة مصغرة من اعضاء المجلس الاقتصادي المنبثق عن الكونغرس اليهودي العالمي » ، الذي سيقوم بـ « زيارة عمل لمصر في بداية شهر ايلول من هذا العام » (المصدر نفسه) . ومن بين الشخصيات الاسرائيلية في هذه المجموعة ، « رئيس مجلس المدراء العامين لبنك العمال الاسرائيلي ، يعقوب ليفنسون ، ومدير عام الشركة للتوظيفات التابعة لبنك ليسكونت ، دان تولكوفسكي ، ومدير عام شركة كور ، نفتالي بلومنتال » (المصدر نفسه) . اما من بين الشخصيات اليهودية المعروفة بنشاطها الاقتصادي ، والاعضاء في هذا المجلس فسينضم « البارون جي.دي. روتشلد ، من فرنسا ، واللورد ايندفيلد من بريطانيا ، وسام برونفمان من كندا ، وآخرون غيرهم » (المصدر نفسه) . وقد « قام رئيس الكونغرس اليهودي العالمي ، فيليب كلوتسينك ، بزيارة مصر منذ مدة قصيرة ، وانهى تفاصيل هذه الزيارة مع شخصيات مصرية رفيعة المستوى » ، اذ ان الهدف من هذه الزيارة لمصر هو « دراسة الوسائل اللازمة للتعاون الاقتصادي المشترك ، والاطلاع عن قرب على احتياجات

الاقتصاد المصري في السنوات المقبلة » (المصدر نفسه) .

وعلى الصعيد نفسه فقد بدأت شركة كور نشاطها في مصر حيث « اقامت الشركة الفرعية المنبثقة عنها ، كور للتجارة ، فرعا لها في القاهرة ، بالاشتراك مع شركة تجارية مصرية ، التي ستقيم هي الاخرى فرعا لها في اسرائيل » (هتسوفيه ، ١٩٧٩/٧/١١) . وكان مندوبو شركة كور للتجارة ، قد « قاموا في اوائل شهر حزيران الماضي ، وبدعوة من شركات تجارية مصرية بزيارة مصر ومكثوا فيها سبعة ايام » (المصدر نفسه) . وقد كانت الاتصالات التي اجراها مندوبو هذه الشركة على « مستوى حكومي ، ومع شركات حكومية واوساط تسويقية وتجارية خاصة ، مغطين بذلك مواضيع زراعية وصناعية وتجارية » حيث تم التوقيع في نهاية هذه الاتصالات على « مذكرة بين الطرفين للتعاون بينهما ، وعلى مبدأ النشاط المتبادل في الاتجاهين » (المصدر نفسه) ، عاد على اثرها مندوبو الشركة الاسرائيلية بـ « سلة من الطلبات لعرض الاسعار ، ومعطيات لاعداد مشاريع ومعلومات عن وكالات تجارية محلية في مجالات مختلفة » ومن بين هذه المجالات « انشاء مزرعة وامدادها بوسائل الانتاج ، والمبيدات والاسمدة والمعدات لحظائر الدواجن ، وشبكة ري .. الخ » (المصدر نفسه) . وكان المصريون قد « اظهروا اطلاعا واسعا على قدرات اسرائيل وانجازاتها الزراعية » ، واعربوا عن املهم دون تحفظ في ان « تكون ثمة اوساط اسرائيلية مستعدة لمنح مصر من خبرتها تجاربها في هذا المجال » (المصدر نفسه) . كما وشكلت صناعة الاغذية بكل متنوعاتها المختلفة ، والصناعة المرافقة لها ، كالتغليف والتعليب هي الاخرى « موضوعا مهما في محادثات التعاون المشترك » اما المواضيع الاخرى التي يرى فيها الجانبان المصري والاسرائيلي مكانا للتعاون ،هي « مواد البناء ، والتجهيزات الطبية وقطع الغيار المختلفة » (المصدر نفسه) . وكاستمرار طبيعي في مجال تحسين الزراعة مما جرى الاتفاق بشأنه بين الطرفين ، تندرج « مصانع في مجال تصنيع المواد الغذائية : تصفية الزيت والمعلبات والتغليف واجهزة التسويق والخ »، كما واظهر المصريون « اهتماما كبيرا في مجال الطاقة المازوتية » واعربوا عن رغبتهم في « اقامة مصنع مشترك » ، كما وهناك « طلبات كبيرة في مجال المعدات الالكترونية والمعدات المختبرية » (المصدر نفسه) .

اما بالنسبة لمحادثات النفط بين اسرائيل ومصر ، ولكل ما يتعلق بتسليم حقل النفط في الطور ، وهو ما يسميه الاسرائيليون بـ « علما » ـ في خليج السويس لمصر في شهر تشرين الثاني من هذا العام ، وفقا لاتفاقات كمب ديفيد ، وموضوع التوظيفات ، وبيع المعدات لمصر ، كما تعهد الرئيس السادات ، فقد « وصلت هذه المحادثات الى طريق مسدود » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١١) . وكانت هذه المفاوضات التي « دارت في اللقا الرابع بين الوفدين المصري والاسرائيلي في حقل النفط المصري « ابو رديس » في ١٩٧٩/٧/٩ » (المصدر نفسه) . وكان الطرفان قد توصلا في اللقاءات الثلاثة السابقة ، التي بحثت فيها الامور التقنية المتعلقة بصيانة الحقل وتطوره الى « تفاهم كامل بكل ما يتعلق بالحاجة للحفاظ على الحقل » ، وكذلك بالنسبة « للحاجة في تطويره » . ولكن عندما عبرت المفاوضات الى الامور الجوهرية اكثر بالنسبة « للتعاون بكل ما يتعلق باعمال الحقل قبل اعادته الى مصر » فقد « وصلت المحادثات الى طريق مسدود » (المصدر نفسه) . والموضوع الآخر الذي طرحته اسرائيل في هذه المفاوضات كان « موضوع بيع المعدات التي اشترتها اسرائيل لتطوير حقل (علما) وضخ النفط فيه » ، وتقدر اسرائيل هذه التوظيفات في المعدات بـ « ٢٥ ـ ٤٠ مليون دولار على الاقل » . وفي هذا الموضوع ايضا « لم يعط المصريون جوابا ايجابيا » ، كما لم « يتفق الطرفان بعد على موضوع تزويد اسرائيل بالنفط بعد تسليم حقل (علما) للمصريين » (المصدر نفسه) . وكانت مصر قد وافقت على تزويد اسرائيل بالنفط بكمية توازي الكمية التي كانت تنتجها من حقل (علما) » ، اذا لم يكن اكثر من ذلك ،كماوتطالب اسرائيل بـ « تعويض مالي على التوظيفات الاسرائيلية في تطوير الحقل » (المصدر نفسه) .

وفي مجال السياحة بشنت السفينة السياحية الاسرائيلية ، جبريئيلا ، التي « عادت من رحلتها الاولى من مصر الى اسرائيل وعلى متنها ١٥ سائحا اسرائيليا في ١٩٧٩/٦/١٢ » خط السياحة بين

البلدين (هآرتس ، ١٩٧٩/٦/١٣ ، ومعاريف ، ١٩٧٩/٦/١٥) . وقد نظمت هذه الرحلة بين مصر واسرائيل شركة « و.ي.ف » التي افاد مديرها يئير كرمون بان الرحلات « سوف تنظم منذ الآن مرتين في الاسبوع » وان ثمة « اتصالات قد جرت في هذا الشأن ، اولا ، فتح خط سياحي مقابل ينقل سياحا من مصر الى اسرائيل ، وثانيا : استئجار ٣ سفن سياحية اضافية تستخدمها الشركة في هذا الخط » (المصدر نفسه) . واضاف كرمون ان وزارة الخارجية الاسرائيلية كانت قد « احاطته علما بان الحكومة سوف تنشر اليوم ـ ١٩٧٩/٦/١٢ التعليمات اللازمة للحصول على تأشيرات دخول مصرية للمواطنين الاسرائيليين » وانه باستطاعة اي من اصحاب الجوازات الاسرائيلية « الحصول على تأشيرة دخول لمصر من اية قنصلية مصرية في الخارج » (المصدر نفسه) . وقد « صادقت السلطات المصرية بالفعل على تأشيرات دخول لـ ٢٥ اسرائيليا » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١) . ومن بين اولئك الذين صادقت مصر على طلباتهم « مدراء وكالات سفريات ، وموظفون كبار في اتحادات السفريات في اسرائيل » كما ويوجد الآن « حوالى ٢٠٠ طلب » كانت قد قدمت بواسطة اتحاد وكالات السفريات في اسرائيل ، وعشرات اخرى من الطلبات قدمت لوزارة الخارجية مباشرة في « انتظار التصديق عليها »(المصدر نفسه) . وسوف تتم هذه الرحلات بواسطة « شركات طيران اجنبية عن طريق مطار اجنبي ، ا ثينا عادة » ، لانه « لايوجد حتى الان اية شركة اجنبية مستعدة لنقل السياح الاسرائيليين في خط مباشر بين اسرائيل ومصر » (المصدر نفسه) .

الا ان رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن اعرب عن رأيه لدى عودته من زيارته الاخيرة للاسكندرية في ١٩٧٩/٧/١٢ بان « المئات من الاسرائيليين سيزورون مصر ، والمئات من المصريين سيزورون اسرائيل قريبا جدا » (هتسوفيه ومعاريف وهآرتس ، ١٩٧٩/٠/١٣) . وذلك بناء على حديثه مع الرئيس المصري في موضوع الحدود المفتوحة و « تنشيط الحركة السياحية والزيارات المتبادلة بين البلدين » . واكثر من ذلك ، فقد صرح مناحيم بيغن بانه قد توصل مع السادات الى « اتفاق لاستئناف العمل على الخط الحديدي القديم بين القاهرة واللد » ، وذكر في هذا الخصوص ان « ثمة اقتراحات للصناعي الاسرائيلي يوسف شيدلومنسكي ولشركة كناديان فينزيتشا لتنفيذ عملية تجديد الخط » . ثم اضاف مؤكدا : « وخلال وقت قصير ، سوف ندعو هذين المبادرين لاستشارات اولية ، وبذلك يكون خطوة مهمة لبناء السلام ايضا ، واستطرد بيغن موضحا : « ففي القطار يستطيع الناس السفر بين مصر واسرائيل ، ويمكن شحن البضائع به بين الدولتين » (المصدر نفسه) .

العلاقات الثقافية

ويبدو ان مناحم بيغن وبعقيلته الاستعمارية الاستيطانية الاوروبية ، يعول الكثير على « تجديد » تشغيل الخط الحديدي ، او بالاحرى ربط فلسطين المحتلة بشبكة خطوط حديدية مع مصر ، لاستكمال دائرة الغزو السلمي هذه المرة (لمصر) بشحن « الثقافة » الاسرائيلية و « العقل » اليهودي ، نقطتي الضعف الساداتيتين ، وتصديرهما مع السياحة والبضائع الاسرائيلية ، « للمستعمرة الحليفة » وشعبها المصري .

ولكن اذا كانت العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية تتقدم بشكل او بآخر ، رغم كل ما يكتنفها من العراقيل والصعوبات التي من شأنها ان تنشأ بين اي دولتين ، حتى وان كانتا لا تنتقلان من حالة الحرب الى حالة السلام : الا ان محاولة الطرفين اسرائيل والنظام المصري خلق علاقات ثقافية بينهما والسير بها نحو علاقات طبيعية كما يريد الاسرائيليون ويسعون اليه بكل جهدهم ، بشكل يكاد يتخذ شكل الغزو الثقافي الناجم عن عقدة « الشعب المتحضر » في هذه المنطقة ، تصطدم باكثر العقبات في مسيرة « تطبيع » العلاقات صعوبة واستعصاء ، لكونها غير خاضعة بطبيعتها لقرارات السادات وبيغن او الوزارات المعنية ، الى حد كبير ، كما هو عليه الحال بالنسبة للعلاقات الاخرى ، ولما في ذلك من استحالة لسلخ الشعب المصري عن تراثه ومناخه الحضاري العربي ، لطبيعة تركيبته العضوية المتفاعلة المتحررة من القرارات والاجراءات الرسمية والسلطوية ، رغم وجود بعض الدعاة الى ذلك ، من الشريحة المثقفة المصرية بزعامة الكاتب توفيق الحكيم .

ولان الاسرائيليين يعون هذه الحقيقة جيدا ، فقد « لقامت وزارة الخارجية الاسرائيلية لجنة منبثقة عنها لمعالجة العلاقات مع مصر » ومن بين الامور التي خصت بها هذه اللجنة « تبادل الثقافة والعلم بين اسرائيل ومصر » (راا ، ١٩٧٩/٤/٢٧) . بل وارسلت اسرائيل « وفدا من اساتذة الجامعات الذين شاركوا في ندوة نظمها معهد الدراسات الاستراتيجية التابع لصحيفة الاهرام » (راا ، ١٩٧٩/٥/٢٢) ، وقد بحث هذا الوفد مع المصريين « امكانيات التعاون في المجالات الاكاديمية » ، كما « التقى الوفد بجهات رسمية وببعض كبار الموظفين في مصر » (المصدر نفسه) . الا ان الانطباع الذي عاد به اعضاء الوفد الذي ضم البروفسور شمعون شمير ، والبروفسور جبرئيل كوهين من جامعة تل ابيب ، والبروفسور جبرئيل فاربورغ من جامعة حيفا ، هو ان المصريين « يعانون من ضائقة شديدة وكآبة » وانهم « يعانون من الضغط » على حد تعبير البروفسور فاربورغ الذي اضاف : « نظرا لان لقاءنا كان في اساسه مع ممثلين غير رسميين ، رغم ان بعضهم على الاقل له موقع رسمي ، فانني اؤكد صحة هذا الانطباع » (المصدر نفسه) . واستطرد شارحا : « اي ان هناك ضيقا صريحا في اوساط المثقفين ، اعتقد انه ضيق شديد بشكل خاص ... وتقديري هو ، بالذات استنادا على التجول في القاهرة نفسها ، انه من المحتمل ان يصل هذا الضيق بمرور الزمن ، الى شرائح اوسع ، ولا شك لدي انه ضيق موضوعي يتعلق بمباشرة بالاتفاق » . ثم اضاف ان « ثمة مستوى آخر من الضيق ، مرتبط بالاتفاق نفسه » (المصدر نفسه) .

كما واكد هذا الانطباع وزير الخارجية المصرية بالوكالة بطرس غالي نفسه ، وهو الاستاذ الجامعي السابق ، والمطلع جيدا على المناخ الثقافي في مصر ، حين صرح لبعض الشخصيات الغربية التي قابلته ، ردا على سؤال حول تحفظه على « تعجيل عملية التطبيع » اذ قال : « عندما تحسس الحكم في مصر لدى الكثير من المثقفين الكبار مدى استعدادهم لزيارة اسرائيل والمشاركة في مشاريع بحث مشترك مع مثقفين اسرائيليين ووجه الحكم بتحفظاتهم الشديدة » (معاريف ، ١٩٧٩/٥/٣١) . اذ ليس هذا سرا بانه في « النخبة المثقفة المصرية ثمة تحفظ ، بل وعداء بعض الاحيان لمبادرة السلام التي عزلت هؤلاء المثقفين عن المجال الحضاري لهم » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١٣) . صحيح انهم « يشكلون القلة ولا يقررون شيئا ، الا ان « تأثيرهم المتراكم سوف يمنع اي زعيم مصري آخر ، اقل تأسيسا وصلاحية من السادات ، من ان يستمر في سياسة السلام ، ما دام في الواقع سلاما منفردا » (المصدر نفسه) .

على اية حال ، فان اسرائيل والنظام المصري مصممان على « تطبيع » المثقفين المصريين على « تطبيع العلاقات » مع الشريحة المثقفة الاسرائيلية ، ولهذا فقد ابلغ السادات يغئال يادين بانه « اعطى تعليماته لتسهيل دخول الوفود ، وخاصة الاكاديمية منها الى مصر » (دافار ، ١٩٧٩/٧/٢٢) . وكان نائب رئيس الحكومة الاسرائيلية ، قد قام بزيارة اثرية لمصر ،بدعوة من الرئيس السادات ، برفقة عدد من علماء الآثار الآخرين منهم يوسف ابيرام مدير معهد الاثار في الجامعة العبرية والمستشرق موشي عوز ، دامت ستة ايام ، وقد « تجول يغئال يادين كعالم آثار في آثار مصر القديمة » ، وفي اللقاء الذي « تم بين يادين وبين رؤساء قسم الاثار في جامعة القاهرة والذي شارك فيه سكرتير الشركة لبحث ارض اسرائيل يوسف ابراهم » دار الحديث حول « جولات متبادلة لباحثين مصريين واسرائيليين » وحول « جولة لشركة بحث ارض اسرائيل واثارها في مصر » ، وحول « معرض اثري مصري يعرض في اسرائيل » (المصدر نفسه) . وكان يادين قد « اتفق مع وزير التربية المصري دكتور حسن ابراهيم على ان يجتمع علماء الاثار الاسرائيليين الذين عملوا في سيناء في الـ « ١٢ سنة الاخيرة (سنوات الاحتلال) ، مع علماء آثار مصريين ليطلعوهم على عملياتهم الحفرية » (المصدر نفسه) . كما وسيقوم د. شحادة آدم ، رئيس قسم الاثار المصرية ، الذي « رافق يغئال يادين في جولاته الاثرية بزيارة اسرائيل قريبا » (المصدر نفسه) .

اما في المجال الفني ، فقد توجه مدير المهرجان الفني السنوي الاسرائيلي يعقوب بسترسكي بدعوة الى « الملحن المصري عبد الجميل رحيم ، لحضور كونسرت الفرقة الفلهار مونية الاسرائيلية لدى عزفها مقطوعاته الموسيقية لاول مرة في بداية شهر تموز في اطار المهرجان الاسرائيلي » (معاريف ، ١٩٧٩/٧/١٢) . ليشكل ذلك « العلاقة الثقافية

الاولى بين الدولتين بعد التوقيع على معاهدة السلام » (المصدر نفسه) . وكان بسترسكي قد تسلم في ١٩٧٩/٧/١١ كتابا جوابيا وديا من الملحن عبد الجميل رحيم « يستجيب فيه للدعوة » ويعلن فيه انه « سيأتي في بداية شهر يوليو(تموز) الى اسرائيل » (المصدر نفسه) .

وعلى الصعيد الجامعي ، فقد «قبل الطالب كامل عبد الملك » ، من مواليد الاسكندرية « للدراسة في الجامعة العبرية في القدس » (المصدر نفسه) كما « واشترك مندوب المنظمة الدولية للطلاب اليهود في مؤتمر الشباب الذي انعقد في القاهرة » (راا ، ١٩٧٩/٤/١١) . في شهر نيسان (ابريل) الماضي .

وعلى صعيد التعاون الاذاعي في المجال الثقافي ، قام مدير هيئة الاذاعة الاسرائيلية الذي رافق مناحيم بيغن في زيارته الاخيرة للقاهرة بـ « الاتصال مع مديرة التلفزيون المصري ،تماضر توفيق ، للبحث في امكانية وضع برامج مشتركة » (دافار ، ١٩٧٩/٧/١٠) . وكان هذا الاقتراح لانشاء هذه البرامج قد «طرحه المعهد لبحث الانسان في كاليفورنيا قبل عام » ، ومنذئذ والاتصالات « تجري بين هيئتي الاذاعة للدولتين لبث حوار يهدف الى تقريب الشعبين وحل المشاكل ، كنوع من العلاج التلفزيوني الجماعي » (المصدر نفسه) .

توفيق فياض

قضايا دولية

قمة فينا والدور الاوروبي

على الرغم من أن الحديث عن « مبادرة أوروبية غربية » بشأن الشرق الأوسط لم يبدأ فجأة على اثر قمة فيينا الثلاثية،التي ضمت الأخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وبرونو كرايسكي مستشار النمسا وفيلي برانت رئيس منظمة « الدولية الاشتراكية » (٧ ـ ١٩٧٩/٧/٨) ... فان هذه القمة قد أحدثت انفجارا اعلاميا مدويا حول « المبادرة الاوروبية » لم يهدأ حتى بعد مرور أكثر من شهر ونصف على قمة فيينا الثلاثية .

وعلى الرغم من أن الحديث عن « حوار فلسطيني ـ أميركي » أو عن « اعتراف اميركي بمنظمة التحرير الفلسطينية » ليس بأي حال وليد أزمة اندرو يونغ مندوب الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة،الذي أجبر على الاستقالة بعد اجتماعه بمراقب منظمة التحرير لدى الأمم المتحدة (١٩٧٩/٨/١٢) ، الا أن هذه « الأزمة » قد أحدثت بدورها انفجارا اعلاميا مدوياً ، لا يزال أيضا مستمر الأصداء ، والهزات .

وفيما بين هذين الحدثين الرئيسيين اللذين أحاطا بالمسألة الفلسطينية على الصعيد الدولي،تبرز علامات جديدة دالة على الوقع الذي تحتله القضية ، وتحتله الثورة،او تحتله منظمة التحرير الفلسطينية في الوقت الحاضر على خريطة الصراعات الدولية . ودالة ايضا على طبيعة القوى التي تقف مع هذه القضية وتلك التي تعارضها ، وتلك التي لا تزال تمارس التهرب من اتخاذ موقف حاسم تحت ضغوط مختلفة موضوعية أو ذاتية .

وطبيعي ان تتكشف من خلال « علاقات » كل من اوروبا الغربية والولايات المتحدة مع القضية الفلسطينية،مؤشرات عديدة مهمة على المسار الدولي لهذه القضية ، خاصة اذا لاحظنا ان القضية الفلسطينية استطاعت ان تحتل مكانا بين ثوابت السياسات الخارجية للقوى الدولية الأخرى : حركة عدم الانحياز ، ومجموعة الدول الاشتراكية . في حين ان القضية الفلسطينية لا تزال ـ من خلال نضالها السياسي المرتكز على نضالها المسلح وعلى علاقاتها العربية والدولية الأخرى ـ تقطع طريقا وعرة الى اعتراف اوروبي واميركي كامل بمركزية وضعها في الشرق الأوسط . وبقدرتها على ممارسة التأثير الايجابي والسلبي بالنسبة للمصالح الدولية في هذه المنطقة .

ويلاحظ ان الحدثين : قمة فيينا الثلاثية ، وأزمة يونغ قد اثارا من حولها ردود فعل متباينة الاتجاهات والظلال من كافة الأطراف المعنية..كما يلاحظ أن بعض ردود الفعل هذه ربط بين الحدثين،من خلال تفسيرات معقدة عن طبيعة العلاقات

الاميركية ـ الاوروبية وعن طبيعة السياسة الاميركية ـ والاوروبية ذاتها . وكذلك عن طبيعة سياسة منظمة التحرير الفلسطينية واتصالاتها وحدود حركتها .

ردود الفعل المتباينة هذه انعكست في تساؤلات رئيسية :

□ هل تقوم اوروبا الغربية بدور حصان طروادة لاميركا ولسياسة « كامب ديفيد » لاقتحام الموقف العربي .. وجره بالتالي الى هذه السياسة نفسها ؟

□ هل تسعى اوروبا الغربية لكسب العرب على حساب حليفتها الكبرى الولايات المتحدة بسبب الحاجز الى النفط العربي ، ولأسباب اخرى اقل اهمية تتعلق بالمنافسة على الاسواق في المنطقة العربية ؟

□ هل تصب نتائج هذه الاتصالات (سواء كما تتبدى في لقاء فيينا الثلاثي ـ عرفات/كرايسكي/برانست ، أو لقاء يونغ ـ الطرزي) في مجرى سياسة « كامب ديفيد » أو « عملية السلام » الاميركية بشكل عام في الشرق الأوسط .. ام انها هي نتيجة فشل حقيقي لسياسة « كامب ديفيد » وتسليم عالمي ـ اوروبي واميركي اساسا ـ بهذا الفشل وبالحاجة الملحة الى بديل لهذه السياسة ؟ .

□ هل ثمة دور للقوى التي تؤيد ـ ضمن ثوابت سياساتها الخارجية القضية الفلسطينية ـ ومنظمة التحرير الفلسطينية وشرعيتها وأساليبها النضالية ـ في هذه الاتصالات (خاصة التي بلغت ذروتها السياسية الاعلامية في لقاء فيينا) . بمعنى هل ثمة دور للاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية (أوروبا الشرقية خاصة) ودول عدم الانحياز (خاصة الأعضاء في الدولية الاشتراكية) في المبادرات الجديدة ، وما مغزى هذا الدور ـ أو التأييد على أقل تقدير ـ إن وجد ؟

□ هل التغير المشاهد في مواقف اوروبا الغربية (سواء في اطار السوق الاوروبية المشتركة ، او في اطار الدولية الاشتراكية) تجاه اسرائيل ، اقترابا نحو مزيد من التفهم للقضية الفلسطينية ولدور منظمة التحرير الفلسطينية ، هو تغير حقيقي أم انه من قبيل المناورة على الفلسطينيين والعرب عموما ؟

□ هل تختلف ملامح السياسة الاميركية الحالية تجاه اسرائيل ـ وبالتالي تجاه القضية الفلسطينية ـ اختلافا حقيقيا عن السياسة الأميركية التقليدية ؟ ..ومتى ينعكس ذلك عمليا على مواقف الولايات المتحدة ؟

والواقع أن الامر شديد التعقيد حقا بحيث لا يمكن الانتهاء الى اجابات مغلقة (بنعم او بلا) على أي من هذه التساؤلات . لان كلا منها يجد له في تسلسل الاحداث وفي نصوص البيانات والتصريحات الصادرة عن كافة الأطراف ـ رسمية وغير رسمية ـ ما يعزز الطبيعة الشكلية الكامنة في كل من هذه الأسئلة . ولعل هذه طبيعة الحالة الانتقالية التي تمر بها المواقف الأوروبية.مواقف السياسة الاميركية تجاه القضية الفلسطينية ، تحت تأثيرات كثيرة :

□ صمود الثورة الفلسطينية الاكيد في وجه كل تيارات الضغط العسكري والسياسي ضدها ، وخاصة في وجه كل محاولات التصفية التي تعرضت لها ، ومحاولات ارغامها على الدخول في الطريق الى « السلام الأميركي » الذي دخل فيه اولا رئيس النظام المصري أنور السادات . وهنا فالصمود العسكري هو اقوى اشكال هذا الصمود واهمها تأثيرا في الأطراف الدولية ، مهما بدا اهتمامها بغير ذلك .

□ الحد الأدنى من المقاومة العربية الذي أبدته الدول العربية ازاء سياسة « كامب ديفيد » ونتيجتها المتمثلة في « معاهدة السلام » بين النظام المصري واسرائيل . وهو الحد الذي وان لم ينسف « كامب ديفيد » و « المعاهدة » كلية .. إلا أنه برهن على خطأ حسابات هذه السياسة التي بنيت على أساس ان حجم مصر ـ العسكري السياسي والسكاني والثقافي .. الخ ـ كفيل بجر أطراف عربية اخرى الى طريق«كامب ديفيد» بصورة او بأخرى . وقد مضت الشهور منذ توقيع اتفاقيات « كامب ديفيد » . ثم منذ توقيع « المعاهدة » دون ان تبدو في الأفق امكانية يعول عليها لانضمام طرف عربي معين مباشرة الى عملية السلام الاميركية .

□ الفشل الكامل الذي أصاب المحاولات الاميركية والمصرية معا لجذب اطراف فلسطينية ـ حتى ولو كانت من نوع « اي اطراف فلسطينية كانت » ـ الى الفصول التالية لمعاهدة « السلام » بين مصر واسرائيل التي تحمل عنوان « الحكم الذاتي » ، في الوقت الذي بدأت المواعيد المحددة للجدول الزمني لتطبيق اتفاقات « كامب ديفيد » تضيق مجال المناورة امام الأطراف الثلاثة المشتركة فيها : الولايات المتحدة ـ اسرائيل ـ مصر .

□ التلويح غير الصريح باستخدام سلاح النفط للضغط عالميا لصالح القضية الفلسطينية . وهو تلويح قابل ولو نظريا ـ للتحول الى تهديد صريح ومباشر ،الاعتبارات قومية ولاعتبارات تتعلق بأوضاع النظم العربية في مواجهة أحوالها الداخلية والخارجية معا . وتوقيت التهديد بالنفط ـ وان يكن هذا التهديد لم يتخذ طابع الجدية الكاملة ـ بعد ـ جعل له تأثيرا اكبر في تناسبه،مما كان يمكن ان يحدثه ، لولا ظروف موضوعية خارج الارادة العربية ، وخارج الارادة الدولية ايضا ـ اولها ظروف الثورة الايرانية ـ التي ادت الى نقص موجع في الطاقة في الولايات المتحدة بشكل خاص . فضلا عن « التهديد » الآخر بالارتفاع المستمر لأسعار النفط ، وهو بدوره قابل لأن يربط بتطورات قضية الشرق الأوسط . ومركزها المسألة الفلسطينية .

على انه كان من الواضح بالنسبة للقاء فيينا

الثلاثي انه على الرغم من اختلاف المواقف ازاء هذه القمة،أن الاهتمام بها كان منصبا على مدى علاقة هذا الحدث بالدور الاميركي اكثر من اي جانب آخر . واما فيما يتعلق بأهمية الحدث فان اي طرف من الأطراف لم يحاول التقليل من اهميته ، وخاصة الطرف الذي وقف ضده بكل حدة ــ وحتى هستيرية ــ وهو الطرف الاسرائيلي . وانصب الاهتمام بالدور الاميركي على محاولة تفسير لقاء فيينا في احد اتجاهين : إما تفسيره بانه ثغرة فلسطينية ــ بمساعدة اوروبية ــ في جدار سياسة « كامب ديفيد » الاميركية ؛ وإما تفسيره بانه ثغرة اميركية ــ بمساعدة اوروبية ــ في جدار المعارضة العربية لسياسة « كامب ديفيد » .

وكان من ابرز الاعتبارات التي حلها التفسير الأول،هو الذهاب الى ان تغييرا جذريا قد طرأ على موقف دول اوروبا الغربية ، وخاصة دول منظمة « الدولية الاشتراكية » تجاه القضية الفلسطينية، ابتعد بها عن التأييد الكامل غير المشروط لاسرائيل وسياساتها . فالدولية الاشتراكية التي اعتبرت في العام ١٩٧٥ « ان الصهيونية هي حركة التحرر القومية للشعب اليهودي » هي التي قالت على لسان برونو كرايسكي في لقاء فيينا الثلاثي : ان « الرئيس عرفات » هو المتحدث الشرعي الحقيقي باسم الفلسطينيين . وان كل الفلسطينيين ملتزمون بمنظمة التحرير الفلسطينية . وان هناك امرا واقعا هو ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الآن مثلما كانت الجزائر قبل الاستقلال . فضلا عن ان التغيير في سياسة « الدولية الاشتراكية » هو اشمل من موقفها من فلسطين والصراع العربي ــ الاسرائيلي .

اما ابرز الاعتبارات التي حملها التفسير الثاني فهو القول بأن ماضي « الدولية الاشتراكية » ينطوي على صفحات ، بل فصول بأكملها ، من التأييد الشامل لاسرائيل والتبعية شبه المطلقة للولايات المتحدة ، مما يصعب معه التصديق بقيام هذه المنظمة بدور في قضية تقدمية تحريرية كقضية الشعب الفلسطيني .

على ذلك فانه فوق كل الاختلافات في تقييم حدث قمة فيينا الثلاثية بين عرفات وكرايسكي وبرانت،لابد ان نلاحظ ان النقطة المحورية التي كانت الموضوع الأساسي لهذه القمة ، وللدوي الاعلامي الذي انفجر نتيجة لمجرد انعقادها ،كانت هذه نقطة الدولة الفلسطينية . وان هذه النقطة قد اكتسبت اهتماما على الصعيد الدولي ذا حجم لم يسبق ان اكتسبته قبل هذا اللقاء .

□ الحديث عن اعتراف اوروبي غربي (جماعي او افرادي) بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني يصب في مجرى الدولة الفلسطينية .

□ الحديث عن تعديل قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ او عن قرار بديل جديد يحول « تناول القضية من « اللاجئيين الفلسطينيين » الى « الشعب الفلسطيني » يصب بدوره في مجرى الدولة الفلسطينية .

□ الحديث بعد ذلك عن مبادرة اوروبية جديدة لكسر الجمود الذي انتهت اليه الموقف بعد « كامب ديفيد » وبعد المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية بالضرورة في مجرى الدولة الفلسطينية .

واذا تتبعنا صوت قمة فيينا الثلاثية من بداية ، وكذلك ردود الفعل التي أحدثها والتفسيرات المتباينة التي قيلت فيه فاننا نخرج الى النتيجة نفسها ، وهي ان مسألة الدولة الفلسطينية قد فرضت نفسها على الساحة الدولية باعتبارها ــ مهما اختلفت التصورات حول طبيعتها وحدودها وشروطها ــ المدخل الوحيد الممكن الى الخروج من ازمة الشرق الأوسط وتحاشي كافة أشكال العواقب التي يمكن ان تنتج عن بقائها وتفاقمها .

وصل ياسر عرفات الى فيينا في اول زيارة له الى احدى دول الغرب،منذ خطابه في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ (٨/٦) لاجراء محادثات مع برونو كرايسكي وفيلي برانت . ولوحظ على الفور ان كرايسكي مستشار النمسا (أي رئيس حكومتها) كان في استقباله في المطار . ولوحظ بعد ذلك ان عرفات استقبل وعومل وذكر اسمه طوال فترة المحادثات وفي المؤتمر الصحفي الذي انهى الزيارة ،بوصفه «رئيس دولة » . وهي ملحوظة لها دلالتها السياسية ــ لا البروتوكولية فقط ــ بالنسبة لموقف النمسا والدولية الاشتراكية على الاقل تجاه منظمة التحرير الفلسطينية . ويتضح من بيان أصدرته وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » (٧/٧) ان كرايسكي بعث الى عرفات يدعوه الى النمسا للبحث في امكانية مساهمة الدولية الاشتراكية ــ ومن خلالها الدول الاوروبية التسع (أعضاء السوق الاوروبية المشتركة) في التسوية في الشرق الأوسط . وقد عرضت هذه الرسالة على اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية،حيث تمت دراسة موسعة للدورالاوروبي، المعبر عنه في البيانات الصادرة عن الدولية الاشتراكية وعن دول السوق المشتكة ، وقد لاحظت اللجنة التنفيذية ان المواقف الجديدة الاوروبية تسمح بالزيارة ، لاجراء حوار صريح ومفتوح حول الدور الأوروبي المطلوب للتوصل الى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط .

في اليوم نفسه (٧/٧) صرح كرايسكي بان اجتماعه في تلك اليوم مع عرفات « لذا اعتقادي بانه بالصبر والادرك السليم سيكون من الممكن التوصل الى حل سلمي في تلك المنطقة من العالم ، وبأنه سيتيح التوصل الى حلول لمسألة الشرق الأوسط شرط الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني .

في اليوم التالي (٧/٨) شنت اسرائيل حملة هجومية شديدة ضد كرايسكي بسبب استقباله ياسر عرفات ، واستدعت القائم بأعمال السفارة النمساوية في اسرائيل الى مقر وزارة الخارجية الاسرائيلية في القدس ،حيث سلمت اليه « مذكرة احتجاج شديدة اللهجة » على دعوة عرفات الى فيينا والاستقبال الذي لقيه هناك . وابلغ الدبلوماسي النمساوي بان اسرائيل « تشعر بالقلق العميق » . وقررت اسرائيل في الوقت نفسه استدعاء سفيرها من فيينا احتجاجا على استقبال كرايسكي لعرفات، واعتبرت ذلك خطوة معادية لاسرائيل من الشعب اليهودي .

وفي ١٩٧٩/٧/٨ عقد اطراف قمة فيينا الثلاثة عرفات كرايسكي وبرانت مؤتمرا صحفيا في العاصمة النمساوية في ختام محادثاتهم التي امتدت جلساتها لنحو١٢ ساعة . كما صدر بيان مشترك عنها .

في المؤتمر الصحفي قال كرايسكي ان المحادثات مع عرفات كانت « استطلاعية الى حد بعيد » لكنها « مفيدة جدا جدا . وعن احتمال حدوث تغيير في موقف منظمة التحرير ازاء « حق اسرائيل في الوجود » قال كرايسكي « ان نيات منظمة التحرير الفلسطينية ازاء هذه المسألة قد اسيء تفسيرها . وعلى اي حال فان التسليح المتاز لدى اسرائيل يفقد هذه النيات اي اساس واقعي » . وقال برانت بالنسبة للنقطة ــ نفسها انه خرج من محادثاته مع عرفات بالاستنتاج انه « يجب عدم الخلط بين حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والرغبة في تدمير دولة اسرائيل » . ورد برانت على الحملة الاسرائيلية قائلا : « لا يحق لأي شخص التشكيك في اخلاص أو اخلاص المستشار كرايسكي لاصدقائنا الاسرائيليين » .

وكان مما قال كرايسكي في المؤتمر الصحفي ايضا : « لقد كانت النمسا مختفية من الخارطة ، لكن النمساويين كانوا موجودين » ، وذلك في مقارنة واضحة الدلالة بين دولة النمسا ودولة فلسطين . كما قال ان « الرئيس عرفات هو المتحدث الشرعي الحقيقي باسم الفلسطينيين ،وان كل الفلسطينيين ملتزمون بمنظمة التحرير الفلسطينية ... يوجد هنا أمر واقع ، وانا اعتبر منظمة التحرير كما كانت الجزائر سابقا (أي قبل الاستقلال) .

اما البيان الثلاثي المشترك (٧/٨) فقد ذكر ان الزعماء الثلاثة « توصلوا الى اتفاق اجماعي حول نقاط مهمة عدة ... واظهروا أقصى درجة من القلق حيال بناء المستوطنات الاسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة ... وهي عقبة خطيرة في وجه السلام » .

واكد البيان « ان كل المشكلة الفلسطينية هو حجر الزاوية في حرج الشرق الأوسط ، وما لم تحل المشكلة الفلسطينية حلا عادلا ومرضيا فان السلام والحل الشامل في الشرق الاوسط لن يتحققا » .

وقال البيان ان عرفات اكد في المحادثات اهمية انشاء دولة فلسطينية ذات سيادة ، كما اكد على الدور البناء الذي يقوم به الرئيس كرايسكي والرئيس برانت داخل الدولية الاشتراكية وخارجها، من مساهمة لايجاد سلام عادل في الشرق الأوسط ، والاهتمام الذي تظهره الدولية الاشتراكية حيال القضية الفلسطينية ونزاع الشرق الأوسط .

واكد كرايسكي وبرانت من جانبهما ــ في البيان ــ « ضرورة التوصل الى حل شامل لمشكلة الشرق الأوسط يكون أساسه قرار مجلس الأمن ٢٤٢ للعام ١٩٦٧ و٣٣٨ للعام١٩٧٣، والى احقاق الحقوق الوطنية الفلسطينية وحق تقرير المصير كما هو مؤكد بين امور اخرى في بيان الدول التسع ، اعضاء المجموعة الاقتصادية الاوربية ، الخاص بالشرق الأوسط .

واختتم البيان مؤكدا ان «الرئيس برانت سيقدم تقريرا مفصلا عن هذه المحادثات الى الأممية الاشتراكية ، ويوحي باستمرار الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية » .

بعد صدور هذا البيان المشترك عن قمة فيينا اتسعت وازدادت حدةردالفعل الاسرائيلي ضدلقاء فيينا ، وانتقل من الحكومة المكرمة الاسرائيلة الى المعارضة . حيث قال شمعون بيرس زعيم حزب العمال المعارض الذي يتمتع بعضوية الدولية الاشتراكية ــ ان لقاءات فيينا تعطي عرفات مزيدا من التفوق فيما يستمر في اعماله الارهابية ، ونحن تعتبر ان هذا النفوذ لا يفيد السلام الاسرائيلي » .

كما أوضح انه لا خلافات بين حزبه وحكومة بيغن عندما يتعلق الأمر بمنظمة التحرير الفلسطينية . « ان حزبي كان ولا يزال معارضا لاي اتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية . ان مثل هذه الخطوة لا يمكن أن تؤدي الى شيء . لقد قلت ذلك لفيلي برانت الذي لم يبلغني عزمه على لقاء ياسر عرفات الا في اللحظة الاخيرة .

وبلغ رد الفعل الاسرائيلي ذروته بعقد جلسة خاصة للكنيست (٧/٩) اتفقت فيها الحكومة والمعارضة بأكثرية ٨٢ صوتا ضده وامتناع نائبين عن التصويت على قرار « يندد بشدة » بالدعوة والاستقبال الرسمي الذي اقامه كرايسكي لعرفات في النمسا . وقال القرار : « ان الكنيست يعتبر ان الهدف المعلن لعصابة القتلة التي يطلق عليها اسم منظمة التحرير الفلسطينية هو تدمير دولة اسرائيل . وان خطة عملها تقضي بقتل المدنيين اليهود من رجال ونساء واطفال » .

وذكرت اذاعة اسرائيل ان قرار الكنيست كان يتضمن ثغرة تنديد ببرانت . الا أن هذه الثغرة حذفت

بناء على طلب بيرس .

ولكن الهجوم الاشد من جانب اسرائيل على لقاء النمسا تمثل في بيان مناحم بيغن رئيس وزرائها أمام الكنيست . بالنسبة لبرانت قال : « اخشى الا تؤدي قمة فيينا سوى الى ركوع برانت مرة اخرى أمام قتال يقام لحرقة اخرى (لليهود) ويطلب السماح من اليهود كما فعل في وارسو » . وبالنسبة لكرايسكي قال : « لا أستطيع أن استخدم في وصفه سوى كلمات صدرت عن تيودور هيرتزيل قبل ٨٢ عاما لوصف يهودي خائن تجرأ على مهاجمة الصهيونية . ان كرايسكي قال عني انني يهودي من الشرق مع كل ما تتضمنه هذه العبارة من حقد ، وازدراء في المانيا ما قبل هتلر . عند اليهود الصهاينة ، اولاد أرض اسرائيل المتحررين من كل عقدة ، سنكمل طريقنا من دون توقف او تردد . سنقاوم وسنتجاوز امثال عرفات وجميع الذين يشبهونه » .

وحده ناموس غولدمان الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي الحالي قال في حديث للاذاعة الاسرائيلية تليفونيا من سويسرا (٧/٩) « ان خطوة كبيرة الى الامام قد تمت بفضل لقاء كرايسكي ـ عرفات ، وان كنا نجهل النتائج حتى الآن » .

وبطبيعة الحال فان ردود الفعل التالية ـ بخلاف رد الفعل الاسرائيلي ـ قد اثارت بدورها تكهنات وتفسيرات حول طبيعة « المبادرة الاوروبية » المنتظرة بعد قمة فيينا . وخاصة ردود الفعل التي صدرت ـ بالتأييد او المعارضة ـ عن أطراف دولية .

وقد اعتبر رد الفعل الايجابي الذي صدر عن الاتحاد السوفياتي ـ في مقال لصحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي (٧/١٢) مؤشرا الى أن موسكو كانت على علم مسبق ـ على الاقل ـ بقمة فيينا الثلاثية ، ان لم تكن مشاركة في الاعداد لمبادرة اوروبية . بل ذهب البعض الى حد القول بان قمة فيينا الثلاثية كانت وليدة اتفاق لقمة فيينا الثنائية التي سبقتها . اي ان لقاء عرفات ـ كرايسكي ـ برانت هو نتيجة اتفاق تم في قمة كارتر ـ برجينيف التي عقدت في فيينا أيضا قبل شهر (في ٦/١٨) والتي تم فيها التوقيع على المعاهدة الثانية للحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ـ ٢) .

وكان كل ما قالته صحيفة « برافدا » في مقالها الذي أشرنا اليه ـ ان اجتماع عرفات ـ كرايسكي ـ برانت « عادي ومفيد » . كما قالت « ان دول الشرق الأوسط ليست هي وحدها التي لا ترتاح الى اتفاقات كامب ديفيد ، بل ايضا الدوائر السياسية في العديد من الدول الغربية » .

وفي الاتجاه نفسه نشرت صحيفة « سرفيتسكايا روسيا » (أي روسيا السوفياتية) تعليقا قالت فيه ان ياسر عرفات « لقد لقي في فيينا الاحترام الذي يستحقه،وفي جو سياسي يتناسب مع القواعد الدولية المتعارف عليها » . وأشارت الى ان لقاء فيينا يظهر ان سياسة « كامب ديفيد » التي تهدف الى اخفاء الصيغة الشرعية على العدوان الاسرائيلي وتبرير التورط العسكري الاميركي في شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وتكليف مصر واسرائيل بدور الشرطي في هذا الجزء من العالم لا مستقبل لها » .

وانتهت الصحيفة السوفياتية الى ان لقاء عرفات وكرايسكي وبرانت « يفتح ثغرة في السلام على الطريقة الاميركية في الشرق الأوسط . ويدشن نزاعا حادا بين الواقعية والنزعة الى المغامرة ازاء مسألة الشرق الاوسط » .

أما على الجانب الاميركي من ردود الفعل فانه لا وجود لرد فعل رسمي من أي نوع . انما يمكن الملاحظة بوجه عام بأن لقاء فيينا الثلاثي لم يحظ باهتمام اعلامي يتناسب على الاقل مع الاهتمام الذي حظي به خارج الولايات المتحدة. وبشكل عام كانت معالجة الصحف الاميركية للحدث سلبية . وكانت اول افتتاحية ضد اللقاء تلك التي نشرتها صحيفة « انترناشيونال هيرالد تريبيون » (٧/١٠) والتي رددت الدعاوي الاسرائيلية ذاتها ضد منظمة التحرير الفلسطينية ، وتحدثت عن الارهاب والارهابيين .. الخ .

ثم قالت صحيفة « كريستيان ساينس مونيتور » (٧/١١) الاميركية ـ في تعليق لها على اللقاء ـ « ان اوروبا الغربية والاوروبيين الغربيين بدأوا في تأكيد قيامهم بدور أعظم أهمية بكثير من السابق، في عملية اقرار السلام في الشرق الأوسط . ذلك على الاقل هو أمل المعتدلين العرب الذين يرغبون في رؤية أوروبا الغربية توفر بديلا لاطاري عمل كامب ديفيد اللذين صاغهما الرئيس كارتر . وقد كشف دبلوماسي من اوروبا الغربية النقاب عن ان هناك اجتماعا متناميا في صفوف زملائه ،على انه اذا لم تستطع الولايات المتحدة تحقيق تقدم جوهري في المحادثات الخاصة بالحكم الذاتي الفلسطيني ، فمن الممكن ان يتقدم الأوروبيون ببديل في مرحلة ما » .

واختتمت « كريستيان ساينس مونيتور » تعليقها بقولها : « بلا ريب أن الولايات المتحدة لا يجب ان تصبح رهينة النفط العربي الى حد القيام بأعمال مجردة من المباديء . ولكنها كذلك يجب ان لا تصبح رهينة التصلب الاسرائيلي حول ماله للأمة بحاجات اسرائيل الامنية العتيقة بحيث لا تستطيع ان تضع سياسة خارجية خاصة بها » .

زادت صحيفة «نيويورك تايمز» الامر ايضاحا فيما يتعلق بما يمكن ان تكون عليه مبادرة اوروبية غربية من علاقة للولايات المتحدة حين قالت في مقال افتتاحي لها (٧/٢٤) :

« يقول المسؤولون الاميركيون انهم بعد ان ساروا في الطريق الذي يسيرون فيه حاليا ،فان الشيء الوحيد

الذي يمكن ان يفعلوه هو اختبار هذا الطريق ، فاذا لم تثبت صلاحيته يعاد النظر فيه، ولكن هذا الاسلوب يتجاهل الاحتمال القائم بان الأمور قد تصبح أشد سوءا . وفي الوقت الذي تكتشف فيه انك مضطر للعودة من طريق مظلم تسير فيه ، يكون السلام قد أصبح أصعب منالا من أي وقت مضى . فهل هناك من يمد العون للولايات المتحدة ويسهل لها العودة للسير على أسس سليمة ؟ » .

واختتمت « نيويورك تايمز » بقولها : « ينبغي على طرف ما ان يتقدم بمشروع سلام . يعده بمشاورة الولايات المتحدة والزعماء العرب ــ وربما كانت الدول الاوروبية هي المرشح الوحيد لهذا العمل » .

ولعل السؤال بعد هذا الاعتراف الاميركي ــ غير الرسمي ــ بفشل الطريق الذي قطعته واشنطن قبل ذلك . وبعد طلبه المساعدة الذي حصرته« نيويورك تايمز » . في اوروبا الغربية ــ يصبح السؤال : هل اثبتت الولايات المتحدة قدرتها على مراجعة موقفها من الطريق الذي سارت فيه،وهل هي بصدد مساعدة اوروبا الغربية على ان تساعدها للخروج من هذا المأزق ؟

استقالة يونغ

ينقلنا هذا السؤال الى وقائع أزمة اندرو يونغ ، فهي ترد ــ في المرحلة الراهنة على الاقل ــ على السؤال . لأنه ينصب مباشرة على طبيعة العلاقات الاميركية ــ العربية (بما فيها الفلسطينية) وطبيعة العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية (بما فيها الصهيونية العالمية وخاصة داخل الولايات المتحدة) .

لقد بدأت وقائع أزمة اندرو يونغ بنبأ صغير نشر في مجلة « نيوزويك » الأميركية (٨/١٣) يفيد ان سفير الولايات المتحدة لدى الامم المتحدة، التقى بممثل منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة زهدي الطرزي . وقد تم الاجتماع في منزل سفير الكويت في الامم المتحدة عبد الله بشارة ، الذي دعا السفير الاميركي لزيارته . وقد غادر السفير مكان الاجتماع بعد خمس عشرة دقيقة من وصوله . واحاط يونغ واشنطن علما بانه لم يتحدث في السياسة مع المراقب الفلسطيني .

وعلى الفور بدأت سلسلة الانفجارات الاعلامية المتتالية من حول هذه الدقائق الخمس عشرة التي جمعت بين يونغ والطرزي . أصدرت وزارة الخارجية الاميركية بيانا (٨/١٣) وصفت فيه الاجتماع بانه تم « بالصدفة » . وصدر هذا البيان اثر احتجاج رسمي اسرائيلي على لقاء يونغ ــ الطرزي الذي تم في ٢٦ تموز (يوليو) الماضي . وقالت الخارجية الاميركية انه فيما كان يونغ يزور بشارة « بحث مع السيد الطرزي في موضوع تأجيل التصويت على مشروع القرار الكديشي في مجلس الامن والذي كان متوقعا ان يتم في ٣١ تموز الماضي . ان اجراء المحادثات مع السيد الطرزي جاء بمبادرة شخصية من السفير يونغ ودون اي تكليف . وقد شرح السفير يونغ هذا الوضع ليهودا بلوم مندوب اسرائيل في الأمم المتحدة » .

وخلص بيان الخارجية الاميركية امام القول « ان هذا التطور لا يبدل شيئا في سياستنا حيال منظمة التحرير الفلسطينية . وقد ابلغنا ذلك الى الحكومة الاسرائيلية . واننا نأسف لما أعلناه امس باعتباره لم يكن صحيحا » (وتشير هذه الفقرة الى تصريح قاله الناطق باسم الخارجية الاميركية بأن يونغ والطرزي « لم يتطرقا الى مواضيع سياسية ») .

وفي رد فعل يكاد يتجاوز رد الفعل ازاء لقاء فيينا الثلاثي اعلنت اسرائيل (٨/١٤) ــ بلسان بيغال يارين نائب رئيس وزرائها ــ انه اذا اعترف بعض الأطراف الآخرين بمنظمة التحرير الفلسطينية شريكا في المفاوضات فان اسرائيل ستخرج من اللعبة ... وعلى كل طرف ان يفكر مليا في ما يريد . هل يريد التفاوض مع اسرائيل ام مع منظمة التحرير الفلسطينية ؟ » .

وفي الوقت نفسه أعلن ناطق باسم الخارجية الاسرائيلية ان موشي دايان وزير الخارجية بعث بتعليماته الى سفير اسرائيل لدى الولايات المتحدة، بتقديم اجتماع لدى وزير الخارجية الاميركي سايروس فانس والاعراب عن اسف اسرائيل العميق، ودهشتها لاجتماع يونغ والطرزي والتحدث اليه . واوضح المتحدث ان ذلك « يتعارض مع تعهدات متكررة وواضحة ــ شفهية وخطية ــ من الولايات المتحدة لأسرائيل بعدم اجراء أية محادثات مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ما لم تعترف المنظمة بحق اسرائيل في الوجود وتقبل قراري مجلس الامن ٢٤٢ ، ٣٣٨ .

في اليوم التالي مباشرة (٨/١٥) قدم اندرو يونغ استقالته من منصبه . رغم انه سبق ان تعرض لانتقادات في مواقف كثيرة بدا فيها ان « احرج » الادارة الاميركية والرئيس الاميركي .وكان في كل مرة يبقى في منصبه ويتمتع بدعم الرئيس كارتر واشادته بكفاءته وبالصداقة التي تربط بينهما .

وقالت وكالة « يونايتد برس » الاميركية ان يونغ قدم استقالته في اجواء مشابهة لتلك التي استقبل بها عندما استلم وظيفته ،اي وسط اجواء معادية بسبب افكاره ودفاعه عن رؤيته لكيفية تنفيذ السياسة الاميركية على النطاق العالمي .

وعقد يونغ مؤتمرا صحفيا في مقر البعثة الاميركية في الامم المتحدة (٨/١٦) اعلن فيه انه سيستقبل زهدي الطرزي ممثل منظمة التحرير الفلسطينية اذا

طلب منه ذلك بوصفه رئيسا لمجلس الامن للشهر الحالي (آب ـ اغسطس) . وقال يونغ ان للزعماء السود في الولايات المتحدة مصلحة ثابتة في تحقيق تسوية في الشرق الأوسط لكن ذلك يجب الا يعتبر في اية صورة عداء لليهود . « وقد يكون ذلك تأييدا للفلسطينيين بطريقة لم تكن موجودة في السابق ، وفي هذه الحال تقع على الطائفة اليهودية مسؤولية ايجاد طريقة تفهم أسباب ذلك دون ان تكون معادية للسود » .

وأكد يونغ مرات كثيرة في مؤتمره الصحفي انه لا يشعر بأي ندم ، كما انه ليس مستعدا لتقديم اية اعتذارات بسبب لقائه مع ممثل منظمة التحرير الفلسطينية .

وبطبيعة الحال فان حجة انتخابات الرئاسة واصوات اليهود ومؤيديهم وجدت طريقها سريعا الى تفسير ازاحة يونغ ارضاء لاسرائيل . خاصة وان شعبية كارتر بين الناخبين الاميركيين قد تردت الى ادنى مستوى ، كما تؤكد استطلاعات الرأي الأميركية . لكن يبقى الأساس في تفسير هذا الحدث هو حجم تأثير ارتباط المصالح الاميركية بالدولة اليهودية . ويأتي بعد ذلك نقل دور « اللوبي » الصهيوني داخل الولايات المتحدة .

وقد عقبت وكالة « تاس » السوفياتية الرسمية على « استقالة » يونغ بأنها جاءت « بضغط من اسرائيل » وان قبولها يعتبر اهانة للولايات المتحدة ، كما وصفتها بانها تشكل فضيحة سياسية . وقالت ان لقاء يونغ والطرزي انما هو « لقاء روتيني ... وان اتصالات من هذا النوع مسألة عادية في حياة الدبلوماسيين » .

اما الجزء الباقي من الازمة فقد حولته اجهزة الاعلام الاميركية والغربية عموما باقتدار الى مشكلة بين « السود » (زنوج اميركا الذين كان يمثلهم يونغ في ادارة كارتر باعتباره يحتل اعلى منصب يمثله زنجي في هذه الادارة) و « اليهود » (صهاينة الولايات المتحدة الذين يشكلون السند الرئيسي العالمي لاسرائيل في الخارج والذين يشكلون داخل الولايات المتحدة دولة فوق الدولة ، وليس مجرد دولة داخل الدولة) .

س . ك

قضايا عسكرية

حرب الاستنزاف
الاسرائيلية ـ الفلسطينية

ما زالت حرب الاستنزاف التي تشنها اسرائيل ضد الثورة الفلسطينية ، والقوى الوطنية اللبنانية ، مستمرة في جنوب لبنان بدون انقطاع تقريبا منذ ٢٣/٤/ ٧٩ ، اثر عملية « نهاريا » الفدائية . فالقصف المدفعي ، سواء من جانب قوات « سعد حداد » الانعزالية أو من جانب اسرائيل مباشرة ، مستمر بصورة شبه يومية لمدن وقرى الجنوب . والتحليق الجوي الاسرائيلي ، الذي يتخلله أحيانا قصف جوي ، مستمر هو الآخر يوميا تقريبا . والقصف البحري لقرى ومدن الجنوب اللبناني ، الذي تتخلله أو تصاحبه أحيانا اغارات « كوماندوس » بحري ، مستمر أيضا بواسطة الزوارق المسلحة الاسرائيلية (من طراز « ساعر » على الأرجح) .

وكانت أبرز العمليات الاسرائيلية خلال الفترة الأخيرة، الاغارة البرية التي قامت بها قوة من المشاة تقدر بنحو ٤٠ جنديا تسللت عند منتصف ليلة ٣/٨/٧٩ في منطقة « العرقوب » ، تحت غطاء قصف مدفعي عنيف تم من مواقع للمدفعية الاسرائيلية في « الرويسات » و « العباسية » وتلال « العرقوب » ، شاركت فيه مدفعية الميليشيات في « مرجعيون » وغيرها من المواقع . وهاجمت القوة الاسرائيلية المذكورة موقعا للقوات المشتركة اللبنانية في تلال « قليا ـ برغز » واشتبكت معه لمدة نصف ساعة ، وأسفرت المعركة عن استشهاد ٥ مقاتلين من القوات المشتركة واصابة بعض المهاجمين . كما هاجمت وحدة اسرائيلية أخرى في الليلة ذاتها موقعا اخر في تلال « كوكبا » خلال الليلة ذاتها ،

وانسحبت القوتان تحت غطاء القصف المدفعي العنيف ، الذي استمر حتى الرابعة والربع من فجر ٣/٨ ، وردت عليه القوات المشتركة بقصف للمستعمرات الاسرائيلية القريبة من الحدود

اللبنانية ، ولمواقع الميليشيات في « مرجعيون » و« القليعة » .

وفي ليلة ١٤ ــ ٨/١٥ أنزلت الزوارق المسلحة الاسرائيلية قوة من الكوماندوس البحريين الى الشاطىء اللبناني عند قرية « عدلون » ، جنوب « صيدا » ، وذلك بواسطة قوارب مطاطية ، حيث تسللت القوة إلى الطريق الساحلي العام وكمنت قرب مفترق « النصارية » ، ثم أطلقت قذائف الـ « انيرغا » على سيارتي جيب تابعتين لاحدى تنظيمات القوات المشتركة واصابتهما بأضرار مادية وبعض الجرحى من ركابهما .

وعلق الجنرال « ايتان » ، رئيس الاركان الاسرائيلي ، على العملية بأنها تدخل ضمن سياسة جديدة ، اعتمدتها اسرائيل ، « تقضي بتسديد ضربات وقائية الى المواقع الفلسطينية عوضا عن الأعمال الانتقامية التي تجري بعد هجمات محدودة » .

وفي ليلة ٨/١٦ تسللت قوة من المشاة الميكانيكية الاسرائيلية الى قرية « شقرا » اللبنانية ، التي تبعد نحو ٨ كلم عن الحدود في القطاع الأوسط بجنوب لبنان ، تحت غطاء قصف مدفعي ، وقامت بنسف منزلين لمواطنين لبنانيين ، يزعم انهما كانا يستخدمان كمقر قيادة للقوات المشتركة في القرية . وما زال مسلسل حرب « الاستنزاف » الاسرائيلية مستمرا ، في وجه الصمود وعمليات الثورة الفلسطينية المستمرة أيضا في قلب الأرض المحتلة في فلسطين .

□

قالت مصادر الاستخبارات الاميركية في « واشنطن » يوم ٧٩/٨/١٥ أن الاتحاد السوفياتي زود سوريا خلال تموز (يوليو) ٧٩ بما يراوح بين ٥٠ و ٦٠ دبابة من طراز « ت ــ ٧٢ » ، التي تعد أحدث دبابة ينتجها حاليا . وأكدت المصادر ذاتها أن الدبابات المذكورة ، التي وصلت بحرا الى ميناء اللاذقية،موجودة حاليا في قواعد في وسط سوريا بعيدا عن مناطق يمكن أن تشملها مواجهة محتملة مع اسرائيل . وأن هذه الدبابات متفوقة على الدبابات « م ــ ٦٠ » ، التي زودت بها الولايات المتحدة اسرائيل . كما أوضحت هذه المصادر أنه يستحيل معرفة ما إذا كانت هذه الدبابات تشكل بداية عملية هدفها تعزيز سلاح المدرعات السوري ، أم أنها مجرد شحنة منفردة .

هذا وكانت موسوعة جينز البريطانية الخاصة بنظم التسليح ، الصادرة مؤخرا عن عام ٧٩ ــ ١٩٨٠ ، قد ذكرت أن دبابات « ت ــ ٧٢ » قد دخلت الخدمة العملية في كل من الجيشين السوري والليبي . وهو نبأ رددته من قبل مصادر صحفية غربية، في أواخر تشرين الأول (اكتوبر) وأوائل تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٧٨ . ولذلك فان تقديرنا الخاص أن الدفعة الأخيرة (أي الـ ٥٠ ــ ٦٠ دبابة) من دبابات « ت ــ ٧٢ » ، التي تقول الاستخبارات الاميركية انها وصلت الى سوريا في الشهر الماضي ، ليست هي الدفعة الأولى التي سلمها اليها الاتحاد السوفييتي ، وانما هي دفعة ثانية أو ثالثة مكملة للدفعات التي دخلت الخدمة العملية في الجيش السوري في أواخر العام الماضي ، والتي تقدر في رأينا بنحو ١٠٠ دبابة (عدا الدفعة الأخيرة) . ذلك لأن عبارة دخول هذه الدبابات الخدمة العملية تعني تشكيل لواء مدرع على الأقل منها ، يكون قد أتم التدريب عليها ، أي استوعبها بالتعبير العسكري .

وتعد الدبابة « ت ــ ٧٢ » أحدث وأقوى دبابة عاملة في جيوش . العالم حاليا ، باستثناء الدبابة السوفياتية الجديدة التي ما زالت في طور الاختبارات الأخيرة والمسماة « ت ــ ٨٠ » ، وذلك كما توضح المواصفات الفنية الأولى التي عرفت عنها حتى الآن .

فهي تزن نحو ٤١ طنا ومزودة بمحرك تبلغ قوته ٧٠٠ حصان ، وفقا لما تقوله المصادر السوفياتية ، وتصل سرعتها القصوى على الطرق الى ١٠٠ كلم/ ساعة ، ويبلغ مدى عملها بدون تزود جديد بالوقود ٥٠٠ كلم . ويشك الخبراء الغربيون في أن تكون قوة المحرك ٧٠٠ حصان فقط ، لأن قوة دفع كهذه ضمن هكذا وزن لا تحقق سرعة ١٠٠ كلم/ ساعة . ولذلك فهم يرجحون أن تكون الدبابة « ت ــ ٧٢ » مزودة بمحرك آخر أكثر قوة ، وأن تراوح سرعتها القصوى بين ٦٠ و ٨٠ كلم/ ساعة . وعلى أي حال فانه من الواضح أن الـ « ت ــ ٧٢ » تتمتع ، مثلها مثل معظم الدبابات السوفييتية في الماضي والحاضر ،

بقدرات حركية كبيرة ، من حيث المستوى العملياتي (السرعة ، ومدى العمل ، وقدرات اجتياز الموانع المائية ، ومدى الحاجة إلى صيانة سريعة في وقت قصير الخ) أو المستوى التكتيكي (القدرة على التقدم في ساحة المعركة بسهولة ومرونة ، وقدرة المناورة القتالية ، وقدرة التسارع في السير ، وسرعة تحويل اتجاه الدبابة ، ومدى ثباتها وهي تطلق النار ، وقدرتها على اجتياز الخنادق والموانع الرأسية ، وقدرتها على السير فوق منحدرات الخ .) .

وتتميز أيضا بانخفاض هيكلها وبرجها بصفة عامة ، وزيادة درجة انحدار دروع هيكلها الأمامية ، الامر الذي يزيد من قوة احتمال دروعها ، ويقلل من نسبة اصابتها من مسافة بعيدة نسبيا .

وهي مسلحة بمدفع ذو جوف أملس ، من نوع مدفع الـ « ت ـ ٦٢ » ولكنه من عيار ١٢٥ مم بدلا من ١١٥ مم ، ويختلف عنه في وجود جزء محلزن من السبطانة، ليساعد على دوران القذيفة حول محورها لضمان زيادة دقة الاصابة ، وذلك قبل أن تندفع كالسهم من الجزء الثاني والأخير من السبطانة ، أي الجزء الأملس . وبذلك يكون مدفع الـ « ت ـ ٧٢ » قد جمع بين مزايا مدفع الـ « ت ـ ٦٢ » ، الذي ستجاريه مدافع الدبابات الغربية الجديدة التي ما زالت في طور الاختبار ، مثل الدبابة الالمانية « ليوبارد ـ ٢ » المسلحة بمدفع عيار ١٢٠ مم والدبابة الاميركية « اكس ام ـ ١ » .

ويستخدم مدفع الـ « ت ـ ٧٢ » ثلاثة أنواع مختلفة من القذائف . أولها القذائف الخارقة للدروع نابذة الكعب ذات الزعانف APFSDS، التي يقدر المدى الفعال لها في خرق الدروع نحو ٤٠٠٠ متر . وثانيها طراز جديد من القذائف شديدة الانفجار المضادة للدروع « HEAT » ، التي تطلق عادة في صليات ويقدر مداها الفعال ضد الدروع بنحو ٥٠٠٠ متر . وثالثها قذائف شديدة الانفجار العادية « HE » ، التي تستخدم ضد الأهداف غير المدرعة . والجدير بالذكر أن المدفع المذكور مزود بجهاز تلقيم آلي له خزاني تلقيم ، مما يسمح باستخدام نوعين من القذائف في توال سريع ، الأمر الذي يوفر مرونة وسرعة أكبر في التعامل مع الدبابات المعادية . كما أن جهاز التلقيم قادر على استيعاب ٢٨ قذيفة من جملة الـ ٤٠ قذيفة التي تحملها الدبابة ، وهذا يعني أن المدفع يستطيع اطلاق ٢٨ قذيفة في نحو ٣,٥ دقائق، بحكم أن معدل الرمي ٨ قذائف في الدقيقة ، وبذلك تستطيع الدبابة تكثيف قوة نيرانها الفعالة ضد عدة أهداف في وقت سريع للغاية . خاصة وأن المدفع مزود بجهاز أشعة ليزر لتقدير المدى وبجهاز تحكم بالنيران متطور ، وبنظام تثبيت آلي للنيران في مختلف الأوضاع ، الأمر الذي يتيح دقة رمي واصابة من الثبات أو الحركة ، وسرعة رد فعل على النيران المعادية بصورة محكمة ، ومن ثم قدرة أفضل على الاصابة من القذيفة الأولى من المسافات القصيرة التي يتم الاشتباك ضمنها عادة وهي تراوح بين ٣٠٠ و ٨٠٠ متر (كما أثبتت خبرة حرب ٧٣) . وبالاضافة الى ذلك فان المدفع ، مثله مثل بقية مدافع الدبابات الحديثة ، مزود بأجهزة رؤية وتصويب ليلية . ونتيجة لتجهيز الدبابة بجهاز التلقيم الآلي المذكور فقد انقص طاقم الدبابة الى ثلاثة أفراد فقط ، وهم القائد والرامي والسائق ، واختصر الفرد الرابع وهو الملقم بالذخيرة ، كما هو الحال في سائر الدبابات الأخرى (عدا الدبابة السويدية الحديثة سترف ١٠٣) ، وهذا يعني توفيرا في العناصر البشرية اللازمة للدبابات ، وانقاصا نسبيا له قيمته في خسائر أطقمها .

ولا شك في أن دخول الدبابة « ت ـ ٧٢ » الخدمة في الجيش السوري ، وغيره من الجيوش العربية التي تتزود بأسلحة سوفييتية مثل الجيش الليبي والعراقي ، يعتبر قفزة نوعية كبرى في سلاحها المدرع تقنيا وتكتيكيا ، ويوفر لها نقطة تفوق هامة على المدرعات الاسرائيلية ، شرط حسن استيعابها فنيا واستخدامها ضمن أطر تكتيكية وعملياتية ملائمة . ذلك لأنها متفوقة على دبابات « م ـ ٦٠ » الاميركية و « سنتوريون » البريطانية و « مركافا » الاسرائيلية التي يتألف منها سلاح المدرعات الاسرائيلي . سواء من حيث قوة النيران أو القدرة الحركية أو التدريع . ولا يجوز مقارنتها بالدبابة « م ـ ٦٠ » لأن الدبابة « ت ـ ٦٢ » ، الموجود منها عدة مئات لدى الجيش السوري والعراقي والليبي ، تفوق الدبابة المذكورة في كافة القدرات المذكورة . إذ أن الدبابة « م ـ ٦٠ » تبلغ سرعتها على الطرق ٤٨ كلم/ ساعة ، وهي مسلحة بمدفع عيار ١٠٥ مم مداه الفعال ضد الدروع بالقذائف الخارقة للدروع يبلغ نحو ١٨٠٠ متر ونحو ٣٠٠٠ متر بالقذائف شديدة الانفجار المضادة للدروع .

وليست مزودة بجهاز تلقيم آلي أو بمقدر مدى بأشعة « ليزر » ولا تتمتع دروعها بمزايا التدريع الموجودة في كل من الدبابتين « ت ــ ٦٢ » و « ت ــ ٧٢ » .

□

أعلنت وزارة الدفاع الامريكية في ٧٩/٧/٢٣ انها ستزود مصر بأسلحة بقيمة ١,٣ مليار دولار ، بموجب القرض العسكري المقرر نتيجة لاتفاقية « السلام » بينها وبين اسرائيل ، والذي ستحصل اسرائيل بمقتضاه على أسلحة بقيمة ٢٢٠٠ مليون دولار ، فضلا عن ٨٠٠ مليون دولار كمساعدة عسكرية لبناء قواعد جوية في النقب بدلا من القواعد الجوية التي ستخليها في سيناء .

وبموجب الوثائق التي قدمت إلى « الكونغرس » ، ستزود الولايات المتحدة مصر بنحو ٧٥٠ ناقلة جنود مدرعة (من طراز م ــ ١١٣ غالبا) و ١٢ بطارية صواريخ « هوك » المضادة (البطارية تتألف من ٦ منصات اطلاق ثلاثية ، أي ١٨ صاروخا معدا للاطلاق) ، وتقدر قيمة هذه الصفقة بـ ٦٩٤,٥ مليون دولار .

أما اسرائيل فستحصل على ٨٠٠ ناقلة جنود مدرعة و ٢٠٠ دبابة « م ــ ٦٠ » و ٢٠٠ مدفع عيار ١٥٥ مم (ذاتية الحركة على الأرجح ، قيمتها الاجمالية ٥٨٠ مليون دولار .

والملاحظة الأولى على هذه الصفقات العسكرية هو خلوها من الدبابات ومدافع الهاوتزر بالنسبة لمصر ، التي تركزت صفقتها أساسا على الصواريخ الدفاعية المضادة للطائرات ، من طراز « هوك » ، وفي الوقت ذاته فان عدد هذه البطاريات لا يشكل بديلا حقيقيا عن عدد بطاريات الصواريخ السوفياتية المضادة للطائرات الموجودة حاليا لدى قيادة الدفاع الجوي المصري ، الذي عرف بقوة وكثافة شبكة صواريخه خلال حربي الاستنزاف و ١٩٧٣ . والذي يقدر معهد الدراسات الاستراتيجية الدولي عدد قواذف صواريخه بنحو ٢٦٠ « سام ــ ٢ » و ٢٠٠ سام ــ ٣ و ٦٠ « سام ــ ٦ » ، فضلا عن عدد من صواريخ « كروتال » الفرنسية .

ومن جهة أخرى فان لدى الجيش المصري نحو ٢٧٠٠ ناقلة جنود مدرعة سوفييتية الصنع ، معظمها من أنواع أكثر قوة وتطورا من ناقلات الجنود المدرعة « م ــ ١١٣ » الامريكية التي لا يزيد عددها عن ٧٥٠ ناقلة . وهذا معناه انقاص تدريجي للقدرة الحركية ، أي الهجومية لتشكيلات المشاة المصرية ، نظرا للتزايد المتوقع في تعطل ناقلات الجنود السوفييتية الصنع بسبب نقص قطع الغيار ، وعدم حلول كميات مماثلة لها من الناقلات الامريكية . في حين أن لدى الجيش الاسرائيلي حاليا نحو ٤٥٠٠ ناقلة جنود مدرعة ، من بينها ٢٥٠٠ ناقلة من طراز « م ــ ١١٣ » ، و ١٠٠٠ ناقلة نصف مجنزرة « م ــ ٣ وايت » ، و ٢٠٠ عربة مشاة قتالية « م ــ ١١٤ » ، و ٨٠٠ ناقلة من غنائم الحروب العربية . وسوف يحصل الجيش المذكور على ٨٠٠ ناقلة جنود جديدة ، قد تحل محل الناقلات القديمة (من مخلفات الحرب العالمية الثانية) من طراز « م ــ ٣ وايت » ، أو تحل بدلا من الـ ٨٠٠ ناقلة السوفييتية الصنع اذا كانت الاخيرة تعاني من مشكلات نقص قطع الغيار . وفي أي الحالات ستحافظ المشاة الميكانيكية الاسرائيلية على قدرتها الهجومية الكبيرة المتوفرة لها حاليا ، إن لم تكن ستزيد منها نتيجة لحصولها على الناقلات الجديدة وتمكن أجهزة الصيانة الاسرائيلية من الاستمرار في توفير قطع الغيار والصيانة للناقلات « م ــ ٣ » والناقلات السوفييتية ، كما هو حادث بالنسبة لغنائم الدبابات ت ٥٥/٥٤ و « ت ــ ٦٢ » .

هذا وكانت وزارة الدفاع الامريكية قد أبلغت « الكونغرس » يوم ٧٩/٧/٦ نيتها سحب ٣٥ طائرة من طراز « ف ــ ٤ فانتوم » من السلاح الجوي الامريكي لبيعها لمصر ، بعد إجراء عمرة شاملة لها ، بمبلغ ٥٩٤ مليون دولار . وأوضحت أن الطائرات الـ ١٦ الأولى منها سترسل الى مصر في ٦ تشرين الأول (اكتوبر) المقبل كدفعة أولى تمول قيمتها من القرض العسكري المقرر لمصر وقدره مليار و ٥٠٠ مليون دولار ، المشار إليه سابقا .

وأشارت مصادر وزارة الدفاع المذكورة إلى أن مصر ستشتري من الولايات المتحدة ، في اطار القرض المشار اليه ، ٤٢٠ صاروخا جو ــ جو لطائرات الفانتوم » من طرازي « سبارو » و « سيدوندر » ، بالاضافة إلى ٥٠٠ صاروخ جو ــ أرض من طراز « مافريك » .

ويرى مسؤولو « البنتاغون » أن هذه الاسلحة

« ستوفر لمصر دفاعاً جوياً مقبولاً كحد أدنى ، وكذلك طاقة دعم أرضية مناسبة » .

وفي اليوم ذاته ، أي ٧٩/٧/٦ ، قال مسؤولو وزارة الخارجية الاميركية أن السعودية ترفض حالياً تغطيّة تكاليف صفقة الـ ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ » البالغة ٥٢٥ مليون دولار ، والتي كانت قد وافقت عليهـا لحسـاب مصر من قبـل ، وأن شركة « نورتروب » التي تصنع هذه الطائرات ، أبلغت أن تسعى الى ايجاد زبائن آخرين للصفقة المذكورة . وقالت مجلة « ايرانتـر ناشيونـال » البريطانيـة والمتخصصة في شؤون الطيران ، في عددها الصادر في أول آب (اغسطس) ٧٩ ، أن ١٦ من طياري السلاح الجوي المصري قد وصلوا الى الولايات المتحدة الاميركية في أول حزيران (يونيو) الماضي للتدرب على طائرات « ف ـ ٤ فانتوم » ، وانهم امضوا ٧ اسابيع في دراسة اللغـة الانجليزيـة والمصطلحات الخاصة بتدريبهم في احدى قواعـد السلاح الجوي الاميركي في « لاكلاند » ، وانهم سوف يبدأون التدريب العملي على استخدام الطائرات المذكورة في أوائل آب (اغسطس) الجاري في قاعدة « جورج كاليف » . وسوف يعود ١٢ طياراً منهم الى مصر من اجل قيادة طائراتهم فوق القاهرة خلال عرض عسكري سيقام هنـاك بمناسبـة ذكرى اكتوبر . أما الأربعة طيارين الآخرين فسيبقون في الولايات المتحدة ليتلقوا « دورة معلمين » تبدأ في ١٩٧٩/١٠/١٥ . وذكرت المجلة أيضاً أن ٤٠ من الفنيين التابعين للسـلاح الجـوي المصري ، قد انضموا الى الطيارين المصريين الذين يتدربون في الولايات المتحدة ، ليتدربوا على أعمال الصيانة التي سيقومون بها مستقبلاً لطائرات الفانتوم في مصر .

هذا وقد ذكرت مجلة « فلايت انتر ناشيونال » ، البريطانية المتخصصة في شؤون الطيران (تصدر أسبوعيـاً ، في عدد ٧٩/٧/٢٨ ، أن الـ ٤٢٠ صاروخاً جو ـ جو التـي ستشتريهـا مصر من الولايات المتحدة لتسليح طائرات « الفانتـوم » ، تضم ٧٠ صاروخاً من طراز « سبارو » (البعيد المدى) و ٣٥٠ صاروخاً من طراز « سايدوندر » ، بالاضافة الى ٥٠٠ صاروخ جو ـ جو من طراز « مافريك » . واستطردت قائلة أن الدفعة الأولى من هذه الطائرات ، البالغ عددها ١٢ طائرة ، سيقودها إلى مصر طيارون مصريون ابتداء من ٧٩/٩/١٥ .

والجديـر بالـذكر أن الصـاروخ جو ـ جو « سبارو » يبلغ طوله ٣,٦٥ أمتار ، وقطره ٢٠٠ مم ، ووزنه عند الاطلاق ٢٢٨ كلغ ، من ضمنها رأسه الحربي البالغ ٤٠ كلغ من المواد الشديدة الانفجار . وهو يوجه بطريق الرادار ، وتبلغ سرعته القصوى ٤ ماك ، ومداه الاقصى ٢٥ كلم ، وارتفاعه الاقصى ١٨,٣٠٠ متر .

أما الصاروخ « سايدوندو » فهو صاروخ جو ـ جو قصير المدى يبلغ طوله ٢,٨٥ متر ، وقطره ١٢٠ مم ، ووزنه عند الاطلاق ٨٤,٥ كلـغ ، ويوجـه بالاشعة تحت الحمراء ، ورأسه الحربي يزيد ١١,٥ كلغ ، وسرعته القصوى ٢,٥ ماك ، ومداه الاقصى ١٠ كلم ، وارتفاعه الاقصى ١٨,٣٠٠ متر .

والمعروف أن طائرات « الفانتوم » تسلح ، كحد أقصى ، بأربع صواريخ « سبارو » وأربع صواريخ « سايدوندر » في حالة استخدامها في مهام المطاردة والاعتراض الجوي .

أما الصاروخ « مافريك » فهو صاروخ موجه جو ـ أرض يبلغ طوله ٢,٤٩ متر ، وقطره ٣٠٠ مم ، ووزنه عند الاطلاق ٢١٠ كلغ ، ويوجه بطريقة الكهرو ـ بصرية بواسطة كاميرا تلفزيونية ، وهي طريقة يصعب التشويش عليها . ويبلغ وزن رأسه الحربي ١٣٥ كلغ حين يكون من النوع الشديد الانفجار التناثري ، أو ٥٩ كلغ حين يكون من نوع الحشوة الجوفاء المضادة للدروع . وتبلغ سرعته القصوى ٠,٨ ـ ٠,٩ ماك ، ومده الأقصى ٢٢,٥ كلم . وهو سلاح تكتيكي مخصص لمهمات الهجوم الأرضي ، وفعـال بشـكل خاص ضد المدرعـات ومرابض المدفعية والمواقع المحصنة ، وقد استخدمه الطيران الاسرائيلي خلال حرب ١٩٧٣ .

وهكذا يتضح لنا أن السلاح الجوي المصري سيحصل على ٣٥ طائرة « فانتوم » فقط من الولايات المتحدة ، ضمن سياسة تنويع السلاح واستبدال طائراته السوفييتية الصنع بطائرات غربية ، وأن الـ ١٢ طائرة التي ذكر من قبل أن مصر ستحصل عليها قبل احتفالات ٦ اكتوبر السنوية ، انما تشكل الدفعة الأولى . وعند اكتمال الصفقة (أي الـ ٣٥ طائرة) ، سيشكل سربان على الارجح ، من هذه الطائرات ، منها ١٦ طائرة ، وغالبا ما ستظـل الطائرات الثلاث المتبقية للتدريب أو لاحتياطاتـي السربين .

ويتضح لنا أيضا أن سعر الطائرة الواحدة (غير معروف ما اذا كانت تكلفة الصفقة ، وهي ٥٩٤ مليون دولار تشمل الصواريخ المذكورة أم لا) يبلغ نحو ١٦,٩٧ مليون دولار ، وهو سعر مرتفع للغاية بالنسبة لطائرة مستعملة ، وسبق لاسرائيل أن ادخلت مثيلاتها الأولى في العام ١٩٦٩ ، وتعد أقل تطورا من طائرات « الميغ ـ ٢٣ » التي حصلت عليها مصر منذ العام ١٩٧٤ ، والتي يقدر سعر الواحدة منها بنحو ٥ ملايين دولار . والجدير بالذكر أن اسرائيل لديها حاليا نحو ٢٥٠ طائرة « فانتوم » ، فضلا عن ٢٥ طائرة « ف ـ ١٥ » ، وسوف تحصل على ١٥ طائرة أخرى « ف ـ ١٥ » بالاضافة إلى ٧٥ طائرة « ف ـ ١٦ » في السنوات القليلة المقبلة (فضلا عن ما لديها من طائرات أخرى تضم ٢٧٥ طائرة « سكاي هوك » و ١٠٠ طائرة « كفير سي ـ ٢ ») . ومن ثم فان الـ ٣٥ طائرة « فانتوم » المباعة لمصر لن يكون لها أي تأثير فعال على ميزان القوى العسكري بينها وبين اسرائيل ، وهو ما تحرص عليه الولايات المتحدة في سياستها تجاه تسليح مصر ، رغم وجود معاهدة « السلام » المصرية ـ الاسرائيلية .

محمود عزمي

Palestine Affairs

No. 94 September, 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـا
٦٥٠ فلسـاً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولـة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سـائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهـماً في ج.ع.ل.